

"الرواية الفائزة بجائزة البوكر الروسية وجائزة كتاب العام بمعرض موسكو الدولي للكتاب"



# المنتصر

أولجا سلافنيكوف

ترجمة: سيد عمر

روايات مترجمة

مكتبة فريق\_متميزون.

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



## كلمة مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي. وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق متميزون-

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

## المنتحر

(الرواية الفائزة بجائزة البوكر الروسية وجائزة كتاب العام بمعرض موسكو الدولي  
للكتاب)

أولجا سلافنيكوففا

ترجمة: سيد عمر

# عن الرواية..

عليك أن تقتل نفسك لتتقذ العالم.

يمكنهم قتلك، لكنهم لن يفعلوا، سيضعون المسدس في يدك، وسيطالبونك بإطلاق النار على رأسك.. سترفض وستقاوم، ثم سيلعبون على انتمائك الوطني، ثم سيلجؤون لإغرائك بالمال، سيبتزونك، سيجعلون كل من تحبه يبتعد عنك، وفي النهاية، سيهددونك ويرسلوا إليك من سيقتلك.

منذ صغره، و«ماكسيم تي يرماكوف» يشعر بأن رأسه فارغ، وأن الهواء يمر منها ومع ذلك فقد كان طالباً نبيهاً في المدرسة، فبسبب فراغ رأسه، تمكن من التقاط أي أفكار طائرة في الهواء واستخدامها متى شاء. لكن فراغ رأسه ذلك بدأ يسبب المشاكل، وبدأت الدولة تنبته له. إن رأسه تسبب كوارث تهدد الجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



## المنتحر..

قاد "ماكسيم تي يرماكوف" سيارته الـ"تويوتا" ذات الأعوام الثلاثة إلى مكتبه بشعور معتاد بعدم وجود رأس على كتفيه. كان الرأس يدخن ويرى أمامه موقف السيارات المبتل، وتمثال رجل الثلج القابل للنفخ واقفاً وحوله بركة مياه سوداء من تلك التي يكثر وجودها في شهر يناير.

على الرغم من رؤيته لكل ذلك، فلم يشعر بأن لديه رأساً.

اعتاد "ماكسيم تي يرماكوف"، عندما كان طفلاً، أن يطرح سؤالاً غيبياً على والديه: "كيف يعرف الناس أنهم يفكرون برؤوسهم؟".

حاول أبوه - الذي كانت أذناه كبيرتين لدرجة توحى بأن لديهما قدرة سرية على الطيران - شرح فصّي الدماغ له. أمّا أمه القالقة، فكانت تتحسس جبهة ابنها الدافئة بحثاً عن مرض ما في ذلك المكان الذي تهيم فيه الأفكار تماماً مثل رواد الفضاء في المناطق منعمة الجاذبية. كان أعظم لغز على الإطلاق بالنسبة إلى "ماكسيم تي يرماكوف" الصغير هو فكرة أن الإنسان يحمل هويته داخل رأسه، وفوق ذراعيه وساقيه وكل شيء آخر. لم يحب الألعاب التي تتطلب الحركة، لأنه كان يخاف من ذلك الفراغ الغريب الذي شعر به كلما اصطدمت الرياح بالمنطقة بين عنق "التيشيرت" الذي يرتديه وقبعته الـ"دينيم". خاف من أن يفتحم غصن ما ذلك الفراغ فوق رقبته، أو أن تطير من خلاله خنفساء برونزية.

لم يتذكر من معلمته في روضة الأطفال سوى يديها الباردتين وفمها الصغير المهذب. اعتادت تلك المعلمة قياس وزن الأطفال شهرياً. كانت تخبر أبويه أن ابنهما - على الرغم من أن نموه يبدو طبيعياً - أقل نحو أربعة كيلو جرامات عن الوزن الطبيعي لمن هم في سنه. صحيح أن أمه لم تفهم سبب ما يحدث له، إلا أنها قامت بحشو "ماكسيم تي يرماكوف" الصغير بخلاطات من الصيدلية ووجبات بها نسب عالية من السعرات الحرارية. نتيجة لذلك، أصبح "ماكسيم تي يرماكوف" الكسول والمُجبر على تناول الطعام شاباً ممتلئاً لديه خدّان كبيران وورديان ولغد له ملمس الكريمة الناعمة. كان كل من يراه يدرك سريعاً أن المنتجات الغذائية عالية الجودة فقط هي التي دخلت في تكوين ذلك الجسد. بعد أن وصل وزن الشاب إلى مائة كيلو جرام، لم تعد الأربعة كيلو جرامات الناقصة تمثل مشكلة. حتى مع ذلك، ظل الحامل الثقيل للرأس الخفيف واعياً طوال الوقت بانعدام الوزن فوق كتفيه.

على الرغم من خفة رأسه، التي لم يدرك من البداية أنها صفة شخصية خاصة به وحده، كانت درجات "ماكسيم تي يرماكوف" في المدرسة والجامعة تتنوع ما بين الامتياز والجيد جداً. لكنه مع ذلك لم يفهم ما كان يقصده معلموه حين كانوا يقولون له أن "يُدخل معلومة ما في رأسه". هربت المعلومات التي تلقاها من شعر "بوشكين" وحتى تقنيات تغيير العلامة التجارية للمنتجات - الـ"rebranding" - من جمجمته، وأصبحت عناصر حرة في العالم من حوله. قدّم العالم نفسه

لـ"ماكسيم" باعتباره بيئة معلوماتية مرنة. جاءت المعرفة وكأنها نحلة تجمع له رحيقاً مغذياً جمعه من مناطق مجهولة متعددة. في بعض الأحيان، بدا لـ"ماكسيم تي يرماكوف" أنه بإمكانه اكتساب المعلومات دون الاستعانة بالكتب والإنترنت؛ بل عن طريق امتصاصها من الهواء.

على أي حال، لم تكن تلك الصفات الشخصية كافية لجعل "ماكسيم تي يرماكوف" عبقرياً أو خبيراً في الحياة. حين كان طالباً، حصل على عمل مثلما فعل الجميع، وانتهى به الحال للعمل في مؤسسة تجارية تروج لمنتجات غذائية عالمية. تولى لفترة قصيرة مسؤولية العمل على ماكينة قهوة زعم الجميع بأنها تحتوي على عبير قهوة ساحر ينتشر في الهواء على هيئة أشرطة حريرية ذات لون رمادي يميل للزرقة. على الرغم من ذلك، فقد تمحورت حياة "ماكسيم تي يرماكوف" بالكامل حول الشوكولاتة. قوالب شوكولاتة، وألواح الشوكولاتة، والشوكولاتة المحشوة بالكريمة، ونصف دسنة من أنواع مختلفة من حلوى الشوكولاتة.. شوكولاتة بيضاء، وشوكولاتة محشوة بالعسل. تسعى جميعاً إلى نيل رضا المستهلك، تماماً مثلما تتطلب الحرب أعمالاً بطولية. يتكوّن المنتج من القليل من خليط حلو وقوي من الطين بالصابون؛ وهو خليط كان يُنتج في مصنع بمكان ما بالقرب من مدينة "ريازان" الروسية.

كانت الدعابات التي ربطت شخص "ماكسيم تي يرماكوف" بذلك الشيء الذي يبده في صنعه لا أساس لها، لأن "ماكسيم تي يرماكوف" لم يأكل الشوكولاتة التي يصنعها.

على أي حال، جعله مظهره لكونه رجلاً سميناً خيراً ممثلاً لمنتجه؛ بخديه المتوردين الممتلئين. كان عندما يتصبب رأسه عرفاً، يبدو وكأنه يصنع قوس قزح الخاص به، والذي ينعكس في المكان حوله ويتأثر بتحركات "ماكسيم تي يرماكوف" وبشرته. كما ذكرنا سابقاً، فإن البهجة المزعومة التي تنتشرها تلك الشوكولاتة كانت معنوية بالكامل في طبيعتها. كان "ماكسيم تي يرماكوف" يعرف الكثير عن الأشياء المعنوية. وعن طريق الجمع بين الصور بالنسب الصحيحة، تمكّن من خلق التصوّر البصري لنكهة لم تكن موجودة من قبل. تزايدت المبيعات. حتى المدير التنفيذي "في في كرابينوف"، والمعروف باسم "Crap" "كراب" أو "قذارة"، اعترف مُجبراً بأن ذلك الشخص، رجل الشوكولاتة الشاب، لديه رأس جيد فوق كتفيه. كان «كراب» وحشاً عجوزاً لا يتوقف وزنه عن الازدياد وله شعر رمادي غير حليق حولته جهود مصممي قصات الشعر إلى شيء أقرب إلى لفائف من الأسلاك الشائكة.

الشباب يعني الطموح.

استغرق "ماكسيم تي يرماكوف" بعض الوقت كي يتقبّل مصيره. كان عضواً في الجيش العالمي المكون من ملايين الموظفين. نقطة وحيدة وصغيرة ذابت وسط الحشود خلال ساعات النضال للتغلب على ازدحامات موسكو المرورية، والتي تشبه تكتلات الذباب على ورق لاصق. في أثناء ذلك، وبداخل رأسه الخفيف بنقصه

الواضح لكل الحدود الفيزيائية، أخذت حقيقة واضحة تتشكل بالتدرج؛ لم تكن الأشياء سوداء، بل على العكس، كانت الأشياء تدعو إلى التفاؤل. لأنه في تلك العصور الحديثة، حلت حقوق الفرد العادي محل حقوق الإنسان التي ظلت المنظمات الدولية المهمة تدافع عنها. لخص "ماكسيم تي يرماكوف" المعنى الأساسي للحياة - والذي ينشأ من مصادر عدة مختلفة - في مفهوم المعضلة الروسية الذي طرحه "دوستويفسكي" في مقولته: "دع العالم يذهب إلى الجحيم.. لكن يجب دائماً أن أشرب كوب الشاي". وقد تم تأكيد تلك المقولة في أيامنا هذه لصالح كوب الشاي. اختيار الشاي كان بمنزلة اختيار الحرية - وهو ما فعله بطلنا، حيث ركز كل جهوده للحصول على بعض الأمتار من المساحة الخالية داخل حديقة "موسكو" المطلة على الطريق الدائري. أوشك مرتين على التعرض لسرقة مبلغ كبير منه، وهو ما أضاف لمعة أخيرة لشخصيته. أصبح "ماكسيم تي يرماكوف" الآن جاهزاً كلياً للحصول على حريته، وهو ما ميزه عن ملايين المواطنين الآخرين الذين كانوا غير مستعدين تماماً للحرية كما جاء في العديد من قنوات التلفزيون؛ وكانوا في الواقع غير مناسبين لأي شيء على الإطلاق.

على أي حال، وجد نفسه غير جاهز بالكامل للأحداث الغريبة والمفاجئة المتعاقبة التي بدأت لحظة انطلاق جهاز الإنذار بسيارته الـ"تويوتا" وانسياب سائل ما حوله. فجأة اهتز تليفونه في جيبه وارتفع صوته بالرنين.

قال صوت صغير من التليفون:

- "ماكس"! لماذا تأخرت هكذا؟

كان ذلك صوت "لوسي" الصغيرة سكرتيرة مديره المباشرة، أكملت قائلة:

- يريد "فاديم فاديميتش" رؤيتك لأمر عاجل! نبحت عنك في كل مكان!

تمتم "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً وهو يسرع خطواته عبر أمطار الشتاء التي لا تنقطع والتي تهطل على ملابسه المصنوعة من الكشمير الجيد:

- حسناً، أنا في طريقي، سأضع معطفي فقط في مكتبي.

صاحت "لوسي" الصغيرة قائلة:

- لا، لا، لا! اتجه إلى الطابق السابع مباشرة!

قطع "ماكسيم تي يرماكوف" الاتصال بها في الحال حين جاءه اتصال آخر، فأغلق المكالمة الأولى ورد على المتصل:

- "ماكسيم تيرينتيفيتش"؟ يريدك "فاديم فاديميتش" أن تحضر إلى مكتبه في الحال.

هذه المرة أتاه صوت "ليدا" الكبيرة، سكرتيرة "كراب"، تتحدث بصوت أجش وكأنَّ حرارتها ترتفع بسرعة شديدة.

بدأ القلق يتمكّن من "ماكسيم تي يرماكوف". لكن ذلك الشعور بالقلق كان في الواقع مريحاً؛ كوّن فكرة مختصرة ووقحة بعض الشيء بأن كل ذلك الصخب قد يكون فرصة لجني بعض المال؛ طالما أن الجميع يريد به هذا الشكل العاجل.

انتابته وهو يهرول فوق السجاد بالطابق السابع بعض الرؤى التي تمثلت في مخيلته على شكل حياة من المكعبات الأنيقة؛ تخيل رُزماً مكونة من عشرة آلاف دولار ملفوفة بغلاف البنك.

في المكتب الخارجي، نهضت "ليدا" الكبيرة بطولها الفارع عند دخوله وحملت فيه كأنها لم تره من قبل. كان وجهها شاحباً، وشفاتها المحقونتان بالسيليكون حديثاً جعلتاها تبدو وكأنها سمكة سلمون. أخذت معطف "يرماكوف" الرطب من فوق كتفيه ودفعته إلى داخل المكتب قبل أن يلتقط أنفاسه.

جلس زائران أمام مدير الشركة الذي جلس بدوره في كرسية المهيب. ظهرت الصدمة واضحة على مدير الشركة. انعكست صورة الجميع على زجاج المكتب فبدت كجزر مظلمة، بجانب منفضة السجائر العريضة الفارغة التي تلمع بينهم مثل الدائرة السميكة على سطح الماء.

صاح "كراب" بصوت مدير مدرسة مرح وهو شيء غريب على شخصيته:

- أخيراً! عشرون دقيقة تأخير! ها أنت ذا. زميلنا الشاب.

التفت المدير إلى زائريه مبتسماً ابتسامة دافئة.

قال "ماكسيم تي يرماكوف":

- صباح الخير.

بينما فكر بينه وبين نفسه قائلاً: "خمسون ألفاً، على الأقل".

تساءل "كراب" وهو يهم بالنهوض:

- هل يمكنني الذهاب الآن؟

- نعم، يمكنك الانصراف.

قالها أحد الزائرين. لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من معرفة أيهما الذي تحدث.

تصرّف "كراب" - الذي كان ينتظر بقلق ويأس اللحظة التي سيتمكن فيها من الفرار من مكتبه الخاص - على غير طبيعته تماماً وهو يهرول في اتجاه الباب، حيث ألقى على "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة وداع خاطفة بعينه الباهتتين المعدنيتين العجوزين. حينها فقط التفت الزائران تجاه الشخص الذي أتيا لرؤيته. كان وجههما شاحبين تماماً وجبهتهما بارزتين.. كانت ملامح الشخص الجالس جهة اليسار غير واضحة أو مشوشة، بخصلات شعره الجافة على قمة رأسه؛ والثاني أو - بالحكم من خلال التيار الخفي الساري بينهما - الأول وهو الشخص الأهم، يشبه جنيناً بشرياً لم يولد لكنه نما ونضج بطريقة أخرى مبهمة. بدت البشرة الرقيقة للرأس مفرطة الكبر الصلحاء شبه شفافة، ومع ذلك كان مستحيلاً رؤية أي شيء بداخلها. بدت عروقه وكأنها نيران اشتعلت في التجعيدات البنفسجية أسفل جفنيه، أمّا حاجباه فكانا من دون أي شعر.

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يسترخي على كرسيه قائلاً لنفسه: "يا لهما من شخصين غريبين قبيحين".

قال "الجنين" بنظرة ثابتة في نقطة ما بين كتفي "ماكسيم تي يرماكوف":

- صباح الخير "ماكسيم تيرينتيفيتش"، من المرجح أنك أدركت أننا نمثل الحكومة. أخرج الاثنان بطاقتيهما بحركة متزامنة - لم تكن البطاقتان بالشكل المتعارف عليه، لكن كانتا كبيرتين ومربعتين، وتشبهان شكل ألواح الشوكولاتة التي يصنعها منافسوه. لمع بداخل كل بطاقة ختم الدولة الذهبي اللامع، بحروفه الذهبية المصمتة والتي تقول: "الاتحاد الفيدرالي الروسي، لجنة الدولة الخاصة للتنبؤ الاجتماعي". على الرغم من غرابة شكل المستند الذي قدماه إليه، فقد أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أنها بطاقات أصلية، وأن هذين الرجلين جادان للغاية. إنها أكثر جدية من كل الشخصيات المهمة التي رآها من قبل مجتمعين. فجأة تحولت حرارة ترقبه المرح للنقود من الدفء إلى برودة الثلج. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" بوضوح بعض الشيء وهو يضم أصابعه معاً فوق معدته: "مليون، مليون دولار".

قال "الجنين" بعفوية وهو يدخل بطاقته في جيب من جيوبه التي بدت بلا أزرار:

- الاسم الفعلي لقسمنا مختلف إلى حد ما.

ثم تابع:

- والآن، اسمح لي بأن أسألك يا "ماكسيم تي يرماكوف"، هل رأسك سليم؟

تشكل شيء يشبه الإعصار الصغير في رأس "ماكسيم تي يرماكوف" الغائب. فكر "ماكسيم تي يرماكوف": "أشعر بالألم بين أذني. هل شعر الهنود الحمر هكذا أيضاً؟". وقال بصوت عالٍ:

- حسناً، في الواقع، إنه رأسي، وأي شيء يحدث له يخصني أنا وحدي.

نظر عضوا اللجنة الغربيان إلى بعضهما نظرة خاطفة، وفكر "ماكسيم تي يرماكوف": "وكأنهما جاءا مباشرة من عام 1937".

شعر بالاستمتاع إذ إنه في تلك اللعبة القديمة كان يعرف كل شيء سابقاً، وكان يعرف سابقاً أنه على صواب.

قال "فيتوس" - واسمعه سيعني "الجنين" - بهدوء وهو يضع ساقاً فوق الأخرى ليظهر حذاءً مطلياً ببساطة كأنه يرتدي الحذاء المطاطي "الجرموق":

- إن رأسك تسبب في اضطراب بسيط، صغير للغاية في حقل الجاذبية، وهو ما ساعدنا على العثور عليك بسهولة.

وضع "المشوش" أمامه مظفاة السجائر الفارغة وقال:

- دخن إذا أحببت، نعرف أنك تدخن سجائر "بارلمنت". إن التدخين ممنوع هنا، لكن يمكنك التدخين معنا.

شعر "ماكسيم تي يрмаكوف" بالاستياء وأخرج علبة سجائره الـ"بارلمنت"، والتي بدت له حينها كالقمامة وأنها لا طعم لها. شعر حينها بالفعل برغبة شديدة في التدخين. كالعادة، ملأ دخان السيجارة رأسه حيث أدارها وجسدها وتدفق الدخان داخلها بشعور ممتع.

سأل "ماكسيم تي يрмаكوف" في حذر، محاولاً أن يعرف أذكى طريقة لمساومة هذين الاثنين، اللذين بدأ مزايدهما بمناوراتهما الخاصة بأمن الدولة المفنكرة لأي لمسة فنية:

- ولماذا أنتم مهتمون بي؟

أعلن "الجنين" بوجه متغضن:

- لن أحاول أن أخفي حقيقة اهتمامنا الشديد بك، باختصار، إن قسمنا يتعامل مع علاقات السبب والتأثير. لن أخوض في النظرية وطريقة عملنا، خاصة بما أنه ليس لدي الحق في إخبارك بكل شيء. يمكنني فقط إخبارك بأن تلك العلاقات هي بنيات مادية بالكامل، يمكن للإنسان أن يطلق عليها كائنات حية. على سبيل المثال، أشار بحثنا إلى أن التضحيات البشرية في الطوائف الوثنية لم تكن محض خرافات، بل كانت أفعالاً منطقية.

وتابع:

- بين الحين والآخر، تدخل علاقات السبب والتأثير في حالة غيبوبة، حينها يظهر الأشخاص الذين نطلق عليهم "الأشياء الرئيسية". الغريب في الأمر كما هو واضح أن مستقبل الكثير من الأحداث يتوقف عليهم. أنت يا "ماكسيم تيرينتيفيتش" واحد من هذه الأشياء، ونرجو أن تعذرنا لقول ذلك.

بينما كان "الجنين" يبصق كل هذا الهراء الغريب، فتح "ماكسيم تي يрмаكوف" فمه - كأنما كان منوّمًا مغناطيسيًا - وهو ينظر إلى أصابع "الجنين" وهو يطرق طرفات خفيفة على المكتب في أثناء حديثه. بدت أصابعه كأنها مصنوعة من الزجاج، وخاتم الزواج الذهبي في إصبعه المتقوس يتلألأ في ضوء النهار الكئيب مما جعله يبدو مصنوعًا من الحديد. بطبيعة الحال، لم يصدق "ماكسيم تي يрмаكوف" ما سمعه للتو، لكن فوق كل شيء، كان بإمكانه الشعور بأن خصائص الفراغ المحيط به تتغير. فكَر بينه وبين نفسه: "أتساءل أي مرشح رئاسي سيكون هو الشوكولاتة الخاصة به الآن؟".

بدأ قلبه يعلو ويهبط كشيء صغير في وضع الحركة، حيث أثاره صوت خطوات ثقيلة.

قال بنوع من اللامبالاة:

- إذا، هل تريدان أن تعرضا عليّ عملاً؟

تبادل ممثلًا لجنة الدولة نظرة خاطفة أخرى أسفل جبهتيهما البارزتين، كأنهما وزعا على بعضهما بعضًا أوراق الكوتشينة وفي انتظار الآخر لكي يبدأ اللعب.

قال "الجنين" بصوت كئيب:

- يمكنك أن تقول ذلك. عليك أن تنتحر بإطلاق النار على رأسك.

ابتسم "ماكسيم تي يرماكوف" بتهذيب. انتابته قشعريرة مرت للأسفل ثم للأعلى مجددًا، كأنما كان يستخدمه أحدهم كصفارة من القصدير ليعزف لحنًا شاذًا. ألقى بسيجارته في المطفأة بقوة مما جعلها تصدر هسيسًا وانبعث خطأً من الدخان مباشرة إلى وجه "المشوش" الذي ضيق فتحتي أنفه الرفيع بحساسية.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" في غضب:

- وإذا رفضت، هل ستقتلونني بأنفسكم؟

أجاب "المشوش" هذه المرة بنبرة "الجنين" نفسها ولكن بصوت مختلف:

- لا. للأسف لن نفعل ذلك. لا بد أن يكون الأمر بإرادتك وبيدك. لو أننا قمنا بالأمر بأنفسنا، فلن نفشل في تحقيق النتيجة المنشودة وحسب، بل سنحرم أنفسنا من فرصة لا غنى عنها أيضًا.

يا لها من راحة. بدا الثلج السميك، الذي بدأ بالنزول خارج النافذة، فجأة بالنسبة إلى "ماكسيم تي يرماكوف" أكثر بياضًا وبهجة من أي ثلوج رآها في حياته بأكملها. كان الثلج يتساقط بزواوية، ويتسارع أحيانًا ليصبح أكثر كثافة مما يحجب الرؤية، وأحيانًا أخرى يعلق في الهواء حيث يتطاير للخلف والأمام حول أبراج المكاتب الباهتة، التي بدت كمناشف رطبة مكرمشة. سأل "ماكسيم تي يرماكوف"، وهو لا يزال يشعر بالذهول وغارقًا في الفرح كأنه غطس في حوض استحمام مليء بالماء البارد:

ولماذا تظنون بأنني يجب أن أطلق الرصاص على نفسي؟

أجاب "الجنين" بابتسامة متعالية:

- إن السبب في غاية الأهمية يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"، لو أنك رفضت أن تضحي - اسمح لي أن أسمى الأشياء بمسمياتها الصحيحة - فإن علاقات السبب والتأثير ستتطور في اتجاه غير مرغوب فيه على الإطلاق. يمكنك أن ترى البداية من الآن؛ "تسونامي" والتغير المناخي. سيكون من الصعب عليّ أن أخبرك بكل التوابع. لكن في المستقبل القريب، ستؤثر تلك التوابع في الكثير من الناس. من بين جميع الاحتمالات الكثيرة جدًّا، سندرك فقط الحوادث ذات التأثيرات الأكثر كارثية. خذ سكرتيرة رئيسك، "لودميلا فيكتوروفا تشيبوتاريوفا" مثلاً. إن ابنها الصغير مريض؛ لديه عيب خلقي في القلب؛ سيموت. ستتهار المراكز التجارية وقاعات السينما في "موسكو" و"سانت بطرسبرج" وسيموت الناس بالآلاف. ستقع حادثة ضخمة في أحد خطوط البترول. ستتدلع حرب جديدة في منطقة "القوقاز". بإمكاننا تُوّقع هجمة إرهابية كبيرة في مركز إقليمي كبير في "سيبيريا"، بعد ذلك ستحدث أزمة اقتصادية عالمية.

صرخ "ماكسيم تي يرماكوف" مقاطعًا سرد رجل الدولة الممل للكوارث قائلاً:

- انتظر، انتظر! هجمات إرهابية، وحوادث.. تلك الأشياء جزء من عملكم، أليس كذلك؟ لقد أعطيتني نظرة عامة مثيرة للاهتمام عن سبب رغبتكم فيما يمكننا أن نطلق عليه "تضحيتي". الآن، أريدك أن تشرح لي، لماذا قد أرغب في قتل نفسي؟ قال "الجنين" ببرود وهو يلف نفسه أكثر بالمعطف الواسع المجعد الذي يغطي جسده بالكامل وحتى حذائه المطاطي:  
- قل لنا مطالبك.

في تلك اللحظة، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالحاجة إلى الضحك مجددًا. شعر بذلك الشعور المميز بأنه دخل في أجواء فيلم تدور قصته عن عام 1937، فيلم به مكافأة كبيرة تُمنح عند توقيع عقد التمثيل به، وليس ككل تلك الأفلام عن الثوريين الحماسيين الذين يصرخون في نهاية الفيلم قائلين: "أنا بريء أمام الشعب والحزب!" فكر "ماكسيم تي يرماكوف": "لو أنهم يريدونني فإن ذلك سيكلفهم". إنه متأكد من هذا تمامًا، ثم أشعل ولاعته أمام السيارة المتدلّية من فمه وقال:

- عشرة ملايين دولار يا سادة.

قال "المشوش" بسرعة بصوت رتيب:

- موافقون، عشرة ملايين. هل ستكتب وصيتك؟

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" في مفاجأة:

- أي وصية؟ لماذا؟ بإمكانني إعطاؤكما رقم حسابي البنكي، لكن الدفع نقدًا سيكون أفضل.

قال "المشوش" مبتسمًا، بدا لحظتها وكأنه محاسب يعمل في الزراعة:

- لسوء الحظ يا "ماكسيم تي يرماكوف" لا تسير الأمور بهذه الطريقة. سنكون صريحين معك؛ إن العلاقات التي نتعامل معها، في حالة حرجة للغاية في الوقت الحالي، ولا يجب علينا إفسادها. يجب على كل سبب أن يكون له تأثير وهكذا، بمجرد أن تقتل نفسك سيحصل وراثتك على المال. لكن بإمكانك خداعنا، تأخذ ملايينك ثم ترفض إطلاق الرصاص على نفسك. أو تطلب مقدمًا، وتتفقه بأكملها، وتدمر بعض سيارات "مرسيدس" وتقرر أنك تريد المزيد. ستصبح الدولة بأكملها تحت رحمتك. لا يمكننا السماح بحدوث ذلك، لذا من الأفضل الآن. أقول لك بمنتهى الصراحة: لن تستلم "كوبيك" واحدًا. لذا أعط تعليماتك لأقرب أقربائك ليحصلوا على المال.

بعد أن قال ذلك، دفع بورقة بيضاء فارغة تجاه "ماكسيم تي يرماكوف" وقلم حبر رخيص برأس كروي - والذي بدا وكأنه مُصنغ كحلوى "التوفي" - فوق الورقة. حدّق "ماكسيم تي يرماكوف" في الورقة البيضاء دون أي تعبير على وجهه. حاول تخيل أبويه وقد أصبحا غنيين فجأة. متى كانت آخر مرة اتصلا به؟ في ليلة رأس السنة؟ لم يفعل أبوه أي شيء سوى التظاهر بالمرح والتباهي، وتربية الأرانب ذات

المؤخرات السمينة في المنزل الريفي، والذهاب إلى اجتماعات الحزب الشيوعي ومعه نصف زجاجة "فودكا" في جيب معطفه.

كانت أمه تعطي دروسًا موسيقية، وفي المساء كانت تعزف لنفسها على البيانو القديم، وكأنها تغسل الملابس، حيث ترفع كتفيها وتطرق على مفاتيح البيانو طرقات معقدة وغامضة كأنها لوح غسيل. سيكون لديهما حينها حياة وينتقلان إلى موسكو. لكن إن لم يعط المال لأبويه، فلمن إدا؟ حسناً، لن تكون "مارينكا"، هذا مؤكد. أي نوع من أقرب أقربائه تكونه هي؟ كل ما كان لديها هو ساقاها الطويلتان: ساقان طويلتان وطموحات مسرفة. لم يكن مستقبل "ماكسيم تي يرماكوف" مشرقاً بما يكفي بالنسبة إليها. النساء الأخريات؟ إن هذا سخيف. كل ما تركنه خلفهن في الصباح كان فراغاً صغيراً خانقاً في وسادته وفجوة صغيرة في ميزانيتها. انتابه شعور بالاشمئزاز تجاه كل الأشخاص الذين كَوَّنوا عالمه الإنساني المريح مما جعله يرتعد بداخله. لم يكونوا آدميين، مجرد فجوات فارغة. الآن خسر ضربة الحظ التي وقعت في طريقه على نحو غير متوقع.

إنهما يريدان فقط أن يخدعاه دون مقابل، باسم الدولة والشعب. عندما تبيع روحك للشيطان، فهو يسمح لك على الأقل بأن تعيش لبعض الوقت، لكن ليس هؤلاء الأشخاص.

قال فجأة وهو يعيد إليهما القلم والورقة التي ملأها بخطوط متمائلة عريضة:

- لا. لا أوافق. من فضلكما، اقبضوا على الإرهابيين وأسسوا المحلات التجارية الكبيرة بصورة ملائمة لكيلا تنهار. لكنني سأرحل، لدي الكثير من الأعمال.

قال "المشوش" فجأة وهو يرفع من صوته:

- لكن ماذا عن الاعتبارات العليا؟ إنها ليست مجانية ولن تكون مجهولاً. إن لدينا مؤلفين جيدين. سيجعلون منك أسطورة، ستكون بطلاً محلياً. هل تحب أن نشيد لك تمائيل في موسكو وفي بلدتك؟

صرخ "ماكسيم تي يرماكوف" بغضب. كان سعيداً بحقيقة أن موظفي مكتب الاستقبال قد يسمعونه وهو يصرخ في رجلي الدولة المخيفين اللذين أفرعا الجميع للغاية:

- لا، لا أريد ذلك! من تظنونني؟ "أليكساندر ماتروسوف"؟ اعتبارات عليا! يمكنك أن تحشو نفسك بهذا الكلام المضلل الشمولي! لن أسمح لكم باستخدامي في الدعاية لأنفسكم! وكأنني الطائر "نيكولاي جاستيلو" الذي ضحى بنفسه، لو أنهم دفعوا للجنود ما يليق بهم لما وصل الألمان إلى موسكو!

ضحك "الجنين" مما جعل الفقاعة شبه الشفافة في رأسه تصبح وردية اللون وقال:

- فكرة مثيرة للاهتمام. حسناً يا "ماكسيم تيرينتييفيتش"، لن يكون هذا هو آخر حوار يدور بيننا، أنت بالطبع تدرك ذلك. تقضل، خذ بطاقتي. ستجد بها رقم تليفوني، اتصل بي إن طراً أي جديد.

أمسك بالبطاقة الكرتونية مستطيلة الشكل أمام "ماكسيم تي يرماكوف" بإصبعه وإبهامه كالكماشة. كان عليها النسر نفسه ذو الرأسين المطبوع على بطاقته الشخصية. كانت عبارة "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف.. خبير قائد"، مطبوعة فوق رقمي تليفون مكونين من سبعة أرقام، وكان أول ثلاثة أرقام من الرقمين 111. قلب "ماكسيم تي يرماكوف" البطاقة في شك بين أصابعه. ألقى "الجنين" نظرة جانبية إلى ملابس "المشوش" غير الرسمية. فهمه "المشوش" فأوماً له وأدخل يده في أحد الجيوب العميقة المتجعدة وأخرج منها غرضاً ثقیلاً، والذي اتضح فيما بعد أنه مسدس كبير ذو قبضة مضلعة. ارتعد "ماكسيم تي يرماكوف"، وابتسم بنصف فمه المتجدد الذي تدلى مفتوحاً كالجيب، دفع "المشوش" بالمسدس عبر المكتب تجاه "الهدف الرئيسي"، الذي حدق مفتوناً بدوران السلاح البطيء أمامه كالدورانات الأخيرة لعجلة "الروايت".

قال "الجنين" مقدماً الوحش الذي جعل "ماكسيم تي يرماكوف" يتصبب عرقاً:

- هذا مسدس "ماكاروف بي إم إم"، ذو خزانة تتسع لاثنتي عشرة طلقة. محشو، وموثوق به، وسهل الاستخدام. خذه واحتفظ به. سيفيدك، صدقني.

كان واضحاً أن المسدس ليس جديداً: ظهر في بعض الأجزاء المعدن العاري نتوءات صغيرة مثل مبرّد أسود قديم، والزناد في الجانب غير المتوازن بدا دهنيّاً من كثرة الضغط عليه من عدد غير محدود من الأصابع. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" في دهشة وهو يحمل المسدس الثقيل من على المكتب: "يا لهؤلاء البخلاء حتى مع المسدس يحاولون تقليل النفقات. لكن لا بأس، على الأقل هم لم ينجحوا في خداعه وإقناعه بأنهم مسالمون. إن ذلك المسدس لعبة لطيفة، هذا مسلي".

قال لهما بصوت عالٍ:

- لا أعدكما بالاتصال. أتمنى لكما التوفيق يا سادة.

اتجه بهدوء ناحية الباب وجيبه مثقل بالمسدس. اصطدم المسدس الثقيل بفخذ "ماكسيم تي يرماكوف" الذي شعر بغضب مرير يجتاحه.

قال "الجنين" مستوقفاً إياه عند الباب:

- "ماكسيم تيرينتيفيتش"! لحظة واحدة!

سأله بنصف التقاتة:

- ماذا؟

قال "الجنين" بهدوء وهو يهز ساقه:

- لم تسألنا السؤال الذي سأله كل من سبقوك.

- أي سؤال؟

- هل كان الرجل المعروف باسم "يسوع" من "الناصرة" هدفاً رئيسياً؟

- حسناً؟

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" بانفعال محاولاً أن يخمن ما الذي يمكن أن يحدث لو أنه ببساطة أطلق الرصاص على هذين الرجلين اللذين جلسا في مكتب "كراب" وكأنه بيتهما.

أجاب "الجنين" بحماس فاتر. وقد حجب تماماً النافذة التي تُظهر تساقط الثلج تاركًا المجال فقط للوميض الحاد البنفسجي لنظراته الثاقبة، والتي بدت وكأنها عدسات منظار قوي:

- لم يكن كذلك. لقد كان مثلاً لظاهرة تفوق قدرة العلم الحديث على الاستيعاب.

مر اليوم بطريقة أو بأخرى. حاول "ماكسيم تي يرماكوف" تضييع الوقت. أحياناً يهدأ، ثم يشتعل غضبه مجدداً تجاه زوار الصباح. لم يكن لديه أي أفكار جديدة من أجل "عيد الحب"؛ قلوب صغيرة هشة من الشوكولاتة ملفوفة بورق وردي صارخ. فجأة، انتاب "ماكسيم تي يرماكوف" شعور بأن الشوكولاتة التي يصنعها، والتي لطالما هنأت المواطنين في كل مناسبة ممكنة، كانت كريهة الرائحة وعفنة؛ وكأنها أمين عام باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. كلما دخل مكتباً، تبعته نظرات الجالسين من أسفل حواجبهم المنخفضة. تغيرت الأيدي التي مُدَّت إليه ليصافحها من أيادي رجال إلى أيادي نساء.

وجد نفسه يلقي نظرات خاطفة تجاه "لوسي"، والتي نادراً ما اهتم بها. لطالما تخيلها كتلة مبهمه ذات بقعة مضيئة فوق رقبتها الصغيرة والشاحبة. لم يلحظ أي شيء مميز الآن؛ شعرها الخفيف، وحاجبيها الرفيعين البائسين، ونظارتها. لسبب ما لطالما ظن أن "لوسي" لم تتخطَ العشرينيات من عمرها، لكن إذا أمعن النظر إليها، بإمكانه أن يدرك أنها تخطت الثلاثينيات.

سألته "لوسي" الصغيرة عندما وصل إلى مكتب رئيسه الخارجي مرة أخرى لسبب مجهول:

- "ماكسي"، لماذا تبدو مكتئباً هكذا؟ يقولون إنه كان لديك زيارة اليوم من الميليشيا، أليس كذلك؟ ربما يجب أن أعد لك بعض القهوة القوية؟

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالاكئاب، قال لنفسه: "ربما ينبغي عليّ أن أعطيها بعض النقود". لكنه لم يملك المال الكافي.

اتصل الوكيل العقاري "جوشا شيردراك" في الثالثة والنصف. كان صوته غليظاً، كأنما وقف شيء ما في حلقه. قال بوقار:

- "ماكس"، لدينا مشكلة، لقد رفع المشتري السعر ثلاثين ألفاً. تذكر، في البداية كنت على وشك أن أنهي المسألة بخمسة، لكن الآن ظهر مشتر جديد، ثري أرمني تقريباً. إنهم يلقون نظرة على الشقة الآن ونحن نتحدث. سألحق بهم بعد قليل. عليك أن تحاول المجيء أيضاً. فكر كم يمكنك أن تزيد من السعر الذي عرضته. بيني وبينك إن الشقة تستحق.

احتج "ماكسيم تي يرماكوف" في ذكر:

- لكننا دفعنا مقدماً! هذا مستحيل! عليهم اللعنة، لماذا يفسدون الأمر؟ لقد اتفقنا على كل شيء!

ذكره "جوشا شيرداك" برسمية قائلاً:

- إن الحياة صعبة يا "ماكس"، أتفهمني؟ دفع المقدم أمر، وشراء الشقة فعلياً أمر مختلف تماماً. إن الاستثمار العقاري كالمسكة الكبيرة، يمكنها أن تفلت من الصنارة مرات كثيرة. لذا قد سيارتك إلى شارع "جوجل" وفي طريقك اتصل بكل من تعرفه، توسل واقترض، اتفقنا؟ فلتبدأ.

ثم اختفى كعملة تسقط في ماكينة تعمل بالعملات.

خرج "ماكسيم تي يرماكوف" مندفعاً على السلم وهو يسب ويلعن. حاول مرات عديدة إدخال ذراعه في كم المعطف الذي يجره خلفه، فبدا وكأنه جناح مصاب. ابتعد الناس عنه وهم يقربون من أجسادهم أكواب القهوة الورقية وملفاتهم. في موقف السيارات، تمايل رجل الثلج القابل للنفخ يميناً ويساراً بفعل الرياح مثل بيضة مسلوقة لينة. دارت ندقات الثلج بغضب، مسحت مساحات زجاج السيارات الأمامي خطوط المياه الداكنة، واهتزت برك المياه أسفل عجلات السيارات، والتي عزز الثلج المتساقط من حجمها.

عُرِضت الشقة الصغيرة للغاية ذات المستويين والواقعة في شارع "جوجل" للبيع كما لو كانت ذهباً خالصاً. أوشك "ماكسيم تي يرماكوف" على الإفلاس، وكان يعتمد على الميزانية السنوية الجديدة للشوكولاتة، والتي كان ينوي أن يختلس لنفسه منها جزءاً كبيراً. لم يعرف بمن يتصل، ظل يقلب بلا هدف في تليفونه وهو يقود سيارته ببطء عبر الطرق المكسوة بالثلج السميك. ظهرت على يساره قبة كاتدرائية "المسيح المنقذ" شاحبة كشحوب المصابيح الكهربائية التي تحترق في أثناء النهار. قرر وهو يدخل فناء العمارة أن يركن سيارته الـ"تويوتا" بفخر بجانب السيارات الأخرى الأعلى والأحدث من سيارته. أقنع "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه بأن ذلك المشتري الأرمني الثري ليس حقيقياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لطالما حلم "ماكسيم تي يرماكوف" بشقته، وظل يتخيل نفسه وهو يقسمها إلى غرف مختلفة. تحطم ذلك الحلم بعد عشر دقائق عندما وجد مالكة الشقة تقف في منتصفها. كانت امرأة عجوزاً سمينة، يتدلى من أذنيها قرطان ثقيلان من الذهب. بدا وجهها وكأنه قطعة خوخ عفنة مغطاة بطبقة من العفن الرمادي. كانت بصحبتها وكيلتها العقارية، وهي سيدة أعمال صهباء ترتدي بذلة ضيقة قرمزية. بدت تلك المرأة وكأنها تنتقم وهي تخبر عميلها الجديد بجميع تفاصيل الشقة ومزاياها وتؤكد العدد المحدود للغاية لمثل تلك الشقة في سوق موسكو العقاري. استمع لها العميل وهو يهز رأسه في صبر. لم يلتفت رأسه الكبير - الشبيه بصخرة غير عادية - باتجاه "ماكسيم تي يرماكوف" حين دخل الأخير المكان باضطراب. لم يكن "جوشا

شيرداك " موجودًا. فكر "ماكسيم تي ييرماكوف" باحتقار: "تأخر الوغد، لقد تركني بمفردي مع هؤلاء الأشخاص".

في الحال، وبالاعتماد على الضوء الضعيف بالقرب من السلم الذي يقود إلى غرفة النوم، رأى الشخص الذي كانت ستباع له الشقة.. تلك الشقة التي جعل "ماكسيم" من كل سنتيمتر مربع منها ملكًا له في أحلامه. إنها في قرابة الثامنة عشر. من المرجح أنها ابنة الرجل الأرميني وليست صديقته؛ تضع قلادة بيضاء صغيرة، وترتدي تنورة سوداء عادية تشبه قماش المظلات. شعرها مجعد لا يوجد به أي لمعان ومشعث. ثبتته للخلف بحلية شعر زجاجية بسيطة. كانت عيناها كبيرتين ورطبتين. ذكرته عيناها بعيون الخراف. استغرق "ماكسيم تي ييرماكوف" نحو دقيقة كاملة كي يدرك مدى جمال الفتاة الأرمينية. شعر بأنه يريد تدمير أي شيء في طريقه؛ فتلك الفتاة ستمتلك الشقة، وسيسحقه أبوها تمامًا، ومن المستبعد أن تقف الفتاة في صفه. أراد "ماكسيم تي ييرماكوف" أن يئنقم. قال لنفسه: "حسنًا، ستصبح تلك الفتاة سميئة للغاية قريبًا وسينمو لها شارب".

شعر وكأن إصصارًا يتحرك فوق كتفيه. وصل "جوشا شيرداك" إلى المكان أخيرًا ودخل من الباب. تساقطت المياه من معطفه الجلدي وكأنه كان يستحم. قال:  
- حسنًا! إن العصابة بأكملها هنا.

قال وهو يمد يداً باردة مبللة إلى "ماكسيم تي ييرماكوف":

- آسف يا أخي، لقد علقت في الزحام وفوق كل ذلك الثلج.

كان إبهامه وحده في حجم فخذ دجاجة. سأله "ماكسيم تي ييرماكوف" في غضب مكتوم:

- هل كنت تزحف بحق الجحيم في طريقك إلى هنا لكي تصل بعد ثلاث ساعات؟

"الزحام، وأنا هنا وحدي معهم وكأنني معنوه وحيد في حفل زفاف". همس "ماكسيم":

- هيّا، تحدث إليهم وإلا فلن أضمن لك ما سيحدث.

قال "جوشا شيرداك" بهدوء، وهو يوجه ابتسامة سمجة إلى الوكيله العقارية:

- حسنًا، حسنًا، اهدأ.

قالت المرأة بصوت مرشد سياحي، كأنما كان "يرماكوف" و"شيرداك" جزءًا من أثاث الشقة:

- ها هو المشتري الآخر! "جوشا"، أما زلتما في المزايده أم أن الأمر تخطى قدرتكما على الدفع؟ لقد اتصلت بك بخصوص السعر الجديد. عليك أن تنتبه هذه الأيام؛ سترتفع الأسعار مرة أخرى خلال شهر واحد.

لم يقل الرجل الأرميني أي شيء، بل إنه بالكاد أدار عنقه القصير ليرى المنافسين؛ عيناها تقعان وسط ثنيات ثقيلة من الجلد البني، مما جعلهما تبدوان كعيش غراب

قديم.

صاح "شيرداك" بمرح محاولاً أن يبدو لطيفاً:

- عزيزتي "نينوتشكا"، بالطبع ما زال الأمر تحت سيطرتنا، بالطبع! سأحدث على انفراد مع عميلي لخمس دقائق فقط!

قال ذلك وجذب "ماكسيم تي يرماكوف" من ذراعه السميكة ناحية النافذة وداس على قدمه وهو يفعل ذلك. قال وهو يلوح أمام "ماكسيم تي يرماكوف" ويعقد حاجبيه فوق نظارته غير النظيفة:

- حسناً إذاً، هل تمكنت من جمع المال؟ لقد تفحصت جميع قواعد البيانات قبل مجيئي: إن الأسعار خيالية في كل مكان. لذا من المنطقي أن نلحق بالركب وبسرعة. هيّا، فالقطار في طريقه للرحيل، ونحن نحاول أن نقفز بداخل العربة الأخيرة.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" لاهتاً، وهو يلقي نظرة خاطفة على ظهر وكيله الأعمال الصهباء السمين والذي يبدو كأنه مبطن:

- لم أتمكن من جمع أي شيء! هذه هي نهاية الخط، لقد خسرنا! عليك أن تضغط عليهم لقبول اتفاقنا. اسألهم إن كانوا يظنوننا أغبياء تماماً.

- عمّ تتحدث يا أخي؟ هل أنت رجل الشوكولاتة العظيم أم مجرد طفل تافه في روضة الأطفال؟ أي اتفاقيات؟ هل ترى أي أحد هنا يدين لك بأي شيء؟ حسناً، سيفشل الأمر تماماً. إن موسكو ممتلئة بالنقود، لكنك شديد الحساسية لا أكثر. هيّا، أخرج التليفون! ابدأ في الاتصال بمن تعرفهم! هيّا!

تجدت جبهته الشاحبة حتى بدت كحوى "بودنج السميد" المحشوة. وقف مع "ماكسيم تي يرماكوف" أمام الحائط المدبب وظل يوبخه حتى أجبره على إخراج التليفون من ملابسه.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو ينفخ ويلهث:

- حسناً، حسناً، عد إلى الخلف بعض الشيء.

تذمر "شيرداك" وأرخی قبضته وتحرك للخلف عدة خطوات. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة بشعور جديد وأكثر حدة من أن يحتمله قلبه، وكأن ناراً تشتعل بداخله. ما الذي تريده هذه المرأة العجوز بكل هذا المال؟ جلست المالكة على الكرسي الوحيد الموجود في المكان. كان كرسيًا ملطخًا بالطلاء بسبب أعمال التجديد. كان واضحًا أنها لم تمتلك الكثير في حياتها، تلك القلادة من الخرز الأصفر على عنقها المجعد، وهذان القرطان القبيحان، تلك العينان الداكنتان الصدئتان الصغيرتان، وهذه الخطوط البيضاء.. إن حياتها قد انتهت عملياً. لكن لسبب ما، يجب على "ماكسيم تي يرماكوف" إطلاق الرصاص من مسدس شخص آخر على رأس منعدمة الوزن، وكأنه يطلق رصاصة رخيصة على شجرة رأس سنة غالية وممتلئة بالزينة.

اللجنة على ذلك، أين وضع تلك البطاقة؟ ظل "ماكسيم تي يرماكوف" يتلوى، مذهولاً بمدى عمق جيب معطفه. تمكن أخيراً من إخراج قطعة الورق المقوى المستطيلة ذات النسر والمطبوع عليها اسم "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف". بدت أصابعه وهي ملتصقة بأزرار التليفون وكأنها مصنوعة من الحديد. دغدغته بعض قطرات العرق المتساقطة على ظهره.

أجابته الرقم الذي يبدأ بـ "111" في الحال، دون أن يرن لمرة واحدة وهو ما بدا غريباً. جاءه صوت "الجنين" قريباً مما جعل "ماكسيم" يشعر وكأن رجل الدولة يجلس داخل السماعة.

- "ماكسيم تيرينتيفيتش"، يومك سعيد. هل رأيت؟ لقد اتصلت بنا.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بمرح وهو يلقي نظرة إلى البطاقة:

- نعم، "سيرجي يفجينيفيتش"، يومك سعيد. لقد طرأ أمر ما.. إنني في حاجة ماسة إلى ثلاثين..

اتجهت أنظاره إلى "شيرداك" الذي فرد أصابعه أمام وجهه - على الأقل ستة أو سبعة منهم - فأكمل "ماكسيم":

.. لا، آسف، سنتين ألفاً.. دولار بالطبع.

أجابته "الجنين" بنبرة صوت تكتسي بالطيبة:

- نعرف ذلك يا "ماكسيم تيرينتيفيتش".

- إذا؟

قال رجل الأمن بنبرة أبوية:

- "ماكسيم تيرينتيفيتش"، لقد ناقشنا ذلك الأمر معك، أليس كذلك؟

ظن "ماكسيم تي يرماكوف" أنه سمع تلميحاً بالسخرية يقحم نفسه داخل أذنه مع الكلمات في حين أكمل رجل الدولة كلامه:

- إن موقفنا لم يتغير في الوقت الحالي.

في تلك اللحظة، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالدم يسري في رأسه، كما لو أن مياهاً قدرة تسير عبره. مال بجسده إلى الأمام، ووضع يده على التليفون. قال بصوت كالفحيح بغضب شديد:

- إذا، فإن ذلك العرض الذي أسعدتني به هذا الصباح مجاني؟ لقد أخبرتني بأن أنقذ البشرية. لكن ما الفائدة التي ستعود عليّ؟ لا شيء مطلقاً! كلا أيها السادة، عليكم اللعنة! أعطوني النقود وسأفكر في عرضكم. إذا لم تريدوا أن تفعلوا ذلك فبإمكانكم الذهاب إلى الجحيم.

قال "الجنين" بحزن:

- لن نعطيك إياها، وأنت مخطئ في قولك إن العرض مجاني. إن السبب هو أن كل ما تفكر فيه هو مكسبك الشخصي. فكر في الأمر. تواصل مع ذاتك الداخلية؛ ماذا

تفضل أن تترك وراءك؟ إن هناك الكثير الذي يمكننا أن نفعله من أجلك. نحن مستعدون لدفع الكثير، الكثير جداً. صدقني، لا تأتي هذه الفرصة كثيراً لأحدهم كي يغير شيئاً ما في العالم. عليك فقط أن يكون لديك آمنيات أعمق من حدود جسدك وحياتك المادية. هل حقاً لا تملك ولو أمنية واحدة على الأقل؟

زمر "ماكسيم تي يرماكوف":

- اذهب إلى الجحيم.

شعر "ماكسيم" حينها بأن كل العيون تحولت إليه. التفتت سيدة الأعمال الصهباء بسرعة. كانت ابتسامتها المتألئة كعود كبريت يحترق بالجزء الخشن من علبة كبريت هي في الحقيقة قلب "ماكسيم تي يرماكوف". في مؤخرة الغرفة، كان هناك مصباح رقيق مضيء بنعومة، وهذه الإضاءة جعلت الياقة البيضاء تبدو خشنة.

أراد "ماكسيم تي يرماكوف" أن يلتقط أنفاسه، فاستدار ناحية النافذة. كان الثلج المتساقط يشبه شبكة يجرها أحدهم عبر الهواء. بدأ ضوء النهار يضعف، وانتشر الظلام في الفناء كالورقة.

رأى كلباً منقلاً وضخماً يتجول عبر العشب العتيق. رأى كذلك رجلاً يرتدي معطفاً أسود داكناً يغطي الثلج كتفيه. ظل ذلك الرجل يروح ويجيء على الرصيف الضيق. توقف الرجل ورفع تليفون إلى أذنه مما أضاء خده الغائر بضوء أزرق. في الحال، خرج رجل آخر لديه شعر مشذب وقصير مثل الدمى المحشوة من موقف باصات صغير وتحدث الاثنان باقتضاب وهما يجعدان جبهتيهما ويأخذان خطوة للخلف لينظرا إلى أعلى تجاه "ماكسيم تي يرماكوف".

ترجع "ماكسيم" إلى الورا. ذكره الوجهان بأزرار بيضاء على لوحة مفاتيح عليها علامات غير مألوفة. خمّن "ماكسيم تي يرماكوف" في الحال الرقم الذي اتصل بالتليفون الذي أضاء وجه الشخص الغريب، وأي قسم حكومي يمتلك موقف الباصات الصغيرة الغارق في الوحل الذي بدا وكأنه قد نما فوقه كالمستنقع. مكتوب على جانب الباص: "الحديقة الخضراء. أفضل أثاث حدائق في موسكو"، لكن هذان الرجلان نوا الأكتاف العريضة لم يكونا بالطبع عاملين بالمحطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تلك هي المرة الأولى التي رأى فيها "ماكسيم تي يرماكوف" الرجلين اللذين أصبح الشعور بوجودهما يلزمه طوال الوقت. في أغلب الوقت، كانا يتحركان بداخل الباصات الصغيرة ("رجل الحليب القروي. صحة جيدة وحس دعابة جيد!"; مطبخ العالم. قادة الأسواق."; "عالم الجلود. موضة للأسرة بأكملها"). كانا أحياناً يقودان سيارات قديمة مستوردة، أو حتى سيارة "جيجولي" Zhigulis قديمة من الطراز الأول تكسوها طبقة سميكة من الصدا الذي فشل الطلاء في إخفائه. كانوا جميعاً يقودون عبر الطرق بسرعة معقولة.

كانت تلك السيارات قدرة مثل قدور وأوانٍ مطهو فيها تراب. كلما غادرت سيارته الـ"تويوتا" موقف السيارات، رآها في المرآة الخلفية؛ فحركتها المهتزة الحادة

جعلت من السهل تمييزها وسط الزحام المروري. حتى أثناء وقوفها وسط الزحام بدت وكأنها على وشك الغليان.

يعمل عملاء قسم التنبؤ الاجتماعي دائماً في أزواج، وكانوا جميعاً في السن نفسها، ويرتدون معاطف على الطراز السوفيتي أو معاطف مبطنة سميكة لونها رمادي. جميع الأزرار مغلقة حتى نقونهم الهائلة الجامدة كالمطارق. بدت وجوههم من على بعد كالأزرار؛ بعض هذه الأزرار تعرض حروفاً، والبعض الآخر أرقاماً. على سلم مبنى "ماكسيم تي يرماكوف"، وجد علبة طماطم مخلاة على حافة نافذة يمكن من خلالها رؤية باب شفته وقد فاحت رائحة سجائر من العلبة.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بمراقبتهم تلك على جلده؛ شعور شائك سيطر على كتفيه وامتد لأسفل ظهره. وكأنه قلعة من الرمال: رطبة من الداخل، وقابلة للتفتت من الخارج، وتآكل فيها الرياح الباردة تدريجياً. وفي محاولة منه للهروب - على الأقل لوقت قصير - من تلك الباصات الصغيرة القاسية، ركب مترو الأنفاق لأول مرة منذ سنوات. لكن كان ذلك دون فائدة؛ ما إن خطا فوق درجات السلم المتحرك، حتى ظهر خلفه شخص ضخم، واضعاً يداً ضخمة في قفاز أسود على الدرايزين المتحرك، وبعد شخصين أو ثلاثة أمامه رأى مؤخرة رأس زميله التي تبدو كقفذ سمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيعت شقة شارع "جوجل" في لمح البصر. شعر "جوشا شيرداك" بالمرارة، لكنه تابع عمله، حيث اصطحب "ماكسيم تي يرماكوف" كل ليلة لمشاهدة شقق أخرى. لم تكن هناك فائدة من محاولة الحصول على شقة في مركز المدينة؛ فقد ارتفعت الأسعار بجنون، والبائعون يتسابقون في محاولة منهم لبيع عقاراتهم في يناير بأسعار شهر مارس. في تلك اللحظة، لم يحدث أي شيء؛ توقف السوق عند نقطة معينة وبدا كأنما تبع الهواء خطاه؛ فبعد تساقط الثلج قصير الأمد تحول إلى تلك الحالة الغائمة الكثيفة المشابهة للأحلام المشوشة. لم يعد هناك موسم الشتاء في الخارج: لو حاولت الثلوج أن تتساقط، تتحلل إلى قطرات رطبة تشبه مسحوق الغسيل، امتصت الأرض تلك المياه التي تشبه الرغوة، وأنبئت - بعد أن خُدعت بدرجة الحرارة الدافئة - بعض العشب الضعيف. لم تسمح السحب المنخفضة العريضة بمرور أشعة الشمس على الإطلاق؛ بدت الأشجار كظلال سوداء مبهمّة. تحوّل الشتاء إلى مصباح كهربائي محترق.

فتر حماس "جوشا شيرداك"، حيث جرّ خلفه "ماكسيم تي يرماكوف" إلى منطقة بالقرب من محطة مترو "كوزيوكوفسكايا"، حيث مباني من الأسمنت تحتوي على شقق تطل نوافذها على سوق مهجور يشبه متاهة الفران. أخذه بعدها إلى مباني رمادية مكونة من خمسة طوابق في مكان ما خلف محطة "فويكوفسكايا"، حيث توجد شقة حقيرة مكونة من غرفتين، معروضة للبيع بسعر مرتفع للغاية، بها أرضية متقرحة ومياه غريبة الملمس تتساب من أنابيب صدئة.

لم تعد الهيبة مهمة؛ عليهم استثمار الأموال المتاحة في بعض الأمتار المربعة من مساحة أرضية، لكن كل شيء خرج عن السيطرة، وأصبحت الأمور بعيدة عن متناول يديهما خلال عدة أيام. وفي الوقت الذي استمرت فيه الأسعار بالزيادة، أصبحت المدينة نفسها شبحية؛ انعكس ارتفاع الأسعار على - بما في ذلك أسعار المناطق السكنية التي لم يكن بها أي شيء معروضاً للبيع - المباني التي حولها البائعون إلى شيء نادر، ولا يمكن إيجاد مثله، مستغلين في ذلك نوافذ المباني المتألثة.

أمام عينيه وفوق كل أسطح المباني المحيطة به تقريباً، رأى "ماكسيم تي يرماكوف" إعلان البنك حيث يحتفظ بأمواله التي توشك على النفاذ. ذكرته الإعلانات بتجربة كيميائية في المدرسة، حيث ينتج عن السائلين القرمزي والأخضر انفجار صغير ودخان.

عشرة ملايين. عشرة ملايين دولار، اللعنة على ذلك! وبيع المساهمة قد تزيد. بدا له كأن كل ما كان عليه فعله هو أن يمد يده فقط. لم يساور "ماكسيم تي يرماكوف" الشك للحظة واحدة بأنه يستحق هذا القدر من المال. كان يشعر بأن ما يفصله عن فرصة شراء أي شقة، بل في الواقع أي عقار في موسكو أو حتى في أوروبا، مجرد غشاء غريب ومشدود وشبه شفاف.

لم يفكر قط في طبيعة ذلك الحاجز من قبل - باستثناء إحدى المرات في طفولته ربما، في السادسة من عمره، عندما أدرك فجأة أنه ذات يوم سيموت لا محالة وكذلك سيموت أبواه أيضاً. كان النموذج الذي اتخذه لهذا الأمر هو جده المتذمر "فاليرا"، الذي كانت طريقة سيره مستنداً إلى عكاز تجعل كل عظامه الثقيلة بارزة. عندما مات، وضعوه في صندوق خشبي طويل مبطناً بالقماش وفجأة لم تعد تقوح منه رائحة التبغ. طاردت الرؤى "ماكسيم تي يرماكوف" طوال فصل الصيف، وبعد الظاهرة اليقينية للحدث - أصوات الطيور الصاخبة في الغابة المطلة على البحر في الليل، والأمطار الخضراء في الريف، وصرير أرجوحة الأطفال، والطيوان الصارم لليعسوب - شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالكآبة. لكن، في سبتمبر، انتهى كل ذلك نهاية مفاجئة، كأن جرس المدرسة أنهى الأمر سريعاً.

الآن، عادت تلك الحالة مجدداً وأصبحت الليالي أكثر عدوانية. فهو غير قادر على النوم، يتقلب ككلب البحر بين أغطية الفراش الرطبة بفعل عرقه. كان "ماكسيم تي يرماكوف" يجاهد كي يصل إلى طريقة ما تمكنه من الحصول على أمواله والبقاء على قيد الحياة دون أي قيود من مجتمه. مارست أفكاره حياً بهلوانية مدروسة، حيث اخترع شخصاً شبيهاً له منصاعاً لأوامره، وعلى أتم الاستعداد للقيام بأي شيء يريده. تخيل طلقة مزيفة تطلق من أعلى كوبري ليس عالياً جداً وجسداً يسقط في المياه الزيتية، إلى الملجأ الآمن الغامض، حيث يرقد جهاز تنفس تحت الماء في انتظاره.

كان كل ذلك خيالًا أكثر من اللازم، وتطلب استعدادات وتدريبات جسدية. لكن "ماكسيم تي يرماكوف" لم يكن يومًا رجلًا رياضيًا ويخاف على نحو خاص من الغوص، لمعرفة بأن في أسفل المياه سيتحول رأسه الافتراضي إلى قبة باردة ممثلة بالماء، متغيرة كالزئبق، تحاول دائمًا الانقسام إلى أجزاء متعددة.

كان يحتاج إلى مساعدين، أشخاص مخلصين له. فعلى الأقل كان يحتاج إلى وثائق مزيفة بدرجة عالية من الجودة باسم شخص آخر. ولكي يشعر بالأمان، كان عليه أن يشد جسده المترهل الذي يتواثب من حوله عندما يركض ويصدر عنه بخارًا وريديًا ينطلق إلى رأسه مباشرة حينما كان ينحني كي يصل إلى حذائه. على أية حال، لم يكن بإمكانه شراء آلة تمارين رياضية أو أية معدات أخرى. دائمًا ما تتبع المتنبئون الاجتماعيون اليقظون خطى "ماكسيم تي يرماكوف" إلى المحلات التجارية، حيث يهرولون خلف هدفهم وهم يدفعون عربة المشتريات التي يلقون فيها بالأغراض نفسها التي كدسها "ماكسيم تي يرماكوف". أحيانًا، وبعد صراع قصير، ينجح المتنبئ الاجتماعي الهادئ بجسده الحديدي بالفوز بأخر زجاجة أو آخر علبة من صنف معين أراده "ماكسيم تي يرماكوف".

بعد الدفع بعربة المشتريات إلى موقف السيارات، يلقي العملاء نسختهم من قائمة مشتريات "ماكسيم تي يرماكوف" في حقيبة قمامة سوداء بلاستيكية، ثم يربطون الحقيبة بعقدة من الأعلى ويلقون بالحقيبة المكتنزة في صندوق سيارتهم من أجل تحليلها لاحقًا لمعرفة ما إن كان من الممكن استخدام لحم "الرافايولي" وغسول الشعر لصنع متفجرات بلاستيكية. كل خطوة اتخذها "ماكسيم تي يرماكوف"، كانت مراقبة بعناية. فنش شفته المؤجرة بعناية لشكه في أن تكون أي بقعة على ورق الحائط أو أي خرزة في الثريا الصينية الهزيلة عبارة عن كاميرا مخفية. لا بد أنه بدا لمن يراقبه كعنكبوت يزحف في الأركان، ناشرًا خيوطه اللزجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لدى "ماكسيم تي يرماكوف" ميزة واحدة لا يتمتع بها المتنبئون الاجتماعيون، وهي أنه يملك الوقت.

انهار محل "أوروبا" الضخم، وقُتل مائتان وست وعشرون شخصًا؛ إذًا، بدأ الأمر. قاد "ماكسيم تي يرماكوف" سيارته في تقاخر ليلقي نظرة على ما حدث. بدأ زجاج المحل المهشم مثل نظرية انهارت لعدم كفاية الأدلة على صحتها. ظهرت أجزاء ثلاثية من الهيكل الأساسي للمبنى بين الفوضى التي عمت المكان. وانتشر الزجاج المهشم في المكان، فعكس السحابة الرمادية التي غطت الألواح المائلة الملتوية، وكأن السماء نفسها قد انشقت أعلى منطقة الكارثة. ظل بعض الحطام معلقًا بغير استقرار فوق الفتحات السوداء لطوابق التسوق. انتشر في المكان رجال متجهمو الوجوه ويرتدون صديريات برتقالية؛ بجانب الحاجز الشبكي الحديدي المبلل بالدموع، وقرنفل ذابل مُلقى على الأسفلت وقد بدا كبقع حديثة من الطلاء.

بعد وقوفه هناك لفترة ليست قليلة، متعجبًا من الأغبياء ذوي البذلات الذين نجوا، وظهروا من بين فوضى الأسمنت والزجاج، عاد "ماكسيم تي يرماكوف" إلى سيارته. في الطريق لمنزله، غمرته مشاعر مختلطة من البهجة والفرح. كان العالم يصبح بمرونة البلاستيك. لم يكن بإمكان "ماكسيم تي يرماكوف" الإفصاح بوضوح عن قوته المكتسبة حديثًا. لكن الشعور بالقوة كان قويًا مما جعل سيارته تخرق الزحام حرفيًا، وقد تبعها شاحنة صغيرة متواضعة تهتز كذيل الكلب.

سيدفعون له، ليس أمامهم حل آخر. لقد قدموا خدمة لـ "ماكسيم تي يرماكوف" سابقًا عن طريق السماح للهدف الرئيسي باختراق الحاجز الرفيع بين هذا العالم والعالم الآخر، مما جعله يتوقف عن الشعور بالخوف. على الرغم من مادية رأسه الضعيف، فلم يؤمن "ماكسيم تي يرماكوف" بالجنة والنار، حيث كان يعدها انبثاقات بخارية للفكر الإنساني. كان يعترف فقط بالأشياء المادية والحقيقية. بالنسبة له، كان "العالم الآخر" الآن هو قصور موسكو النبيلة والأنيقة والمرممة بعناية، وهي ما سيتجه إليه ما إن يضع يده على أمواله. تلك الرُزم الشهية من الدولارات التي يراها بوضوح عبر الهواء البارد الذي أصبح قريبًا منه للغاية. ولكي يؤمن نفسه، خصوصًا وأن التنبؤات السلبية بدأت تتحقق الآن، قرر "ماكسيم تي يرماكوف" ألا يدخل أي متجر كبير، وأن يكتفي بشراء متطلباته من محل قريب من منزل يقع في قبو صغير دافئ. دائمًا ما رحب به الحارس الطيب السمين والبائعة المسنة ذات الملابس الصفراء والمشغولات الذهبية الوفيرة المنحدرة إلى أسفل باتجاه الممر الضيق الواقع بين ثدييها. دندن "ماكسيم تي يرماكوف" لحنًا مرحًا وهو يضغط على الزر المغناطيسي لقفل باب منزله الحديدي بفقاعته من الماء والطلاء:

- لن يكون هناك أي فرصة يا سادة، كلا!

كانت هناك مفاجأة بانتظاره في شقته. جلس رجل على الكرسي الوحيد ذي المسندين، في الغرفة الوحيدة بالشقة، مرتديًا بذلة رياضية ذات خطوط مهترئة مشعثة. كان ذلك الرجل هو "سيرجي يفجينيفيتش" بنفسه. بدا رأسه ذو الجلد الشفاف منتفحًا كمعدة أحد الحيوانات الممتلئة عن آخرها بالطعام. وقف خلفه أربعة رجال ضخام الجثة وأيديهم مشبوكة فوق أعضائهم التناسلية. وأمام "الجنين" على منضدة القهوة المتهالكة، وقفت كأس "كونياك" فرنسي ذهبي أخذ من البار دون استئذان.

سأله الرئيس دون تحيته:

- حسنًا، هل أحببت المنظر؟

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" بحدة وهو يخلع معطفه:

- كيف تسير علاقات السبب والتأثير الخاصة بك يا رئيس؟ هل يتضاعفون ذاتيًا؟ كيف حالهم؟ أتمنى ألا تكون أحوالهم سيئة.

أجاب "الجنين" مؤكداً، وهو يوجّه إلى "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة جانبية من تحت خطوط جبينه العاري:

- إن أحوالهم سيئة بالفعل، لقد رأيت كل شيء بنفسك في موقع الحدث. سؤالك غير ضروري. لم أرَ شيئاً صديقاً مثلك منذ وقت طويل.

انحنى "ماكسيم تي يرماكوف" بأدب. لم يكن هناك مكان بغرفته يجلس فيه، فيما عدا السرير حيث سروال "مارينكا" الداخلي ملقى فوقه كغراشة زرقاء مسحوقة بين فوضى ملاءة السرير. تنهد "ماكسيم تي يرماكوف" وألقى بنفسه على السرير.

تساءل وهو يلقي نظرة خاطفة هازئة على الحراس الشخصيين، الذين ارتسمت على وجوههم تعبيرات قاسية تشبه طلاء الوجه الخاصة برجال القبائل البدائية:

- وماذا عن الدخول غير القانوني للمنازل الخاصة؟ أو، عذراً، هل معك إذن بالدخول؟ ربما أكون قد خالفت أحد القوانين؟ أقتلت أحدهم؟ أم أنك وضعت بعض الكوكابين في مسحوق الغسيل وأنت الآن بانتظار الشهود؟

قال "الجنين" في ضيق:

- توقف يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"، لم يكن باب شقتك موصداً ولقد سمحنا لأنفسنا بالدخول باعتبارنا معارف قدامى. إننا نجلس هنا لنحرس منزلك، ولقد أتينا فقط كي نطرح عليك سؤالاً واحداً: أي الرقمين أكبر، مائتان وستة وعشرون أم واحد؟

أجاب "ماكسيم تي يرماكوف" بتلاعب:

- واحد بالطبع، لو أن هذا الواحد هو أنا. ماذا توقعت؟ هل يمكنك أن تمنحني حياة أخرى؟ هل يمكنك أن تفعل ذلك لمن قُتلوا في "أوروبا"؟ بدلاً من إرسال الجواسيس خلفي كي يفتشوا في مشترياتتي ويقفوا على سلم منزلي يدخنون. سيكون من الأفضل أن تحاول تتبّع الإرهابيين! نعم، لقد ذهبت ورأيت ما حدث. ليس ما حدث مسؤوليتي، بل مسؤوليتكم! وأنا لست بحاجة إلى دروس الحساب لكي أعرف بأنكم لا تقومون بأداء عملكم جيداً يا سادة!

قال "الجنين" مجدداً، وهو يحيط يده الباردة بكأس الكونياك الدافئة في محاولة لتدفئة مفاصله المغطاة بالشعر شبه الشفاف:

- حسناً، إنك بالفعل شرير صفيق. أجل، إن مهام الدولة في طبيعتها حسابية على الأغلب. لدينا تتابع طبيعي للأعداد الطبيعية؛ مائة وأربعون مليون نسمة في الدولة، ومن وجهة النظر الحسابية هذه، فإن رقم واحد هو بالتأكيد أقل بمئتي وستة وعشرين مرة من مئتي وستة وعشرين. ما يفاجئني هو شيء آخر. أنت يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"، إنك تتصرف كما لو أنك لا تخاف منا على الإطلاق. لكن عليك أن تخاف. لدى الجميع نقطة ضعف يمكن الضغط عليها، وإذا وضعنا الأمر نصب أعيننا، فسنجد نقطة ضعفك.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" لهم بسعادة:

- لا يمكنكم المساس بي! إنني مستدير وأملس ككرة البلياردو، أحمل كل شيء بداخلي، ليس هناك ما يمكنكم أن تحمله ضدي. أتريدني أن أكون أميناً معك؟ أنا لست في حاجة إلى أي شخص عداي. في الواقع، لقد اعتدت على أن أحب أبي وأمي في وقت ما، لكن الآن، حسناً، سأشعر بالحزن لأسابيع أو أكثر لو حدث أي شيء لهما. ربما أتمل قليلاً. حتى لو ظهرت بعض المشاعر فأنا لن أخاف. بالطبع هناك نساء جميلات، لكنهن لسن جميلات لدرجة تجعلني أطلق الرصاص على نفسي.

وأضاف:

- كان من الممكن أن أخاف منكم بالطبع، لو كنتم على استعداد لاستخدام القوة للضغط عليّ، لكن لا يمكنكم التصرف بعشوائية خارج القانون، بفضل علاقات السبب والتأثير! إذاً فإن لدينا موقفاً مثالياً هنا؛ لو لم يخالف مواطن القانون، فلن تتم محاسبته بأية حال. بالمناسبة، إذا أخذت المسدس الذي أعطيتني إياه وبدأت بإطلاق الرصاص على الناس في الشوارع، ماذا سيحدث؟

قال "الجنين" باستمتاع، ومن نغمة صوته الناعمة كان واضحاً أن تحول كهذا في الأحداث سيكون مرحباً به للغاية من جهة اللجنة التي يمثلها:

- سنلقي القبض عليك، حسب القانون. أجل، سنلقي القبض عليك حينها ونبدأ عملية قانونية كاملة بالتحقيق والمحاكمة. لكننا سنكتب في الوثائق بأنك فيما بعد بقليل ستطلب منا السماح لك بالحصول على المسدس في زنزانك للحظات.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بجسده يرتخي فجأة عندما سمع ضيفه غير المرغوب فيه يقول ذلك. أراد أن يستلقي على سريره في الحال كما هو بالضبط، ببذلته الصوفية - التي أصابت خلف ركبتيه بالحكة - ويتصل بالشركة ويخبرهم بأنه سيتغيب لسبب مرضي. سحب البطانية فوق رأسه عديمة القيمة وتظاهر بأن هؤلاء الرجال المرعبين غير موجودين.

بدا "الجنين" وكأنه مفترس يحوم حول فريسته، قال مستغلاً موقفه:

- إنك جبان حقيقي يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"، إن لحملك جبان، سترتعش وتنتحب كل خلية من جسديك إذا رأيت سكيناً. أتتذكر حين خسرت بصورة سيئة في لعبة الورق عندما كنت طالباً؟ عندما ضغط عليك هذان الشابان القويان، "سكوبولد" و"كوزاك". هل تذكر عندما سرقت ألفين وخمسمائة دولار من زميلك في الفصل "فلاديمير كوليزنيكوف" لكي تتمكن من سداد دينك؟ لكن اتضح أنه هو أيضاً مجرم خطير. صحيح أنه لم يكن يملك سكيناً، لكنه امتلك قبضتين قويتين. أتتذكر كيف كنت تختبئ منه في حمام السيدات في النزل؟ والطريقة التي كنت تجلس بها داخل دولااب الملابس بين التنانير والصنادل؟

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" محمومًا، محاولاً أن يستخدم أفكاره لطرده القشعريرة التي تسري بداخله من كعبي قدميه وصولاً إلى رأسه المشوش؛ "لا بدّ أنهم

يحصلون على تدريب رائع. الظهور أمامك هنا، والتحرك عبر المكان دون حتى أن يحرك إصبعًا واحدًا. يا لها من خدعة. أتساءل كيف يفعلونها؟".

لكن كان ذلك متأخرًا جدًا. عاد "فلاديمير" للحياة، كأنه هرب من زلزلة الذاكرة: "فوفان"، "فوفان" الضخم، ذو الوجه غير الحليق الذي بدا كالإسفنجة القذرة، والشعر الغزير على صدره كالصوف والذي كان يبرز كالقش، مخترقًا القمصان الزرقاء والوردية التي اشتراها من متجر القرية. انتهى الحال بـ"فوفان" في السجن مؤخرًا، بعد تورطه في شجار مروع خارج بار قذر بجانب محطة مترو؛ كان ذلك هو ما حفظ "ماكسيم تي يرماكوف" من التعذيب الجسدي والانهيار العصبي. بالمناسبة، كان "فوفان" لاعبًا استثنائيًا في لعبة "البوكر"، لكن بدهاء الفلاحين تمكن من الإفصاح عن ورقه وهرب بعد خسارة واحدة ضئيلة للغاية.

ما كان على "ماكسيم تي يرماكوف" فعله، بدلاً من انجرافه بأخذ أوراق لعب أكثر، هو الانتباه إلى الطريقة الغريبة التي كان يلمس بها الموزع علبة الورق، والطريقة التي جعلت الورق يزيد بين أصابع "سكوبولد". اللعنة على ذلك، أكان عليه أن يُطعن بسكين من أجل ألفين وخمسمائة دولار؟ بالمناسبة، لقد كان هناك سكين بالفعل، سكين لعين ذو مقبض مركب صنع في سجن. هذان الاثنان، "سكوبولد" و"كوزاك" مشيا بالسكين على جسد "ماكسيم تي يرماكوف" كله. شعر بالرعب الشديد وقتها، وكأنه قطعة زبد يقترب منها نصل السكين الحاد ليقطعها.

تصرف "ماكسيم تي يرماكوف" بعقلانية؛ أدار عينيه من حوله واكتشف أن المبلغ الوحيد الكافي لتسديد دينه والذي يسهل الحصول عليه، موجود بداخل معطف "فوفان" الفلاحي القديم، حيث كان المبلغ مخيَّباً داخل الجيب بخيط أبيض قذر. ما كان على "فوفان" الضخم أن يتفاخر قبل اللعبة بأنه قد جنى بعض المال في موقع بناء وأنه سيقوم بإنفاقه كله. كان الأمر بسيطاً أن يشعر بالرزمة المالية السميكة في ملابسه القذرة التي تفوح منها رائحة "الكولونيا".

أجل، لقد أنقذ "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه باختيار الشر الأقل بدلاً من الشر الأعظم. أجل، لقد جلس مختبئاً في الدولاب فوق الصنادل كدجاجة راقدة على البيض، و"فوفان" الضخم يفسر موقفه للفتيات بزمجره وحشية وهو يقذف الكراسي في جميع أنحاء المكان. أي شخص لديه عقل يفكر بطريقة منطقية كان ليفعل المثل. كم كانت رائحة "كولونيا فوفان" الثقيلة واللاذعة بشعة عندما اعتدل "ماكسيم تي يرماكوف" واقفاً واقترب من ياقة قميصه وقد أصبحت عيناه الزرقاوان فارغتين لا حياة فيهما، كعيني الدمية. هذا العطر الخاص بالناس العادية، "كولونيا تريبل"، كان خطأ إنتاجياً متوقفاً في ذلك الوقت في نهاية التسعينيات. لا بد أن عائلة "فوفان" الفلاحين قد احتفظوا بزجاجات احتياطية، بغرض الملكية الاجتماعية، ولكي يستخدموها كدواء رخيص لحالات دوار ما بعد الثمالة. الآن انتهت كل البضاعة من كل المخازن؛ لكنها ظلت باقية في ذهن "ماكسيم تي يرماكوف". عادة ما تمكنت حاسة الشم الافتراضية لديه، والتي توجه العطور مباشرة إلى العقل، من التقاط القليل من الجزيئات الخشنة الشاردة التي تصدر من مكان أو آخر. كان ذلك كافيًا

لإثارة فزعه القديم، مما يجعل من مجموعة الشبكات العصبية والجسدية لديه ترتعش خوفاً؛ تماماً مثلما كانت تفعل عندما كان "فوفان" يضربه بقبضته الممتلئة بالوشوم.

أتى صوت الضيف غير المدعوّ من خلف ظهر "ماكسيم تي يرماكوف"، على الرغم من أنه كان لا يزال جالساً في مكانه على الكرسي البني نفسه ذي المسندين. بدا وكأنه جالس داخل صورة مؤطرة، سأله:

- فيمَ تفكر يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"؟

أجابه "ماكسيم تي يرماكوف" بابتسامة وهو يمسح كفيه في الملاءة:

- لا شيء، استغرقت في ذكريات شبابي لا أكثر. إنك تعرف الأسماء الصحيحة؛ كان هناك "سكوبولد" و"كوزاك"، والسيد "كوليزنيكوف". يا إلهي، إن مبلغاً قليلاً كهذا كان كافياً حينها لبدء صراع؛ مجرد بعض الفكة، يا إلهي! كم أن الناس أغبياء في سن العشرين. قد يبدو أن الشباب فقط هم من يحتاجون إلى المال. ما فائدة ذلك بالنسبة لمن يعيشون على القليل؟ لكنني بدأت الآن فقط أدرك أنه كلما أصبح الإنسان أكبر في السن، زادت حاجته إلى المال ليعيش حياة لائقة. ألا توافقني يا "سيرجي يفجينيفيتش"؟

سأله "الجنين" بسخرية:

- أتعتمد على أن تظل على قيد الحياة كي ترى ملايينك العشرة؟ أضمن لك أن ذلك لن يحدث.

أجابه "ماكسيم تي يرماكوف" بالنبرة نفسها:

- لكن، هل بإمكانك أن تجعل مني بطلاً قومياً بعد وفاتي؟ لن يفيد ذلك أيضاً؛ لا يناسبني ذلك. إن ذلك يناسب مزارعاً قرأ كتاب "كيف سقينا الفولاذ" لـ"أوستروفسكي" في كوخه بالقرية. كان من الممكن أن يقوم السيد "كوليزنيكوف" بذلك، لو أنه قرأ كتاباً واحداً في حياته. أن تضحي بحياتك من أجل أصدقائك - لا يكفي في أيامنا هذه؛ ليس حتى بسبب انعدام الأخلاق، لكن الجماليات تغيرت.

وتابع "ماكسيم":

- تغيرت إشارات الفن بالكامل حالياً. إن فيديو هات الشوكولاتة الخاصة بي تعني اليوم أكثر من ذلك التراث الأحرق المكون من الكثير من المجلدات التي تحكي عن الأخلاق والأبطال. هل هذا جديد بالنسبة لك؟ أنا متفهم. لا شك في أنني لست أول أهدافك الرئيسية، ولغنائهم، قامت الأهداف السابقة لي بالانتحار لإنقاذ البشرية، ولا أستبعد حتى إنهم شكروك على هذا الشرف. لقد اعتدت على أن تستخرج ذلك الغباء من داخل الناس قدر ما تريد دون أي متاعب. لقد أنشأوا سكة حديد "بايكال أمور" وعمروا الأراضي المقفرة. لكن انتهى كل ذلك الآن. لا مجانية بعد الآن أيها السادة. والآن، إنني أضيع وقتي معكم؛ عليّ أن أتناول عشاءي وأشاهد فيلماً.

عند هذه النقطة، ضحك "الجنين" بقتامة وهو يميل للخلف على الكرسي لتظهر في رقبته تقاحة آدم؛ التي بدت كبيضة دجاجة ابتلعها ثعبان. ضحك الرجال الأربعة مع رئيسهم. لم يصدروا أي صوت حتى الآن باستثناء صرير أذنيهم المربعة. ذكرته ضحكاتهم بصفادع المستنقعات.

قال الخبير الرفيع عند انتهائه من الضحك:

- حسنًا، انتظر قليلاً يا "ماكسيم تيرينتيفيتش". أنا لا أزال غير قادر على فهم أوامرك بأن ندفع مقابل وقتك. ففي النهاية، نحن لا نناقش الأخلاق أو الفن الحديث معك، حيث إن تلك الأمور عملية بالكامل. بما أنني مسؤول عن بعض الجوانب المتعلقة بالعملية الحسابية للدولة، عليّ أن أطبق التبادل بين الفرد الواحد والمجموعة. أنت ترغب في المساومة، لكن دعني أقل لك مجددًا؛ سيكون ذلك دون فائدة. دعني أشرح لك أيضًا أنك في الواقع خائف منا. سنجعل منك بطلاً في كل الأحوال، لكن هناك الكثير من الطرق المختلفة التي تمكننا من تحقيق ذلك.

رجع "ماكسيم تي يرماكوف" إلى الخلف واستند إلى مرفقيه. شعر بالاشمئزاز بسبب العرق الذي أغرق ملاءات السرير المصنوعة من القطن الجيد. قال:

- لكنني بالفعل بطل، ألم تلحظ ذلك؟ إنك تضغط عليّ لكنني لا أستسلم! وربما أنت تتساءل لماذا أفعل ذلك؟ إنني أدافع بنفسني عن حقوق الإنسان ضد ماكينة الدولة. ومن موقف تلك الحقوق فليس هناك فرق ما إن كان ذلك الشخص بطلاً أو عبقرياً أو شخصاً عادياً تماماً. قد تكون بطلاً ثلاثياً في روسيا، لكن كل ذلك هراء من وجهة نظري. إن حرية الإنسان تتضمن في واقعها أنه هو بنفسه القيمة العليا، وهو ما يحققه وجوده ببساطة. لو أراد أحد شيئاً ما منه، فعليهم إبرام عقد معه. لكنكم لا تريدون عقداً، لذا ليس لديكم شيء يهمني. أنتم تحاولون إخافتي. ما أتساءل حوله الآن هو ما إن كان عليّ أن أجمع كل الصحفيين المهمين الذين أعرفهم، وأنظم مؤتمرًا صحفياً، وأخبرهم فيه كيف تقوم لجان الدولة الشريرة بكل أنواعها بانتهاك كل هذه الحقوق.

قال "الجنين" ساخرًا:

- إن هذا أمر جاد. إنك مدافع أصيل عن حقوق الإنسان يا "ماكسيم تيرينتيفيتش". ربما تود أن تترك حماساً هذه الموجة إلى السياسة.

- لا، لا أود الانخراط في السياسة. سيكون عليّ أن أكذب. لا أفضل ذلك. يناسبني أكثر أن أكون صانعاً للرموز؛ سواء كان سياسياً أم شوكلاتة؛ فالتقنية واحدة.

فكر "ماكسيم" بينه وبين نفسه: "قد أرغب في مرشح رئاسي. ليس المرشح الرئيسي وليس معارضه الأقوى، هذه القطع من الكيك أكبر من قدرتي على البلع، قد أختق بسببهم. لكن أعطني فلاحاً "سبييرياً"، حطاباً قاسياً معه بلطته. شخص يمكنه أن يزار ويخور من أجل الناس العاديين ويحصل على واحد ونصف الواحد فقط من الأصوات في الانتخابات. تموله معادن لا حديدية. ويكون لديّ عقد حصري معه!"

قال "الجنين":

- بالمناسبة، إن الشوكولاتة التي تصنعها ما هي إلا قمامة مقرفة، لم يكن من المفترض على الإطلاق إعطاؤها للأطفال. يمكن إعطاؤها فقط للشقراوات من العصر "البلاستيكي" كي يبتعدن عن طريقنا بأسرع وقت ممكن.

رد عليه "ماكسيم تي يرماكوف" في تحد:

- كما لو أن جميع السياسيين لدينا كانوا قديسين، فقط حاول أن تتخيلهم في صورة مجردة. ركز عينيك عليهم جيداً! إما أن يرسل المكتب مديراً أحقق تماماً، أو صبيًا جميل الشكل مرتدياً رابطة عنق أبيه، أو لواء رأسه كبير. إنهم يستطيعون التمثيل أفضل بكثير من أي ممثل تليفزيوني. يبدو أن اختيار السياسيين يكون على أساس أن يجعلوا المهمة الإبداعية للتقنيين السياسيين أصعب. لكنني لا أخاف الصعوبات! في الواقع أنا أستمتع بها. هل رأيت فكرتي الإبداعية الأخيرة التي بها عارضة أزياء جميلة تستحم في مجرى من الشوكولاتة الثقيلة كأنها في حمام سباحة؟ تجعلك ترغب في لعقها بالكامل. لكن لو كانت الشوكولاتة نفسها جيدة لأصبح العمل بأكمله مملاً.

عند هذه النقطة، صدر صوت عالٍ من أعماق أحد الرجال؛ من مكان ما بداخله، كما لو أنه منبه سوفيتي قديم من الصفيح. فتح الرجل معطفه كاشفاً عن العديد من الأجهزة التقنية، متضمناً سلاحاً غريب الشكل يشبه مجفف الشعر. نزع الرجل خطافاً من لوحة مسطحة بيضاوية صغيرة وحملها أمام رئيسه بإيماءة سريعة. ضغط "الجنين" على سلسلة ملتوية رفيعة على اللوحة وفجأة صمّت أذنا "ماكسيم تي يرماكوف" مما جعل رأسه مظلماً من الداخل أكثر من ظلام الغرفة. قال "الجنين" شيئاً في تليفونه الخاص بأمن الدولة. أصدر التليفون صوتاً؛ بدت مستويات خفية من المكان تنبسط وتكسو المحيط حول "ماكسيم تي يرماكوف" بالرغوة، تندفع في مواجهة وعيه، والمصابيح بالثرثرا انتفخت، تحرك الضيوف غير المدعوين مصدرين همساً كريهاً خبيثاً كالخنافس في علبة كبريت. بعد ذلك عاد الصوت فجأة، لكن بعمق غريب وخشن.

أخبره "الجنين"، بعلو صوته:

- ستزول الأحاسيس المزعجة قريباً. في الحقيقة، لقد حان موعد رحيلنا. لكن أود أن أقول بعض الكلمات عن الحرية قبل مغادرتي. يظهر على الشخص أن لديه الكثير من الحريات، هيئاً، فلتمد هذه الحريات في كل الاتجاهات كما تشاء! لكن هناك حرية واحدة أصيلة؛ ألا وهي التصرف السليم. لسوء الحظ إن كل الرجال عميان. إن لديهم آراء عن كل شيء، لأنهم يشعرون بالحاجة لأن يكون لديهم آراء. لكن هناك بعض الأمور التي يمكن أن يتخذ الإنسان قراراً بشأنها معتمداً على خبرته الشخصية. كل الأشياء المهمة متصلة بالإنسان عن طريق التليفزيون. يمكن لشخص كيف فقط أن يتحرك بثقة لو أنه يعرف ترتيب الأغراض في منزله ولديه فكرة تقريبية عن كيفية ترتيب الأشياء خارج منزله. قد يكون العالم غير متمائل على الإطلاق مع تصور

الشخص الكفيف عنه. لكن لو تصرف الكفيف التصرف السليم، فلن يصطدم بأي شيء، ولن يعرف حتى بوجودنا على الإطلاق.

بقوله ذلك، نهض "الجنين" عن الكرسي ذي المسندين ببذلته الحمقاء ذات الانتقاعات التي أفصحت عن وجود معدات مخبأة أسفلها أو مجرد عظام بارزة ببشاعة. هرع أحد الرجال إلى الخارج وتحدث مع أحد في الأسفل. بالحكم على الأصوات التي سمعها، فإن السلام بأكملها ممثلة بالمتنبئين الاجتماعيين، من المدخل وحتى الطابق الأخير.

قال "الجنين" وهو ينظر إلى "ماكسيم تي يرماكوف"، الذي لا يزال مذهولاً ولم يزل عنه الصمم بعد ولم يتمكن من فصل نفسه عن الوسادة، والتي بدت كأنها محشوة بالمادة نفسها الموجودة داخل رأسه المظلم:

- لقد فاجأتني يا "ماكسيم تيرينتيفيتش". ظننت أنك ستعود من متجر "أوروبا" مصدومًا، ولذلك أحضرت لك معالجًا نفسيًا.

أشار إلى أحد حاشيته والذي بدا كالأخرين بالضبط، ثم أكمل "الجنين" كلامه:

- حسنًا، إنك لا تزال تقدرّ الموقف كليًا. سأتركك الآن يا "ماكسيم تيرينتيفيتش" مع تعاستك. فكما تعرف بالطبع، ليس بإمكاننا انتهاك أحكام القانون. لكن بإمكان المواطنين الذين لا صلة لهم بلجنتنا فعل ذلك. تذكر ذلك.

اختفى الضيوف غير المدعويين واحد تلو الآخر من أمام "ماكسيم تي يرماكوف"، كما لو أنهم تحلّوا وسط هواء الشقة البالي. كان الصوت الأخير هو الصوت المزعج لمفتاح يدور ثلاث مرات في القفل. مدّ "ماكسيم تي يرماكوف" يدها مرتعشة ليحمل ريموت التلفزيون. فتحت الشاشة على صورة مرعبة: حريق متموج كقنديل بحر أمام سماء باهتة الإضاءة، وطائرات هليكوبتر تتلألأ باللون الوردية، ونصب تذكاري أسود، متداخلين معًا وسط الدخان الأسود المتصاعد تجاه السحاب.

قال صوت إخباري أنثوي جميل وقلق بسرعة شديدة:

- طبقًا لمصادر عديدة في إدارة خدمة مكافحة الحرائق بالدولة في "كازنويارسك"، فإن الحريق يغطي منطقة تبلغ مساحتها أكثر من أربعة آلاف متر مربع.

استلقى "ماكسيم تي يرماكوف" على ظهره وهو يضحك بوحشية.

إذًا، فإن لديهم مفاتيح. كانت أول فكرة طرأت برأس "ماكسيم تي يرماكوف" هي أن يغير القفل بأسرع وقت ممكن. باب شفته مغطى بقماش أسود شبيه بالجلد، وهو النوع نفسه المستخدم لتغطية الكتب القديمة في مكتبات المقاطعة، وهو يحتوي على ثلاثة أقفال، واحد منها صالح للاستخدام والأخرين تالفان، متحجران كحفرات الحيوانات المنقرضة على اللوح الحديدي المخدوش للباب. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالاستياء قليلًا عندما حسب كلفة تغيير الحفرات بشيء فعّال، مثل نوع "دوري" أو "ريف"، لكنه تمكن من العثور على عرض مقبول على الإنترنت وحجز موعدًا ليأتي إليه صانع الأقفال الذي وعده بالمجيء خلال أسبوع. كان يدرك كليًا أن بإمكان المتنبئين الاجتماعيين الدخول وقتما شاءوا على كل حال، لكن من

حيث المبدأ لم يُرد أن يترك بابه بلا دفاعات بينه وبينهم. سيُري الرجلين اللذين جلسا على النافذة المطلة على السلم ويأكلان الساندوتشات المنتقخة أن الهدف كان يفعل كل ما بإمكانه فعله لوضع الصعوبات في طريقهما.

كل ما تبقى الآن هو مشكلة وجود مالكة الشقة - لم يُرد "ماكسيم تي يرماكوف" إعطاءها أي مفاتيح. كانت مالكة المنزل تُدعى "ناتاليا فلاديميرنوف"؛ أو "ناتاشا" فقط، كما طلبت منه أن يناديها، على الرغم من أنها كانت تقترب من الخمسينيات. ضخمة وثرثارة، ودائمًا ما ترتدي معطفًا ورديًا، ذات صفائر مصبوغة بالأصفر والتي بدت أكثر زيفًا بسبب الخصلات البيضاء التي نمت بينهم. استخدمت "ناتاشا" تجارتها في العديد من المنافذ الإعلامية الضعيفة كمراسلة أو وكالة إعلان.

حاولت "ناتاشا" مرات عديدة أن تقترح على "ماكسيم تي يرماكوف" توجيه جزء من ميزانية الإعلان لديه إلى الجرائد المسائية، والمجلات الأدبية والمواقع الشبابية التي تمثلها هي، واقترحت عمولة بسيطة لنفسها لتوضح أن نيتها نزيهة. بطبيعة الحال، مع نوعية المنتجات الذي ينتجها "ماكسيم تي يرماكوف"، فإنه سيكون مجنونًا لو استخدم وسائل كهذه. أصاب رفضه مالكة المنزل بنوع من الغضب اليائس. ظلت تتحدث لساعات طوال عن كيف أنه لا أحد يدفع لها أجرها في أي مكان. عندما كانت "ناتاشا" تقابل شخصًا جديدًا، كان أول شيء تفعله هو السؤال عمًا يجنيه ذلك الشخص من المال. كانت تسأل بفضول حيوي في صوتها ولمعان في عينيها الواسعتين الرطبتين والمنتخختين. وقيل أن تُوَجَّر له الشقة، أعطتها "ناتاشا" مسحة تافهة من التجديد: ألصقت ورق حائط فضيًّا، ووضعت على الأرض بلاطًا بسيطًا وزلقًا للغاية، وعلقت ستائر شفافة أشرقت الشمس في الصباح من خلالها كأنها زجاج. حتى بعد مرور أربع سنوات، ظلت كل هذه الأشياء جديدة في نظر "ناتاشا"، وعندما جاءت لتجمع الإيجار، كانت تبحث بقلق عن بقع التراب، حيث تفركها بإصبعها الذي مرت به على جميع الأسطح.

عندما سمعت أن "ماكسيم تي يرماكوف" سيشتري شقة خاصة به، عرضت عليه ببساطة سعرًا لشقتها ذات الغرفة الواحدة والذي كان ضعف سعر السوق حينها، مفترضة أنه بما أن هناك شخصًا انتقل للمعيشة في إحدى شققها، فليس هناك أي داعٍ لأن يترك المكان مرة أخرى.

"لو أن "ناتاشا" رأت الأقفال الجديدة ولم تحصل على أي مفاتيح، فإنها ستظن أن الحَمَّام قد دُمر".

هكذا فُكَّر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يأخذ المصعد إلى شقته في الدور السابع وهو لا يزال أيضًا يشعر بالاستياء من لقائه الممل مع "كراب" ووجوه زملائه الملتوية حيث بدا الجميع كأن أفواههم مُسحت كرهًا، والأظافر الشبيهة باللؤلؤ لرئيسته المباشرة "إيرينا كونستانتينوفا" - أو "إيكا"، حسب النطق في اللهجة العامية - والتي ظلت تنقر بها على المكتب لنحو ساعتين.

عندما رأى باب شقته، ارتد "ماكسيم تي يرماكوف" إلى الوراء في ذهول. كانت عبارة "مُت أيها الوغد" تلتخ اللون الأسود لبابه. كان الطلاء حديثاً، ورائحته قذرة. ظل يقطر على الأرض بقطرات بيضاء رقيقة، وكأنه ينشر جزوراً صغيرة. أمسك "ماكسيم تي يرماكوف" بقطرة ناعمة بإصبعه ومسحها في الباب وهو يشعر بغضب جارف.

كالعادة، جلس رجلان مكتوفا الأيدي على السلم. لديهما وجهان محترقان يمكن للناس في الشوراع التعرف عليهما بسببها لنعومتها الشبيهة بنعومة الحصى. كانا على وشك تناول عشائهما؛ صب أحدهما شايًا قوياً من إبريق خرج منه بخار كثيف. فتح الآخر فمه على وسعه لإدخال ساندوتش بدا كقفاز من الخبز يقبض على قطعة سجن.

زمجر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يركض على السلم متجهاً للأسفل إليهما ولا تزال لطفة الطلاء البيضاء على إصبعه:

- من فعل ذلك؟ من؟ أنتما تجلسان هنا، فيم تستخدمان أعينكما إذًا؟ عليكم اللعنة.

نظر المنتبان الاجتماعيان إلى بعضهما بعضاً نظرة خاطفة وهزاً كتقيهما في غير اهتمام. ظلا بعد ذلك يحملقان في "ماكسيم تي يرماكوف" بزوجين من الأعين يشبه نقاءهما نقاء الخرز الزجاجي ولم يعبرا عن شيء سوى الدهول. ظل "ماكسيم تي يرماكوف" يصرخ:

- لقد أفسدا باب شقتي، هل منعكما كسلكما من إيقافهم؟

كان غضبه يتزايد مع مرأى استمرار الحياة، مع قطع كبيرة من الطماطم وقطع الفراخ المسلوقة الوردية كقلوب صغيرة تتماوج على طبق ورقي. أجابه الرجل الذي يحمل الساندوتش ببرود:

- سيد "يرماكوف"، نحن لسنا حارسيك الشخصيين.

أضاف الآخر:

- كما أننا لا نقدم تقاريرنا إليك.

صرخ "ماكسيم تي يرماكوف":

- يا لكما من حقيرين! وجبة سعيدة!

أوماً له برأسيهما في هدوء.

مر "ماكسيم تي يرماكوف" عبر الممر بحذر. أمسك الباب المنتهك من مقبضه بسبابته وإبهامه كأنه يمسك ذبابة ضخمة من جناحها. على الرغم من حذره الشديد، فإنه وجد علامات بيضاء على معطفه الثمين، كأن أحدهم مسح بقماش الكشمير الثمين على الطلاء. نظر في ساعته وأدرك أن موعد صانع الأقفال حان وأنه قد يأتي في أي لحظة ومعه الأقفال الجديدة. كان من المستحيل أن يستقبل أي زوار مع وجود تلك الكتابة الحديثة اللزجة على الباب. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بخجل طفولي بعض الشيء بسبب ذلك. اتصل بالشركة بسرعة وكان يسب بين كل كلمة

وأخرى في أثناء رده على الصوت الوقح للموظفة التي كانت تعطيه درسًا في آداب العمل. كان الشيء الوحيد الذي أراد أن يفعله هو أن ينتهي هذا اليوم لكي ينظف معطفه. ملأ حوض الاستحمام. ذكره صوت انبعاث المياه بأصوات الاحتكاك التي يسمعها وهو قريب من السكة الحديدية. عندما رن جرس الباب بغضب محموم. أطلق "ماكسيم تي يرماكوف" اللعنات وخرج ليفتح الباب مرتديًا الروب الغالي فوق جسده المبلل. حاول الإسراع، وهو يحاول ربط حزام الروب، والبحث في الوقت نفسه عن خفه. خفق صوت الجرس محتويات رأسه إلى رغبة غامضة، محافظًا فقط على فكرة ما سيفعله مع صانع الأقفال الذي حضر على كل حال ليحني "كوبيك" ونصف جراء حل مشكلات الناس. فتح "ماكسيم تي يرماكوف" الباب دون أن ينظر من العين السحرية.

وقفت "ناتاشا" أمام الباب. اتسعت عيناها الرطبتان، وارتفع حاجباها لدرجة أنه ظن أنهما أصبعا جزءًا من شعرها. رفعت إصبعها في وجه "ماكسيم تي يرماكوف" دليلًا على الغضب العارم. لطخت الكتابة البيضاء على الباب الأسود عدة أماكن بما في ذلك الجرس نفسه، الذي بدا وكأنه حشرة ضخمة. سألته "ناتاشا" بصوت مرتعش:

- ما هذا؟ ماذا يحدث؟ ما هذه المفاجأة التي حضرتها من أجلي؟ من الوغد؟ أنا؟ هل تقصدني أنا بتلك الكلمة؟

أجابها "ماكسيم تي يرماكوف" باستياء:

- ما الذي يجعلك تقولين هذا؟ أتظنيني من فعل هذا؟ إنهم بعض الحمقى.

سألته غاضبة وهي تتقدم داخل شقته وإصبعها ما زال معلقًا أمامه وهي تحمل حقيبة يدها المنتفخة الوردية القذرة:

- لماذا ترتدي هذه الملابس؟

يا إلهي! رأى "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه من الخارج. لم يُغلق الروب القديم فوق معدته الضخمة، وتدلّى منه حزام أحمر بئس. الرب وحده يعلم ماذا رأته تلك العاهرة الحقودة في أثناء وقوفها أمامه بمعطفها الجلدي الخشن الذي يشبه الورق المقوى ومُلصق عليه فرو قط. قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يجذب أطراف الروب معًا:

- هل كان بيننا موعد اليوم؟ أعطيني لحظة واحدة، سأذهب لإرتداء ملابسني.

قالها ثم التف ليعود إلى الحمام. نادته المرأة قائلة:

- لم يكن بيننا موعد؟ حسنًا، إن هذا جميل! اليوم هو الثاني في الشهر! ألن تدفع إيجار الشقة؟ لا تشغل بالك بي، يمكنني أن أعيش على الخبز والماء. لكن من سيعتني بأمي المريضة؟ إنك تعيش في شقة أُمي بالمناسبة.

كان ذلك صحيحًا؛ إنه الثاني من فبراير. ذكرته "ناتاشا" بعناد شخصية "دون خوان" في مسرحية "الضيف الحجري" لبوشكين. إن حقيقة أن "ماكسيم تي

يرماكوف" يعيش في شقة أمها، أي إنه محى وجودها من العالم ومحى أي أثر لها تركته خلفها في الشقة؛ المكتب الحزين ذا بقع الحبر العتيقة والأدراج ورائحتها التي تشبه رائحة القبور. على نحو ما فرضت على "ماكسيم تي يرماكوف" مسؤوليات أخلاقية زائدة. حاولت "ناتاشا" تحويل ذلك الشعور بالذنب إلى إيجار إضافي. تمت "ماكسيم تي يرماكوف" ببعض الكلمات الغامضة، وهو يرتدي قميص العمل المتعرق وياقته الباردة، ثم ارتدى البنطلون وأغلق أزراره. عدّ الثلاثين ألف "روبل" الخاصة بالإيجار.

سمع من مكانه في المطبخ صوت المياه تتساب من حوض الاستحمام بجرات جمهورية كأن كهفًا كاملاً يتقياً بكل محتوياته.

قالت له "ناتاشا" بتوتر وهي تفحص السطح العاكس للبتواجاز من عدة زوايا مختلفة حيث كان عليه أثر باهت لقدر صغير يشبه خسوف القمر في سماء سوداء:

- عليك أن تفرغ المياه كي لا تتسرب، و عليك تنظيف البوتواجاز بمنظف خاص كي تتخلص من هذه الآثار القذرة.

عدت "ناتاشا" الإيجار ثلاث مرات. تركت أصابعها الرطبة والمغسولة - والتي تزينها بأحجار كريمة ضخمة - قطرات من المياه على المال. أشارت "ناتاشا" بسبابتها إلى أحد جانبي الباب - كان إصبعها يشبه إصبع "ماكسيم تي يرماكوف"؛ حيث بدا وكأنه مغطى بنوع من العفن الأبيض. سألته بصوت وقح بعد انتهائها من عدّ النقود:

- حسناً، وماذا عن الباب؟

- لست أنا من أتلف بابك اللعين. اطلبي من الذي فعلها أن يدفع ثمن إصلاحه!

- هل تظن أنني سأبدأ بتحقيق جنائي؟ أنت من يعيش هنا؛ إذا فأنت من عليه أن يدفع. أنت تدين لي بمبلغ خمسة عشر ألفاً مقابل ذلك، هذا إذا لم تكن تريد أي مشكلة خطيرة.

أجفل "ماكسيم تي يرماكوف" وصاح:

- لا يكلف باب جديد كل هذا المبلغ.

أجابته "ناتاشا" بحسم وهي ترفع صوتها:

- كيف لك أن تعرف تكلفته وأنت لا تدفع ثمن التوصيلات أبداً! لقد أنفقت آخر نقودي على تلك الأرضية وعلى ذلك الباب وعلى شراء البلاط! لقد أصبحت مدينة بسببك. لم أكن مدينة بهذا القدر في حياتي قط. بهذا القدر القليل الذي أجنبيه من المال، فإن تكلفة تلك التوصيلات تساوي مليوناً لأي شخص آخر.

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" بأقصى ما أمكنه من هدوء وهو يخرج سيجارة:

- أخبريني يا "ناتاشا"، هل تعتقدين أنك عندما تؤجرين الشقة لأحدهم، فإن تلك التوصيلات ستصبح جديدة أكثر من السابق؟

صاحت "ناتاشا" وهي تصفع يد "ماكسيم تي ييرماكوف":

- لا تدخن في الشقة! كل الرجال يدخنون في الخارج على السلم!

ارتعد "ماكسيم تي ييرماكوف"، عندما أدرك أي رجال تقصد. قال بحقد واتجه لغرفة النوم بخطوات طويلة سريعة:

- حسناً، لن أعطيك خمسة عشر، سأعطيك سبعة.

صرخت "ناتاشا" بعد كلامه:

- تسعة!

داهم "ماكسيم تي ييرماكوف" مخبأ نقوده مجدداً، وأمسك رزمة أمواله المتضائلة أمامه، وهو يشعر كشجرة القيقب في الخريف بأوراقها المتساقطة بفعل الرياح. أخذ منها تسع ورقات من فئة الألف. ظل واقفاً في مكانه مع النقود، ثم أعاد ورقة واحدة لمكانها، كأنه يقوم بحركة صغيرة حذرة في لعبة الأوراق. فكر وهو يعيد ماله مجدداً أسفل غلاف مذكرة مواعيده القديمة:

- حسناً، عليك اللعنة. امرأة بلهاء تحاول أن تحتال عليّ لتحصل على مالي كما لو أنني لست في حاجة إليه، وأنا لا أستطيع أن أحتال على هؤلاء الحمقى. لماذا؟

زمت "ناتاشا" شفثيها قبل حتى أن تنهي عدّ النقود المكونة من فئة الألف، لكنها لم تقل شيئاً. وضعت المال في حقيبة يدها بتهيدة مستسلمة. أعدت لنفسها كوباً كبيراً من القهوة من مؤن "ماكسيم تي ييرماكوف". أصدرت الملعقة داخل الكوب صوتاً خشيباً وطافت خطوطاً بنية على السطح كالطلاء؛ الآن عليه انتظارها حتى تنتهي من الشرب.

لم تكن "ناتاشا" متعجلة. ملأ استياؤها المطبخ الصغير، مما جعل الصباح الضعيف المعلق في السقف باهت اللون يرتعش؛ وكأن مالكة المنزل امتصت طاقة المكان لكي تتمكن من إكمال الشجار معه. لم تكن تنوي ترك الأمور تنتهي عند ذلك الحد؛ صاحت:

- عليك تنظيف ذلك الباب بطريقة صحيحة. لن أسمح بمثل تلك الكلمات أن تُكتب على باب شقتي. نظفها بالبنزين! أنت لديك سيارة، إذاً خذ البنزين منها ونظفه.

رد عليها "ماكسيم تي ييرماكوف" بشعور ممتزج بالحسم والندم لعدم سيطرته على أعصابه:

- لقد دفعت لك مقابل الأضرار، الآن عليك أنت أن تنظفيه.

قالت "ناتاشا" ووجهها يتحول إلى اللون الوردي والذي بهت على ملابسها:

- أنا؟ عليك أن تخجل من نفسك! أقترح شيئاً كهذا على امرأة أكبر منك؟! إذاً عليّ أن أطعم أُمي طريجة الفراش بملعقة وأغسل أغراضها المتسخة ثم بعد ذلك أنظف الباب من أجلك؟ إنني أتحدث معك بجدية، لقد حذرتك؛ إذا كنت لا تريد افتعال مشكلة خطيرة معي، فعليك أن تتصرف كشخص محترم. إن بيننا عقداً رسمياً، وأنا

أعرف أين تعمل، بإمكانني كتابة شكوى إلى شركتك، ثم سنرى كيف يرى مديروك هذا الأمر.

كان "ماكسيم تي يرماكوف" يعرف أن الأمر لن يروق لهم على الإطلاق. إن إرسال رسالة طويلة إلى الشركة يعد بمنزلة إرسال شكوى إلى لجنة الحزب في الزمن السابق. قد يلقون بقطعة الورق الحقيرة في صندوق القمامة، أو يدرسونها ويكتشفون أن قيم موظفهم المحلية أصبحت مخالفة لقيم المؤسسة وأضرت بصورة الشركة. في الواقع، كان "ماكسيم تي يرماكوف" في مكانة مميزة تلك الأيام. كان يمر وسط المكاتب كالشبح. يتجنب زملاؤه النظر إلى عينيه، كما لو أن بإمكانهم جميعاً رؤية الدم المتجلط حول ثقب الرصاصة المزعومة في جبهته. بطريقة ما، بدأ وكأن باستطاعتهم التخمين بأن حالة رأس "ماكسيم تي يرماكوف" لم تكن مماثلة لرؤوس الأشخاص الطبيعيين. شعر وكأنه زجاجة صغيرة دون غطاء؛ وكل شيء ينسكب منها. لم تلق فكرته المبتذلة بخصوص عيد الحب أي اعتراض في أثناء اجتماع اليوم. اقترح عليهم تصميم قلب من الشوكولاتة يخترقه سهم يشبه هيكل السمكة. لم يعلق أحد أي تعليقات ذكية معارضة. تظاهر الجميع بأن "ماكسيم تي يرماكوف" لم يعد موجوداً.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" و"ناتاشا" تحدق فيه بجدية وتستند بمرفقها الثقيل إلى الطاولة:

- اكتبني خطابك القذر، لا يهمني. كل ما سنتعلينه هو أنك ستضيعين وقتك لا أكثر.  
قالت "ناتاشا" بسخط:

- يا لك من مغفل وقح! نتحدث بجدية في الأمر.. لدي الحق في معرفة ما يحدث!  
- لماذا؟

تذمرت "ناتاشا" وهي تبدو كدجاجة ضخمة ذات ريش مجعد:

- ماذا تعني بـ"لماذا"؟ ما الذي تعنيه بها؟ إن القوات العسكرية تراقبك لأكثر من أسبوع الآن! لطالما كنت أنا وأمي فقيرتين، لكننا محترمتين! والآن، يحدثني الجيران الذين أعرفهم منذ أن كنت طفلة بشأنك؛ يقولون لي: "ناتوشكا"، إن القوات العسكرية تراقب مستأجرك الآن. إن لدينا كميناً هنا، بإمكانهم البدء بإطلاق الرصاص في أي وقت. من يدري ما الذي قد يحدث للشقة الآن، عليك أن تأتي لتسوية الأمور!"

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" باستياء:

- وما شأنهم بذلك الأمر؟ ما الذي جعلهم يظنون أنهم من القوات العسكرية؟ ولماذا قرروا مراقبتي أنا؟ ربما قرروا مراقبة مدمني الكحوليات بالطابق الخامس؟ ما الذي ينبغي عليّ القيام به؟ إنهم هم الذين يحتفلون دائماً دون توقف ليلاً ونهاراً. إن مالك الشقة، السيد "فاسيا" لا يتوقف أبداً. إنه لا يفعل سوى إحضار العاهرات وزبائنهن. إنه سيئ السمعة تماماً. أنت تتحدثين عن أشخاص محترمين وسلم محترم! أحياناً، أرى في الأسانسير وجهًا وأحلم به طوال الليل بعدها. إن "فاسيا" هو أكثرهم

“وسامة” بذقنه المحروق وقبعته التي جاء بها من صندوق قمامة. افترض أنهم راقبوه هو أيضًا وهو يتقدم في السن. ربما كان زميلك في الفصل الدراسي ورقصتما معًا في حفل التخرج!

صاحت “ناتاشا” بسخط:

- لا تتجراً على التحدث بهذا الشكل عن “فاسيا شوتوف”! لقد كان رجلاً طيباً، وقد اعتاد شراء أدوية غالية الثمن لأمي. لقد بدأ بتناول الكحوليات منذ ثلاث سنوات فقط. في البداية، كان يؤمن بالرب، ثم اتجه إلى الشرب. أنت لم تفعل أي شيء من أجل أمي، لذا لن أسمح لك بالكلام عنه.

تتنح “ماكسيم تي يرماكوف”. كان من الصعب عليه تماماً تصديق أن “فاسيا” مدمن الكحول يشرب منذ ثلاث سنوات فقط. لو أن هذا صحيح، فإن “فاسيا” يقود حياته بسرعة رهيبية. لو أن قدره قد تحول إلى اتجاه آخر، ففي الفترة الزمنية نفسها كان بإمكانه مثلاً بناء مصنع كامل. أصبح الآن مسخاً منقوس الساقين ذا وجه يشبه اللحم المفروم، ورغبة لا حدود لها في عينيه المنقوعتين في الفودكا في الشر أو ربما في البطولة! طوال الليل، تصدر من شفته أصوات مكتومة للثمالي المبتهجين. كانت الشقة البغيضة تهتز كصندوق من الورق المقوى الممتلئ بزجاج مكسور. كان رجل القوات العسكرية المحلي ذو الأنف الأحمر والشعر الجميل كالأوزة يمر بعينه بين الحين والآخر، في الواقع لقد كان يمضي الكثير من الوقت هناك. كان “فاسيا” مدمن الكحوليات من مواطني موسكو الأصليين؛ فقد نشأ هنا، في هذه الضاحية ذات المباني الرمادية الباهتة والرياح القوية التي تهب من كل الجهات - ولهذا كان يُعدُّ أكثر ثقة من أي شخص دخيل يُوجر شقة صغيرة مقابل مبلغ ضخم.

سألها “ماكسيم تي يرماكوف” بحدة:

- لا يهمني كل ذلك، ما السبب الذي جعلكم جميعاً تظنون أن هؤلاء الناس يراقبونني أنا؟

صاحت “ناتاشا” بانتصار:

- إنه سبب قوي للغاية! لقد اتفقوا مع “ماريا أليكساندروفا” صاحبة شقة رقم 406 على استخدام حمامها. إنهم أشخاص متحضرون، لا يتبولون على السلم. كما أنهم أروها بطاقتهم، ويدفعون لها مبلغًا يساوي ما تدفعه أنت من إيجار. خصصت “ماريا أليكساندروفا” لهم منشفة وقطعة صابون. كما أنها دعتهم لبيتناولوا غداءهم في مطبخها كي لا يضطروا إلى الأكل في الشارع، حتى إنها قدمت لهم الشاي. لكنهم قالوا لها: “لا يا سيده” كالبازينا، لا يمكننا فعل ذلك، علينا مراقبة شقة 410”. أشعرها ذلك بالتوتر، لكنها سألتهم: “لماذا؟ ماذا حدث؟” فقالوا لها: “إننا مهتمون جداً بالمستأجر المقيم في تلك الشقة”. بَمَ تفسّر ما قالوه لها إذا؟ بالإضافة إلى تلك الشخصيات الغريبة التي تتجول في الفناء طوال الوقت! بالأمس فقط، أخذت “ماريا أليكساندروفا” كلبها للتنزه وكانوا يقفون هناك حاملين لافتات مكتوبًا

عليهم: "مت أيها الوغد!" لقد كتبوا تلك العبارة على بابك أنت، وليس أي أحد آخر! لكن هذا الباب ملكي أنا!

بينما تتحدث، وتحرك فمها الملون الصغير بسرعة، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بظماً غريب يملأ وجوده بالكامل، وكأن بعض العناصر الرئيسية من جدول "مندليف" الدوري قد سُحبت من داخله. أخرج سيجارة جديدة دون أن ينتبه. رفعت "ناتاشا" حاجبيها الرفيعين، فرد عليها بنظرة متحدية من خلف دخان سيجارته المتصاعد فسعلت وهي تشرب المياه. ملأت الأنفاس الأولى جسده بإحساس ممتع، وتسببت في دوامات بداخل رأسه، وبداخل تلك الدوامات، التي كونت الأشكال الطيفية للعقل، بدأت تتكون فكرة جذابة.

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يعطيها منديلاً لأن لديها نقطة من القهوة تسري على ذقنها الضخم الممتلي:

- إذا أنت تريدين نقوداً؟

زمرت المرأة بدورها قائلة:

- وهل يبيع أحد شيئاً دون مقابل؟

- حسناً إذاً، سأعطيك قصة من النوع الذي يخلد اسم الصحفي للأبد. شهرة عالمية! والمال سيتبعها. حسناً، الموضوع كالاتي: حقوق الإنسان وانحراف جديد في استهانة جهاز المخابرات الروسي بالقانون. لأنها ليست القوات العسكرية من تقف مراقبة على سلال منزلنا، إنها القوات الخاصة؛ أو بالأحرى، لجنة الدولة للعيونة لدفع المواطنين إلى الانتحار!

بدأت حقيبة "ناتاشا" اليدوية بالانزلاق تدريجياً على ركبتيها الرخوتين. استمعت إليه وهي تتنفس من فمها المفتوح، وكأنها وضعت في فمها طعاماً ساخناً للغاية لا تستطيع ابتلاعه. حاول "ماكسيم تي يرماكوف" أن يصف لها رجال اللجنة الخاصة المدججين بالمعدات الغربية، وأفكارهم الغربية عن علاقات السبب والتأثير وانتهاكهم للحقوق المدنية.

بالطبع، لم تكن "ناتاشا" هي أفضل اختيار محتمل كوكيل إعلامي، وقد شعر بالأسف لتضييع القصة عليها. لكن، وببدي على صدره، كاد "ماكسيم تي يرماكوف" أن يعترف لها بأنه اخترع وجود الصحفيين الكبار الذين أراد استخدامهم لإخافة مسوخ لجنة الدولة. كان بالفعل يعرف بعض الأفراد من أقسام الدعاية والإعلان لبعض الوكالات الإعلامية المؤثرة. كان أغلبهن نساءً ناجحات، وصغيرات في السن، لكنهن لا يصرحن بأعمارهن الحقيقية. كن ذوات بشرة ناعمة، وترتدين الملابس الأنيقة والنظيفة. لم تختلفن كثيراً عن جميع من يعمل في هذا المجال؛ إن كل ظاهرة في العالم تُعد فرصة من أجل الدعاية الذاتية. والوظيفة الأساسية هي الحصول على المقابل المادي قبل أن يتم الإعلان عن أي شيء. كانوا الورثة المينافيز يقيين للرقابة السوفيتية، وإن عملية إزالة الحشائش الضارة الخاصة بحقل

الواقع اختزلتها إلى مجموعة من الأدمغة الصلحاء، والتي أشعرت حتى "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه بالذعر.

تعرف "ماكسيم تي يرماكوف" على بعض العاملين في مجال الإعلام في أثناء عرضه لمنتجات شركته، وفي أثناء النزاهات التي ترتبها الشركة للصحفيين. ومن ضمن هؤلاء، كان "ديما روجديستينسكي"، والذي دائماً ما يكون نصف ثمل، ويرتدي قميصاً داكناً، ورابطة عنق حريرية فاتحة اللون تبدو كسمكة مخلية لتوها. لطالما بدا غريباً بخديه المملوقين حديثاً. تعرف إلى "ديما" آخر، والذي ظن أن اسمه الأخير هو "كافكوف". دائماً يكون في حالة شديدة من الثمالة. كان يرتدي بنطلون "دينيم" خشناً يبدو وكأنه صنع من جلد الفيل، ومعطف يصل حتى وسطه من القماش نفسه، وبه الكثير من الجيوب. كل ذلك كان مخفياً بعض الشيء خلف ذقنه البني. تعرف كذلك إلى العديد من النساء؛ السمينات، والنحيفات. كانت أسماؤهن جميعاً مشوشة في رأس "ماكسيم تي يرماكوف" لأنه مهما حاول لم يستطع أن يتذكر أي واحدة منهن هي التي ضاجعها في مخيم "شوكينو" بعيداً عن "الشيش كباب" الخاص بالشركة، وبالقرب من الضوء الباهت الومض لعاصفة رعدية بدت كأنها ستغطي جسديهما الرطبين بفراء كهربائي.

كان جميع هؤلاء الصحفيين شبه العاطلين عن العمل يشبهون طبق السمك الصغير.. لم يكن بينهم ذنبٌ سياسي واحد قادر على التلاعب بالقصة وإعطاء ما يستحقه المنتبئون الاجتماعيون بالفعل.

في الحقيقة، كان هناك رجل واحد فقط؛ الوغد الذكي "فانيا جوليكوف"، والذي اعتاد تقديم البرنامج التلفزيوني الساخر "همهمات بين الرتب العسكرية" على قناة "إن إن تي - تي في" قبل ثلاث سنوات تقريباً. كان مشهوراً بهيئته النحيلة وحاجبيه الكثيفين وأنفه البارز والتي تذكر كل من يراها بفأس حجرية بدائية.

ولكن، بسبب الكثير من المشكلات والتحدث في السياسة، طردت القناة "فانيا" شر طردة، ومنذ ذلك الحين، تلاعبت الرياح بالرجل حتى أوصلته أوروبا، والتي عاد منها ممتلئاً، ويبدو كفأر مسالم.

التقى "ماكسيم تي يرماكوف" به صدفة، في بارات ونوادٍ عشوائية، ذات الكنب الدافئ من كثرة الجلوس عليه ومرايا الحمام اللزجة بفعل الثلج. على الرغم من الخبث الفطري الذي منع "ماكسيم تي يرماكوف" من أن يكون عضواً دائماً في مجتمع النوادي في موسكو، فقد أنشأ هو ومدمن الحفلات "جوليكوف" علاقة تضمنت ترتيباً انتمائياً متبادلاً بسيطاً لمبالغ قليلة كانت تُنسى في الحال، حتى ينسيا بسرعة من يدين لمن بكم. ولدت هذه الألفة المالية غير المألوفة ألفة روحية بين الرجلين: المحادثات التي دارت بينهما، وتجاهلهما لكل الفتيات الجميلات المحيطات بهما يميناً ويساراً؛ انصب اهتمامهما فقط على النظام العالمي، وتقنيات النجاح.

في الواقع، طلب "جوليكوف" من "ماكسيم تي يرماكوف" أن يلقي إليه بأي مادة، أو موضوع، أو أي شيء فاسد حتى يمكنه إضافة مفجر وفتيل إليه لصناعة قنبلة.

للأسف، لا يعرف "ماكسيم تي يرماكوف" أين يقيم "جوليكوف" حالياً. سمع أنه يعمل لصالح محطة إذاعية في "براج" - أو ربما ليس في محطة إذاعة وربما ليس حتى في "براج". كان إيميل "جوليكوف" يجيب برسائل أوتوماتيكية بأنه غير متاح للرد على الإيميل، ويعلن رقم التليفون بأن "الرقم غير موجود بالخدمة".

أمّا بالنسبة لـ"ناتاشا" فكانت قصة "ماكسيم تي يرماكوف" هي فرصة رائعة لم تكن تستحقها في الحقيقة. ولكن، وبطريقة ما، فشلت تلك الهدية في منحها أي نوع من السعادة؛ كلما أفصح "ماكسيم تي يرماكوف" عن المزيد، تحولت البقع الوردية على وجهها المتهدل إلى لون الرماد.

سألته في غضب عندما توقف لدقيقة أو أكثر كي يرفع جزءاً غير ثابت في زجاج النافذة المزدوج ويثبتته في مكانه بضغطة على مقبض النافذة:

- أتريدني أن أدافع عنك في الجرائد؟

ارتعش اللوح الزجاجي المفتوح كالشراع أسفل هجوم الأمطار الشديد الذي كان ينثر بالمياه إلى الداخل. لوهلة ظن "ماكسيم تي يرماكوف" - وهو يصارع لإغلاق النافذة - أنه لمح حركة في الأسفل. فتح العديد من المارة مظلاتهم في الوقت نفسه، واستقرت طبقات من الثلج الرمادي حول حواف الرصيف فبدت وكأنها رغوة صابون.

سألها وهو يلتفت:

- آسف، ماذا؟

صاحت "ناتاشا" وهي تنهض عن كرسيها:

- قلت إنك تريد استغلالي من أجل أغراضك غير المحترمة. أنا دائماً أبذل كل جهدي لمساعدة الناس، ولقد بذلت مجهوداً من أجلك، لقد ذهبت إلى رئيس التحرير وطلبت منه البدء بحملتك الدعائية. لم تستغل الفرصة حينها. لديّ مستقبل مهني وسمعة أيضاً. لن أضحي بنفسي من أجل عملك مرة أخرى. خصوصاً وأن وضعك أصبح مريباً. تقصد أن تقول إنك قادر على منع الهجمات الإرهابية، ولكنك لا تريد فعل ذلك! كيف إذاً سيشعر أقارب الضحايا تجاه ذلك المقال؟ شخصياً، لست متعاطفة معك على الإطلاق. ماذا لو ركبت مترو الأنفاق غداً وقد زرعوا بداخله متفجرات؟ هل تظن أنني سأحب ذلك؟

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يدير إصبعه بجانب رأسه مولداً زوبعة بداخل رأسه:

- هل فقدت عقلك؟ هل جننت تماماً؟ كيف يمكن لشخص جالس في منزله بهدوء أن يكون مسؤولاً عن قنابل تتفجر في أي مكان؟

قالت "ناتاشا" بغيرسة:

- كل الأشياء تحدث. لقد علمنا النظام السوفيتي بأنه ليس هناك أي شيء مهم سوى الدور القيادي للحزب. لكن انظر الآن كم ظهر معالجون وأشخاص ذوو قدرات سحرية. لقد اعتادوا إخفاءهم عن الشعب في الماضي! لكن كان هناك وسطاء نفسيون يعملون في "الكرملين"، لقد حافظوا على "بريجنيف" واقفاً على قدميه حين كان في الحقيقة جثة هامدة. لذا لا تحاول أن تقنعني بأي شيء مما تقول! السبب الوحيد أنني لا أزال على قيد الحياة هو أن لا وعيي يهتم بي تلقائياً، ليس لديّ المال الكافي لإنفاقه على الأطباء.

هتف "ماكسيم تي يرماكوف" محاولاً أن يؤكد حجته:

- إن الدخل هو ما أتحدث عنه بالضبط! أكرر لك: موضوعي سياسي تماماً. موضوع ساخن للغاية! أنصتي بعناية للكلمات الرئيسية: حقوق الإنسان، والحرية، وجهاز المخابرات الروسي. هل يمكنك أن تتخيلي نوع الأجور التي نتحدث عنها الآن؟

بدأت "ناتاشا" تطرف بعينيها وتقر بخواتمها على المائدة. تصاعدت سحابة رمادية صغيرة من منفضة السجائر التي مألها "ماكسيم تي يرماكوف" حتى حافتها ثم جلس مجددًا على السطح البلاستيكي.

قالت "ناتاشا" وهي ترتعش من الغضب بينما تتحسس من حولها باحثة عن حقيبتها الوردية الملقاة عند قدميها:

- توقف عن محاولة توريطي في هذا الأمر الخبيث! لا أريد الاستماع إلى المزيد! أنا أكتب عن المسرح، عن الثقافة، لو أن هذه الكلمات تعني أي شيء بالنسبة لك! فنانو الشعب يعرفونني، إنهم يقبلون يدي. لقد عملت طوال حياتي من أجل ذلك، والآن أنت ترتب لهذه الأشياء حتى ينبذني الجميع، أليس كذلك؟ هذا هو ما لدي لأقوله لك أيها الشاب. لقد كنت أنوي زيادة إيجارك بسبب الإزعاج والمخاطرة. لكنني أدركت أنه ليس بإمكانني تركك تعيش هنا. أريدك أن ترحل عن شقة أمي في خلال أسبوع، هل هذا واضح؟

بقولها ذلك، اندفعت "ناتاشا" خارج الشقة وهي تجذب معطفها الجلدي البشع وتثبت وشاحها الكاروهات حول رقبتها الممتلئة. صرخ "ماكسيم تي يرماكوف" خلفها:

- أنسيب أن بيننا عقدًا؟ هل قرأته جيدًا؟ ليس لديك الحق في طردني، لم أخرج أي شرط من شروطه!

صاحت "ناتاشا" وهي تلف يديها حول حقيبتها وتندفع إلى السلم:

- لا أهتم بالعقد! حاول فقط أن تظل باقيًا يومًا واحدًا آخر! سألقي ببذلاتك الحقيبة من النافذة!

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يسير خلفها منتويًا إغلاق الباب اللعين: "اللعنة، يالها من عاهرة! تلك العاهرة لديها مشكلات في أماكنها الخاصة!"

وبدلاً من إغلاقه، فتح "ماكسيم تي يرماكوف" الباب قدر اتساعه، وصرخ بأعلى صوت لديه مما جعل السلم الرطب القدر يهتز:

- لن أرحل! فلنضعي حطب المدخنة في مؤخرتك وفي حلقك!

رأى "ناتاشا" تهدده من داخل المصعد بقبضتها البيضاء. ارتعش المصعد كعربة كسيحة قبل أن يسحب حمولته إلى الطابق الأرضي. كان هناك ظلان داكنان لرجلين ذوي أنفين مدببين أمام الخلفية الفضية للنافذة الممطرة. ألقى "ماكسيم تي يرماكوف" حذاءً تجاههما، ثم اختفى دون إصدار أي صوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين كان المسدس كل ذلك الوقت؟

كان المسدس الـ"ماكاروف بي إم إم" في المكان نفسه الذي وضعه فيه "ماكسيم تي يرماكوف" بعد أول لقاء له مع المتنبئين الاجتماعيين. كان مُلقى في الدرج الأوسط لمكتبه، محاطاً بكل أنواع القمامة النافذة؛ مثل أقرص الكمبيوتر المتعطلة وولاعات

سجائر فارغة وأقلام حبر فارغة؛ لقد انزلق إلى هناك، محطماً البلاستيك الهش بوزنه الثقيل. في البداية أمل "ماكسيم تي يرماكوف" أن يختفي المسدس ببساطة؛ ظن أنه لو ترك شيئاً ما في مكان سهل الوصول إليه، فمن الحتمي أن يُسرق. لكن لم يحالفه الحظ. حتى عاملة النظافة بدت أنها تركت بينها وبين مكتب "ماكسيم تي يرماكوف" مسافة كافية متمثلة في طبقة الغبار المتركمة عليه. كانت هناك بقعة من القهوة انسكبت ذات يوم وظلت حتى أصبحت وحمة من الفراء. كان بقاء "ماكسيم تي يرماكوف" في المكتب شبيهاً ببقائه في جزيرة غامضة، حيث يمكن العثور على ساكنيها مثل الدب؛ عن طريق تتبع آثار أقدامه.

في النهاية حمل "ماكسيم تي يرماكوف" المسدس وأخذ يتأمله. بما أن السلاح له استخدام محدد، عملية واحدة - تشنج آلي قصير بين إصبعه ورأسه، شبيهة بالإيماءة المبالغية التي يقوم بها الناس ليظهروا أن شخصاً ما مجنوناً. لم يهتم المتنبئون الاجتماعيون بإمداد "الهدف الرئيسي" بأي غرض يساعده على حمل المسدس في أثناء تجوله: جراب، أو حزام، أو أي شيء يفي بالغرض. كان "ماكسيم تي يرماكوف" يحب المعاطف المصنوعة من الصوف الجيد والمبطنة بالحريز، لذلك، وعندما وضع المسدس في جيبه، كره الطريقة التي أثقل بها المسدس الجيب. وبعيداً عن ذلك فإن كبدته تأثر بسبب وزنه الحديدي الثقيل، حيث تصلب في الحال، حتى إنه بدا كما لو أنه استعار الجانب الأيمن للمسدس الذي كان يلكزه في ضلوعه. خطرت له أفضل فكرة على الإطلاق؛ سيضع المسدس في جيبه ويفصل صمام الأمان، وفي الوقت المناسب، سيخرجه ويبدأ في إطلاق النار.

شعر وكأن أنفاس الخطر الباردة تغطي كل سنتيمتر من بشرته الحساسة. انتابه شعور سيئ منذ الصباح، وكان المتنبئين الاجتماعيين الذين جاؤوا إلى شقته لم يغادروا؛ شعر وكأنهم تبخروا في الهواء من حوله. الروائح الغريبة حوله، والظلال التي رآها في كل مكان أوحى له بأنهم في كل مكان يوجد فيه. كان عليه فقط أن يضغط على زر الإضاءة في الصباح الباكر لشفق الشتاء كي يشعل المصابيح التي يصاحب إضاءتها صوت طقطقة ناعم. في الليل تأرجحت رأس "ماكسيم تي يرماكوف" كالغسالة، حيث كانت تدير بداخلها الكثير والكثير من المعلومات الرطبة، تمتص وتجفف النفايات القذرة التي حلم بها كبحر في حاجة إلى التنظيف بكل شيء بداخله. نهض عن سريره شاعراً بالتحطم، صفع "مارينكا"، التي أصبحت تبيت عنده أكثر من ذي قبل، على مؤخرتها الباردة التي أصدرت صوتاً يشبه الصوت الذي يصدر عن ركل كرة القدم. حلق ذقنه باستعجال وهو يحلق في المرأة مترقباً اليوم الكئيب الذي يحضر مفاجآته المؤذية له.

مثل "ماكسيم تي يرماكوف" عقدة مَرَضِيَّة لكل من كان يعمل في مصلحة "السبب والتأثير"؛ فكانوا ينصبون له الفخاخ. انزلق في أحد الأيام على السلام الثلجية أمام الباب الرئيسي. سقط جالساً، فشعر وكأن صاعقة برق عمودية أصابته. يمكن تفسيرها عن طريق الترسبات المناخية لليوم السابق مع لمسة الصقيع الليلية التي حوّلت سطح الطريق إلى لوح غسيل.

سار الجميع بحذر فوق تلك السلالم الغادرة، وكان "ماكسيم تي يرماكوف" أكثرهم حذرًا. ومع ذلك، انزلق "ماكسيم تي يرماكوف" فوق أحد المنحدرات، وهو يشعر بالأرض الصلبة تتحرك من تحته.. شعر بكل عصب في ظهره المتورم، حتى أوقف انزلاقه عمود نور ذو قاعدة سداسية.

كل ما حدث له حتى الآن، كان طبيعيًا لا يستدعي الاهتمام. ولكن، في اليوم التالي، وبعد أن ترك "ماكسيم تي يرماكوف" سيارته لدى الميكانيكي، وسار بهدوء في الشارع، طار شيء ما في الهواء مصدرًا صغيرًا حادًا، وتحطم في البقعة التي تركتها قدمه لتوها.. لم تكن كتلة ثلجية، بل زجاجة شمبانيا كبيرة.

تجمد "ماكسيم تي يرماكوف" في مكانه، وشعر بالألم في معدته وهو يتأمل الحطام عند قدمه. لم يلحظ حراسه الذين أتوا مسرعين على أقدامهم، مشيرين إلى مؤخرة رأسه. رفعوا رؤوسهم صوب الناحية التي ألقيت منها الزجاجة، والتي أخفقت في إصابة الهدف بسننيمترات قليلة. أبعد "ماكسيم تي يرماكوف" أيدي عملاء المخابرات الطويلة عنه وتحرك كحيوان ذي عنق لم يُخلق كي ينثني للخلف. ظل "ماكسيم تي يرماكوف" يتلوى وينظر شذراً إلى الوجوه الصغيرة المظلمة التي تنظر إليه من شرفات شارع "ساليينيسك" الذي يشبه صندوقاً في مسرح.

لنفترض أن مجموعة غير معروفة من الأشخاص المرحين قد تجاوزت حدودها قليلاً في أثناء احتفالها بشيء ما، وألقت بالزجاجة من الشرفة لتسقط على أي شخص يضعه الرب في طريقها. لكن كيف يمكنه تفسير ما كتبت على باب الشقة؟ تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من مسح جملة "مُت أيها الوغد!" كلياً، لكن في الليلة التالية مباشرة، رأى عندما خرج من المصعد جملة جديدة: "أقتل نفسك أيها الأحمق!" لم يكتفوا بالكتابة على بابه، فكتبوا على الحائط المقابل له عبارات فاحشة باللونين الأزرق والأحمر، ورسموا عضواً ذكرياً طوله 50 سنتيمتراً وخصيتين.

جلس الرجلان اللذان يراقبانه في مكانهما. لم يكن هناك طعام بينهما هذه المرة. بدلاً من ذلك كانت هناك لعبة شطرنج مجهزة بعناية. جلس كلاهما على طرف من طرفي اللعبة يعبثان بالقطع. وقف "ماكسيم تي يرماكوف" هناك وفكر للحظة، ثم عاد مجدداً إلى المصعد حيث وجد بداخله زجاجة بيرة فارغة ملقاة بإهمال، ونزل إلى الطابق الأرضي.

في الفناء، ألقى تحية مهذبة على "ماريا أليكساندروفنا"، وهي عجوز شمطاء مثقفة ترتدي قبعة متهالكة، وتجر كلبها السمين الألماني خلفها. رأى "ماكسيم تي يرماكوف" بطرف عينيه مجموعة من الناس يدخنون لكنه تجاهلهم. انتشروا مسرعين أمام أنظار "ماكسيم تي يرماكوف" رافعين راية طويلة متهالكة بفعل الرياح. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" باحتقار في أثناء سيره في اتجاه محل القبو الصغير: "أجل، أجل، إن مثل هؤلاء المتظاهرين كثيرون يمكن دائماً الحصول عليهم في أي وقت وبأي ثمن. الأشخاص أنفسهم يقبلون المقدار نفسه من المال للاشتباك مع المنشقين أو الرجال الذين يريدون إنقاذ روسيا، أو برنامج صوت الشعب".

بعد تحية المرأة ذات الشعر الأصفر الجالسة عند المخرج، والتي ردت عليه بابتسامة ذهبية الأسنان وحنونة، اشترى بعض الأغراض القليلة. بعد عشر دقائق كان واقفاً في طابقه بالمبنى حاملاً ثلاثة كيلو جرامات من دقيق القمح في كل يد، مثل أطفال صغيرة بدينة يجلسون على كفيّ يديه. قال لنفسه وهو يسير باتجاه الرجلين: "لماذا يخافكم الجميع يا عملاء أمن الدولة المحترمين؟".

نظر إليه الرجلان بلا مبالاة من فوق لوح الشطرنج، الذي تقف عليه القطع السوداء والبيضاء في تعقيد وبقوة لا معنى لها. انساب الدقيق بحرية أعلى رأسي الرجلين. تقبل الاثنان ثلاثة كيلو جرامات من المادة المتفتتة والمتشبهة دون تحريك عضلة واحدة، مكتفين فقط برمش الرموش البيضاء المتطابقة كأنهما تحولا إلى فطري عسل ضخمين.

قال لهما "ماكسيم تي يرماكوف" ناصحاً إياهما بعدما أفرغ الكيسين بالكامل:

- والآن اذهبا إلى شقة السيدة "كاليازينا" للاستحمام. لكنني أظن أن السيدة "ماريا أليكساندروفنا" لا تزال تنزه قلبها. سيجب عليكما أن تتحليا بالصبر لبعض الوقت. ربما في أثناء انتظارها يمكنكما تذكر من الذي كان يلعب دور الهمجي هنا على السلم؟ أم أنكما من فعل هذا؟ لو أنه كذلك، فمن فضلكما نظفا الباب، لقد نظفته بنفسي أمس، لا يمكنني أن أزعج نفسي بفعل ذلك مجدداً.

فجأة أمسكت يد بيضاء كيبياض أصابع الهيكل العظمي بـ"ماكسيم تي يرماكوف" فوق ساعة يده مباشرة، وكان الألم شديداً مما جعل الحقيبة الورقية تسقط من أصابعه المتجمدة كسحابة مشوشة. اهتزت النافذة وبدت البقع الكهربائية المضيئة بالخارج فجأة كصفار بيض مسكوب لتوه، ودامي. حملق فيه زوج من العيون الحمراء بالقرب من وجهه، وكان التعبير في العينين يوحي بأن المتنبئ الاجتماعي هو من يشعر بالألم وليس "ماكسيم تي يرماكوف".

قال مسخ لجنة الدولة بصوت به نوع من الصفير، وكأنه مصاب بالبرد:

- اسمع، هل لديك أي ضمير؟

أجابته "ماكسيم تي يرماكوف" بتبجح عدواني على الرغم من أن ألم تلك القبضة كان يتزايد بشدة:

- اغرب عن وجهي!

سأله مسخ لجنة الدولة مستكماً خطبته المملة:

- هل لديك أي شرف أو كرامة؟ هل لديك قلب؟ هل تعلم كيف يعاني الناس أسفل مبنى منهار؟ وماذا عن الرهائن؟ أليس لديك ذرة تعاطف مع أي أحد سواك؟

أجابته "ماكسيم تي يرماكوف" بالقناعة المبهجة نفسها، على الرغم من أنه لم يعد يشعر بأي شيء أسفل كتفه:

- فلتذهب إلى الجحيم!

عند هذه النقطة، تجهم وجه المنتبئ الاجتماعي ودفع "ماكسيم تي يرماكوف" دفعة ألقّت ضوءاً متلألئاً عبر الدقيق المتساقط على النوافذ وعلى قطع الشطرنج.

أرغى "ماكسيم تي يرماكوف" وأزبد وهو يصعد درجات السلم وبدأ يبحث بيد واحدة عن مفاتيحه التي حاولت الإفلات من يده بعناد: كانت ذراعه اليسرى تتدلى في ارتخاء وتعرض طريقه كطرف قابل للنفخ. بعد ساعة تقريباً، تمكن من تعليق ملابسه بطريقة ما على الرغم من انزلاقهم المتكرر عن الشماعات، وربط حزام روبه الجديد الواسع باستخدام أسنانه. جلس "ماكسيم تي يرماكوف" مراقباً حراس جهاز المخابرات. لكن المنتبئين الاجتماعيين لم يكونوا في المكان: كانت السيدة "كاليازينا" تنظف آثار الدقيق عن بلاط الأرضية بمقشة بنية يتناثر قشها على الأرض في أثناء التنظيف. تمتعت مع اهتزاز قرطبيها وذقنها:

- يا إلهي، يا إلهي، تلك الأشياء التي تحدث، لقد فقد الجميع عقولهم، يا إلهي، كيف سنتمكن من أن نعيش هكذا؟

كانت خصلة الشعر الأبيض على قمة رأسها تشبه مسحة صلبة من الغبار. أمام نظر المرأة العجوز، اختبر "ماكسيم تي يرماكوف" شعوراً جسدياً واضحاً - هناك حاجز صلب في صدره، خلف ضلوعه مباشرة، أمام ذلك المشهد البائس المُبكي الذي يحطم القلب لأجزاء صغيرة. فكر باحتقار وهو يصفق الباب: "أتريدون قلبي؟ عليكم اللعنة أيها الحقراء".

من الواضح أن العجوز الشمطاء التي تقدم المعونة لرجال المخابرات تمكنت من الوصول إلى "ناتاشا" عبر التليفون. انتظر "ماكسيم تي يرماكوف" الموعد الذي حددته مالكة شقته بخصوص إلقاء بذلاته من النافذة بدرجة معينة من القلق. مع ذلك لم يحدث أي شيء وهذا "ماكسيم تي يرماكوف" وابتسم بداخله عندما تذكر تلك القبضة المنتقخة التي هددته بها من داخل المصعد. لكنه أخطأ عندما استرخى. لم يكن عليه أن يثق بالمزاج الجيد الذي انتابه عندما استلم أخيراً سيارته من الورشة، بعد أن أصلحوها وأعادوا طلاءها، لكنها لا تزال محتفظة بنظرة متعجبة على وجهها، كأنها لا تتمكن من نسيان ذلك العمود ذي الجوانب الستة المصقول بالثلج.

اتجه ناحية المدخل، عازماً على أن يمر ببراعة عبر المساحة الضيقة بين سيارة "هوندا" لطيفة وهيكلي صديء لسيارة "موسكوفيتش" بدت كجمجمة حصان. رفع "ماكسيم تي يرماكوف" عينيه إلى شجرة القيقب الهزيلة والخالية من الأوراق. علقت بفروعها العليا أشياء عديدة. خمن "ماكسيم تي يرماكوف" في الحال ما كان معلقاً هناك. وكأنه يرى انعكاسه في المرأة فيتعرف عليه. كان قد اشترى ذلك المعطف الأصفر الداكن الخشن في أثناء التخفيضات في "هارودز"، وتلك البذلة الفحمية الرمادية ذات الخط الناعم الرفيع من "جاليريز لا فاييت" في باريس. والآن، تعلق كل شيء بالأعلى هناك. يمتص الرذاذ القذر، وتبدو وكأنها كتل لا شكل لها.

وقفت مجموعة من الحمقى في دائرة حول الشجرة فبدو كأطفال حول شجرة رأس السنة. اقترب منهم "ماكسيم تي يرماكوف" واضعاً يديه في جيبه. بدا أحدهم محترماً للغاية وممتلئ الجسد تبدو عليه الصحة، يرتدي قبعة جلدية. وقف ذلك الرجل وهو يتمايل بجسده المترaxي في هدوء. وقف آخر يرتدي قبعة صوفية مائلة تغطي شعره الأبيض القدر. ظل يحك بنطاله القدر المترaxي بيده المغطاة بقفاز كبير. وقف معهم كذلك "شوتوف" مدمن الكحوليات المقيم بالطابق الخامس، وكان يرفع ذقنه المحترق في الهواء، تصاحبه فتاتان تبدوان كالعاهرات: واحدة ذات ساقين طويلتين نحيلتين وأنف طويل. بدت كنعامة مريضة خصوصاً وهي ترتدي معطفاً قصيراً مبتلاً بالماء كلياً. كانت الأخرى ضئيلة وتافهة، وتتنظر إلى "ماكسيم تي يرماكوف" في فزع بعينين ملطختين بالبقع وتنشبت بصدرها بيدين ضئيلتين بأصابعهما الشبيهة بأصابع الطباشير البيضاء. تناثرت على الثلج الأبيض، العملات المعدنية الصغيرة التي سقطت من جيوب بذلاته، وبينهم رقدت علبة سجائر مسحوقة.

من المستحيل تمامًا أن يرتدي تلك الملابس مجددًا، وحتى لو تمكن من تنظيفها كلها. ظل "ماكسيم تي يرماكوف" يتمتم وهو يسير متجهًا إلى المصعد. في الأعلى، كان الهواء في الشقة منعشًا تمامًا كما بالخارج: من المحتمل أنه لم يمر وقت طويل منذ أن ارتكبت "ناتاشا" عملتها البطولية المتوحشة. كانت أبواب الدولاب لا تزال مفتوحة، كاشفة عن ظهرها الخشبي والشماعات الفارغة متجمعة معًا بالتواء. بسبب ضوء الثريا، كان الدولاب من الداخل مضاءً للغاية مما ألم عينيه. لم يتبق سوى مجموعة من الكرافات الحريرية والتي تماثل ألوان قوس قزح. احتفظ بها على رف صنعه خصيصًا في أحد الأبواب. كل تلك الكرافات اختارها بعناية لتتناسب الملابس التي دُمرت لتوها. وجد أيضًا دفتر مواعيده القديم ملقى على مكتب "الأم" الشنيع في وضع القراءة، حيث فتح بقسوة شديدة مما تسبب في كسر كعبه. أخذ المال من داخل الغلاف ووضعه بجانبه، وقد ثبتت بمحبرة رخامية بدت ككتلة من الصابون الرمادي. قطعت إحدى الصفحات، وقد تلتخ الدفتر بكلمات مبعثرة مبهمة بالكاد تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من فهم بعض منها، حتى عندما حاول إدارة عينيه في كل الاتجاهات. قالت الملحوظة: "لقد حذرتك، وأنت ظننت أنه مجرد كلام. كل الجيران مستعدين تمامًا (كلام غير مفهوم) ضدك. يعيش هنا أشخاص طبيون، محاربون قدامى، وعمال قدامى، لا يريد أحد أن يعيش بجوارك. اخرج! لقد أخذت سبعة آلاف "روبل" منك (كلام مشطوب) أموال للدفع مقابل الباب".

ظل "ماكسيم تي يرماكوف" واقفًا في مكانه. لم يعد يملك سوى ما يرتديه. لا يمكننا أن نقول إنه كان متعلقًا بملابسه القديمة.. لا، لا، لقد كان متعلقًا بهم للغاية. لقد أحبهم واهتم بهم. أحب شعوره وهو يرتديهم ويشعر بالراحة. كان يعشق دفء الكشمير الرقيق للغاية، وخشونة الكتان الصافية. لقد استمتع بالطبقات قليلة الاستعمال، التصنيع الدقيق والمثالي والذي كان يسمى "خيطة" - نوع الجودة الحقيقية للرجال الحقيقيين والذي كان يبدو واضحًا للعيان بمجرد النظر.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بأنه هو الذي ألقى به من النافذة - وليست ملابسه - إلى البرد والقذارة. شعر بالغضب لأن معاطف المتنبئين الاجتماعيين الرخيصة التي أفسدها الدقيق لم تساو خيوط معطفه الصوفي الجميل، والذي كان سعره الأصلي في "هارودز" ما يُعادل ستمائة وخمسين جنيهًا إسترليني.

في الصباح، كانت أغصان شجرة القيقب العارية التي استقبلت المساعدات الإنسانية للمتشردين المحليين فارغة ومحطمة. تدلت الأغصان المكسورة من أشرطة متجمدة من اللحاء، مما جعل باقي أجزاء الشجرة تبدو غير متناسقة، وفي الوقت نفسه تبدو وكأنها شبكة عنكبوت ممزقة، ممتلئة بأرجل حشرات طويلة عُلقت بها. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" وكأنه نام دون أن يخلع ملابسه. لم يغير بذلته الوحيدة الباقية من تصميم "جيانفرانكو فيري" وهي المفضلة لديه على الرغم من أنه اشتراها العام قبل الماضي. أجل موعدًا مع بعض الحمقى من أحد استديوهات الإنتاج، وبدلاً من تناول الغداء انطلق في حملة تسوق مكثفة. ولأول مرة على الإطلاق، شعر بالاستياء من الهيئة العسكرية للمعاطف الفارغة المعلقة بالقرب من بعضها بعضاً والنظرات الوقحة للفتيات اللاتي أتين إلى قسم الرجال ليقتمن غرف تبديل الملابس في أقل اللحظات ملائمة بأيديهن ممتلئة بملابس مهلهلة. شعر بالارتباك في أثناء تجوله في الحبس الانفرادي بهذه الزنانات المتوحشة، بستائرهما الملثوية المهلهلة. غمره شعور بالخوف من أن شخصاً ما يزرع قنبلة في الغرفة المجاورة له، بالضبط على الجانب الآخر من هذه المرأة التي تعكس طبقات مختلفة من عُريه. عند عودته للمنزل، تحولت البذلة التي اشتراها إلى أخرى مختلفة تماماً؛ لونها وردي، وكتفاها مبطنتان، وأزرارها تشبه عيون الحشرات. عندما رآها في المتجر بشارع "هاوسمان"، بدت مختلفة تماماً، وقد أعجب بها كثيراً حينها.

كان "ماكسيم تي يرماكوف" يفكر دون انقطاع طوال الوقت. أراد أن تكون حربه مع المتنبئين الاجتماعيين جميلة، صراعاً يلحق العار بالبلشفيين التوسع الذين بدلاً من تصادمهم مع المعنوه "ستالين"، توافدوا إلى المعسكرات كالقطعان. لكن تحول ذلك إلى شجار منزلي طائفي، حيث يقوم أحد الطرفين بالتبرز خارج المرحاض الصديء الوحيد والبصق في حساء بعضهما بعضاً. بدأ "ماكسيم تي يرماكوف" بفهم قسوة ويأس الحروب الطائفية، بامتلائها بالخسارات المادية وهي في النهاية عبثية كما تبدو وتمثل خطراً على الحياة. لم يتمكن من العثور بداخله على ذلك الغضب الحاد الأنثوي، الذي عند تحلله في هراء الحياة اليومية، يمد الناس بالدافع والطاقة للقيام بكل الأفعال القذرة ضد العدو دون شفقة. كان لغضبه شكل ميتافيزيقي مختلف. كانت حقوق الفرد العادي، الذي يتمنى أن يشرب الشاي ويأكل فطيرته دون مشكلات أو عوائق، تُنتهك دون أي عواقب أو تعويضات، وقد قرر "ماكسيم تي يرماكوف" الدفاع عن إخوته المواطنين. في مواجهة قوة الدولة الغاشمة، شعر بأنه واحد من تلك الصخور السوداء الصغيرة المغطاة بالتراب، والتي شقت طريقها وسط حبوب الطعام، حيث تم سلقه مع الطعام وتسبب في كسر إحدى أسنان الشخص الذي يتناول طعامه.

مع ذلك، فإن الحرب بمستوى الناس العاديين بدت كأنها تخدم مصالح المتنبيين الاجتماعيين. لقد قرروا أن يهزموا هذا "الهدف الرئيسي" مستعينين بالمواطنين المدنيين؛ والذين يحملون بداخلهم حقداً طائفيًا ويميلون بطبيعتهم إلى التقرب من الخدمات السرية. كان "ماكسيم تي يرماكوف" متأكدًا من أن أحد الأحزاب السياسية النافهة هو من أجر أولئك المحتجين ذوي الوجوه الكئيبة الذين ظهروا فجأة كعرائس ضخمة من القماش. كل هذا من أجل إرضاء المخابرات. لم يكن هناك أي شيء شخصي في هتافاتهم، ولا حتى في الطريقة التي ألقوا بها الخضراوات الفاسدة. لكن كان هناك شيء ما خطير للغاية في حماس جيرانه الاحتقالي، وفي تقربهم من بعضهم فجأة، وفي قوة التحمل المفاجئة لثلاثة أو أربعة رجال من مدمني الكحول، الذين بدوا كأنهم استردوا عافيتهم فجأة.

كان من المنطقي أن يترك شقة "ناتاشا" ذات الغرفة الواحدة، ويترك جميع هؤلاء الحمقى وراء ظهره. لكن، إذا أمعن التفكير في الأمر، سيجد أن رحيله عن الشقة هو آخر شيء يحتاج إلى القيام به. لن يستطيع بوضعه ذلك، استئجار شقة أخرى، لن يسمحوا له بفعل ذلك. قد ينتهي به الحال بأن يكون متشردًا. تحوّل من شخص عادي فخور إلى كتلة من المواد العضوية ذات بشرة زرقاء، تمتص الهدوء المميت لأسفلت وحجارة موسكو عبر ملابسه المهلهلة القذرة. بإمكانه الفرار من العاصمة وأن يعيش في مسقط رأسه؛ مدينة "كرازنوجوري"، والتي تشتهر بمعمل استخراج المعادن الضخم وشجر الحور الهائل الذي يبدو ككتل متشابكة من الكابلات السمكية. يغلف تلك المدينة ضباب صناعي سام، ويديرها محافظ لطيف بكل المقاييس. تعد أيضًا من أسهل الأماكن في العالم لتسحق أي أحد تمامًا. عليه التمسك بشقته وموسكو ومصنع الشوكولاتة، الذي لم يخصصوا فيه بعد ميزانية الترويج نصف السنوي.

في الواقع، لم يكن لدى المتنبيين الاجتماعيين أي تأثيرات حقيقية يمكنهم استخدامها لطرده "ماكسيم تي يرماكوف" من عشه المعتاد. أم هل كان ساذجًا أكثر من اللازم؟ كان عليه التزام الحرص في أثناء سيره طوال الوقت، وأن يلتزم بقواعد المرور عند قيادة سيارته، وألا يدخل أي مراكز تجارية كبيرة، وألا يتجول بلا مبالاة أسفل الشرفات أو أي نوع من الستائر أو المظلات التي يتكون الجليد المدبب في الجزء السفلي منها، وأن يكون غامضًا كالبيرة المصنعة منزليًا، وأن يظل قادرًا - في إطار الإحداثيات المشوهة لعلاقات السبب والتأثير - على الانبطاح أرضًا وتفادي أي شيء يُلقى عليه. ماذا أيضًا؟ الكحول والمخدرات، عليه التوقف عن شربهم تمامًا. اكتسب "ماكسيم تي يرماكوف" في منطقتهم سمعة بأنه غريب الأطوار. دائمًا يرتدي ملابسه "كوزير حكومي"، كما يقول "ساشا شيرداك"، ويشرب الكحول ويتعاطى المخدرات كأنه يسدي كل من في الحفل خدمة هائلة. لطالما أعده مرتادو الحفلات الدائمون إما باحث عن الاهتمام، وإما طفيل اجتماعي. في الحقيقة، إن المشروبات القوية، أو الحبوب، أو المخدرات لم تكن تؤثر بسهولة في "ماكسيم تي يرماكوف". لم يصل التأثير بأكمله إلى أكثر من رد فعل عقله المضاد للجاذبية عن طريق إرسال

عدد غير محدود من النسخ لنفسه إلى الفضاء لدقائق قليلة، ثم بعد ذلك ينحدر وضوح ثاقب، يحمل له القدر نفسه من الألم الذي يتسبب في كشط سكين على الزجاج. أنفق "ماكسيم تي يرماكوف" أمواله على مضادات السعادة هذه لشعوره الخالص بأداب المجتمع، وهو شيء عليه نسيانه تمامًا الآن: إن خسارة ضبط النفس ولو لفترة قصيرة أعطى علاقات السبب والتأثير فرصة أكبر. لقد أصبح من المهم الآن ألا يسير في الأزقة والشوارع الضيقة المظلمة، بخاصة مع تلك الصوتيات التي حوّلت أي شخص يسير في ساعة متأخرة إلى طعم متجول صاخب. كما أن عليه ألا يختصر وقت مشيته القصيرة في طريق عودته من المحل الصغير عن طريق العبور من الفناء التالي الذي تضيء فيه مصابيح ضعيفة يخفي ضوءها الضعيف الحفر التي تحولت بفعل المطر إلى ما يشبه حساء بازلاء ثقيلًا.

في عالم ينتشر فيه الخطر بكثافة كالزبد، في عالم منزلق ليس به مكابح، قد يبدو الرجل الحكيم شبيهًا بالمجانين؛ مثل رجل فقد عقله وهو يقود سيارته بسرعة جنونية في عالم مستقر طبيعي. ربما كان ذلك بالضبط هو نوع الجنون الذي أصاب "ماكسيم تي يرماكوف". ربما بدأ يعاني الأوهام. ففي أحد الأيام، وفي طريقه إلى المنزل حاملاً مشترياته، وفي حالة من الجزع التام، ظن "ماكسيم تي يرماكوف" أنه سمع شخصًا ما يسعل ويحاول منع سعاله بقبضة يده. فجأة جذب أحدهم أذنه بشدة. ارتفع صوت السعال مرة أخرى، وسقطت قطعة من الحديد على الأرض مصدره صوتًا عاليًا ودُفِنَت رصاصات أخرى في الطين. ربما كانت هذه الاستجابة المضطربة المتوترة للظلام هي نتيجة لإنهاك "ماكسيم تي يرماكوف" العصبي، لكنه ألقى بالحقيبة التي تحمل عشاءه واندفع باتجاه مواقف السيارات.

كان كل ذلك غير محتمل تمامًا. لم يُرد أحد كل ذلك، خصوصًا المتنبئين الاجتماعيين. على الرغم من ذلك، فقد قام "ماكسيم تي يرماكوف"، بعد أن وضع ضمادة على أذنه حيث بدا أنه تم انتزاع جزء بسيط منها، بأخذ المسدس الحكومي من درج مكتبه ووضعه في حقيبته.



عارضته "مارينكا" وهي تحرق بمحبة في المقشة الناعمة المنتفخة الصغيرة وتتبع خطأ قرمزي اللون على إصبعها:

- انس الأمر يا "ماكسي"، لا تدعه يؤثر فيك. إنك محظوظ، أنت فعلاً محظوظ.

خرج "ماكسيم تي يرماكوف" من حوض الاستحمام. بدا كشيء يصلح للدراسة والمياه تقطر من جسده الشاحب، وتلك الشامات المنتشرة في بشرته والبخار الذي أحاط به. قال لها:

- أجل، بالطبع. أنا محظوظ كرجل غارق. هذا صحيح. في كل خطوة أخطوها يركلني الحظ في مؤخرتي.

أكملت "مارينكا" طلاء أظافرها الضخمة القوية، والتي قد يبلغ حجم كل منها حجم بيضة الدجاجة. ثم قالت وهي تحاول أن تكون عقلانية:

- انظر إلى الأمور بموضوعية، كان يمكنك أن تصطدم بالمصباح، لكن كل ما فعلته هو إتلاف ممتص الصدمات. تلك الزجاجة الملقاة من النافذة كان هدفها هو رأسك السخيف، لكنها أخطأت الهدف. ربما حاول أحدهم إصابتك، لكنه لم ينجح في قتلك، أليس كذلك؟ كما أن أذنك تكاد تُشفى الآن. هناك شخص ما يحميك من الكوارث. كانت جدتي تقول إن ملاكًا يقف على كتفك ويحميك. حتى هؤلاء الحمقى الواقفون في الفناء والذين ألقوا عليك الطماطم، لقد أخطأوا هم أيضًا.

قال لها "ماكسيم تي يرماكوف" بتجهم وهو يتقلب على السرير:

- لقد أصابتنى الطماطم.

صاحت "مارينكا":

- يا لهم من أوغاد! ما مدى سوء الأمر؟

أجابها "ماكسيم تي يرماكوف" دون حماس:

- حاولت إعطاء المعطف للمنظفين الإيطاليين لكنهم رفضوا استلامه، قالوا إنه فسد تمامًا، لا يمكن إزالة البقع. كما أنه ليست هناك فائدة من شراء واحد جديد. لذا من الآن وصاعدًا سأسير في شوارع موسكو وأنا أبدو كفلاح بالمزارع الجماعية. سأبحث عن المعطف الجلدي القديم. ذلك الذي اشتريته من السوق في "كرازنوجوري". سأرتديه.

نظرت إليه "مارينكا" في سخرية، وضمت من شفيتها الرفيعتين. لطالما حاولت بكل جهدها أن تجعلهما تبدوان ممتلئين؛ فكانت دائمًا ما تضع أحمر الشفاه خارج حدود شفيتها، فبدت معظم الوقت وكأنها تنزف من أنفها.

سألته قائلة:

- عظيم. يمكننا أن نتجول معًا ونحن نرتدي أزياء فلاحية المزارع الجماعية في مسقط رأسك. ما الفائدة من المجيء إلى موسكو إذا كنت سترتدي ملابس مهلهلة من سوق "كرازنوجوري"؟

انتزعت خيطًا صغيرًا غير مرئي من ظفرها القرمزي وأسندت ظهرها وهي تتأمل ظفرها في إعجاب. اعتادت مؤخرًا الجلوس في منزل "ماكسيم تي يرماكوف" وإخراج أدوات طلاء أظافرها الكاملة؛ بما في ذلك الأنابيب الصغيرة الملتوية والمكسورة، وعينات قطع القطن الملون والزجاجات الصغيرة المنتفخة والتي تبدو كزينة شجرة رأس السنة، وفوق كل ذلك رائحة مزيل طلاء الأظافر النتنة النفاذة، كأن هناك أعمال إصلاحات مهمة في المكان في الوقت الحالي. كانت العمليات المتضمنة معقدة وصعبة، أمضت "مارينكا" على الأقل ساعة كاملة لتجفيف أظافرها، متلعبة بأظافرها كما لو كانوا كماشيات صغيرة ناعمة. لم تعتد في السابق البقاء في منزل "ماكسيم تي يرماكوف" لوقت أطول من اللازم بعد ممارسة جنسية سريعة. تتبعتها فترة أقل بعض الشيء لوضع المكياج لاستعادة وجهها الملطخ لحالته

الأصلية السابقة. لكن في تلك الأيام يبدو أنها تعيد محاولة فهم "ماكسيم تي يرماكوف" وكل ما هو متصل به.

أقلت بأصابع أحمر الشفاه وملابسها الداخلية الشريطية في أرجاء الشقة، وبعدها، تحكمت في المطبخ، حيث أعدت الشيء الوحيد الذي تستطيع طهيته: حساء خضراوات ثقيل للغاية ومعه عظام تبدو وكأنها شجرة بلوط سُليقت بكاملها. حفزت الممارسة الجنسية بمجموعة كبيرة من الخدع الغريبة، كان مصدر تلك الخدع السينمائية واضحا عن طريق نظرتها المتلألئة التي ألقتها من بين شعرها المتشابك في اتجاه مشاهد صنعه خيالها. أدارت مؤخرتها السمرء بفعل الشمس ولعبت بسرورها الداخلي الرفيع كما يلعب أي شاب همجي بعضوه. حكمت أظافرها الملونة في ظهر "ماكسيم تي يرماكوف" وكأنه خنزيرها المفضل. لسعه لسانها ثم شعر وكأنه قد ذاب، وكأنه رشفة لا تنتهي من "البراندي". كانت هي المسيطرة في تلك العلاقة الجنسية، و"ماكسيم تي يرماكوف" كان متصنع الحياء ذي الأعصاب المحترقة. لكن عندما وصل إلى نقطة الانفجار، لم يستجب داخلها له؛ أصبحت كحذاء محشو بالرمال. لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من فهم كيف يمكن لهذا أن يحدث.

قالت "مارينكا" وهي تلتفت بعيدا عنه لتعلق زجاجة صغيرة متذبذبة:

- "ما-كسي"! "ما-كسي"، لا تنظر إلي هكذا! لست أنا من أفسد معطفك.

أجابها "ماكسيم تي يرماكوف" في ضيق:

- لماذا تمونين هكذا كقطة من موسكو؟ ألا تظنين أن بإمكانني ملاحظة كيف تجبرين نفسك على المحاولة معي؟ قد يكون جميعهم ققط هنا لكننا كلاب. هو هو هو هو!

قالت "مارينكا" بعصبية:

- اعو بهذه الطريقة وسينتهي بك الحال بائعا للموز في السوق.

ثم نفخت في أصابعها الممتدة أمام وجهها واستلقت على جنبها أمام "ماكسيم تي يرماكوف". قالت بطريقة لعبية وهي تضربه على كتفه:

- ألا تظن أنني ملاكك الحارس؟

تمتم "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يضع ذراعيه حول "مارينكا" أسفل ثدييها مباشرة:

- هذا غير محتمل، ملائكتي يجلسون في الخارج على السلم.

همست "مارينكا" بحماس وهي تحك جسدها بجسد "ماكسيم تي يرماكوف":

- دعك منهم، عليهم اللعنة! إن موسكو مكان خبيث لا يريدنا! لكنني أفوقه خبثا! اختارك أحدهم والآن يضغطون عليك كي تعلموا أمثالنا ألا نأتي إلى هنا بعد الآن. لكن اتضح أنك شخص صلب. أكثر صلابة من هؤلاء الأطفال الثرثارين الذين يبولون في ملابسهم خوفا لو لوحت بإصبعك في وجوههم! لذا فلتهدأ!

كانت همسة "مارينكا" لها ملمس كالفرأء الخشن. ابتسم "ماكسيم تي يرماكوف" ابتسامة عريضة رغماً عن نفسه. قالت "مارينكا" وهي تزيد من التدفئة وتزرم شفيتها أكثر:

- "ماكسي"، إنك رجل صلب، مثل "بروس ويليس" في فيلم "الموت القاسي" Die Hard! قد يكون كل الرجال السيئين ضدك، لكنني معك! مميمم.. يا إلهي! أتذكر يا "ماكسي" عندما أتيت إلى حفل التخرج المدرسي في مدرستك.. عندما أتيت مع ذلك الفتى كثير البثور "ليوشيك".. وأنت اشتريت لي "آيس كريم"، أتذكر؟ دُست على خذائي وهشمت قدمي.. لم أغضب منك على الإطلاق حينها، فعلاً لم أغضب.. هذا صحيح، افتح هذا السحاب. "ماكسي"، لم أرد أن أخبرك من قبل، لكنني أتيت إلى موسكو من أجلك.

تلوت "مارينكا" ولطخت الملاءات بأظافرها، توهج وجهها خلف شبكة متشابكة من الشعر وقالت:

- "ماكسي"، هل تقبل الزواج بي؟  
اللعنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إن الريفيين الذين أتوا إلى موسكو لا يحبون أولئك الذين بقوا في مسقط رأسهم. عند بدئهم لحلقة جديدة من حياتهم الجديدة في العاصمة، يفضلون ألا يشعروا بأنهم ليسوا أبناء آبائهم وأمهاتهم المعدمين الذين استنزفتهم الحياة، بل هم أبناء القطارات التي أحضرتهم إلى موسكو وتركتهم على أرصفة المحطة. لا يريد أحد أي شهود يمكنهم تذكر مدمن الحفلات السابق عندما كان يقضي أيامه في ملهى القرية، وأنه يستقبل ضربة من مرفق الفتاة القوية التي ذهب إليها ليطلب الرقص معها. أو خمس سنوات قبل ذلك، وهو يرتدي بذلة قبيحة من الصوف المختلط، ويتلو قصيدة عن المساحات الواسعة في قريته في مسابقة الشعر بالمدرسة. تلك المساحات الواسعة اللانهائية، الخطوط غير المحدودة من الحقول الناعمة المشطبة تمتد في كل الاتجاهات، والمحاصيل المحصودة، والنهر العكر البطيء الصغير الذي يبدو كأن بإمكانك الكتابة عليه بإصبعك، وبرج الجرس القديم، والهواء ينساب فوقه، وأشعة الشمس المنعكسة على سطحه. هذه المساحات التي تُضرب بها الأمثال تخفي بداخلها معاني رائعة عميقة، لكنها في موسكو أصبحت غير ضرورية ووصل سعرها إلى صفر.

هنا، أثبتت انتصارات أيام ما قبل موسكو أنها أكثر عاراً ودماراً من هزائم الماضي. اتباعاً لهذا المنطق، فإن "مارينكا"، التي أتت لغزو العاصمة بعد انتصارها الطازج في مسابقة جمال محلية، تحتمي خلف درع عمدة متحمس، وكان عليها أن تعطي "ماكسيم تي يرماكوف" مساحة واسعة، وألا تقترب ولو حتى لكيلو متر واحد منه.

كانت "مارينكا" مثلاً أصيلاً ورائعاً عن الكمال الأنثوي، ذلك النوع الذي يمكن تناسله في تلك الأرض الكسولة المتموجة التي تقع أسفل السماء بمسافة كبيرة بسبب وزن المعادن الحديدية الثقيلة في جوفها. إن عناصر ذلك الجمال يمكن مقابلتها

كثيراً في شوارع وسط الإقليم، مما قد يبدو أنه تم تسليمه إلى التعداد السكاني النسائي بالكامل بإنصاف لم يتضمن السعادة بكل أسف. اجتمعت عناصر الجمال تلك في "مارينكا" بوفرة مفرطة، النتيجة هي أن عينيها الكبيرتين المنتفختين بدتا وكأنهما ليستا لها بل سُرقتا من شخص آخر. كانت "مارينكا" تبدو شخصية من رواية "الساحرة البولندية" لـ "جوجل". لا بدّ أنها بدأت وهي في الثالثة عشرة من عمرها - أو ربما قبل ذلك - بجذب الجنس الآخر؛ بدءاً من زملاء دراستها المتحرشين إلى راكبي الدراجات النارية المشعريين وأعضاء اللجنة المحلية لشئون الشباب، بصلابتهم السابقة لأوانها والتي بدت كأنها تضمهم جميعاً في نوع واحد أساسي من الذكور. كان والد "مارينكا" رجلاً سميناً للغاية ومدمن كحوليات ذا وجه مستدير أحمر وكأنه تم تحميصه في مقلاة عميقة. قيل إنه اعتاد ضربها بحزام زيه العسكري. لذا فمن بين المتسابقين المستثارين والحائمين حولها، هناك الكثير منهم أرادوا أن يجربوا معها نفس ما فعله والدها. لم يكن أي من هذا مهماً بالنسبة إلى "مارينكا". لقد شاركت في مجموعات عمل من أجل تطوير الشباب ورقصت في فريق "جرين فيلدز سانرايز". كانت عيناها المُكحلتان تتلألآن على المسرح كأنهما ممثلتان بالدموع، تركز بساقيها ذوات اللون العاجي في خلفية المهرجان الإقليمي، والذي كان به أيضاً نموذج عملاق لبعجة وعلى ظهرها حفار مزين.



لم تأت تلك الكائن الشابة والوقحة إلى حفل تخرج مدرسة "ماكسيم تي يرماكوف" لمجرد المتعة، لقد أتت كقائدة ورشة إبداعية للشباب: كان سكرتيرها هو "ليوشيك" عريض الكتفين، والذي لم يكن وجهه ممثلاً بالبثور على الإطلاق، بل على العكس، كان وجهه ناضراً ومتورداً. نظرت إلى "ماكسيم تي يرماكوف" وكأنه هواء. فهي لم تأت إلى هنا لكي تقضي وقتاً سعيداً، ولكن لكي تشرف: حملقت بعينين ضيقتين في الطلبة الخريجين وهم يتراقصون في حلبة الرقص على أغنية ذكرتها بمقعد قديم متهالك. تحدثت مع مدير المدرسة، الذي سعل في يده من الإحراج بسبب تنورتها القصيرة للغاية وكأنه يقف وسط مياه ترتفع ببطء ناحية منطقتة الخاصة. اشترى لها "ماكسيم تي يرماكوف" "آيس كريم" ذائباً وتعمد الخطو على حذائها. أثار ذلك الحذاء الثمين ذو الطرف البارز المغطى بالخرز والأحجار الكريمة الصناعية بداخل "ماكسيم تي يرماكوف" غضباً عارماً. كانت الرغبة في سحق ذلك الخرز ونثره لا تقاوم.

حدث موقف محرج؛ قيل إن "ماكسيم تي يرماكوف" كان ثملاً تماماً وإنه ألحق العار بمدرسته، كما أنهم لم يريدوا إعطائه شهادة تخرجه. لم يتخيل مطلقاً أنه بعد ما حدث، ستكون ذاكرة "مارينكا" الأنتوية وغير المكتملة من هذه الحادثة علاقة رومانسية كاملة ليس لها وجود. لكن حينها، أي شيء حدث لها في ذلك الوقت كان مادة خام لحبكات قصص الحب؛ كل الرجال عبروا عن المشاعر نفسها بالضبط بطرق مختلفة، وبالنسبة إلى "مارينكا" فإن تلك المشاعر ربما بدت أكثر تشابهاً مما هي عليه في الواقع. على الرغم من أنه كان واعياً في رأسه مباشرة بالعمليات غير

المادية فقط، أعد "ماكسيم تي يرماكوف" "مارينكا" كتلة سميكة من الغباء والمادية. بطبيعة الحال، لم تشم "مارينكا" أي رائحة غير معتادة مصدرها الخريج السمين، في الحقيقة، لم تكن تفوح منه رائحة الخمر على الإطلاق، لكن لم يفح منه سوى نوع محايد غريب من الهواء. في ذلك الوقت لم يدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أنه وُلِدَ بعيب في نصفه الأعلى - "هدف رئيسي"، اللعنة على ذلك!

من بين كل الناس، "مارينكا"، الجميلة الرائدة والعاهرة الرائدة بين فئة الصغار في مسقط رأسها، كانت آخر من انتقل إلى موسكو. كانت بمنزلة "ليدا" التي اغتصبتها البجعة والتي تنتشر أجنحتها الثلاثية فوق حفار عملاق. لو بقت في بلدتها، لكان من المحتمل أن تصبح زعيمة ذات مستوى عالٍ وزوجة المحافظ، وهو رجل مسن ذو شارب نسبه كريم يتماشى مع روحه الكريمة. وقد كان شغوفاً بتشجيع الشباب الموهوبين. ولكن، أفسدت مسابقة الجمال كل شيء؛ تقدمت "مارينكا" مرتدية ملابس السباحة الضيقة. صُعدت لجنة التحكيم الصارمة بخطوط فخذيها التي نشرت أمواجاً من الصدمة في كل خطوة تخطوها. فازت "مارينكا" وتوجت بتاج من الكريستال من إنتاج شركة "سواروفسكي" النمساوية، وهو ما رفع من سعرها مباشرة، وهو ما أرادت "مارينكا" منذ البداية.

ظن "ماكسيم تي يرماكوف" أنها انتقلت من الكلية المحلية التجارية إلى أخرى في العاصمة، أو شيء من هذا القبيل. كانت تحضر إلى مكتبه بين الحين والآخر لاقتراض المال منه، وكانت ترد له دينه في الزمان والمكان نفسيهما كل مرة على طريقة أهل مدينة "كراسنوجوري" التقليدية الكادحة. فوق مكتبه، حيث تنتثر الأوراق في كل الاتجاهات وتطرق على الأدرج بعنف. منذ ذلك الحين، أصبح "ماكسيم تي يرماكوف" بالنسبة إليها حافظة نقود احتياطية، كما كان صديقاً ناقشت معه حيل موسكو الغادرة.

قالت بتذمر بعد أن هربت من مغامرة أخرى بعينين ممتلئتين بالدموع ووجه ملطخ بالمكياج:

- لن يمكنك حتى أن تتخيل عدد العاهرات الموجودات هنا. بفضلهن لم يعد الرجال الأثرياء إنسانيين. لماذا يهتم رجل كهذا بعلاقة مع فتاة؟ بإمكانه فقط الإشارة بإصبعه ليحصل على أي نوع من الجنس الذي يريده. كل ذلك مقابل القليل من "الكوبيك" وحسب معايير الخاصة. لا يمكنه حتى إيجاد مكان لشرب القهوة فيه دون أن يجد بداخله ثلاث أو أربع عاهرات طليقات يجلسن في المكان بأحذيتهن طويلة الرقبة الخاصة بالعاهرات. إن العاهرات كالفيروس. لديهن القدرة على تدمير نظام الرجل الاعتيادي. يقول الناس: "انظروا إلى كل تلك العاهرات اللاتي أتين في أفواج من أوكرانيا و"مولدوفا"! " لكن إن أردت معرفة الحقيقة، فإن فتيات موسكو أسوأ بكثير من الأجنبيةات. الطريقة التي يقدمن أنفسهن بها! الأكاذيب التي يروينها! إنهن يعتقدن بأنهن في حاجة إلى المزيد وأن من حقهن الحصول على المزيد، إنه حقهن الطبيعي. إذا لماذا يبعن أنفسهن مقابل مائتي دولار في المرة الواحدة؟ لمصاريفهن

الشخصية؟ ألا يعطيهم آباؤهم وأمهاتهم المال الكافي؟ يجب على تلك العاهرات الحمقاوات البقاء في منازلهن.

اكتفى "ماكسيم تي يرماكوف" بهز كتفيه لما قالته. كان يناسبه سعر المائتي دولار تمامًا، لكن في الوقت نفسه، كان متعاطفًا مع "مارينكا"، بطريقته الحيادية تلك. بذلت "مارينكا" كل جهودها. حاولت قدر استطاعتها أن تتوقف عن التحدث بتلك اللهجة الجنوبية والتي تظهر عند نطقها لحرفي "الهاء" و"الجيم". حاولت التحدث بإيقاع سريع، وقلدت بدأب طريقة نطق الحروف المتحركة الشبيهة بمواء القطط، خصوصًا حرف "الألف" العريض - على الرغم من أن ما تمكنت من الوصول إليه أقرب إلى الوقوة منه إلى المواء في الحقيقة.

حسنت كذلك من ملابسها، فاشتريت الكثير في أثناء التخفيضات، بدلت ذهبها التقليدي بمجوهرات عصرية على الموضة، ولم تعد تبدو دخيلة في حفلات الشركة الساحرة والحفلات الخاصة التي تمكنت من أن تتسل إليها بأي طريقة ممكنة. أحيانًا كان يصيبها الحظ. شوهدت متأبطة ذراع صاحب أحد المطاعم الكبيرة، السيد "ماميدوف". وهو رجل ضخم ولين، ظهرت عضلات جسده عبر القميص الكتاني اللطيف بالطريقة نفسها التي تظهر فيها سمكة الرنجة المالحة عبر ورقة الجرائد المغلفة بها. شوهدت كذلك بصحبة الجنرال "يارتسيف"، بجسده المغطى بالندبات والتمتين المنتفخ ككرة القدم. بما أنه شك في جميع مساعديه في تشويه معاني الكلمات، جعله ذلك يعمل بكدح بنفسه على كتاب الذكريات الخاص به. لطالما كان مأخوذًا بالمراوغات الخبيثة التي تحتوي عليها المفردات الروسية. قيل إن "مارينكا" - التي كانت أول من يسلم الواجبات المدرسية دائمًا وتتسى طوال الوقت أن تضع علامات ترقيم - تساعده في كتابه. انتقلت من الجنرال "يارتسيف" إلى الناشر "بوليانسكي"، الذي أخذها معه في جولة بالمعارض الدولية للكتب لبعض الوقت كما أنه اشترى لها معطفًا من فراء "المنك" من محل تركي في نهاية "باهنوف" في "فرانكفورت"، وهو مكان يشبه قفص دجاج مظلم به تشكيلة اختيارات محظوظة من الزغب والريش أكثر من كونه محلًا لبيع ملابس من الفراء.

ناسب المعطف "مارينكا" على نحو رائع. كانت ستناسبها أيضًا شقة بها سرير حريري ضخم وسيارة ذات ألوان مبهجة كلعبة أطفال غالية الثمن. لكن، لم تصل الأمور إلى الشقة والسيارة. رحل الجميع فجأة في رحلات عمل غير متوقعة، بعد أن أعطوا "مارينكا" مغلفًا نحيفًا كـ"بداية". لكن تلك البداية اللعينة لم تصل قط إلى نهايتها. علفت "مارينكا" في حالة من التشوش الزمني. لم يعد للمحار المالح، والفراولة أي طعم، وأصبحت العواصم الأوروبية التي مرت بها كمجموعة من البطاقات البريدية، مملة للغاية. عانت "مارينكا" للغاية، كانت تصرخ وتسب في أثناء استلقائها في حوض استحمامها المريح. سألت دموعها الغزيرة واختلطت بصابون غسل النحل وتحولت إلى رماد - لكن لم يكن هناك أي فائدة من الأشياء التي يمكنها فعلها كي توقف تلك المعاناة. لم يكن الرجال الذين أرادت امتلاكهم

أقوياء ومسيطرين مثلما تسيطر عليهم أعمالهم. تلك الأمور المهمة خنقت عقولهم وأوعيتهم الدموية بالكامل، مما جعلهم لا يتعاملون مع "مارينكا" جدياً حتى في الأمور الجسدية.

طمأنت "مارينكا" نفسها وهي تنتظر مبتسمة لعلبة مكياج مفتوحة:

- حسناً، لا تهتم، إننا لسنا مسنين بعد. أتعرف ماذا أريد يا "ماكسي"؟ أريد الزواج برجل مسن. أحد فناني الشعب من أيام الاتحاد السوفيتي، لديه منزل ريفي ضخم عتيق ورطب وشقة في "كوتوفسكي بروسبيكت" ممثلة بالكراتيب القديمة. خمس سنوات في خدمته، ثم أصبح أرملة من موسكو!

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة:

- لماذا تريدان الزواج برجل مسن؟ ألا يملك الشباب المال؟ لن يضاجعك المسن كما تحتاجين، يمكنني إخبارك بذلك عن يقين.

أجابته "مارينكا" وهي تحول نبرتها إلى نبرة عملية منتعشة:

- "ماكسي"، لا تكن أحمق هكذا. إن أرملة من موسكو ستكون في نطاق سعر مختلف. سيكون الأمر كما لو أنني لم أنت من مدينتنا القديمة، لكن لطالما عشت هنا. سأحمل اسمه. اسم يحترمه الناس. أترى يا "ماكسي"؟ الترميل بالطريقة الصحيحة يشبه الولادة من جديد. في عائلة محترمة من موسكو، ليس مع أبوي الأحمقين العجوزين اللذين لا يمتلكان الذكاء الكافي لابتزاز إدارة المصنع من أجل الحصول على شقة. لا تتجهم هكذا، أنت تفهم الفكرة: لقد وُلدنا ونحن الآن نعيش حياتنا، لكن لم نجد من يساعدنا. ليست خطيئة أن أساعد نفسي قليلاً. أريد أن أفعل ذلك بأمانة. طالما أن رفيقي فنان الشعب لا يزال بإمكانه تدخين سيجارة أو اثنتين سأحبه مثلما أحب أبي العزيز. لن يكون ذلك صعباً بعد تعاملي مع أبي اللعين، أنت تعرف ذلك.

لم يُرد "ماكسيم تي يرماكوف" إزعاج "مارينكا"، لكن كان من الصعب عليه الاقتناع بجدوى خططها للزواج. حققت "مارينكا" تقدماً جيداً في موسكو وكادت أن تتخلص من قشرتها الريفية مع ثيابها المهلهلة، ولكن تمكنت العاصمة من طحنها. في أثناء دراسته لجسد "مارينكا" الطويل، المنتفخ قليلاً حول المفاصل، لم يعد "ماكسيم تي يرماكوف" ينظر إليها كلوح صلب مادي، ذلك القالب الذهبي الذي بدا في مسقط رأسهما ممثلاً لقيمة خاصة وقدر خاص. موسكو، هذه الحزمة الهائلة من الحجارة والأسمنت والمعادن، والمتكدسة بملايين وملايين الناس، حرمت "مارينكا" من استقلالها المادي، وحولتها إلى ذرة غير مرئية تقريباً. أثبتت موسكو لساحرة "جوجل" البولندية الصغيرة بأنها مكان صعب. لم تعد الأمور يسيرة معها بشعرها المربوط المرفرف بفعل الرياح، بل تحنك في الأسفلت بصرامة بحذائها الملثوي. كلما سارت "مارينكا" مع "ماكسيم تي يرماكوف" متأبطة ذراعه، تركته بكم متجدد. في موسكو، تحولت عينا "مارينكا" الكبيرتان الخضراوان ذوات النقط الخفيفة، إلى شيء مرتعش كئيب خالٍ من أي معنى. وعلى الرغم من أن دموعها ليست سوى مياه مالحة عادية، فقد بدت له وكأنها مليئة بالفيروسات.

سألته "مارينكا" وهي تبكي حالها بعد أن مارسا الجنس:

- أخبرني يا "ماكسي"، ما العيب فيّ؟

أجابها "ماكسيم تي يرماكوف" بوقاحة:

- توقفي عن النحيب أيتها الحمقاء. إن كل ما في الأمر أن هناك العديد من العاهرات في موسكو.

ربما كان الشيء الوحيد القادر على مساعدة "مارينكا" هو سلسلة من الظروف الاستثنائية. بعد أن صُعبَ "ماكسيم تي يرماكوف" بعرضها للزواج، سمح لنفسه بأن تلتهمه بشهوة منقّدة، مما جعل السرير يرتطم بعنف في الحائط. ظن أن تلك السلسلة من الظروف قد تكون موجودة.

إن خطط المتنبئين الاجتماعيين، أصحاب الرؤوس المنتفخة غير السليمة، جعلت من "ماكسيم تي يرماكوف" الرجل المثالي لـ "مارينكا". مع الأخذ في الاعتبار أنه كان عليه إطلاق الرصاص على نفسه سابقاً، فإن سن "الهدف الرئيسي" المناسب للزواج هو التسعين. كما أن عشرة ملايين دولار ليست ميراثاً سيئاً! لكن كيف عرفت "مارينكا"؟ هل تحدثوا معها حديثاً مخابراتياً هادئاً في شقة صغيرة هادئة تصلح لعقد المؤامرات، واختبروا مؤهلاتها على السرير الصغير البني السوفيتي؟ إن هذا أمر غير محتمل. أحمق. لم تعطِ تلك الفكرة أي دوافع زائدة لـ "الهدف الرئيسي" ليضع رصاصة في رأسه. كان سلوك "مارينكا" دليلاً على أنها تراهن على مكسبها الشخصي من كل ما يحدث؛ أي أنه محاولة منها للحصول على قطعة كبيرة من الفطيرة. يا لهم من سذج. يخططون كما لو أنه - اللاعب الرئيسي في اللعبة - ليست لديه أي اهتمامات خاصة به. كما لو أن الشيء الوحيد الذي يحلم به هو ألا يُفسد الأمور عليهم. لكن، كيف عرفت "مارينكا" عن الأمر؟ هل نشروا إعلانات في الصحف؟ كذا وكذا، الاسم الأول، والاسم الأخير، والعنوان - يمثل تعارضاً مع علاقات السبب والتأثير. بسببه أيها المواطنون الأعزاء، كل سندوتشاتكم تسقط على الجانب الذي تسيل منه الزبد، لكن إن اختار تصفية نفسه طواعية، فإن أقرب أقربائه سيحصلون على خمسين مليون دولار.

أمر سخيف. لكن حتى مع ذلك، لا يمكن تفسير كل مظاهر الاحتجاج الشعبي ضد "ماكسيم تي يرماكوف" بأن المتظاهرين ما هم إلا مجندين. ذات صباح جميل، وفي أثناء سيره متثاقلاً على الطين المختلط بالجليد من موقف السيارات إلى سلم مبنى المكتب، رأى "ماكسيم تي يرماكوف" أمامه لافتة سميكة مصنوعة منزلياً مكتوب عليها "ضحايا أوروبا". رفرت اللافتة في الرياح. انقبض قلب "ماكسيم تي يرماكوف" وشعر بالخوف. كان هناك قرابة خمسين شخصاً واقفين في صف غير متناسق أمام درجات السلم، وعلى الرغم من أنهم كانوا يرتدون ملابس مدنية لائقة، فقد بدوا له ككتيبة عسكرية فقدت ثلثي رجالها. انتاب "ماكسيم تي يرماكوف" شعوراً بأنه كان من المفترض أن يكون هناك أفراد أكثر من هؤلاء بكثير. كان الغائبون حاضرين رمزياً في الفراغ الأبيض خلف المحتجين، ولقد كانوا هم أيضاً

بالطبع الأشخاص في تلك الصور الفوتوغرافية الملصقة في أركانها شرائط سوداء معبرة عن الحداد. حمل كل محتج واحدة من تلك الصور المؤطرة التي سقط عليها الثلج وذاب بوميض مبلل من الوداع. ولكي يضمن سلامته، شدَّ "ماكسيم تي يرماكوف" ياقة معطفه الجلدي المتيبس وهو يحرق في الضحايا. تساءل في سره: "ممثلون؟ لا، ليسوا ممثلين".

ذلك الحزن الطازج، المغطى بغبار عدم أهمية الحياة، حزن لا يمكن تمثيله أو تزييفه. كان هناك زوجان عجوزان أعينهما ممثلة بالدموع يحملان صورة لشاب ذي حاجبين كثيفين يرتدي قبعة جندي مظلات. من المحتمل أنه كان يعمل حارساً في "أوروبا". كانا بين الحين والآخر يستقيمان في وقتها كأنما همزهما شخص ما في ظهورهما المنحنية ويخطوان خطوة صغيرة لا معنى لها. كذلك وقفت امرأة مسنة ذات شعر قصير مرتدية قبعة مستديرة من الفرو وتحمل صورة شخص مبتسم أمامها ابتسامة ذكرته بأشعة الشمس. تدلت من فم المرأة المسنة سيجارة مطفاة. لم يقنع المسنون "ماكسيم تي يرماكوف"، كان يعرف أن استئجارهم خطوة غبية، كانوا عمالات سياسية صغيرة وتافهة. باعوا حق استغلال أمراضهم بثمن بخس؛ ولهذا السبب لم يقتنع بالطلاب والشباب الحمقى الآخرين، الذين يحصلون على أجر إضافي لشراء البيرة والبطاطس الشيبسي كمجموعات إضافية في التجمعات السياسية.

لكن، كان معظم المحتجين في سن تشير إلى أن لديهم أشياء أخرى يفعلونها بحياتهم غير الوقوف في التظاهرات. رأى "ماكسيم تي يرماكوف" امرأة طويلة متغترسة تقف أمام الآخرين بمسافة ليست كبيرة، من الواضح أنها إحدى عاداتها. على الرغم من أن الغترسة الواضحة عليها - ربما لأن وجهها به شيء يشبه النمر - كانت المرأة ترتعش أسفل معطف الفرو الرفيع الذي ترتديه وكانت عيناها فارغتين كمحبرة جافة. رأت المرأة "ماكسيم تي يرماكوف" أولاً ولوّحت له بيد يغطيها قفاز أحمر. حدثت حركة عبر الصف، كأنهم ركاب بداخل قطار ضواحي مهتز.

قالت المرأة بصوت رطب متكسر وهي تخرج شيئاً ما من جيبها العميق:

- جبان! هناك، هناك، انظروا إليه، إنه يهرب!

سرت الصيحة عبر المحتجين كصدى الصوت، ورفع المحتجون صور الحداد بارتباك بينما أخرجوا جميعاً أسلحة:

- توقف! قف عندك! أيها الثعبان! أيها الخائن! سنقتلك!

لم يدرك "ماكسيم تي يرماكوف" في الحال أن الأسلحة الموجهة ناحيته مجرد ألعاب. مرت لحظة تجمّد فيها في مكانه، وتقلص بسرعة تجاه نقطة في عمق لا نهائي داخل نفسه. حدّق ببلادة إلى تلك الفتحات الفارغة السوداء الموجهة إليه، حينها طقطقت كل تلك الأسلحة البلاستيكية المزيفة وانبعثت رائحة مكابس محروقة لاذعة كالرائحة الخبيثة المنبعثة من مسدسات المياه الخضراء السامة. لوّحت المرأة المسنة ذات الشعر القصير بشيء ما محنط بدا كبندقية "ماوزر" أصلية من أيام

الثورة. أمسكت يد المرأة ذات القفاز الأحمر بالغرض الثمين ذي المعدن المصقول بتشنج كأنه حجر وهي تحاول استخلاص المياه منه. كان "ماكسيم تي يرماكوف" مبتلاً تماماً أسفل ملابسه الجلدية الثقيلة حين ركل الأرض بقدميه في سخط ودخل عبر باب المكتب.

لم تنتهِ الاحتجاجات في الليلة نفسها، أو حتى في صباح اليوم التالي، على الرغم من أنه تعيّر بعض الشيء. استدعت شؤون الحياة المشاركين الأكثر تحملاً للمسؤولية لكي يتعاملوا مع شؤونهم (لم ير "ماكسيم تي يرماكوف" المرأة المتغترسة ذات معطف فراء "المنك" مجدداً)؛ لكن ظل آخرون في أماكنهم راسمين ابتسامات على وجوههم كأنهم واقفين في صالة وصول المطار منتظرين وصول رحلة من العالم الآخر على متنها أحبائهم. انضم إلى "ضحايا أوروبا" ضحايا من حريق "كراسنويارسك"، أو ضحايا الهجوم الإرهابي في "كراسنودار"، وانفجار خط الغاز في قرية غير معروفة بالقرب من مدينة "أوفا".

مثلت مجموعات النشاط المتعاونة حادثتي طيران رئيسيتين وخمس أو ست حوادث قطارات؛ وقعت حوادث القطارات واحدة تلو الأخرى دون أي أسباب واضحة كما لو أن خط السكة الحديدية علق كالسوستة في عدة مسافات بين "فلاديفوستوك" و"سانت بطرسبرج".

ظهرت الكثير من الخيام على قطعة الأرض الواقعة بين أبراج المكتب، والتي رفرقت بشدة بفعل الرياح التي تسببت في نوع من السعال الرطب في أثناء هباتها العنيفة. تناثرت القمامة المبتلة متعددة الألوان في كل مكان، وتبعثرت علب البيرة على الأسفلت الأسود. قطعت الرياح المظلات المرفوعة في الهواء كأنها تقطع أرجل الذباب. كان الصربيون هم أكثر المحتجين بروزاً، فهم معتادون على التعامل مع شتاءاتهم الباردة المريرة. أمّا هنا، تحت أمطار موسكو الثلجية، فقد بدوا في معافهم المصنوعة من جلود الحيوانات وفراء الثعالب، كفتيات حديثات الولادة ذوات ريش مبلل.

احتل الضحايا المقعدون مركزاً منفصلاً، حيث تجمعوا تحت غطاء مهلهل من المشمع. كان بعضهم مضمداً بالضمادات في أوضاع مضحكة ومثيرة للشفقة تشبه التماثيل المحطمة. ومن ضمن الضحايا المقعدين جلست امرأة شابة واحدة فقط (في أي تجمعات إنسانية، وبخاصة منذ عرض "مارينكا"، أصبح أول من تقع عيننا "ماكسيم تي يرماكوف" عليهن هن الفتيات الجميلات). كانت هذه المرأة الشابة تدخن وتتحدث في التليفون باستمرار، لكنها بدت منفصلة عن كل شيء بسبب شحوب وجهها الحاد، والذي بدا صغيراً وسط شعرها الثقيل ذي اللون البني الفاتح بخصلاته الصغيرة الملونة. كان من الممكن أن يشعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالأسف لأجلها، الوحيدة من بين المجموعة بأكملها.

كان "ماكسيم تي يرماكوف" يشعر مؤخراً بميل ورغبة غريبيين في البحث، على الرغم من كل خدع المتنبيين الاجتماعيين الخبيثة. إن سحر الفتاة الأرمينية الهادئ

والنفاذ المستقر الآن بسلام في شقة شارع "جوجل" ترك تجويفاً غريباً وعميقاً داخل روحه كفراغ بين السحاب متسبب في ضيق مستمر لأنه لا يمتلئ أبداً بأشعة الشمس، وتلك البقعة التافهة من الفراغ وسط الظلام ستهدر ببساطة.

إن "مارينكا" المسكينة ليست مسؤولة على الإطلاق عن تلك الأحاسيس. في أثناء شخيرها وهي مستلقية وركبتها الثابتتان والمستديرتان متوجهتين ناحية "ماكسيم تي يرماكوف"، كان بإمكانه الشعور بعقلها يخطط على الوسادة المجاورة له، يضيئه أنوار ساطعة مستمرة تتسكب منها عشرة ملايين دولار. أصابه استياؤه بالأرق. في الصباح، اضطر إلى الذهاب للمكتب، وهو لا يزال نعسان، مصحوباً بمرافقين جدد جاؤوا لتوهم للخدمة وقادوا شاحناتهم التجارية المزيفة مندفعين عبر الأمطار.

حيّاً المحتجون ظهور "ماكسيم تي يرماكوف" بكورال عالمي من البذاءات وعاصفة من طقطة المسدسات اللعبة. لم يأتوا بأي أفكار أفضل حتى الآن فاستمروا بإلقاء الخضراوات الفاسدة وأطعمة أخرى سيئة على عدو الشعب. تعلم "ماكسيم تي يرماكوف" صدّ هذه الأشياء بذكاء باستخدام مظلمته، حيث يفتحها ويوجهها ناحية القصف شبه السائل. مع ذلك، أصابت الكثير من الصواريخ الهدف، وتلقى أي زميل تسبب سوء حظه في الوصول متأخراً إلى العمل المعاملة نفسها وهو يحاول التسلل عبر المحتجين. كانت النتيجة هي أنه في بداية يوم العمل تحولت الحمامات إلى حمامات عمومية يمتد أمامها طابور من المتجهمين الذين ينتظرون دورهم لاستخدام الحمام بينما تسيل المياه السوداء على الأرض. تجنب الناس "ماكسيم تي يرماكوف" مكتفين بتوجيه نظرات جانبية عابرة عدائية تجاهه، لذا فقد وجد نفسه يفرك معطفه الجلدي وينظف مظلمته أمام حوضه المغطى بالمواد اللزجة، ويدندن بلحن مرح لنفسه في أثناء فعل ذلك.

لم يكن "ماكسيم تي يرماكوف" منضبطاً في مواعيد حضوره؛ كان سيسعد الجميع لو أنه لم يحضر على الإطلاق. كانت رئيسته المباشرة "أيكا" زعيمة سابقة في اتحاد "كمسمول"، وهو اتحاد منظمات الشباب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي السابق. ضاعت من رئيسته فرصة لوظيفة كبيرة، فكانت تتصرف كحيوان وحشي، حبيسة مكتبها ذي العشرين متر مربع الممتلئ بالأثاث الرخيص. كانت تقترح على "ماكسيم تي يرماكوف" كل ثلاثة أيام تقريباً تقديم استقالته.

قالت، وهي تشعر بالحذر من قصّة شعرها التي جعلت كل شعرة منفصلة تبدو كأنها صُبِغَتْ وُصِفَتْ على حدة:

- من المؤكد أنك تفهم يا "ماكس"، أن كل ما يحدث من حولك يسيء لصورة الشركة. الساحة الأمامية للشركة تبدو وكأنها محطة السكة الحديد. ستتمكن من العثور على عمل رائع بعد ذلك دون أي جهد! لكن في هذه الأثناء فإن الولاء للمؤسسة يتطلب منك..

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مقاطعاً رئيسته وهو يسترخي للخلف في كرسيه ذي الأرجل الرفيعة مما جعله يصدر صريراً مزعجاً:

- لا، هذا ليس صحيحاً. لن أقدم استقالتي. لا، انتهى النقاش.

صاحت "أيكا" في مفاجأة ككل مرة، مما يتسبب في شحوب لون بشرتها تحت مكياجها ليظهر وجهين غير متطابقين، أحدهما مرسوم والآخر حقيقي:

- أتجرؤ على معارضتي أنا!

أكد "ماكسيم تي يرماكوف" قوله بهدوء:

- نعم، أنت، أنت يا "أيرينا كونستانتينوفا". للمرة الرابعة أو الخامسة بالمناسبة. لو أردت ذلك فعلاً فيإمكانك طردي بنفسك، حسب القواعد. لم يبلغ أحد قانون العمل بعد. أعط الأمر، تأنيب من أجل "ماكسيم تي يرماكوف" لخرقه قواعد انضباط العمل مثلاً. هل خرقت القواعد بالفعل؟ نعم، لقد فعلت. ماذا تنتظرين؟

- أنت لم تكتفِ بالتأخر فحسب، بل توقفت عن العمل كلياً.

خرجت هذه الكلمات مصاحبة بنبرة حادة ضمنية مصدرها إما قلبها الـ"كمسمولي" المحطم أو من الكوب الزجاجي الصغير المحتوي على أقلام رصاص مدبية.

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" بسخرية حيث ضغط على بقعة حساسة بحديثه عن المال:

- العمل؟ دون ميزانية؟ هل عليّ دفع تكاليف اللوحات الإعلانية من راتبي؟ والملصقات في مترو الأنفاق؟ كم هذا لائق: تدفعون للموظف ستة آلاف دولار ثم تتركونه يتعامل مع كل شيء بمفرده. يمكنه أن يستخدم أمواله في سبيل العمل حينما يحتاج إلى ذلك. ربما عليّ أن أطلب من وزارة الثقافة منحة من أجل إعلاناتكم، ما رأيك؟

- "يرماكوف"! إنك لم تعتد على التحدث إليّ بهذه الطريقة مطلقاً!

ذكرها "ماكسيم تي يرماكوف" بعاطفة:

- لم نعتد مطلقاً على وجود العشرات من رجال الأمن الوطني يتجولون في كل طابق. هيأ، حاولي، اطرديني!

عند هذه النقطة، استرخت الرئيسة للوراء في كرسيها وبدأت في محاولة تنويم "ماكسيم تي يرماكوف" مغناطيسياً بعينيها الباردتين فاتحتي اللون الشبيهتين بشبكة العنكبوت. في أوقات أخرى، كانت نظرتها تلك قادرة على التسبب في سريان رعشة خوف خفيفة عبر جلد مرؤوسيه، لكن لم يعد ذلك التأثير موجوداً الآن. لا شك أن "أيكا" تخيلت نفسها كالأفعى وهي تمد رأسها في تهديد، لكن كل ما رآه "ماكسيم تي يرماكوف" كان فشلاً غاضباً بغم ملطخ كورقة شجر متساقطة جافة. لم تعد رئيسته تصلح لشيء بعد الآن باستثناء اختلاس عمولات المؤسسة من أجل دفع تكاليف مصففي الشعر وخبراء التجميل. فكّر بينه وبين نفسه بدرجة من الرضا: "ماذا تكونين أنتِ مقارنة برجال الأمن الوطني اللزجين؟".

بعد ذلك في منطقة الاستقبال، يصطدم بأفراد من المتبئين الاجتماعيين، إما أن يكونوا جالسين يقرأون شيئاً ما بهدوء وإما أن يعبثوا بماكينه القهوة المزعجة. بدأت "لوسي" الصغيرة تتغيب عن موقع عملها أكثر وأكثر، وحتى لو كانت جالسة في مكتب السكرتارية الصغير المنمق الخاص بها فإنها تبدو غائبة في كل الأحوال. خمن "ماكسيم تي يرماكوف" أنها ذهبت للمستشفى لتزى ابنها، أو لتعرضه على الاختصاصيين من أجل المشورة الطبية أو أي شيء من هذا النوع.

بدأت "لوسي" الصغيرة في حال سيئٍ للغاية مما جعل من الصعب على "ماكسيم تي يرماكوف" تخيل الألم الذي قد يشعر به شخص مقرب منها عند رؤية وجهها المنتفخ الصغير خلف نظارتها السمكة وأظافر الزرقاء الشفافة كقشور السمك.

كان "ماكسيم تي يرماكوف" على استعداد لمساعدة ابنها الصغير المريض، فقط لكنه لن يتمادى في تلك المساعدة. بعد كل شيء، فقد كان لديه أبوان أيضاً. تفوح من أبويه المسنين رائحة الأدوية والطهي. كان صعباً عليه أن يتبادل معهما حديثاً دافئاً؛ فهما مازالا يعيشان في الماضي.

خلال الفترات الفاصلة بين ظهور "ماكسيم تي يرماكوف"، استكمل المخيم روتين حياته المعتاد. تأتي شاحنة تابعة للأمن الوطني مُلصق عليها إعلان لأثاث الحدائق على جانبها مرتين يومياً لإحضار طعام ساخن. كان الباب الخلفي يُفتح والنساء الكبيرات اللاتي يرتدين معاطف طويلة بيضاء غريباً يُخرجن حاويات من الألومنيوم وتدفعها إلى حافة الرصيف كأنهم أطفال ثقيلون يتعلمون المشي.

كانت الأوعية المعدنية، التي تبدو كالحُفر، تُحمل من الأسفل بينما تقضم شفاه رمادية على قطع بطاطس، كان هناك شيء ما في الصف الأمامي وسط كل ذلك، شيء بطولي بصورة يائسة، مما أشعر الموظفين الذين يلتهمون غداءهم المجاني في مطعم الموظفين بشعور غير مفهوم بعدم الراحة من المنظر. حافظ على النظام في المخيم رجالان ملولان من القوات العسكرية. كانا يتواصلان مع بعضهما بعضاً باستخدام اللاسلكي. وعندما تبدأ عملية إلقاء الخضراوات، يراقبان المشهد بأعينهما الحادة المتلألئة، كرماة مدربين، وكأنهما يراهنان بعضهما بعضاً ما إن كان سيتمكن أي أحد من إصابة الرجل السمين ذي المعطف الطويل أم لا.

على مسافة ليست ببعيدة من الضابطين، رفرف علم خيمة الإسعافات الأولية ذي الصليب الأحمر بفعل الرياح. تكوّن فريق العمل الطبي النشط من طبيبة داكنة البشرة ذات أنف عريض يشبه أنف الأسد، وشعر أبيض كرغوة كوب "كابتشينو"؛ كان "ماكسيم تي يرماكوف" يأمل في أن تكون مهمة دولية من نوع ما، إلى أن اصطدم شخص يقود دراجته بجلالته، مما جعلها توبخه ببذاءات روسية شديدة.

الغريب هو أنه قد مر أسبوعان، لا، بل ثلاثة أسابيع، أو حتى ثلاثة أسابيع ونصف الأسبوع ولم تظهر بعد كاميرا تليفزيونية واحدة في المعسكر. لم يحضر صحفي واحد بعد، ولم تُكتب قصة واحدة في الصحف.

بعد انتهائه من العمل، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" برغبة في الثمالة، وهو ما يشبه في حالته الخاصة، الرغبة في النوم في أثناء نوبة أرق حادة. ألقى بمعطفه الجلدي القذر، الذي أصبح الآن يشبه جلد فقمة سلّخت للتو، في صندوق السيارة، ثم انطلق ليشرّب عدة كؤوس في أماكن شرب مألوفة، لحسن حظه لم يظهر أي شيء في نتائج التحاليل التي أجراها في المرور، حتى لو أنه سكب دلوًا كاملاً من الخمر فيها. في المساء، أراد "ماكسيم تي يرماكوف" أن يختبر الحياة العادية؛ "حياة ما قبل الحرب" كما اعتاد جده "فاليرا" أن يقول، والذي أطلق على حلويات "النيزك" النادرة اسم "ما قبل الحرب مباشرة"، بالإضافة إلى كولونيا "القنصل" التي حصل عليها بعد أن ظهرت مباشرة في أكشاك التجارة التابعة لبرنامج الإصلاح الاقتصادي والسياسي في الاتحاد السوفيتي.

اكتشف "ماكسيم تي يرماكوف" "ديما روزديستيفنسكي" في مؤسسة تدعى "الصالحون للا شيء"، وهي المؤسسة التي ينتمي إليها عن استحقاق تام. كان الصحفي الذي يعمل في إحدى الجرائد الصفراء يجلس عند البار يشرب محتويات كأسه الصفراء. تلالأت نظرتة بالومضة الباهتة نفسها كالكأس الكبيرة التي يلمعها عامل البار؛ كان لدى "روزديستيفنسكي" خط داكن كعلامة التعجب على رابطة عنقه الحريريّة ذات اللون الفاتح.

قال وهو يدفع كأسًا تجاه "ماكسيم تي يرماكوف" الذي جلس بجانبه:

- خذ، تناول واحدة كي تصبح ودودًا.

لم يتمكن حينها من العثور على كأس أخرى ليقرعها بالأخرى فاكتفى بلكر "ماكسيم تي يرماكوف" في كتفه.

انتشرت أخبار ترقية "ديما روزديستيفنسكي" حيث أصبح مدير أخبار قسم المحليات في جريدته الشعبية المحتضرة، والتي تشبه قطعة خضروات مهملة، وبها رئيس تحرير يقوم بحبس نفسه في مكتبه لأيام ثم يخرج ووجهه أحمر كأنه من المريخ، وبالكاد يتذكر اللغة الروسية.

لم يعمل أحد في الجريدة، وهو تقريبًا ما يفسر ترقية "روزديستيفنسكي". لم يهتم صحفي الجريدة الصفراء بالأحداث المحلية، لكنه كان يعرف كيف يضيف تعليقًا ساخرًا لأي واقعة كي يخلق الانطباع بأن المؤلف يعرف أكثر من الجميع ما يحتاج إليه المجتمع حين استيقظ في الصباح ممسكًا برأسه المتعبّة. سيطرت اللهجة الساخرة نفسها على "ديما روزديستيفنسكي" في التحدث. أحبّ إخافة الصحفيات الشابات وعملاء العلاقات العامة عن طريق التلميح بأسرار العالم الاحترافي المظلمة. كان ينوم ضحاياه مغناطيسيًا بنظرتة الثقيلة التي يلقي بها من فوق الطاولة، وبالحرّكة الودودة التي أمسك بها بندي زميلته، بالطريقة نفسها التي يضع بها بعض الناس أيديهم على كتف الشخص الذي يتحدثون إليه.

متى تمكن من فهم الحياة: "خذ، تناول معي شرابًا!" لشعوره بالإرغام على إخفاء حقيقة أنه لا يفهم الحياة أفضل من أي أحد آخر تخيل "روزديستيفنسكي" تخيلًا

مستوحى من نفسه حرفياً، سحابة كثيفة للغاية، والتي ظن أنها احتوت على الأسباب المظلمة لاضطرابات المجتمع واضطرابات الشخصية. كان بإمكانه الشعور بتلك السحابة المظلمة فوق رأسه في أثناء كتابته لمقاله الجديد على لوحة مفاتيحه الحقيبة. كان مقتنعاً في سره بأنه من المستحيل لأي إنسان أن يحكم على أي شيء على الإطلاق، ولكنه أصدر أحكامه بسهولة شديدة للغاية، بمعدل ثلاثمائة أو أربعمائة سطر في كل عدد.

خلق الجهل، كمكون وصل لحد الاكتفاء الذاتي وككتلة كثيفة ملأت الرأس، في "ديما" حدساً معيناً انتقل إلى العقل الصحفي في المؤسسات التي لا تتطلب ذكاءً عظيمًا من الكاتب أو من القارئ. لم يعوّض ذلك الحدس "ديما" عن نقص معلوماته وخبرته فقط، بل أنقذه من كل أنواع الأمور المزعجة.

يمكنك أن تقول إنه عوّضه عن الأضرار. لم يلتق قط برئيس التحرير في أثناء تجوله في الممر وهو يضرب بقبضته العظيمة في الحائط. في تلك الأيام التي شعر فيها فريق التحرير كأسرة يتعرض خلالها الأب إلى نوبة شراب ثقيلة مهرولاً داخل المنزل حاملاً بلطة، كان "روزديستيفنسكي" حاضراً في المكتب لكنه يظل خفياً كالـ"نينجا". بالطريقة نفسها، في أثناء قيادته لسيارته الـ"مازدا" القذرة في الشارع بحالة أقرب إلى الإغماء، لم يصطدم قط بشرطة المرور، كأنما لديه قدرة ما على تقادي أعينهم.

كان "ديما" يشعر بالخطر حرفياً عن طريق أنفه ذي الحساسية العالية والوحمة المخملية التي بدت كلقاح الزهور؛ للخطر رائحة كريهة، و"ديما"، وهو محاط بكل تلك الروائح الميتافيزيقية، أكد بثقة أن الحياة نفسها كانت كومة من النفايات. كان ذلك هو السبب لاستخدامه المفرط للعطور. فاحت منه وهو جالس على كرسي البار رائحة تشبه شجرة استوائية مزهرة.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يرفع أنفه عن كأسه:

- ما هذه الرائحة النتنة الصادرة منك؟

أجاب "روزديستيفنسكي" باقتضاب وهو يحاول أن يجذب انتباه عامل البار الذي كان يخلط نوعي كوكتيل من زجاجتين مختلفتين بطريقة فنية:

- مستودع الخضراوات.

وقال بحسم:

- أعتقد أنه لحم متعفن. لقد صُدمت. هل خرجت لتوك من المقبرة؟ ذلك القميص الذي ترتديه يبدو كأنه متعفن بعض الشيء.

نصحه "ماكسيم تي يرماكوف" ودياً:

- أغلق هذا الفك الكبير الشبيه بفك القرش.

ابتسم "روزديستيفنسكي" ابتسامة واسعة كاشفة عن أسنانه غير المتساوية والتي بدت كأنما بُوعد بينها بفتاحة، قال له:

- حسناً، إنه قميص جديد. على الموضة، قطعة من العفن، تعجبني كثيراً. تفوح مني رائحة مستودع الخضراوات العفن بالفعل. لماذا تجلس عندك هكذا؟ هل ستشرب أم لا؟

أخيراً، استجاب عامل البار الأصلع الذي تماثل رابطة عنقه شاربه المعتنى به لنداء "ماكسيم تي يرماكوف" الذي طلب "فودكا"، ثلاثمائة جرام كاملين مرة واحدة. ندم على اختياره في الحال، لأن "الفودكا" تتسبب في تعرقه الشديد: السائل الذي شربه بأكمله بدأ في الحال بالتقاطر على ظهره وانتابه شعور بأن جسده انزعج كقطعة قماش. لكن فات أوان التراجع: وضع عامل البار ثلاث كؤوس صغيرة ممتلئة بـ"فنلانديا" في صف أمام "ماكسيم تي يرماكوف" بجانب ساندويتش لحم خنزير أعيد تسخينه. أجفل "ماكسيم تي يرماكوف" ثم شرب أول مئة جرام. شعر بجلجلة هادئة داخل رأسه وتناثرت الثمالة في الحال كالدخان المنطلق من داخل المدفع. استعد "ماكسيم تي يرماكوف" لتناول الساندويتش الذي أصبحت حرارته كحرارة جسد الإنسان، بشعور من الاشمزاز.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مفسراً لـ"روزديستيفنسكي" أو لنفسه:

- أنا والخمر لسنا على وفاق.

علق "ديما":

- لكنني أنا والخمر على وفاق تام، لا يمكننا أن نكون في حال أفضل. الخمر صديقي. لكن اشرب على كل حال طالما أنك لا تزال على قيد الحياة. طالما أن الناس لم يقتلوك بعد.

أجابه "ماكسيم تي يرماكوف" وقد شعر فجأة بالضيق. أراد أن يلقي بذلك الكاتب الفاشل الهادئ إلى الأرض ويراه ينهض على يديه وقدميه:

- كيف لك أن تعرف بالأمر؟ أنا لا أفهم.

قال "روزديستيفنسكي" بزهو:

- بالطبع أعرف. أول أمس ذهبت إلى مؤتمر صحفي في مؤسسة خيرية، يقع مكتبهم أمام شركتكم وشاهدت ما يحدث لبعض الوقت! إنك بارع في استخدام تلك المظلة. تأتيك الطماطم طائفة في الهواء وأنت تفتح المظلة كي تصدها - مرحى! تطير أشلاؤها مبتعدة عنك - رائع! هل تعرف من تشبه في المعطف الجلدي الأسود الطويل؟ جلاد. ملطخ بالدماء تماماً. رومانسي للغاية!

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" بسخرية:

- إذًا، لماذا لا تكتب عن الأمر في عمود لعين؟ إنه تخصصك، أليس كذلك؟ هناك مجتمع بين يديك، مجتمع أضخم مما يمكن استيعابه.

تنهد "ديما روزديستيفنسكي" ونفّس شعره المجعد والغليظ الذي بدا كأنه يتغذى مباشرة على أنسجة مخه كأنها تربة.

- صديقي، يحزنني أن أقول لك هذا، لكن في الحقيقة أنت لا تصلح لأن تكون في الأخبار. أقصد أنت نفسك. أنت لست جديرًا بالظهور في الأخبار. هل تفهم ذلك أم لا؟ بمجرد أن تكون جديرًا بالظهور في الأخبار فسأكون أول من يأتي إليك مهرولاً بمسجل ومصور. لكن في الوقت الحالي، آسف.

- لا أفهم. إن مالكي المنازل القديمة الحقيرة المهيأة للتفجير عليهم فقط أن ينظموا احتجاجًا فتذهبون هناك جميعكم مهرولين. أكوام من الكاميرات، من جميع القنوات التلفزيونية، ولقاء مع المحافظ. لكن هنا لديكم مظاهرة في وسط موسكو استمرت لأسابيع، وهم ليسوا مجرد متقاعدین مسنين بقبعاتهم. أتى الناس من جميع أنحاء البلاد. لديكم الناجون من تحطم الطائرة في سيبيريا، وكل الأوغاد البارزين من حادث القطار بالقرب من "سانت بطرسبرج". أتعني أنه ليس لديك أي شيء تقوله عن كل هذا؟

- كتبنا عن حادث القطار بالقرب من "سانت بطرسبرج". غطيناه في صفحتين كاملتين. كما كتبنا عن الطائرة، في الواقع، لقد سافرت إلى هناك بالطائرة مع أفراد وزارة حالات الطوارئ. أمور مهمة، ما رأيك بهذا! هبطت الطائرة على طريق رئيسي وقد كان المرور أسفلهم جنونياً. ثم فوّتوا المنعطف وأفسدوا حقلاً. أصبحت تلك الطائرة "التوبوليف" مجرد حطام. شيء عليك أن تراه في وقت ما!

- مهلاً، مهلاً، أنا شخص لا مبالي، ليس لدي أي فضول. لكن أخبرني، كشخص خبير بهذه الأمور: ما الذي يجعل حدثاً معيناً جديرًا بأن يكون في الأخبار على عكس أحداث أخرى؟

- أفهمك يا من لا فضول لديه! اشرب. لا تحاول حتى أن تتراخي في عملك وتقضي الوقت في صحبة أحد المحاربين القدامى من أجل استهلاك الكحول مثلما أفعل.

قال هذا ثم ألقى بسيجارته في المنفضة وأخذ كأس "فودكا" من الكأسين الموجودتين وأعطى الأخرى لـ "ماكسيم تي يرماكوف" الذي اضطر إلى ابتلاع السائل الحاد الذي لسع شفتيه.

أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أنه إذا جلس مع "روزديستيفنسكي"، فسوف يشرب ما يكفي من هذا السم العقيم ليشعر في اليوم التالي وكأن معدته بها جوال من الفحم الساخن. بالفعل، بدأ يشعر بحرقه في معدته، وصداع في رأسه. أشعل سيجارة هو الآخر. حسّن الدخان من حالته، ما ساعد على نقل الملفات الثقيلة إلى مكان آخر.

سأل وهو يقترب من "روزديستيفنسكي" الذي بدأ يثمل:

- إذا؟ الآن وقد شربت، أخبرني بالأمر، وإلا هشمت وجهك.

صاح "روزديستيفنسكي" بعينين دامعتين في عامل البار والعاهرتان الجالستان على مقربة منهما برقبتيهما البيضاويتين:

- يا إلهي، هل سمعتم ذلك سيداتي وسادتي؟ هو! سيهشم وجهي؟ وكيف ستفعل ذلك؟ أجابه "ماكسيم تي يرماكوف" بهدوء:

- جسديًا، بهذه الطريقة، ولن أهشمه فقط، بل سأهشمه تمامًا. أشعر بالفرق.

قال "روزديستيفنسكي" موبخًا:

- اسمع يا صديقي، أنت سمين، وعدواني للغاية، حسنًا؟ إذا، دعنا نفكر في الأمر معًا!

لسبب ما وجد "روزديستيفنسكي" الكلمة الأخيرة مضحكة وبالكاد حافظ على توازنه على الكرسي. اضطر "ماكسيم تي يرماكوف" إلى ضربه بشدة على ظهره لإجباره على إخراج ضحكاته كلها بسرعة، بالطريقة نفسها التي تفعله ماكينة العملات المعدنية عند تلقيها ضربة قوية.

قال "روزديستيفنسكي" محتجًا بصوت أجش وعينين جاحظتين وأنف سائل:

- "ماكس"، أبعد يدك. هل تريد أن تضربني بالفعل؟ لماذا؟

أجابه "ماكسيم تي يرماكوف" متعبًا:

- لا، لا أريد فعل ذلك.

شعر بالالاكتئاب بسبب مصابيح البار الخافتة ذات الرواسب الغامضة في الأسفل، وطرقات كرات البلياردو التي جاءت عبر الضوء الخافت، وأكمل قائلاً:

- أخبرني بالمعلومات الداخلية عن الأخبار وإلا توقفت عن الاستماع إليك.

سأله "روزديستيفنسكي" وهو يدير كأسه الفارغة ببطء أمام عينيه دون أن يراه:

- أظن أنني سأموت من أجل إعطاء صوت لكل ذلك الهراء؟ سؤال سريع: ما الذي ينتج الأخبار، وسائل الإعلام أم الحياة؟

أجابه "ماكسيم تي يرماكوف" بغضب:

- وسائل الإعلام، أمر بديهي. لكن الحياة تؤدي دورًا أيضًا. دعنا نقول، كالمادة الخام.

- صحيح، لكن خاطئ أيضًا. تخيل ما سيحدث لو خرج أي شخص تافه إلى الشارع حاملاً لافتة، وأعلنت عنه الأخبار. لو فعل الجميع هذا، فما الذي سيحدث؟

ألقى "روزديستيفنسكي" على "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة حزينة توهج من خلالها بشحوب ضوء ذكي عبر الجو المعبّق برائحة الكحول وقال:

- لكن الفرصة ليست متاحة، صدقني! إنها غالية جدًا، كمنزل على طريق "روبليوفسكوي". الأخبار غالية الثمن. غالية جدًا. تتطلب الأخبار استثمارات جادة.

أفضل مثال في العصر الحالي: اصطدام طائرات "القاعدة" اللعينة ببرجي التجارة. دعنا نفكر في الأمر. لقد خططوا للأمر منذ سنوات. درّبوا المتعصبين وأطعموهم،

ثم هناك تكلفة الطائرتين وناطحتي السحاب، وكل شيء بداخلهم، زيادة على كل ذلك، عدد الأشخاص الضخم الذين ماتوا في الحادث. في الحادي عشر من سبتمبر،

أمر "بوش" جميع الطائرات المحلقة في سماء الولايات المتحدة بالهبوط والاحتفاء،

وقد فعلت الطائرات ذلك. هذا أيضًا كلف بالمال! فكر في كل ما امتصته الأخبار الضخمة.

وأضاف:

- الآن لننظر إلى المثال الذي ضربته عن مُلاك تلك الشقق الحقيرة. هل كان ذلك الاحتجاج سيهم أي أحد لو لم يكن سعر الأراضي في موسكو يزن ذهبًا؟ أنت تقول المادة الخام. حسنًا يا "ماكس". لكن على المادة الخام أن تكون ثرية وثقيلة، كالبتروال الخام. لن يستخرج أحد حلوى من البراز من أجلك. جهود الهواة من الأسفل ليست مستحبة. هذا كل شيء، بالطبع يمكن لأحد الحمقى العاديين الظهور في الأخبار أيضًا - وهو يدفع مقابل ذلك الكثير. لو أنه غمر نفسه كليًا بالبنزين وأحرق نفسه تمامًا لإغاظة الرئيس "ميدفيدف". لو أنك قتلت نفسك يا "ماكس" مثلما يريدون، فسنحدث عنك. لكن ضع في اعتبارك، أننا سنفعل ذلك في فترة واحدة فقط سنختصر فيها حياتك اللعينة بأكملها! وفي اليوم التالي سينسأك الجميع. هذا كل ما في الأمر. لذا يا صديقي لا تحاول أن تقحم نفسك في الأخبار. بالنسبة لشخص مثلك، مكان في الجريدة يعني مكانًا في القبر. الآن اذهب، اغرب عن وجهي.

أنزل الصحفي رأسه في إجهاد بعد هذه الخطبة الطويلة فتدلى شعره أمام عينيه، ثم انزلق مرفقه على البار. اعتصر "ماكسيم تي يرماكوف" كتف "روزديستيفنسكي" الواهنة شاعرًا بوعيه الضبابي والمحدود كقنديل بحر يرتعش في المياه. سأله وهو يهزه بشدة:

- كيف تعرف عن رغبتهم في دفعي للانتحار؟ هل يمثل اسم "كرافستوف" أي شيء لك؟ "سيرجي يفجينيفيتش كرافستوف"، أصلع وعيناه مرعبتان؟ ارتعش الصحفي فجأة وهو يستقيم في جلسته. كاد أن يضرب "ماكسيم تي يرماكوف" على فمه:

- لا أعرف أي شخص يدعى "كرافستوف"! إنك في طريق سيئ للغاية يا "ماكس". ألا تنظر حولك وأنت تسير؟ ألق نظرة خاطفة من تحت مظلتك تلك. هؤلاء الأشخاص الذين يلقون عليك بمختلف الأشياء ويحملون اللافتات. مثل: "اقتل نفسك يا "يرماكوف". أمر لطيف، أليس كذلك؟ لطيف جدًا. كما أنهم يطلقون عليك النار بمسدسات مياه؛ لكن احذر منهم، ليست جميعها ألعابًا، رأيت أحدهم يحمل مسدسًا حقيقيًا. لو أنه جُنَّ وأطلق النار عليك، لن تحميك مظلتك. هل تفهم ما أقوله؟ هذا كل ما عندي، هيّا، ارحل من هنا، لقد أرهقتني.

- عليك اللعنة.

أقلت "ماكسيم تي يرماكوف" الصحفي الفاشل، وأخرج بطاقة ائتمان من محفظته. شعر بقلبه ينقبض في ألم. ابتسم عامل البار ابتسامة ودية كشفت عن أسنانه بعد أن حصل على بقشيش بقيمة مئة "روبل" نقدًا. أمام مائدة البلياردو الواقعة أسفل

المصباح المخروطي المنخفض المتداخل معه دخان السجائر، وقف رجل ذو ذراعين طويلتين وحمالات متدلّية يصوب عصا بلياردو إلى كرة شديدة اللّمعان. قال "روزديستيفنسكي" فجأة بنعاس شديد متحدثًا بالقافية وهو يحملق عبر "ماكسيم تي يرماكوف" بعينين فارغتين متسعيتين:  
- إن الناس ممسوخون وأغبياء مهووسون.

امتزجت هذه القافية الحمقاء مع صوت ارتطام كرات البلياردو مما حوّل شيئًا ما في وعي "ماكسيم تي يرماكوف". بدأت الكلمات تترنح، كأنها عالقة في موجة تتحسر وتتقدم مجددًا. قال "ماكسيم تي يرماكوف" لنفسه مندهشًا: "لا أتذكر منذ متى أدركت أن الحياة محض هراء تام".

تبخرت تلك الجملة وحلت أخرى مكانها: "لا يهملك إن كانت الحياة محض هراء، قريبًا سينتهي كل شيء بالنسبة لك".

دار شيء آخر بداخله، بالكاد سمع نهاية القافية لكن الذبذبات تراجعت دون أن تترك أي شيء عدا تقلبات ثقيلة في معدته. فكّر "ماكسيم تي يرماكوف" بطريقته العادية الآن وهو يسير باتجاه الباب: "هل بدأت بكتابة الشعر إذا؟".

أدرك فجأة معنى تركيبية الجملة التي كوّنّها. "قريبًا سينتهي كل شيء بالنسبة لك". توقف وحملق ببلادة في مائدة البلياردو حيث تتحرك أربع كرات ببطء حتى توقفت تمامًا.

"عليهم اللعنة جميعًا! سأذهب للمنزل وأضاجع "مارينكا"، ثم أنام وفي الصباح سنرى كيف تصير الأمور". شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بندم عابر، لأنه لم يتخذ أي خطوة تجاه الفتاتين اللتين كانتا تغازلانه بعينييهما الناعستين حين كان يتجادل مع الصحفي كالأبله. رأى في طريق الخروج إحداهما. لديها حلقة مثبتة في سرّة بطنها وزر حجر الراين يتدلى من سرتها على بنطالها الـ"دينيم". جلست العاهرة بجوار "روزديستيفنسكي" وتعلقت بعنقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فكّر "ماكسيم تي يرماكوف" قبل أن يفتح عينيه في الصباح الباكر بأنه نسي أن يطفئ مصابيح المنزل قبل أن ينام. كانت الغرفة ممتلئة بأشعة الشمس، كغبار لطيف؛ وانعكس بريق معدني على المرآة المثبتة على الدولاب السوفيتي. "في أي يوم نحن؟".

"السابع من مارس، اللعنة. إن غدًا هو عيد المرأة".

يا له من إزعاج كبير.

كانت "مارينكا" تستحم وتنشر المياه على الستارة البلاستيكية بغزارة. "حسنًا إذا اهدأ. لدينا وقت كبير جدًا حتى الغد". غسل "ماكسيم تي يرماكوف" وجهه ثم اتجه إلى المطبخ ليحضّر القهوة.

بعد أن انتهت من الاستحمام، ظهرت "مارينكا"، ساخنة ومعطرة، وشبه عمياء، ومن دون حاجبين أو مكياج؛ لطالما ظن "ماكسيم تي يرماكوف" أن شعرها المبلل يشبه شعر المقشاة الأسود ويجعلها تبدو بلهاء.

أعلنت "مارينكا" وهي تحضر الشاي الأخضر لنفسها:

- إنه يوم حفل المكتب عندي! متى يُقام حفلكم؟

قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يتذكر فجأة:

- اليوم أيضًا.

أمر غريب، إن رجال الشركة الذي يكون شعارهم في الثامن من مارس هو: "افعل الأمر الصحيح، وكن معطاءً"، لم يرسلوا أي أحد إليه ليأخذ المال، لقد تخطوا وجوده. هل عليه أن يشتري لرئيسه باقة ورد؟ أم أن الورد ليس مناسباً؟

ارتدت "مارينكا" ملابس صفراء فاقعة ذات خط أصفر حريري فوق ركبتيها الملتصقتين جداً، ثم أسرعت بالرحيل متجهة إلى المكتب للاحتفال بالعطلة. ظن أن الأمر يشبه نوعاً من صندوق الاستثمار، حيث إن "بوليانسكي" أحضر لها وظيفة عندما أنهى علاقته بها. تمت "ماكسيم تي يرماكوف" بغضب وهو يرتدي بذلته الوردية (تماماً كلون الخنازير)، والتي كانت غير مناسبة لذلك الوقت الحار من السنة بسبب بطانتها، كما أن لونها الفاتح غير مناسب للبرد المحمل بالمواد الكيميائية وطين موسكو.

على الرغم من محاولات "ماكسيم تي يرماكوف" لتنظيف البنطلون، احترق حرفياً بسبب البقع البنية التي توهي وكأن أحدهم استخدم السجائر لحرقتها. لم يمتلك رابطة عنق واحدة محترمة من المخزون المتبقي لديه تتناسب هذه الفوضى. كما أن وجه "ماكسيم تي يرماكوف" الناغم لم يكن أقل سوءاً ليتناسب مع الاحتفالات النسائية اليوم. لطالما أعدته مديرتة سراباً شخصياً لا يعبر عن أي شيء محدد بسبب رأسه الغريب. اكتسب ذلك الوجه الآن صفة معبرة غريبة، صفة من النوع الذي لاحظته "ماكسيم تي يرماكوف" في وجوه الآخرين الذين يبدو غير مستقرين بسبب شيء ما.

كانت الثنيات الحادة من الأنف وحتى الفم الصغير الملتوي جديدة، والأنف نفسه ذات اللون الوردى المجدد، بدا كأنه قطع ثم أعيدت خياطته مجدداً. لقد حان وقت قص شعره فقد نبتت شعيراته الناعمة حيث غطت جمجمته بزغب يشبه ريش الكتاكيت الباهت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجاهل "ماكسيم تي يرماكوف" المتظاهرين المتجمدين لدرجة الصلابة في الفناء وركب سيارته وتجول في الشوارع المشمسة. على عكس المتوقع، جلبت أشعة الشمس والزرقة الساطعة الممتدة عبر السماء بأكملها الصقيع وليس الدفء. انفجرت برك المياه الزجاجية أسفل إطارات السيارات، كما غطت قطع الثلج المدببة

الأسفلت غير المتساوي في كل مكان، حيث تهشمه أذية النساء كأنه فارغ من الداخل. وقف بجانب كل محطة من محطات مترو الأنفاق صف من الباعة المتجولين حاملين دلاء مليئة بالزهور الصغيرة الباردة، وزهور التيوليب التي يشبه لونها لون الجزر. كانت زهورهم الصغيرة الواهنة مربوطة ببعضها بعضًا برباط مطاطي كي لا تتفرق. وقف الكثير من المشتريين. كان كل المشاة في الشارع تقريبًا يحملون باقة ورد ملفوفة في ورق سيلوفان هش بدا كأنه خرج لتوه من مجمد الثلجة؛ كان مقدرًا لكل باقة ورد أن تُسلم من يد إلى أخرى خلال اليوم.

أوقف "ماكسيم تي يرماكوف" سيارته بجانب محل زهور صغير. بمجرد أن دخل بين الناس شعر بأن الجميع يحدقون فيه. في حين أنه في السابق، كحال كل ساكني موسكو، تمكّن من تجنب نظرات الآخرين حتى بين أكثر الأماكن ازدحامًا، الآن أصبح يقابل نظرات آخرين يحاولون النظر عبر مخه وصولاً إلى مؤخرة رأسه. كانت أعين الغرباء حذرة وخبیثة وفضولية؛ كلما زادت درجة الخبث، زادت حدة النظرة. ابتعد بعض الفضوليين قدر إمكانهم، بينما حاول آخرون الاحتكاك به ولمسه. لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من التخلص من شعوره بأن العديد من النشالين كانوا يسرقونه كذلك.

- انظروا، هل هذا هو؟ أجل، إنه هو!

حملك المراهقون ذوو البناطيل الواسعة بحدة في "ماكسيم تي يرماكوف"؛ أخرج المفترسون الصغار تليفوناتهم من بناطيلهم الفضفاضة الممتلئة بالجيوب حتى ركبهم، لكي يصوروا "الهدف" دون استئذان من القوات الفيدرالية الخاصة. أعاق "ماكسيم تي يرماكوف" رؤيتهم حين استدار بظهره وهروا تجاه كشك زهور آخر، حيث بضائع أكثر سطوعًا وأكثر رفاهية مما هي عليه في تلك الصفوف العامة في الشارع.

وقفت فتاة سمينة ومرحة خلف طاولة البيع، مرتدية سترة منقطة ضخمة تتدلى عليها أوراق شجر خضراء كأنها شبكة تمويه. عند رؤيتها "ماكسيم تي يرماكوف"، اتسعت عيناها الباهتتان قدر اتساعهما وزمت شفيتها تمامًا، كأنها تمكنت في تلك اللحظة بالتحديد من التقاط التعبير الذي كان على وشك أن تنطق به، شيء مثل "اغرب عن هنا!". بدلاً من أن تقول ذلك، حوّلت بائعة الزهور الضخمة القوية وقفنها من ساق إلى أخرى وتحدثت بنبرة حادة قائلة:

- كيف يمكنني مساعدتك يا سيدي؟

تركها "ماكسيم تي يرماكوف" لعلها لخمس عشرة دقيقة، وتفحص باقة تلو الأخرى من باقات الورد الثمينة التي بها كل شيء مبهج ونضر وبدا كأنه ملتف بكثير من البكرات؛ في أثناء فعله لذلك، دارت عينا بائعة الزهور المتلألئتان بسرعة شديدة داخل رأسها وظلت يداها الحمراء الممتلئتان بالخدوش تسقط الأشياء، فكَر "ماكسيم تي يرماكوف": "اللعة، يا له من أمر مزعج!".

قل شعوره بالضيق عند رؤيته لباقة رائعة من الورود البيضاء ذات توهج أخضر على جوانبها الممتلئة، مما جعلها تبدو غير ناضجة تمامًا، وجعله هو يريد إهداءها لشخص ما.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" أمرًا:

- سبعة.

أخرج باقة الورد التي اشتراها والتي شعر ببللها وامتلائها بالأشواك من خلال الورق الملفوفة بها ذات السطح العاكس، رأى متنبئيه الاجتماعيين بجانب شاحنة مكتوب عليها "خبز". كان الرجلان يهتزان لبيقيا دافئين أسفل معاطفهما القصيرة الرخيصة. حمل أحدهما أمامه عدة باقات من زهور "الميموزا" ملفوفة بورق سيلوفان. بدت شيئاً مجففاً يتم تناوله مع البيرة؛ أما الآخر فكان يتنفس على أصابعه الملتوية وهو يقوم بعدّ النقود.

صاح فيهما "ماكسيم تي يرماكوف" وهما يرفعان وجهيهما الشاحبين تجاهه:

- كل عام وأنتم بخير يا رفاقي الأعزاء!

مع ذلك، اتضح له أن تقديم الورد لرئيسه لم يكن بهذه البساطة. كعادتها في أيام العطلات، بدت المرأة في حال سيئة. تكرمت في النهاية بالمجيء إلى العمل في العاشرة إلا الربع وبعد أن ألقت جانباً بمعطف فراء "الشينشيل" الملتف المستعمل في منطقة الاستقبال، حبست نفسها في مكتبها. أصبح كل شيء جاهزاً أخيراً لتهنئة النساء اللاتي جلسن جميعاً وهن محدقات في شاشات الكمبيوتر بفساتينهن عارية الذراعين كاشفة عن بشرتهن ذوات درجات الألوان السخيفة، كأنما كل واحدة منهن كانت تحلم بأن تكون مختلفة عن حقيقتها أسفل ذلك الفستان وكان ذلك الحلم واضحاً من خلال القماش الرفيع. كان "كراب" يرتدي رابطة عنق حريرية غريبة، وألقى سابقاً خطبة العطلة للموظفين ثم هرب من المكان.

في الكافيتريا، كانت الأطباق الملقاة على القماش الأبيض المفروش على المناضد التي حُمِلت من مكانها تتوهج ببياض طبي وعند البار كانت زجاجات "الفودكا" تنتهي بالتدريج. لكن ليس بإمكانهم بدء حفل المكتب دون تهنئة "أيك".

تسكع "ماكسيم تي يرماكوف" في منطقة الاستقبال مع فريق التهنئة الذي تقوده "ليدا" الضخمة، التي تحب دائماً أن تكون مسؤولة عن شيء ما. كانت "ليدا" الضخمة غاضبة حينها وظلت تشدُّ على أصابعها البيضاء بقوة. أحضر فريق التهنئة سلة ممتلئة بزهور الأقحوان، زهور ممتلئة كفتائر الجبن المصنوع من اللبن الرائب، ومجموعة من البالونات التي نفخها الرجال ورسمت عليها النساء وجوهاً مبتسمة ملونة.

بعد فترة انتظار دامت لأكثر من ساعتين، تحولت الابتسامات إلى عبوس، والبالونات نفسها التي نُفِخت بنفَس بشري حقيقي، إن لم تكن نسائم من النية الحسنة العفوية، أصبحت قاتمة، كأنها بدأت تختمر. امتلأ المكتب بإحساس بالصمت؛ بدا

كأن هناك المزيد والمزيد من الصمت يُصْخ في المكان وهو على وشك الانفجار في أي وقت.

بالطبع، وصلت كل الشكاوى إلى "لوسي" الصغيرة. كانت بين الحين والآخر تتواصل مع المكتب الداخلي عبر التليفون الداخلي، وتبتسم ببلاهة وهي تعيد السماع إلى مكانها وتعلن قائلة:

- لقد قالت "أيرينا كونستانتينوفا" إنها ستأتي لاحقاً فهي لا تزال تعمل.

تمت "ليدا" الضخمة وهي تتجول في أنحاء منطقة الاستقبال وتدوس على أقدام أفراد فريقها الذين كانوا جالسين بفوضى على الكراسي غير المريحة:

- أه، إنها تعمل، بالطبع. إنها تهزأ بنا، بالطبع تهزأ بنا.

لم تكن "ليدا" الضخمة في حالتها المعتادة اليوم. بدت كأنها ارتدت ملابسها ووضعت المكياج دون النظر إلى المرأة. رآها "ماكسيم" ترتدي تلك البذلة الرمادية اليدوية مؤخراً طوال الوقت. توهجت عينا "لوسي" الصغيرة المتألمتان تلاًوًا لا معنى له، وسالت بعض قطرات العرق أسفل صدغها النحيف، كأنما كان الدم يترشح داخل جسدها قطرة وراء قطرة. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يخبي باقة الورد الثقيلة خلف ظهره مع شعوره بقشعريرة تلف قلبه: "أمن الممكن أن يكون الطفل قد مات؟".

لم يظن أنه قال أي شيء من أفكاره بصوت عالٍ لكن "لوسي" الصغيرة التقنت تجاهه وقالت وهي تحفل كأنها قضمت ليمونة:

- ليس بعد، لكنهم يقولون في أي وقت الآن.

سألتها "ليدا" الكبيرة وهي تنفض على مكتب السكرتيرة، مما جعل حليها الطويلة تصدر أصواتاً عالية:

- أي وقت الآن! كم تبقى من الوقت؟ نحن ننتظر لأكثر من ساعتين، بإمكانها أن تتعم على الناس برويتها!

فُتِح الباب خلف ظهرها بتباهي مسرحي. هبَّ الجميع على أقدامهم ووضعوا ابتساماتهم كأقنعة الغاز عند سماعهم لصوت إنذار الأسلحة الكيميائية. قالت "أيكا" وهي واقفة في المدخل مما جعل المنظر يبدو كصورة رسمية مؤطرة:

- ساعتان من وقت العمل من أجل الاحتفال بي، كم هذا لطيف، وما الذي يفعله كل هؤلاء الأشخاص هنا؟ حسناً، إنه عيد المرأة، لذا يمكنني تفهم سبب وجودهم، ولكن لماذا يبدو الرجال مسترخين؟ هل اتخذوا من الثامن من مارس عطلة غير مدفوعة الأجر؟

قالت "ليدا" الضخمة بتملق وهي تلوّح بيديها للفريق من خلفها للذهاب وبدء التهنئة:

- لقد رحل "فاديم فاديميتش"، وأخبرنا أن نستمتع بوقتنا.

أجابتها الرئيسة بهدوء متأملة ذقن "ليدا" الضخم والملطخ بالبودرة:

- لكنني لا أزال هنا، أم أن ذلك لا يحتسب؟ إنني مجرد فراغ بالنسبة إليكم، أليس كذلك؟ لماذا تهزين مؤخرتك هكذا كطائر أحمق؟

أعدت "ليدا" الضخمة يديها من خلف ظهرها بياس وأمسكت بحليها التي تساقطت على الأرض في الحال مصدرة صوتًا عاليًا وتناثرت على الأرضية العارية. صاحت "ليدا" الضخمة بصوت ممثلي بالدموع وهي تتراجع عن الحلي الساقطة:

- يا إلهي! ما الذي فعلته لك؟

سألته "أيكاً" وهي تضيّق عينيها الباردين بسخرية:

- أنت؟ لي؟

فكر "ماكسيم تي ييرماكوف": "ما الذي جعلني أت إلى هنا بحق الجحيم؟ لدي طرق أخرى أضيع بها وقتي أفضل من مشاهدة هذا العرض المسرحي. في البداية حوادث قطارات وطائرات على كل الجوانب، والآن هؤلاء الأشخاص بمؤامراتهم وفسادهم، وفوق كل ذلك روح العطلة!".

من أجل تمييز يوم العطلة، ارتدت "أيكاً" أفضل ما لديها، حيث ارتدت ملابس مختارة بعناية شديدة مكونة من درجات مؤلمة من الأخضر والبيج، كل تفصيل في ملابسها يؤكد تفاصيل أخرى مختلفة؛ وجهها الرمادي غير الصحي ذي البقع الداكنة المغطاة بالمكياج الملطخ على وجهها حتى الأسفل بدا كأنه أرسل من خلال الفاكس. كان من الواضح أن "أيكاً" تنوي عدم السماح لحفل المهنئين بالدخول إلى مكتبها المشمس ذي النظام الهادئ والرتيب، والذي تضع فوقه قطعة حلوى من "الكراميل" حيث تبدو كشريط زينة مبتدل مربوطاً كعقدة.

بدت الأفكار والمشاعر التي كانت تدور بداخل "أيكاً" لساعتين ونصف الساعة في أثناء جلوسها بالداخل وحيدة أنها لا تزال تطفو في هواء المكان؛ كان السماح للغرباء بالدخول إلى روحها الحقيرة الضيقة محرماً تمامًا. فكر "ماكسيم تي ييرماكوف" وهو يتراجع إلى ركن منطقة الاستقبال حيث توجد نسخ من مسودات تصميم المطبوعات: "اللجنة على كل ذلك، ما الذي سأستفيد من محاولة فهم هؤلاء الأشخاص؟".

كانت نسخ المسودات تستند إلى الحائط مكونة قوس وقد انزلت بثقلها على الأرض. صاحت "أيكاً" بهجة قاتمة:

- "ماكس"، أنت هنا أيضًا!

تتحى المهنئون جانبًا مسرعين تاركين "ماكسيم تي ييرماكوف" وكوم الورق الذي أوقعه تحت رحمة الرئيسة. أجابها "ماكسيم تي ييرماكوف" بنبرة مشمئزة طفولية:

- آه، مرحبًا!

قالت "أيكاً" مقلدة نبرته:

- أه، لقد كنت على وشك أن أطلب حضورك. أخبار سعيدة: لقد تم التصديق على الميزانية. ألم تعرف بالأمر؟ ميزانية ضخمة، وقد تقرر صرفها من أجل إطلاق سراحك للعمل الإبداعي. إن هذا هو أكثر أنشطتك أهمية، أليس كذلك؟ سأتولى أنا تحديد أماكن القصص واللاقات. كل ما عليك فعله هو المجيء بالأفكار الإبداعية وتقديمها. أما عن الجانب المادي للمشروعات فهو لم يعد من اختصاصاتك. أليس هذا رائعاً؟

انتاب "ماكسيم تي يرماكوف" الشعور بأن كل الأضواء بما فيهم الشمس انطفأت لثانية واحدة. قال بحذر وهو يبتسم أوسع ابتساماته وأكثرها إيجابية، ابتسامة جعلته يسمع صوت صرير خرف أذنيه:

- لا يمكنني قول ذلك، أنا أعمل بجد، وأنا أعرف أشخاصاً كثيرين في جميع شركات شركائنا. يتطلب الأمر أكثر من شهر أو شهرين لتحقيق ذلك. كما أنني في المجمل أملك الخبرة.

قاطعته رئيسته بإغظة قائلة:

- أعرف، أعرف. أشكرك على اهتمامك الشديد. لكنني سأندبر الأمر بشكل ما يا "ماكس"، عليك أن تفهم ذلك.

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو لا يزال مبتسماً ابتسامة مسعورة كأنه يجر شاحنة بأسنانه المشدودة: "أيتها البقرة النتنة، لقد حرمتني من ثلاثين ألف دولار على الأقل. كما أن لدي عقلاً اقتصادياً أكثر منك أيتها الحثالة. إنني أعيش على التخفيضات التي أجنيها بنفسني. من الذي سيعطي عاهرة عجوز مثلك أي تخفيضات؟ لا، ستلجئين للحصول على كل شيء بالطريقة الفظة؛ بالرشوة. بإمكانني تخيل حجم الميزانية التي خصصتها لنفسك".

قالت "أيكا" في شفقة:

- لقد شحب لونك يا "ماكس". أتعرف؟ أعتقد أننا سنعهد بجزء من العمل الإبداعي إلى إحدى وكالات الإعلان الكبرى. نريد أن نجد صورة منتجنا. نجعله مفعم بالحياة، أتفهمني؟

بتلك الكلمات النهائية التي أوضحت كيف أن المنتج في حاجة إلى أن يُفعم بالحياة، وقفت الرئيسة بقامة منتصبية ولوّحت بقبضة مغطاة بجلد شبيه بجلد الضفادع عبر الهواء. وقف العديد من أفراد فريق التهنئة في الحال باستقامة مظهرين الحيوية المطلوبة، وتلألأت الأعين في أماكن مختلفة.

تنهد "ماكسيم تي يرماكوف" وقال وهو يجلس على طرف مكتب "لوسي" الصغيرة، الذي أصدر صوتاً كأنه يشتكى:

- بالطبع يمكنك أن تعهدي بالعمل لمن تريدين، ولكن ما تكلفة ذلك؟ ستحدد الوكالة سعراً تقديرياً من أجلك، وماذا سيضعون في ذلك السعر التقديري؟ أجور محاسبيها،

إيجار مقرها، إيجار موقف السيارات بها. إن شركتنا تدفع الكثير مقابل موقف سيارتنا، أليس كذلك؟ أما الآن فسندفع من أجل موقف سيارات شركة أخرى.

قالت "أيكاً" بازدراء وأدرك حينها "ماكسيم تي يرماكوف" أنه أصاب الهدف:

- هذا ليس من شأنك! حسناً، لقد جنتم جميعاً إلى هنا وأنا لم أطلب مجيئكم. ماذا أردتم؟

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بابتسامة واسعة تتم عن الرضا:

- في الواقع، أنا لم آتِ لرؤيتك يا "أيرينا كونستانتينوفا"، لقد أتيت لرؤية "لوسي". أردت أن أهنئها وتهنئة الأخريات.

جعلت هذه الوقاحة غير المسبوقة جميع أفراد الفريق يشهقون. شدّ أحدهم على البالونات التي كانت ملقاة بسلام على خزانة، وهرع آخر للأمام حاملاً سلة زهور الأقحوان. ظهرت "ليدا" الضخمة وسط كل هذه المشاجرة لثانية: كان لون خديها الثقيلين أحمر كالطوب وأعطى عطرها الحلو سخونة سامة كأنما رشه أحدهم على فرن أحمر ساخن.

قالت "أيكاً" بفحيح تجاه "ماكسيم تي يرماكوف" مباشرة:

- أيها الثعبان الحقير، إن الشعب محق في كراهيتك.

وجهت كلامها له ولـ "لوسي" الصغيرة:

- أنتما الاثنان ثعبانان.

بدت "لوسي" الصغيرة شفافة تماماً؛ حيث تسمح لكل شيء بأن يمر من خلالها دون تلقي أي شيء.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بصوت عالٍ احتقالي:

- "لوسيينكا"، أتمنى لك عطلة سعيدة اليوم في بداية الربيع.

ثم وضع باقة الورد أمامها.

بدت تلك الباقة أوّل باقة ورد تراها "لوسي" بالفعل في ذلك اليوم، وهي في الواقع باقة تستحق أن تُرى. بداخل ورق السلوفان، بدأت الورود البيضاء بالتفتح بعض الشيء، كأنها أخذت شهيقاً للتو؛ كانت مسحة اللون الأخضر الرقيقة تشبه تورد النبات الطبيعي، كما تغلف الشوك بقطرات مياه صافية كالدموع. أعطى السحر الأعجوبة لشيء تافه كسبع وردات فجأة تهنئة "ماكسيم تي يرماكوف" الفظة أهمية مبدلة ورفيعة جعلته يشعر بالإحراج.

همست "لوسي" الصغيرة وهي تحمل الباقة كأنها طفل تخطى عنه أحدهم:

- أوه، كيف..

لم يعطِ المهنون "أيكاً" فرصة للإعجاب بهذا المشهد العجيب. بالتعارض مع البيوت الشعرية الخطابية المتملقة، تخبط الحشد المشوش خارجاً إلى الطرقة. أخذت

“ليدا” الضخمة فراء رئيستها المهانة الملتف من الدولاب وهزت المعطف كأنها تتوي تغطية حشدها الغزير به، وذهبت إلى الخلف.  
شق صوت الرئيسة المتحشرج الحشد قائلة:

- “يرماكوف”! انزل عن مكتب سكرتيرتي! يمكنكما تسلقه معًا عندما لا أكون موجودة! لكن إياكما أن تجرأ على فعل ذلك على مكتبي، أتفهمان؟ سأعرف فورًا لو فعلتما ذلك.

تمتم “ماكسيم تي ييرماكوف” بهدوء:

- يا لها من عاهرة. لا تهتمي بها يا عزيزتي.

أعطى “لوسي” الصغيرة قبلة أبوية على جبهتها الجافة التي كان لها طعم اليود.

قالت “لوسي” الصغيرة بهدوء:

- أشكرك يا “ماكسي”. إنها زهور جميلة للغاية.

حلّ الصمت متيغًا الفرصة لصدى صوت تهان خافت يعلو تدريجيًا من أعماقه، ثم أصدر المصعد الرئيسي لحنًا وهو يبتلع بداخله “أيكاً” وظل الصمت مستريحًا حيث انساب بحرية في أنحاء الطابق. ألقى منتبئ اجتماعي ذو حجم صغير نظرة سريعة حذرة على منطقة الاستقبال وبمجرد أن تأكد من خلو المنطقة، هرول باتجاه الأريكة حيث يظل زملاؤه يقظين عليها وهم ينتقون أوراق النبات الذي يشبه الديك الصغير.

لاحظ “ماكسيم تي ييرماكوف” أن الرجال ضخام الجثة ذوي الأعناق السمينة القوية يُستخدمون من أجل المراقبة في الشوارع، أما الرجال الموكل إليهم مهمة المراقبة داخل المباني فكانوا صغار الحجم ونحيفين، من المحتمل أن يكون سبب ذلك هو أن يتمكن الضابط من القيام بواجبه حتى وإن كان واقفًا في أصغر وأتفه ركن.

بدا ذلك الرجل دون فائدة تمامًا: معطفه المنقط بالأسود وصل حتى ركبتيه تقريبًا وكان لديه دمّل قرمزي اللون بحجم حلمة ثدي امرأة متوردًا بصورة مخجلة على خده. فكّر “ماكسيم تي ييرماكوف” بتعاسة وهو يراقب رجل الأمن الوطني دون حماسة: “إنني الآن في القاع القذر. ليس لديّ سوى راتي. لا يمكنني تصديق ذلك”. أخرج رجل الأمن الوطني من جيبه كتاب ورقي مستهلك، وعلى غلافه نصف الممزق صورة مسدس لامع. بدأ الرجل قراءة غير عميقة. تكون فراغ في البقعة التي اقتطعت منها “أيكاً” نقودًا من خطط “ماكسيم تي ييرماكوف” لحياته ولروحه. شعر “ماكسيم تي ييرماكوف” بذلك الفراغ مع كل شهيق وزفير. قال لنفسه وهو يحدق في المنتبئ الاجتماعي ومبدلاً نظراته البائسة إلى نظرات أخرى ثابتة:

- حسنًا، لم ينته اليوم بعد. إذا فإن شركتك هي الراعي الرسمي الخاص بي، لقد تقرر ذلك. أيها المسوخ، أنتم تدينون لي بعشرة ملايين دولار، وسأخذ تلك الأموال منكم، حتى لو اضطررت إلى سلخكم أيها الأوغاد.

شعر رجل أمن الدولة الصغير باهتمام "الهدف" به فنظر من فوق الصفحة الممزقة وارتفع حاجباه بتساؤل. توجه "ماكسيم تي يرماكوف" إليه بحزم ونهض الرجل على قدميه كأنه يواجه ضابطاً أعلى منه رتبة وظل إصبعه محافظاً على الصفحة التي يقرأها في الكتاب.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يضرب رجل أمن الدولة على كتف معطفه الفارغ وشعر بشيء كحجر صغير أسفل البطانة:

- أحسنت صنعاً! إنك بطل!

لم يهتز وجه رجل الأمن الوطني، شعر فقط بارتعاشة في العينين اللتين لا تطرفان، قال "ماكسيم تي يرماكوف":

- حسناً، سأذهب.

التفت "ماكسيم تي يرماكوف" واتجه للباب. نادته "لوسي" الصغيرة بصوت مرتعش:

- "ماكسي"، انتظر. أنا في حاجة ملحة للتحدث معك في أمر ما.

اقتрحت عليه "لوسي" الصغيرة وهي تفتح أدراج المكتب بتوتر حيث كانت تبحث عن السجائر:

- لنذهب للتدخين.

كانت منطقة التدخين بعيدة جداً، بجانب سلم أبيض، وقد جُهزت بكل وسائل عدم الراحة الملائمة؛ حملة تقوم بها شركة معارضة لهذه العادة السيئة واستهلاك منتج شركة أخرى. اضطرا إلى المشي عبر الطابق بأكمله، بجانب حائط زجاجي لا ينتهي تتبعث منه برودة شديدة، ثم ينزلان أربع درجات سلم ضيقة وشديدة الانحدار إلى أن يصلا إلى الصندوق الممتلئ بالرماد السميك الشبيه بالعث الذي يرسل أعقاب السجائر ألياً إلى مياه سوداء.

اليوم، بما أنه عطلة، كان الجميع يدخنون ويصدرون الصخب في المكاتب دون أي قيود؛ ولكي يكونوا آمنين، وضعوا أوقية ذكرية حول أجهزة كشف الدخان. لكن لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" و"لوسي" الصغيرة من الحصول على ركن خاص بهما. تبع "لوسي" الصغيرة باستسلام إلى الجزء الذي تتبعث منه رائحة دخان السجائر العفنة. حملق "ماكسيم تي يرماكوف" بإحراج مؤلم في مؤخرة رأسها المائل النحيف والقلادة الهزيلة التي تلتف حول عنقها.

عند قاع درجات السلم كان هناك حشد كثيف من الأشخاص يحدثون جلبة ويدخنون ويحركون أيديهم بالسجائر؛ حشد كبير، مثل أشخاص مربوطين ببعضهم بعضاً فوق مقلاة الشيطان. بالأسفل، بجانب الحائط، لمح "ماكسيم تي يرماكوف" أعلى رأسين مميزين وقويين وشائكين - أو ربما كان يتخيل رجال الأمن الوطني في كل مكان!

قال وهو يدفع "لوسي" التي فقدت الشعور بالاتجاهات عبر باب زجاجي داكن:

- من هنا.

وجدا نفسيهما في ممر هادئ يقع في طابق أشخاص آخرين. على بُعد مسافة قصيرة، تمكنا من رؤية أريكة حمراء تشبه فم امرأة ممتلئاً، ونبات في وعاء يبدو كأنه ألصق ببعضه باستخدام ورق مزخرف متيبس. برزت أعقاب سجائر حديثة من تربة النبات المتعفنة، ولم يكن لدى "ماكسيم تي يرماكوف" أي تحفظات حول إطفاء سيجارته.

قال بصوت هادئ باذلاً بعض المجهود كي يطمئن "لوسي" التي كانت سيجارتها تتراقص بين يديها رافضة أن تقابل نار الولاة:

- تبدو هذه بقعة هادئة.

قالت "لوسي" الصغيرة بصوت أحش كئيب:

- "ماكس"، أنت تعرف أن لديّ ابناً، "أرتيومكا". حسناً، أنت تعرف كل شيء. لقد خضع لعملية جراحية في مركز القلب. عملية ناجحة، لقد أهديت للجراح زهوراً وزجاجة "كونياك". فجأة، بدأت كل أعضائه بالتوقف عن العمل كأنما يقوم شخص ما بإطفائه؛ إنه في العناية المركزة، لم يستيقظ منذ اثني عشر يوماً الآن. يقول الأطباء إنه لن يستيقظ أبداً. ربما يكون بإمكانه سماعي..

عند هذه النقطة اتسعت عينا "لوسي" الصغيرة فجأة وبدأت تتلأل بضوء منذر وامض؛ زحف خطان من البلب الساخن من أنفها حتى ذقنها. انزعج "ماكسيم تي يرماكوف" بسبب ذلك. لم يرَ من قبل قط دموغاً تسيل من وجه غير متحرك بهذه الطريقة، كالمياه على صخرة. أجابها بالكلمات الإيجابية لشخصية من فيلم أمريكي: - أنا آسف جداً.

بدا ذلك سخيلاً، وبسبب ضيقه، جذب "ماكسيم تي يرماكوف" ورقة من النبات جعلته يهتز فوق رأسيهما. كانت "لوسي" الصغيرة تقضم على سيجارتها بدلاً من تدخينها وهي تقول:

- ربما يكون لدينا عدة أيام فقط، قد يكون أسبوعًا أو اثنين. "أرتيومكا" يناضل، إنه لا يريد أن يموت. إن جلده بارد بالكامل، جبهته فقط دافئة، وأصبح شعره جافًا كمادة صناعية. إنه الآن معتمد كليًا على أجهزة التنفس الصناعية، أظل جالسة بجانبه طوال الليل وهذا الشيء المموج ينعق كالبومة. إن ذلك هو صوت تنفس "تيومكا". إنه لا يزال صغيرًا جدًا، لم يفهم بعد ما هو الموت، كيف يمكنه أن يموت؟ ومع ذلك فإنه يفكر في شيء، وأجلس بجانبه محاولة تخمين ما هو هذا الشيء. من السهل زرع فكرة أن الطفل هو الملام في رأسه: قد يكسر ألعابه، أو يرسم على حقيبة أمه بأقلامه.

وتابعت:

- أنا خائفة من أن يظن أن كل ما يحدث له عقاب لما فعله بالحقيبة. يظن الطفل أن الكبار سيسامحونه إذا وعد بأنه لن يفعل ذلك مجددًا. أن تسامحه أمه؛ أحيانًا يبدو لي أنني أصبحت وحيدة بالفعل، وحيدة تمامًا مع كل ذلك، هل تفهم يا "ماكس"؟ سألها "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يحوّل نبرته إلى الهمس لسبب ما:  
- لكن لماذا لا تعطيك "أيك" إجازة؟

أجابته "لوسي" الصغيرة هامسة أيضًا، وهي تحوّل وجهها الأحمر بالكامل تجاه "ماكسيم تي يرماكوف":

- لم أخبر أحدًا بالأمر، إنهم يعرفون بالموقف العام فقط. أنا خائفة بعض الشيء. أظن أنهم لو عرفوا عما أمر به أنا و"أرتيومكا" فسيكون ذلك أسوأ. سيثمنون رائحة الدم وسيحاولون القضاء علينا. هل تصدق ذلك يا "ماكسي"؟ إنني أسير في الشارع وأنزل مترو الأنفاق وأحلم بأن أكون خفية.  
- إذا، لماذا تخبريني بذلك؟

أجابته "لوسي" الصغيرة بابتسامتها الساذجة المرتسمة طوال الوقت مؤخرًا على وجهها المنحوت بدقة وأمسكت بمعصمه السمين. همست بحرارة ورموشها المتجمعة ترتعش:

- "ماكسي"، إنهم سيوقعون بك في كل الأحوال.  
- من هم؟

قالت "لوسي" الصغيرة وهي تضيق عينيها باتجاه الباب الزجاجي:

- هم.. إنهم لن يتراجعوا يا "ماكس". إنني أقول أشياء مريعة الآن. لكن بعد ذلك ستفعلها على كل حال. ستطلق الرصاص على رأسك، لكن سيكون الأوان قد فات بالنسبة لي ولـ"أرتيومكا". لو أن بإمكانك فقط أن تقرر! من المخزي أن أقول لك ذلك بهذا الشكل، لكنني سأفعل أي شيء، أي شيء!

جلس "ماكسيم تي يرماكوف" القرفصاء أمام "لوسي" الصغيرة وأحاطها بالكامل بذراعيه كأنها عنزة صغيرة خائفة تركل قدميه وقال:

- توقفي. توقفي. توقفي عن النحيب! ركزي، انظري إليّ. أنتِ شخص ذكي وناصح. هل تظنين حقاً أنني إذا أطلقت الرصاص على نفسي فإن "أرتيومكا" سيعيش؟ بحقك، فكري بمنطقية. هل تظنين ذلك حقاً؟

رفعت "لوسي" الصغيرة عينيها الفارغتين المبللتين لتتنظر في عيني "ماكسيم تي يرماكوف" وهزت رأسها ببطء نافية. قال "ماكسيم تي يرماكوف" بسعادة:

- حسناً، أترين! أنتِ تعرفين بنفسك أن ذلك ليس محتملاً. أين توجد الصلّة؟ كيف يمكن لرجل يعيش حياته دون مضايقة أي أحد أن يكون سبب حوادث وكوارث ومقتل الكثيرين؟ هل تظنين أنني أخرج في الليل أعرقل القطارات؟

سألته "لوسي" الصغيرة وهي تنظر مجدداً إلى الباب الداكن ذي الزجاج المضلع وخلفه هيئات مظلمة لأشخاص يتحركون:

- لكن لماذا؟

خطت الكثير من الأقدام أعلى وأسفل السلم، أحدهم ثرثر بصوت عالٍ وارتفع صوت امرأة غاضبة عن تمتمة الرجل.

بالطبع فهم "ماكسيم تي يرماكوف" ما قصدته. لو أنه تجاهل شعوره الداخلي بأن كل شيء كان بالضبط كما شرحه له رجال الأمن الوطني الحمقى في أول لقاء بينهم، فإن هذا الأمر سيكون له الكثير من التفسيرات: نوع خاص من التدريبات مثلاً، أو مناورة ملتوية معقدة يلعبها أفراد القوات الخاصة الأوغاد، الذين ظنوا أن "ماكسيم تي يرماكوف" إرهابي دولي. كيف عليه أن يشعر على كل حال؟ لا يمكنك لمسها أو كسر جزء منه.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" لـ "لوسي" الصغيرة بصدق وهو ينظر مباشرة دون جهد إلى وجهها الذي لا يزال محدقاً فيه كمصباح كهربائي ضعيف:

- لا أعرف.

تسبب ذلك الشعور اللاذع فجأة في دموع كثيفة، ملء ملعقة من كل عين، تنهمر من عيني "ماكسيم تي يرماكوف". قالت "لوسي" الصغيرة وهي تلمس وتمسح على خدّه اللين بظهر يدها:

- "ماكسي"، إنك شخص رائع، لو أنني أقدر على مساعدتك.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة مفكراً في شيء ما:

- يمكنك ذلك في الحقيقة. يمكنك أن تري أنهم يضعونني تحت الضغط وأنا لا أفهم أي شيء. هؤلاء المجانين الموجودون أمام المكتب - من هم؟ من أين أتوا؟ إن لديّ حسداً آخر من نفس نوع المعاتيه أمام باب شقتي. حسناً، لقد تعرضت لتعنيف من نوع خاص واختبرت الكثير من الهراء. لكن كيف يعرفون عن رأسي، وعن المسدس؟ أنتِ على سبيل المثال، من أين أتيت بمعلوماتك؟

تفاجأت "لوسي" الصغيرة مفاجأة أخرجتها قليلاً من حالة الحزن وقربتها من الواقع وقالت:

- أتعني أنك لا تعرف أي شيء عن الأمر؟ متى كانت آخر مرة بحثت عن اسمك على الإنترنت؟ على موقع "يانديكس" مثلاً؟  
سألها "ماكسيم تي ييرماكوف" متفاجئاً:

- ما الذي سيجعلني أبحث عن اسمي على الإنترنت؟ إنني لست مشهوراً أو نجماً. ليس لدي أي شيء على التليفزيون. بالأمس شرح لي صحفي تافه بوضوح شديد أن الكاميرات لن تأتي لأن أفراد العلاقات العامة لن يستفيدوا من الأمر. أفهم كل ذلك على كل حال، أنا لم أولد بالأمس.

قاطعته "لوسي" الصغيرة بخفة وهي تبدو قبيحة كقرد مسن:

- لا، أنت لا تفهم. إن "ماكسيم ييرماكوف" الموجود على الإنترنت ليس مثلك. إنه أنت بالطبع، لكنه شخصية ما في لعبة كمبيوتر. اللعبة تدعى "رأس فارغ"، إنها من أعلى الألعاب تقييماً على الإنترنت. كما أن المدونين يكتبون عنك طوال الوقت، عن شخصية "يرماكوف"، لكن في الحقيقة.. أتعرف؟ دعنا نعود، من الأفضل أن أريك. إن الأمر رائع يا "ماكس".

تمتم "ماكسيم تي ييرماكوف" لنفسه وهو يهرول خلف "لوسي" الصغيرة عبر الممرات المجمدة والسلالم الممتلئة بالدخان:

- حسناً، لنلقي نظرة.

كان بإمكانهما سماع الأصوات الساخنة والموسيقى المدوية على كل الجوانب، كأنما تسبب اليوم الثامن من مارس في أزمة قلبية للمكتب الضخم البارد. بين الحين والآخر، تجري مجموعة من الموظفين الحمقى عبر الممر ملوحين في صخب بأعلام المؤسسة، ثم بعد ذلك يعود المكان فارغاً مجدداً، ويبدو منظر أشعة الشمس الباردة خارج النافذة كأنه صُنِعَ بالكامل من الزجاج الصلب. تمايلت "لوسي" فجأة بابتهاج غير طبيعي أمام "ماكسيم تي ييرماكوف" على حذائها ذي الكعب المقوّس، وبدأت النظرة الخاطفة التي ألفتها عليه من وراء كتفها لعوبة بشكل غير لائق، مما ذكره بعاهرة أوقعت بزبون جديد.

لكن بالطبع كانت تلك صورة مشوهة، ففي حالتها الحالية المشوشة، من الممكن أن تبدو "لوسي" كأبي أحد، كان ذلك خارج عن إرادتها. سعل "ماكسيم تي ييرماكوف" في قبضته وتذكر "مارينكا" وفتانها الأصفر الصاروخي. كانت الذكرى غير مريحة، وبطريقة ما كانت مرتبطة بـ"لوسي" الصغيرة، لكن لم يفهم "ماكسيم تي ييرماكوف" هذا الارتباط.

كان كل ما تبقى من المنتبئ الاجتماعي الموجود في منطقة الاستقبال هو الكتاب المفتوح، حيث كان ملقى مفتوحاً على وجهه، وحوله أغلفة الحلويات الرخيصة المصنوعة من الورق الشمعي. الناس مجرد بشر، كان ذلك اليوم هو يوم عطلة للجميع. أخذ "ماكسيم تي ييرماكوف" المفاتيح من "لوسي" الصغيرة وأغلق الباب بعناية بثلاث لفات للقفل. في أثناء ذلك تسلمت "لوسي" كرسي مكتبها المحدب، وأيقظت الكمبيوتر بنقرة من ظفرها على لوحة المفاتيح.

قالت له "لوسي" بحماسة:

- إنني أحمله الآن يا "ماكسي".

شقَّ "ماكسيم تي يرماكوف" طريقه بداخل البقعة المخصصة للسكرتيرة مما جعل الأثاث ينن وحملق في الشاشة.

حسنًا إذا.

لم يكن يعرف أي شيء عن ألعاب الكمبيوتر ولم يلعب أيًا منها في حياته، لكن حتى بالنسبة إليه كان واضحًا كم المال الضخم الذي دُفِعَ من أجل تصميم لعبة "رأس فارغ". كان تصميم الرسومات رائعًا؛ كان من السهل التعرف على المبنى الذي يعيش فيه "ماكسيم تي يرماكوف" ليس فقط من خلال ظله الكبير، لكن أيضًا من خلال التعبير الحزين لشكل الشرفات التي بدت كصناديق التعبئة المتراسة فوق بعضها بعضًا وبداخلها كل أنواع القمامة. كانت نافذة شقة "ماكسيم تي يرماكوف" الواقعة في الطابق السابع مضاءة بالأحمر كزر الإنذار.

حركت "لوسي" الصغيرة الفأرة وبدأ المبنى يكبر في الحجم متحولًا إلى بنية مشوشة ثم أصبح واضحًا مجددًا فقالت:

- انظر يا "ماكسي".

ظهرت لوحة زرقاء في الركن مكتوب عليها: 16 شارع "يوسوف"، فقالت "لوسي":

- إنه عنوانك.

لكن "ماكسيم تي يرماكوف" أدرك ذلك بنفسه. قال لها وهو يتنفس بصوت عالٍ:

- اضغطي على النافذة.

انتابه فجأة شعور بأن نصف سكان موسكو قد اقتحموا شقته. كانت الصور واقعية تمامًا، كان ذلك صاعقًا. كانت هناك الغرفة، والسريير المتغضن عليه بطانية مُلقاة بإهمال، كما كان هناك مكتب المعلمة الجلييلة ذي اللون الأحمر المائل للبنى والمحبرة المكعبة في مكانها، وكان هناك الكرسي ذي المسند، ورباطات العنق الحريرية التي ألقاها عليه هذا الصباح والتي تتلوى كتحابين متشابكة زاهية عندما تتحرك الفأرة.

غيّرت "لوسي" المشهد وكان حاجباها متلاصقين حيث وصلت إلى اليسار لتوضح الممر، وتعرف "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة على معطفه الكشميري البالي مُعلقًا على الشماعة بظهره إلى المشاهد.

سأل وهو يحاول أن يتذكر مسرعًا ما الأشياء المتناثرة في الحمام:

- ما هذا إذا؟ مزيج من لعبة وبرنامج واقعي؟

أجابته "لوسي" الصغيرة بإحساس بالذنب:

- لا أدري يا "ماكسي"، هناك الكثير من الأشياء الغريبة هنا، وأتعرّف؟ إن هذا مجرد الشكل الخارجي فقط! بإمكانك الخروج إلى السلم وركوب المصعد متجهًا للأسفل وتستقل سيارتك.

قاطعها "ماكسيم تي ييرماكوف" بوقاحة:

- وأين أنا؟

- لحظة واحدة، انظر.

بالفعل، لقد كان التشابه واضحًا. وجه أبيض يملأ الشاشة بأكملها. خدّان كالجيوب الممتلئة بشيء ما، وابتسامة منتقخة كانعكاس على براد الشاي. بعد ذلك ينحرف الوجه بعيداً بعض الشيء وتصد يد بيضاء ذات أصابع سمينة مغطاة بكم قميص أسود ومسدس أسود. بووم! يصبح الرأس شفافاً، كصورة أشعة طبية، تخترق الرصاصة الهواء ببطء مخلفة وراءها قوس قزح جميل الألوان خلفها. طاخ! تخترق الرصاصة الرأس وتبدأ بالتراقص فرحاً بداخلها كسمكة زينة في حوض دائري. بعد ذلك تظهر الابتسامة مجدداً كما لو أن شيئاً لم يحدث، يحك الوحش رأسه ذا الجلد الرقيق بماسورة المسدس كأنه يفكر بصورة كوميدية، وتفتح نافذة على الشاشة: "اضغط هنا!"

تمتم "ماكسيم تي ييرماكوف" محاولاً إخفاء حيرته:

- فهمت. "لوسي"، أرسل لي رابطاً، سأفتحه من "الإيميل" من منزلي وألعب قليلاً لأرى ما في الأمر.

قالت "لوسي" بقلق وهي تنقر على لوحة المفاتيح بأصابعها العظمية:

- بالطبع يا "ماكسي". لكن، "ماكسي" لا تنزعج من الأمر. حسناً، لقد أرسلته. انتظر يا "ماكسي"، سأريك شيئاً آخر.

سألها "ماكسيم تي ييرماكوف" بحدة وهو ينظر حوله متأهباً للخروج من بقعة السكرتيرة الضيقة وهو يحلم بتحطيم جميع أثاث منطقة الاستقبال:

- ماذا؟

- لقد وجدت بعض الأشياء على الإنترنت. إنها مهمة، صدقني. إن الناس يخلطون بين اللعبة والواقع. هذا هو ما يتم تشجيعهم عليه!

اكتسى وجه "لوسي" الصغيرة بذلك الشكل فارغ المعنى الذي اعتادت عليه كثيراً مؤخراً وقالت:

- انظر، يفقد أحدهم أقرب أقربائه في حادث سقوط طائرة. تخيل حاله. لو لم يعد زوج إحداهن معها، أو طفلها، فقد أصبح العالم مختلفاً، غريباً ومختلفاً. ماذا لو أن بإمكانها تصديق أن زوجها وابنها قُتلا، يمكنك أن تؤمن بوجود أنواع مختلفة من الأشياء غير المعقولة. حتى لو كانت الشياطين أو الأطباق الطائرة. إن هؤلاء الضحايا الذين يلقون عليك الخضراوات يتعاملون مع اللعبة بجدية. يظنون أن هناك

شخصًا ما يعرف كل شيء يعطيهم تلميحًا. خصوصًا عند علمهم على الفور بأن العنوان صحيح والشخصية موجودة في الواقع.

قاطعها "ماكسيم تي ييرماكوف" قائلاً:

- لقد عرفت ذلك سابقًا. هل تخبريني أن الحزن يحوّل الناس إلى حمقى؟

قالت "لوسي" بهدوء وقد شعرت بالإهانة:

- ليس الجميع. "ماكس"، لماذا لا تلقي نظرة فقط؟ إنني أريد فعلاً مساعدتك.

بدأ فيديو يبدو من عمل هواة يعمل على الشاشة يتخلله هسهسة وتداخل أصوات مختلفة. كان يعرض صورة لمطار في الشتاء بدا مستويًا ومجمدًا، وتقع في الأفق غابة على شكل خط مرسوم بالحرير الأسود. كانت الطائرات تقلع من كل الأماكن المتعددة على الأسمنت وتبدو كاؤزة وقورة سميحة بأجنحتها الممتدة. كانت الصورة مهتزة. وكانت تتراقص، وبين الحين والآخر يفتحم اللقطة برج مستدير غير واضح. فجأة، التقطت الكاميرا خيالاً رماديًا يحوم فوق البرج كالذبابة.

بدأ الخيال ينمو بسرعة مخلفًا وراءه ذيلًا سمينًا أسود. فجأة أصبحت الطائرة الخربة بحجم الحوت وحاولت الغوص إلى أعماق الأرض وهي تتلوى كحوت ذي ذيل مقطوع. اشتعلت نيران ملتوية وأخذت في الانتشار، أصبحت الأصوات البشرية المتداخلة عالية على نحو لا يُطاق ثم توقفت فجأة. توقفت الصورة مما جعل ألسنة اللهب تبدو كقصّة شعر امرأة صهباء عملاقة.

قالت "لوسي" الصغيرة موضحة وهي تغلق الفيديو:

- إن هذا هو حادث "كازان"، إنها لقطات أصلية.

تمتم "ماكسيم تي ييرماكوف":

- فهمت.

تذكر في الحال مجموعة الرجال القادمين من "كازان" أمام المكتب ملتقين بمعاطفهم الجلدية السوداء ومرتدين قبعات متشابهة من فراء "المنك" على رؤوس مستديرة متشابهة إلى حد كبير. كان قائدهم رجلاً ليس لديه عنق على الإطلاق ولديه وجه أنثوي آسيوي مسنودًا على صدره، لكنه على الرغم من ذلك لديه ذراعان طويلتان وكان يصيب هدفه بدقة.

كانت مقذوفاته الملقاة بقوة حقيقية تطير في خط مستقيم تقريبًا وتصيب المظلة مصدره صوتًا مدويًا في معدة "ماكسيم تي ييرماكوف". كان هذا التتاري أحد أخطر المحتجين المشتركين في حصار المكتب، وقد حاول "ماكسيم تي ييرماكوف" أن يمر أمامه بأسرع ما يمكنه. هل من الممكن أن يكون قد شاهد الأحداث في فيديو الهواة؟ هل أدرك حينها مباشرة أن تلك الطائرة هي طائرته؟ من الذي لجأ له حينها وبأي مشاعر؟ وهل تبقى له أي أحد على قيد الحياة كي يلجأ له؟

قالت له "لوسي" الصغيرة وهي تحمل اللعبة:

- الآن، انظر إلى هذا، هناك، المستوى الرابع من اللعبة.

كان كل شيء مماثلاً، لكن كما لو أنه ملفوفاً في ورق سيلوفان. أعيد إنتاج كل شيء بدقة: صفوف الطائرات المتوقفة، وظل البرج الحاد، حتى شاحنة "كاتربيلار" الصغيرة كانت تسير في طريقها حاملة حقائب سفر مصغرة بدت كحبات القهوة. الفرق الوحيد كان وجود أجساد بشرية صغيرة، سوداء كالحروف راقدة على أرضية المطار وهناك بقعة دم حمراء تنزف من أسفل كل منهم يبتلعها الثلج بطبيعية شديدة.

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة أن الأجساد الحقيقية لم تكن لتشبه الحروف، ولكن كأوام صغيرة من الملابس الممزقة. كان من الواضح أن اللعبة تعمل بنظام التشغيل المستمر: كان هناك قتال بأسلحة نارية يحدث في المطار دون اشتراك "لوسي" فيه على الإطلاق. كان هناك شخصية رجل كارتونية لديه كتفان عريضتان للغاية ورجل سمين رشيق الحركة مقيد يطلقان الرصاص على بعضهما بعضاً، مما تسبب في نشر أسنة من اللهب كالأسعة. أصاب الرجل السمين الهدف. استلقى الرجل عريض الكتفين على الأسمنت بطريقة منضبطة - وفي الحال ظهر الظل الرمادي المرتعش في السماء البيضاء، تعطلت الطائرة وتحطمت واشتعلت فيها النيران وفتحت نافذة حمراء صغيرة بصوت مدوي يقول:

- لقد تم إقصادك.

تمتم "ماكسيم تي يرماكوف":

- لقد قاموا بمعالجة التسجيل الفعلي، لا يمكنني فقط أن أعرف بأي برنامج. بإمكانني تخيل كمية الأموال التي دفعوها مقابل الحصول على تلك اللقطات. ربما كان الرجل يصور لنفسه أو يعبث باستخدام تليفونه وفجأة أصبح مليونيراً.

ذكرته "لوسي" الصغيرة وهي تومض بعينها وتتجهم:

- فجأة مات مائة وستون شخصاً.

زمر "ماكسيم تي يرماكوف" بحقد قائلاً:

- وماذا في ذلك؟ ما شأنك بذلك؟ هل لديك أي فكرة عن الأشياء التي يحملونني مسؤوليتها؟ هؤلاء الأشخاص قتلوا، وهؤلاء ماتوا، هنا وهناك، وكل ذلك بسببي! دائماً ما يكون هناك شيء كهذا يحدث في العالم، أخبريني بسنة واحدة لم تسقط فيها طائرات من السماء! من أنا لكي أتحمّل على عاتقي هذا العبء وأسير بين الناس به؟ هل أنا إله يوناني، أم هل أنا المسيح؟

قالت "لوسي" وقد لانت في الحال:

- "ماكسي"، إنني آسفة. بالطبع لا ينبغي على شخص واحد تحمل كل هذا.

صاحت فجأة وهي تضع يدها على خدّها وقد أدركت شيئاً ما:

- يا إلهي! إن هذا هو ما يعتمدون عليه، أليس كذلك؟ ليجبروك على الانتحار!

قال "ماكسيم تي يرماكوف" متجهماً برأسه المنخفض وقد وضع يديه في عمق جيوب بنطلونه الملطخ:

- إذا، أخيراً تمكنت من فهم ذلك. لكنني سأظل موجوداً. يمكنني أن أعدك بذلك بكل تأكيد. سأفسد عليهم كل مخططاتهم. بالمناسبة، بخصوص اللعبة. ما هي بالضبط؟ مجرد قاتل عادي أحمق؟ ألم يكن بإمكانهم ابتكار شيء أفضل من ذلك؟

- لقد فعلوا ذلك بالطبع. هناك العديد من الطرق التي يمكنك من أن تلعبها: بإمكان لاعب واحد تجهيز فريق من الشخصيات المختلفة لديهم قدرات متنوعة ثم يمكنك اللعب عبر الإنترنت مع لاعبين آخرين، حتى إن بإمكانك خوض التدريبات والحصول على القدرات المختلفة. هناك العديد من المهام المعقدة. إن الغرض الرئيسي من اللعبة هو الإيقاع بك - أي الشخصية الرئيسية - عن طريق إطلاق الرصاص على رأسك بمسدس. لتحقيق ذلك عليك أن توجه عدداً من الضربات للشخصية، لا أتذكر كم عددهم بالضبط، أكثر من ألف، وبأسلحة متعددة مختلفة. لكن في أول ثلاثة مستويات، لو وجه لاعب ضربة إلى "يرماكوف"، فإن "يرماكوف" يصبح أقوى وأسرع وأفضل من ناحية التسليح. لذا لا يصل الكثيرون إلى المستوى الرابع. فقط بمساعدة مفتاح خاص.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بحدة وهو يشعر كأنه سُرقَ أكثر من أنه تعرض لإطلاق النار:

- كل هذا مثير للاهتمام جداً بالطبع، فقط في حالة أنك نسيتي، إنني "يرماكوف" الذي تتحدثين عنه.

بانقله إلى اللعبة، أصبح ملكية عامة. بتصغير حجمه ليصل إلى شخصيته داخل اللعبة، كان "ماكسيم تي يرماكوف" يشبه طفلاً في العاشرة من عمره يبلغ طوله مائة وثمانين سنتيمتراً، من المخجل الاعتراف بأن ذلك الطفل أراد البكاء. سألها "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يمزق بعض الأوراق في جيبه:

- ما الذي تدور حوله تلك المهام؟ هل هي مرتبطة بالكوارث الحقيقية؟

- إنها مرتبطة ارتباطاً مباشراً. في ذلك الجزء الذي أريتك إياه، عليك إنقاذ الطائرة والركاب. لو نجا أحد أعضاء الفريق ووجد حقيبة بها شفرة، فبإمكان الطائرة الهبوط بأمان وسيتم إطفاء حريق المحرك.

أخرج "ماكسيم تي يرماكوف" يديه من جيوبه ليكتشف أن قطع الورق التي مزقها بأظفاره النابتة مؤخراً كانت ورقتي نقود - واحدة بقيمة مئة "روبل" والأخرى خمسمائة. اللعنة!

قالت "لوسي" بشعور بالذنب وهي تشاهد النقود ترفرف في الهواء:

- يمكنك إعادة لصقهم.

قالت "ماكسيم تي يرماكوف" وهو ينفذ يديه من القصاصات التي علقت بينطاله:

- لا تهتمي، انسي الأمر. ما يثير اهتمامي شيء آخر، ربما تكون لديك إجابة له: تلك الكوارث في اللعبة، في أي فترة وقعت؟ العام الماضي؟ العام الماضي؟ هل أصبحت أنا السبب الرئيسي لكل الشرور التي حدثت مؤخرًا، أم أنني كنت مخربًا منذ طفولتي؟

قالت "لوسي" وهي تتجهم في تركيز:

- بالتأكيد ليس من عام واحد فقط، حيث إنه حين كنت طفلًا، من المستحيل أن تعرف ذلك يقينًا، لم يكن هناك إنترنت حينها، أو حتى أجهزة تليفون كي يصور بها الناس أي شيء يريدوه. لو كان هناك أي أجزاء مصورة فلن تكون متاحة على الإنترنت، من المفترض أن يتم تحويلها رقميًا أولاً. انظر هنا، تحطمت طائرة بالقرب من "جنيف" في عام تسعة وتسعين. هذا هو أقدم شيء تمكنت من العثور عليه.

هذه المرة تم تصوير الحدث من داخل الطائرة نفسها وهي ترتج فوق الهاوية. لا بد أن المحركات تعطلت: لم يكن هناك أي صوت يُسمع، باستثناء صوت حاد مزعج يشبه صرير أرجوحة حديقة. عندما سمع ذلك الصرير المعتاد، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بضغط شديد على ساقيه بسبب الارتفاع. ظلت الأرض البعيدة تتغير ما بين الاستلقاء أفقيًا بصورة مرعبة، ثم بعد ذلك بدت الجبال وكأنها تقترب من اليسار؛ كانت تشبه أسنة قفل الباب الحديدية وهي على وشك تمزيق جناح الطائرة الصغيرة الأنيق في أي لحظة. بالأسفل، تلالأت ضواح منمقة كجرم من أفراس الدواء البيضاء، وأشرق سطح مياه بحيرة كأنها ممتلئة بمادة فوسفورية.

بدا كل شيء بعيدًا تمامًا عن متناول اليد، كان من المرجح أن تزيد سرعة الطائرة الصغيرة وترتفع مخترقة السماء، حيث توجد دائرة الشمس اللامعة ببريق مؤلم، وتشرق بسطوع شديد على اليسار أولاً ثم على اليمين. لكن فجأة انقلبت الطائرة رأسًا على عقب، تعلقت الجبال بالأسفل ككتل ثلج مدلاة ضخمة، تمايلت الأرض من تحتهم وهي تتمايل وبدأ كل شيء يخفق ويتقاذف كخط من الغسيل يتم جره عبر الأشجار. سألته "لوسي" الصغيرة، بادياً عليها الرضا عن نتيجة بحثها:

- أتحب أن أريك كيف يفعلونها في اللعبة؟ يطير "يرماكوف" حول الطائرة مثل "سوبر مان"، ثم يقبلها بقبضتيه، وعلى اللاعب إطلاق النار عليه برشاش آلي على الأقل ثلاث مرات!

قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يفرك جبهته الرطبة بظهر يده:

- يا إلهي، لقد رأيت ما يكفي. أشعر بالتعب. هناك شيء واحد آخر أشعر بالفضول تجاهه: لماذا تلعبين هذه اللعبة القذرة؟ أعني، اسمحي لي، في ظل ظروفك الحالية؟

صاحت "لوسي" الصغيرة بفخر:

- لست أنا من يلعبها بل "تيومكا"! هناك آلاف وآلاف من الناس من كل الأنواع في هذه اللعبة، و"تيومكا" في الترتيب الأربعمائة حسب النقاط، تخيل ذلك! لا يعرف أي أحد من اللاعبين أنه طفل. يظنه الجميع في الثامنة عشرة من عمره.

- لست أنا من يلعبها بل "تيومكا"! هناك آلاف وآلاف من الناس من كل الأنواع في هذه اللعبة، و"تيومكا" في الترتيب الأربعمائة حسب النقاط، تخيل ذلك! لا يعرف أي أحد من اللاعبين أنه طفل. يظنه الجميع في الثامنة عشرة من عمره.

بعد أن أفشت "لوسي" الصغيرة بكل ذلك توقفت لفترة قصيرة وتجمدت الابتسامة على وجهها. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" أملاً ألا تبدأ في الترتبة مجدداً وتتركه في سلام:

- لن يصل ابنك إلى سن الثامنة عشرة أبداً.

قال بمرح وهو يدير المفتاح البارز من قفل الباب:

- حسناً، سأذهب. تهانئ مجدداً على العطلة بصرف النظر عن كل شيء! وأضاف بنبرة عادية:

- وأشكرك، لقد ساعدتني كثيراً.

جعل ذلك عيني "لوسي" الصغيرة تمتلئان بالدموع مجدداً ولمعت كالبورات.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" لنفسه بصراحة وهو يخرج إلى الممر: "حسناً، أنا لم أر ذلك".

أضاف عندما كان على وشك الاصطدام بالمتنبئ الاجتماعي وهو يسير على غطاء الأرضية الاصطناعي بحذاء غير ملمع ذي طرف مدبب: "ولا أرى ذلك أيضاً".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتد الزحام المروري على مد البصر كنهر كبير ممتلئ بالأضواء المنعكسة على سطحه. تكسّر الثلج المجروش تحت مئات العجلات الثقيلة، تصاعدت الأبخرة من خلفية السيارات في الهواء، كانت برّك المياه اللزجة على الطريق نصف الذائب تشبه الصمغ. كانت شاحنة خبز المتنبئين الاجتماعيين عالقة في الزحام كالجَميع؛ تسير في المقدمة على مسافة قريبة في الطريق، وتحاول تغيير حارة سيرها وقد قطعت الطريق أمام السيارات الأخرى، مما تسبب في إطلاق غاضب لنفير السيارات؛ بين الحين والآخر كانت كشافات سيارة "ماكسيم تي يرماكوف" الأمامية تقع على جانب الشاحنة المغطاة بالطين الثلجي، وكان الرجل الجالس خلف عجلة القيادة ذا رأس مستدير وحليق يشبه رأس رجل الثلج وأنف منقوس بارز من رأسه بدلاً من قطعة الجزر التقليدية.

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" في استياء وهو يصل أخيراً إلى طريق "يوسوف" الذي يستخدمه الآن آلاف الحمقى: "اللجنة، أكثر من ساعتين، كأني مسافر إلى باريس بالطائرة".

كان قلبه يؤلمه بسبب تذكر المال الذي ستضعه رئيسته الداهية في جيبتها الآن، كما أنها ستتهي كل علاقات العمل التي كان "ماكسيم تي يرماكوف" ينميها من أجل

الحصول على مميزات وأرباح مشتركة منذ سنوات. أصبح موقف السيارات ممتلئاً بسيارات سوفيتية صدئة والتي يملكها دون شك المتظاهرون في الفناء.

بعد أن وجد لنفسه بقعة يوقف فيها سيارته بصورة ما، ترجّل "ماكسيم تي يرماكوف" من سيارته الـ"تويوتا" شاعراً بالخدر من أسفل ظهره وحتى أطراف أصابع قدميه الملتصقة ببعضها في حذائه، وحينها فقط تذكر بقرف أن اليوم التالي هو الثامن من مايو. لم يكن قد اشترى هدية لـ"مارينكا" بعد، لكن على الأقل عليه إحضار "شمبانيا" وحلويات وكبيرة. لا يهم، لا يهم. تمالك أيها "الهدف الرئيسي"، ليس هناك أي أحد يمكنك الاعتماد عليه غير نفسك.

تلاً لإكليل محل القبو الكهربائي بترحيب كأنما يوم غد ليس مجرد الثامن من مايو، بل رأس السنة الجديدة مرة أخرى. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو ينزل على السلالم المنحدرة ذات الارتفاع المختلف عن كل الأخريات:

- ربما أشتري لنفسي شيئاً ما، زجاجة من أي نوع..

كانت خزينة الدفع بالمحل تصدر صوتاً خفيفاً، وكانت البائعة في قسم الخضراوات تترن عنقود عنب بحجم الثريا، والزبائن تتزاحم حاملين سلالاً ممتلئة تظهر منها أعناق زجاجات ملفوفة بغلاف ذهبي وذات زجاج شفاف في كل الاتجاهات. عطلة! لكن ما إن حاول "ماكسيم تي يرماكوف" دخول منطقة التخفيضات، اعترض طريقه ذلك الحارس المألوف، الذي، عند الاقتراب منه، فاحت منه رائحة قوية لملابس صوفية خشنة. قال بفضاظة:

- نحن لا نخدمك.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف":

- ماذا تقصد؟ إنني من زبائنكم المعتادين! ألا تتعرف عليّ أم ماذا؟ إنني آتي إلى هنا يومياً تقريباً.

أعاد الحارس كلامه بصوت أعلى، مقترباً من "ماكسيم تي يرماكوف" بصدر مغطى بالزري الرسمي مرصعاً بأزرار معدنية شبيهة برؤوس مسامير مسطحة:

- قلت لك: نحن لن نخدمك!

نظر "ماكسيم تي يرماكوف" حوله في يأس. المرأة الشقراء الجالسة عند باب الخروج التي لطالما كانت لطيفة معه، أشاحت برأسها بعيداً عنه. كان شعرها البني غير مصفف. ظلت تفرز محتويات سلال المواطنين الجديرين بالثقة بتركيز مبالغ فيه. تدافع الزبائن الحاملون للحقائب البلاستيكية المليئة بالأغراض بجانب "ماكسيم تي يرماكوف" وهم يلقون نحوه نظرات جانبية وكأنه سمكة صغيرة خجولة في مياه موحلة.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" بصوت أنثوي غريب عنه:

- سأقاضيكم! أحضر المدير!

- المدير ليس هنا. لقد ذهب إلى منزله. هيّا، توقف عن سدّ الممر، اخرج من هنا، أسرع!

أجبر الحارس "ماكسيم تي ييرماكوف" على الخروج من المحل، وبعد أن لكزه أسفل كتفه، أجبره على صعود درجات السلم غير المستوية إلى الخارج حيث الرياح الخبيثة تنثر الرمال الثلجية فوق الأسفلت وتديرهم في الهواء.

بحث "ماكسيم تي ييرماكوف" عن سجانر في جيوبه وهو في حالة مريعة. ظل الحارس في مكانه للحظة ثم أخرج من جيبه علبة سجانر "بابيروسا". أشعل كلاهما سيجارته وهما يقيان شعلتيهما الخافتتين من الرياح. أضاءت السيجارة قبضته للحظة، مما جعل وجه الحارس يبدو كإبهام سمين عالق بين إصبعين. ظلا يلقيان نظرات خاطفة على بعضهما وهما يتبادلان الدور في إلقاء رماد سيجارتيهما في صندوق القمامة الحديدي الممتلئ بصناديق كرتونية مسحوقة وسيقان نباتات جافة محطمة. فُكر "ماكسيم تي ييرماكوف" بكآبة، بينما كاد طرف سيجارته أن يلامس سيجارة عدوه المضيئة بين الرياح: "ربما عليّ محاولة التحدث معه بلطف!".

لكن في الوقت نفسه، ارتفع صوت حريري من خلفه:

- مساء الخير يا جاري!

نظر "ماكسيم تي ييرماكوف" خلفه بحدة ليجد أمامه مدمن الكحوليات "فاسيا شوتوف". كان قد شذب الجزء المحروق من ذقنه وتركه ليبدو غير مستوٍ كمقشّة المستهلكة. كان الرجل المولود في موسكو يرتدي قبعة تغطي أذنيه وتبدو كجثة قطة ومعطف نسائي وردي طويل والذي تملكه دون شك إحدى شريكاته المعتادات المشغولة في تلك اللحظة مع أحد زبائنهما. سأل الرجل المولود في موسكو بتعقل وهو يومض بعينيه الدافئتين الصغيرتين، وجفنيه ذات الجلد الأزرق الرمادي:

- ماذا حدث؟ هل رفضوا بيع أي شيء لك؟

أجابته "ماكسيم تي ييرماكوف" دون حماس:

- نعم.

اقترح "شوتوف" بهمسة تأمرية:

- اسمع، دعني أساعدك، باعتباري جارك. أخبرني ما الذي تريد شراءه، وسأحضره لك بلمح البصر! ولا تساورك أي أفكار سيئة، إن لديّ مكاتب محاسبة كاملة في رأسي. عليك فقط إعطائي ما يكفي لشراء زجاجة من المشروب الأبيض من أجل العطلة. كعمولة، ما رأيك؟

ابتسم "شوتوف" بتدلل كاشفاً عن سنٍ وحيدة صفراء في مقدمة فمه.

تردد "ماكسيم تي ييرماكوف". لم يكن التعامل في أي شيء مع مدمن الكحول "شوتوف" في نطاق خططه المستقبلية القريبة. لكن على الجانب الآخر، ما الذي يمكنه أن يفعله غير ذلك؟ تنهد "ماكسيم تي ييرماكوف" تنهيدة ثقيلة، وأخرج ثلاث ورقات بقيمة خمسمائة "روبل" ودسّها في يد مدمن الكحول المرتعشة، ثم فُكر

للحظة وأضاف واحدة أخرى. قال "ماكسيم تي يرماكوف" للرجل قائمة طلباته وهو يبدو قلقاً من الطريقة التي هزَّ بها مدمن الكحول المتحمس رأسه:

- حسناً إذاً: كيكة زبادي، أفضل نوع لديهم، ثم علبة شوكولاتة، وزجاجة "شامبانيا"، وزجاجة "كونياك"، وقطع دجاج مخلي أو شريحة لحم بتلو، حسب ما لديهم. من أجل متاعبك، يمكنك شراء نصف لتر، وليس من أفضل نوع لديهم. لقد قللوا من راتبي اليوم في العمل، لذا فمن الآن وصاعداً عليّ أن أكون حريصاً جداً!  
- فهمتك! فهمت!

تواثب مدمن الكحول بمرح على درجات السلم إلى داخل المحل حاملاً في يده أوراق الخمسمائة "روبل" متعددة الألوان. ظل "ماكسيم تي يرماكوف" في الخارج وحيداً وسط الرياح التي جعلت الأسفلت الثلجي يبدو زلقاً مما يجعل فكرة المشي فوقه مخيفة. ارتفعت غصون الأشجار العارية في الهواء كأنها تحاول اصطياذ الثلج الثقيل المنتثر الذي يطير حولها كالعث. تخيل "ماكسيم تي يرماكوف" لو تمكنت تلك الأصابع السوداء من اصطياذ أي حشرات طائرة فستقبض على الحشرة مثل القبضة العظيمة. مرَّ الوقت. حوّل البرد نعلي حدائه الضيق إلى حجر فلم يعد يشعر بقدميه داخل الحذاء. فُكر "ماكسيم تي يرماكوف" بكآبة وهو ينظر إلى باب المحل: "لا بدّ أنه سيشتري كل ما هو تافه و عديم القيمة".

مع ذلك، اكتشف أن مخاوفه لا أساس لها من الصحة. عاد "فاسيا شوتوف" إلى السطح مجدداً بسعادة كما لو أنه قد أخذ رشفة لتوه من الزجاجة، وكان يحمل حقيبة بلاستيكية مكدسة عن آخرها بمشترياته. بدأ بنقلها واحدة تلو الأخرى إلى حقيبة أخرى أخذها عند خروجه. كان في الوقت نفسه يراجع ما اشترى مع إيصال طويل متسخ. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالذهول لاكتشافه أن "شوتوف" اختار كل شيء كان ليختاره هو لنفسه. في النهاية بقيت زجاجتي "فودكا" في الحقيبة البلاستيكية ترتطمان ببعضهما بعضاً. قال "شوتوف" متجهماً لشعوره بالذنب:

- لا تسيء فهمي يا جاري، لقد اشتريت اثنتين منهما لأن لديهم تخفيضاً عليهم (عرض خاص). لكن لو أشعرك ذلك بالإهانة يمكنك أخذ إحداهما لنفسك!

أخرج واحدة منهما ليريه إياها، كانت زجاجة "ستوليتشنايا" مريبة للغاية ذات عنق بدا كإصبع مُضمد. قال "ماكسيم تي يرماكوف" متراجعاً:  
- لا، لا، يمكنك تناولها بنفسك.

تمتم "شوتوف" برضا وهو يبحث بيده في جيب معطفه:

- أشكرك أيها الرجل اللطيف! ستحب فتياتي تناول بعض الكؤوس أيضاً. إن مهنتهن صعبة، قاسية على الصحة.

ثم أكمل وهو يضع في يد "ماكسيم تي يرماكوف" مجموعة من أوراق مالية فئة العشر "روبل" والقليل من العملات المعدنية كانت لزجة كالطويات:

- الباقي! حتى آخر "كوبيك".

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بخجل لسبب ما:

- لا بأس، لم لا تحتفظ بهم!

قال "شوتوف" وهو يهز ذقنه في الهواء بحيوية:

- نقود! مستحيل! نحن نقبل النقود فقط مقابل الخدمات التي نقدمها، ونحن ندير عملاً أميناً! لكن كجيران، فبإمكاننا مساعدة بعضنا بعضاً. لذا كن على تواصل معي. أنت تعرف رقم الشقة. سنساعدك على شراء احتياجاتك على الفور، وسنوصلها إليك أيضاً.

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" بعد أن ترك مدمن الكحول المدقق: "حسناً، على الأقل لم يعرض عليّ إحدى فتياته".

رحل "شوتوف" في طريقه مسرعاً، حاملاً الحقيبة المهترزة بمحتوياتها من الزجاجتين البارزتين من جهة واحدة، كامرأة يقودها في رقصة ما. مشى "ماكسيم تي يرماكوف" خلفه بنتأقل، متأخراً عنه بعض الشيء. كانت مقابض حقيبته الثقيلة ترتعش وتصدر صفيراً في الهواء. تجمع المتظاهرون أمام المدخل في دائرة صغيرة ضيقة، وبالحكم من تعبيرات وجوههم، خمن أنهم يوزعون "الفودكا". تركهم. كان هناك منظر أكثر سوءاً وهو هيكل الجندي الطويل المرتسم في الأفق أسفل مصباح الشارع المحدب؛ كان فم الجندي الصغير الضيق مزموماً في غضب. عبرت مشيته عن فعل ما لا يعرفه أحد بما في ذلك الجندي نفسه. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" بضيق وهو يبطئ خطوته: "اللعة، ما الذي يريده مني؟".

لكن اتضح أن الجندي لم يقترب منه. أشار الجندي بذقنه العظمي تجاه "فاسيا شوتوف" عند رؤيته، واتجه ناحيته "فاسيا شوتوف" متثاقلاً بخنوع وهو يضع زجاجة "الفودكا" في الحقيبة البلاستيكية داخل جيب معطفه. قال الجندي باستياء وهو يرفع قبعته ويمسح جبهته بمنديل قذر:

- إذا، نحن نتجول في أرجاء المكان، ولا نجلس بهدوء في منزلنا.

قال "شوتوف" معتذراً:

- لم أفعل سوى الذهاب إلى المحل والعودة مرة أخرى.

قاطعته الجندي بسخرية:

- من الواضح أنك لم تهرول إلى المكتبة، هل أخبرتك عن الغارة؟ لقد فعلت. إذا، إن موعدنا في الغد، يوم العطلة. بعد الساعة الثانية، ابق في المنزل، سنأتي لاصطحابك.

صاح "شوتوف" بمرح وهو يعدل من وضع الحقيبة البلاستيكية البارزة من جيبه:

- فهمت يا "أندريه أندريتش"!

قال الجندي ضاغطاً عليه:

- اسمعني الآن، أريد أرقامًا غدًا، إحصائيات. إنك على حافة الجنون، إذا رحلت بعيدًا فسأضطر إلى إدخال مواطن محترم السجن بدلًا منك.

قال "شوتوف" بحذر مشيرًا بإصبعه إلى صدغه الإسفنجي الذي بدا وكأنه سُلِقَ حتى أصبح ناعمًا:

- لكن، يا "أندريه أندريتش".. سيكون الأمر أفضل دون كل هذا، أنت تفهم، أليس كذلك؟ أو على الأقل من دون الضرب العنيف، بلطف. سأتي معكم طوعًا، متحملاً المسؤولية!

صاح الجندي وهو يومض بنظرة حادة من أسفل قبعته:

- كم هذا جميل، سيأتي معنا طوعًا! إن أسلوب حياتك أيها المواطن "شوتوف" تجبرنا على توجيه لكلمات اعتيادية لوجهك. هل نترك منزلنا مخالفاً للقانون؟ نعم، كما أننا نشرب كالمسك. بناء على القانون، كان يجب إلقاءك في السجن بحكم يصل إلى خمس سنوات. إن لديك جيراناً ذوي قلوب طيبة، فهم لا يكتبون فيك أي شكاوى، مكتفين فقط بالشكوى إليك شخصياً أحياناً.

كما أن قلبي طيب أيضاً. كارثة مثلك موجودة في مكان حراستي، ولا أزال أتحدث إليك بلطف، كإنسان طبيعي، أتحدث مجازاً بالطبع.

قال "شوتوف" بتذلل وتملق بطريقة جعلت "ماكسيم تي يرماكوف" يرغب في البصق:

- أفهم يا "أندريه أندريتش"! لن أفسد الأمور! لن أخرج أبداً من شقتي غداً.

فكّر "ماكسيم تي يرماكوف" باحتقار: "هذا هو الأمر. اذهب وابقَ منبسطاً من أجلهم للأبد!".

في تلك اللحظة، بدا له "شوتوف" مدمن الكحول رمزاً للجماهير الوطنية الرجعية التي لا تُعوّض والذين تستغلهم حكومة الحمقى في دفعه للانتحار. تسببت الرياح في التقاف بنطلون "شوتوف" حول ساقيه النحيلتين ذوات الركبتين الرخوتين، وحاولت إسقاط قبعته عن رأسه فجعلته لا يقف في ثبات، مما كشف عن زجاجة "الفودكا" المخفية بين ملابسه. خرجت إحدى عاهراته من الظلام وأخذت يد رئيسها بتحفظ. كانت الفتاة تبدو في حذائها العالي للغاية أقل ثباتاً من "شوتوف"، بدا كما لو أن لديها لوحين حديديين مسطحين ثقيلين مربوطين في ساقيهما الجافتين النحيلتين. النف الجندي دون أي تغيير في تعبير وجهه، وصفع العاهرة على ظهرها المسطح كالورقة. تلوّت الفتاة بجسدها الصغير الضعيف بطريقة محترفة، وضحكت وغازلت الجندي بعينها الملونة المزينة بالـ"ماسكارا"، فاحمر وجه الجندي مما جعله يزمجر.

فكّر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يندفع عبر باب المبنى: "هذا هو تناغم العلاقات البشرية. إن هؤلاء الناس زملاء بالفعل، بل يمكن القول إنهم عائلة واحدة. معاً يمكنهم خلق جوهر الحياة، ناسجين على اللوحة العريضة ملليمتر وراء ملليمتر. أما

أنا فمجرد عقدة صغيرة سخيصة تحتاج إلى إزالتها. أم أن هذه هي الطريقة التي يشعر بها أي أحد ليس أحمق؟ في كل مكان آخر من العالم تعد العزلة مشكلة شخصية، لكنها هنا تعد وضعًا غير اجتماعي. أم أن دستورنا الشعبي مميز بصورة ما؟".

من الصعب تخيل عدد الخيوط التي تجمعهم جميعًا معًا: جيران، أقارب، آباء روحيين، أصدقاء مقربين، زملاء مدرسة.. إلخ. تحولت تلك الخيوط إلى غطاء من الطحالب. لم يعودوا بشرًا. لا، شكرًا لكم. أعزائي المواطنين، إنني أتبول عليكم من مكان مرتفع. أتمنى فقط ألا تقدم "مارينكا" واحدًا من عروضها وتبدأ بالثرثرة، يا إلهي، يا إلهي، لقد سئمت من كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن "مارينكا" في الشقة. كان المرحاض يقرر بهدوء في الظلام، لطالما نسيت "مارينكا" الضغط على زره البارد لمنع المياه من التدفق. أضاء "ماكسيم تي يرماكوف" النور في الطريقة ورأى ما لاحظته قبل ثلاث ساعات على شاشة كمبيوتر: شماعة، ومعطفًا مبقعًا، وقبعته التي بدت كقطعة من الخضراوات. انتابه شعور غريب بأن كل تلك الأشياء غير حقيقية. شك "ماكسيم تي يرماكوف" من قبل في أن الشقة تحت المراقبة السمعية والبصرية، لكن الآن أصبحت جدران الطريقة المغطاة بورق حائط خشن بلون الألواح الخشبية أكثر إثارة للشك من ذي قبل. ألقى مصباح السقف المصمم على هيئة فنجان سميك من الزجاج المتموج ظلًا دائرية غامضة على السقف. أغلق "ماكسيم تي يرماكوف" عينيه وهز رأسه؛ وعندما انبثق من جديد ما يحيط به من الظلمة الخضراء المركزة، ظلت الأغراض الطبيعية لبعض الوقت.

تساءل "ماكسيم تي يرماكوف" أين ذهبت "مارينكا". أثار غيابها بداخله تقريبًا الخليط الغريب نفسه من السعادة والضيق الذي يسببه حضورها. أخذ عدة خطوات تجاوزت خوفه من الغرباء الذين يراقبوه. دخل المطبخ وشرب لترًا من المياه المعدنية من إناء بلاستيكي يصدر أصواتًا مزعجة. وضع مشترياته من أجل الليلة الرومانسية في ثلاجة غير نظيفة، بها خطوط صفار بيض قديم شمعي يسيل على جدارها الرطب. لم يشعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالجوع على الإطلاق، وعلى الرغم من ذلك فقد حصر لنفسه ساندويتش حقيرًا من الخبز الفرنسي والخس ولحم الخنزير المقدد. وضع بعض القهوة في كوب فارغ، بعد أن علق البذلة التي ازداد ثقلها على مدى اليوم، ثم جلس أمام الكمبيوتر.

ظهرت له في الحال رسالة "لوسي" الصغيرة كجرو صغير كان ينتظر أحدهم أن يفتح له الباب. لم يفتح "ماكسيم تي يرماكوف" الرسالة مقررًا أنه رأى ما يكفي ليوم واحد. في الواقع، كان خائفًا من أن يرى نفسه هناك، وهو جالس أمام الكمبيوتر؛ خائفًا من أن يرى نفسه في غرف الجناح اللانهائي التي تظهر بين مرأتين مقابلتين لبعضهما بعضًا ويرى نفسه يتضاءل بلا نهاية في وجهات نظر متماثلة تغمر العقل كأبدية الكون. وبدلاً من أن يلعب لعبة الشعب المفضلة "رأس فارغ"، دخل "ماكسيم تي يرماكوف" موقع "يانديكس" وأدخل اسمه في مربع البحث.

لم يجد أي شيء عن نفسه في الأخبار. كانت أغلبية الأخبار عن شخص يُدعى "ماكسيم ييرماك"، مدير عام لمؤسسة خيرية تُدعى "طفولة سعيدة". رجل يشبه طفلاً صغيراً وردي اللون. شاهد له لقاءً صحفياً عن كل كمبيوتر تم التبرع به لملجأه. وجد كل ما تحدثت عنه "لوسي" الصغيرة في المدونات، حيث كانت شعبية "ماكسيم تي ييرماكوف" مرتفعة ارتفاعاً خيالياً.

تنوعت النقاشات في كل الاتجاهات، كلما نظر في أي اتجاه، وجد الروابط ممتدة أمامه كسطح المستنقع؛ شعر أنه لو وضع قدمه عليه، فسيتم ابتلاعه بالكامل، خطوة وراء خطوة، مما سيدخله أكثر في أعماق الإنترنت فارغة المعنى والتي لا نهاية لها. بدا مستحيلاً عليه أن يفهم كل ما تم إنشاؤه.

كتب شخص يُدعى "شيطان الجحيم" تعليقاً مبتهجاً؛ كانت صورة "البروفایل" الخاصة به عبارة عن وحش مصفح يشبه بوتاجاز ضغط محلي: "لم أصدق من قبل قط أن بإمكانهم العمل على مشروعات كهذه في روسيا! أفضل من شركات "إليكترونيك أرتس" أو "سيجا" أو "يوبيسوفت"! الرسومات ثورية، والمحرك رائع ببساطة! يمكن حتى ملاحظة أضرار "ماكسيم تي ييرماكوف" وشعر ذقنه النابت على وجهه. تفقدوا الحيل الجديدة في آلية اللعبة. إنني أوصي باللعبة للجميع! أيها اللاعبون، أنا فخور ببلدي!".

علقت "ميلينا" التي تضع صورة فتاة شقراء جميلة (ليست صورتها بالتأكيد): "يمكننا فعل ذلك وقتما شئنا".

قال "بايلادين" ذي العينين الزرقاوين موافقاً رأي "شيطان الجحيم": "إن لعبة "ماكسيم تي ييرماكوف" لعبة أنيقة جداً. ساحرة وجذابة. كما أنها خطيرة بدرجة مفزعة على البشرية. مهلاً، أيها الفتيان والفتيات! فلينضم الجميع إلى القتال ضد ماكسيم تي ييرماكوف".

قالت المشاكسة "أليكس ليوبارد" مطوّرة الموضوع بعض الشيء: "يا لها من لعبة خيالية رائعة! لقد استهلكت كرسيّ كمبيوتر إلى أن سقطا أسفل مني كأحصنة سباق. إنني أنام ساعتين فقط يومياً. هذه هي الحياة! تحياتي لمصممي اللعبة!".

ظهرت "ميلينا" مجدداً بتجديدات شعرها الصغيرة وشفثيها اللامعتين متسائلة ببراءة: "هل سينترجمونها إلى الإنجليزية؟".

أجابها "شيطان الجحيم" بحس وطني: "بالطبع سيفعلون ذلك! ليس لديهم أي خيار لعين آخر! دعونا نهتف للعبة الروسية ذات الإقبال غير المسبوق!".

هكذا تعرّف "ماكسيم تي ييرماكوف" على هؤلاء المستخدمين الغامضين الذين يساهمون في زيادة سخونة الغلاف الحيوي، لقد دفع لهم بنفسه في عدة مناسبات. أنشأ مستخدمان أو ثلاثة المحتوى، كان مؤثراً وغير مكلف، مجرد خمسة عشر ألف "روبل" كل شهر. بالطبع كل ذلك متوقف على المستخدمين. وبناءً على الأحكام والشروط، فإن عليهم أن يكونوا أشخاصاً حقيقيين لديهم مدونات نشطة، لكن لطلالما شك "ماكسيم تي ييرماكوف" في هؤلاء المستخدمين الجاهزين، وعلى نحو خاص،

المشاركين في التسخين. من أجل التأكيد، دخل مدونة "شيطان الجحيم" الحقيقية. رأى فيها صورة لرجل سمين، يرتدي "تيشيرت"، شعره أحمر وشعر ذقنه يشبه فراء الثعلب. علق تحت الصورة: "هذا أنا أمام برج إيفل".

كان كل ما يمكن رؤيته من البرج نفسه دعامة عرضية مضاءة بالأصفر حيث تبدو كالكهرمان. رأى صورة أخرى مكتوباً أسفلها: "هذا أنا في نيس".

وقف الرجل نفسه في مقدمة زقاق ضيق كل النوافذ فيه مغطاة بالقضبان، مما جعلها تبدو كألواح غسل أو أقفاص.

إذاً فإن ترويج الإنترنت للعبة "رأس فارغ" يسير بطريقة جيدة دون أي عقبات. فرك "ماكسيم تي يرماكوف" عينيه الإسفنجيتين وأكمل القراءة.

كان ما رآه بعد ذلك مثيراً للاهتمام.

قال "هيومانيسيت"، مستخدماً صورة بها قطة كرتونية ذات خطوط صفراء وسوداء: "بالأمس رأيت "ماكسيم تي يرماكوف" الحقيقي. صدقوني يا أصدقائي! عندما أخبروني في البداية لم أصدقهم. لكنني ذهبت بعد ذلك إلى شارع "يوسوف". إن المنزل هناك بالفعل. حينها خرج ذلك الرجل من المدخل مندفعاً وألقى نظرة سريعة يمنة ويسرة ثم قفز في سيارته. حاول بعض المسنين ضربه بعصيمهم، لكنهم لم يصيبوه! كنت لأتمكن من إصابته!"

"فيرونتشيك"، فتاة أخرى جميلة، لكنها ليست شقراء بل سمراء ذات شعر ملتف ناعم، قالت: "حسناً، اذهب واقض عليه إذاً".

"إكسبيريمينت"، مستخدم يضع صورة شيء تجريدي له سيقان كثيرة ويشبه بعوضة مسحوقة على زجاج، قال: "كم مستوى تمكنت من تخطيه؟".

"هيومانيسيت": "اثنان. واحد ونصف فقط".

"إكسبيريمينت": "أها، وكان بإمكانك إصابته. بدلاً من محاولة الكذب، لم لا تحاول ضربه بالقوس خلال الهجوم الإرهابي في "كازان" حين يكون مؤشر صحته قريباً من الصفر؟".

"أنونيموس": "يا سادة، إنه ليس رجلاً حقيقياً، بل ممثل".

"فيرونتشيك": "هذا صحيح! إنني أتذكره! لقد كان في مسلسل "ابق معي". لقد كان "الأوليجاركي"، لقب يُطلق على رجال الأعمال الروسيين ذوي النفوذ السياسي القوي، "كاتيا" الذي طعن دون قصد مما أدى إلى موته. ماذا كان اسمه؟ إنه على طرف لساني.

"إكسبيريمينت": "لم يكن "ابق معي"، بل "السفينة الحربية"، ولم يكن "أوليجاركي" بل ملازم أول".

"فيرونتشيك": "كان في الاثنين".

“فلاي لانديد”، وهو مستخدم يضع صورة ذبابة تزحف ذات جناحين مبتورين: “إنه مسلسل مقتبس من اللعبة للترويج لها. خلاق للغاية. لقد استأجروا ممثلًا شبيهًا به ودفعوا له المال كي يسير في كل مكان كأنه هو. قريبًا سيبدوون ببيع قمصان وأكواب تحمل صورته. سأشتريها!”.

“أنونيموس”: “لا أعتقد أن هذا عمل تجاري. إن اللعبة مجانية! إنهم يحاولون التلاعب بعقولنا، يحاولون دفعنا لفعل شيء ما. أنا فقط لا أفهم ما هو”.

“فيرونتشيك”: “إنني أحتق ببطء هنا. من أين يأتي هؤلاء العباقرة المجهولون؟ هل أخذوا دروسًا في استرخاء العقول التام؟ بالطبع هناك من يحصل على النقود من خلف اللعبة. لكن كم بالضبط فإن هذا ليس من شأننا”.

“هيومانيست”: “هناك شيء غير منطقي هنا. دعونا نفترض أنهم استأجروا ممثلًا بالفعل. هل استأجروا المبنى أيضًا؟ أم أنهم بنوه خصيصًا كي يبدو قديمًا على طراز المباني الحقيرة من فترة ما بعد الاتحاد السوفيتي مباشرة؟ أو ربما حدث العكس. لقد اقتبسوا شكل المنزل من آخر حقيقي وكذلك فعلوا مع الشخصية”.

“فلاي لانديد”: “ليس هناك فارق”.

“إكسبيريمينت”: “ذلك الممثل، لا أتذكر اسمه أيضًا، إن لديه عادة خاصة به. لهذا السبب يقوم بالأدوار الشريرة فقط. ربما قرر أحد الأثرياء إعطاء الناس هدية ما. ماذا لو أطلق الممثل النار على نفسه في النهاية؟ سيكون هناك حفل ضخم للاحتفال بانتصار العدالة. ستسعد قلوب ملايين الناس”.

“فيرونتشيك”: “أجل، سيكون الأمر كما لو أن الجميع حصل على تعويض ما”.

“إكسبيريمينت”: “يُسرق شعبنا ويُسحق طوال الوقت، ومع ذلك تظل أفواه الجميع مغلقة. لكن، بين الحين والآخر، يحتاج الشعب إلى التوضيح بشخص ما من أجلهم. وهذا من أجل تحقيق التوازن واحترام الجميع لأنفسهم. بعدها يمكنهم استكمال سرقتهم وسحقهم”.

“أنونيموس”: “يا لنا من وحوش مريضة”.

لم يعد “ماكسيم تي يرماكوف” يشعر بظهره أو بالكروسي الذي يجلس عليه في أثناء قراءته لكل هذا الهراء. كان ظلام الليل حالًا بالخارج. استطاع الاستماع إلى الأصوات المختلفة لعدة ساعات داخل شقته: الخشخشة الرتبية لساعة “ناتاشا” المعلقة على الحائط، والدقات الثابتة للمنبه المعدني، والأزيز الناعم لساعة “لونجينز” الآلية، الملقاة في مكان ما بجانب السرير. دخل “ماكسيم تي يرماكوف” إلى المطبخ وأعد لنفسه ساندويتش آخر والتهمة دون أن يستطعمه. أكل معه ورقات الخس الرطبة والتي حشرها في فمه بإصبعه. في الخارج، امتلأ الهواء الثقيل الغائم ببعوض أبيض صغير، وتلألأت الأعمدة بفتور. كان هناك شيء غير طبيعي في غياب “مارينكا” في تلك الساعة بالذات. لا توجد مضاجعة في مكتب ما تستمر حتى هذه الساعة. ربما تكون قد وجدت لنفسها مغامرة جديدة؛ ثريًا عجوزًا جذابًا؟ ربما منحها الرب تلك الفرصة. عدا ذلك فستعود إلى: سأترجك!

بالطبع كان عليه الاستعداد للنوم. كانت عينا "ماكسيم تي يرماكوف" تحرقانه وكان أحدهم رش الفلفل فيهما. شعر وكان مياهاً موحلة تغمر رأسه، محولة كل شيء أبيض إلى شيء يشبه الدوامة؛ الستائر، وملاءات السرير. لكن يوجد على موقع "يانديكس" الكثير والكثير من المنشورات التي تحتوي على آراء مئات الغرباء في "ماكسيم تي يرماكوف". لقد رسموا له صورة لا تقاوم.

كانت شعبيته تشبه مملكة من المرايا المشوهة، وكان "ماكسيم تي يرماكوف" مهملاً مما جعله يدخل في هذه المنطقة، إلى الأمواج الثلجية لتلك الأسطح الفضية، حيث إنه إما أن يتعرض للانتفاخ من الجانبين وإما أن يتمدد حتى يصبح كإبرة رفيعة، وإما أن يُقسم إلى عدة أجزاء شبه سائلة، كالـ "أميا" تحت الميكروسكوب.

كان من المفاجئ أن المدونين، الذين أرادوا أن تكون منشوراتهم سهلة الوصول إليها في مجتمع الإنترنت، لم يفكروا على الإطلاق كما هو واضح في أن "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه قد يقر أها. أعطى ذلك لبحثه رعشة النشاط شبه القانوني.

كتبت "ليدي إيرينا"، التي وضعت صورة وردة بيضاء بدت ككأس من الكريمة الثقيلة المرّة المخلوطة بالسكر قائلة: "أريد أن أوضح شيئاً. قد يبدو الأمر أخرق، لكنه يؤلم كثيراً. أريد إخراج الأمر من داخلي ونشره على المدونة. إن "ماكسيم تي يرماكوف" شرير ومتوحش. كيف يمكنه أن يظل على قيد الحياة والناس يموتون من حوله؟ لقد أوشكت على الموت أيضاً. إن هذا الشتاء كئيب جداً، وإن قلبي أسود كسواد أعماق الفضاء الخارجي. انفصلت في هذا الشتاء عن "سلافيك". قد يقولون إن هناك سعادة في العزلة أيضاً، لكنها ليست سوى كلمات جميلة. كم أتمنى أن أضحى بنفسى من أجل الناس! بإمكان "يرماكوف" فعل ذلك، لكنه لا يريد. لا أفهم السبب".

وأضافت: "إن لدي الكثير من الأشياء في حياتي حتى من دون "سلافيك". ها هي قائمتي: إنني ذكية. هذه حقيقة لا تقبل الجدل. كما أنني جميلة وجذابة. ليس هناك شك حول ذلك أيضاً. إن الجمال والجاذبية هما أهم الأشياء للمرأة. النظرات التي يلقيها الرجال إليّ تفصح عن كل شيء يشعرون به. لديّ أصدقاء، لن أستبدل أي شيء بهم على الإطلاق. إنني أتلقى أكثر من ثلاث رسائل نصية منهم يومياً. ولديّ أبوان وأخت".

وتابعت: "لكنني على أتم الاستعداد للتضحية بنفسى دون تردد، خصوصاً مع علمي أن الناس سيظلون يذكرون اسمي لمدة مئة عام. كل شيء بداخلي انقلب رأساً على عقب، وقد غمرتني هذه الرغبة لفعل شيء مفيد من أجل الناس، حتى على حساب حياتي. لكن "ماكسيم يرماكوف" يهرب من قدره. سأقولها بصراحة وأمانة. إن "ماكسيم يرماكوف" شخص قدر".

قال "سايبير 22"، الذي يصور نفسه لسبب ما كرجل أسود سمين برأس حليق يبدو كروث البقر: "إنني أتعرض للمصائب من بداية السنة، منذ أن ضربت على فمي في ليلة الثاني من يناير لم أعد أستطيع التماسك. العديد من الأشخاص الحقيرين يقولون

لي إنني المسؤول عن كل ما يحدث لي. حتى أصدقائي يقولون ذلك. لكن كيف أكون المسؤول عن كل شيء؟ من يحتاج إلى ذلك؟ لقد قرأت العديد من المنشورات هنا عن علاقات السبب والتأثير وعن "ماكسيم تي يرماكوف". إنهم يقولون إنه السبب الحقيقي لكل الأشياء السيئة التي تحدث. انصحوني يا أصدقائي من فضلكم؛ ربما عليّ إيجاد "يرماكوف" وضربه؟ أي نوع من الرجال هو؟".

عَلَّقَ "جرامبا بوك"، الذي يضع صورة رجل مسن فاتحاً فمه الخالي من الأسنان والمغطى بنسيج عنكبوت رمادي قائلًا: "لقد قرأت عن "يرماكوف" أيضًا، يبدو أن هناك أدلة علمية حول دوره المميز في التاريخ. لقد فكرت في الأمر طويلاً. أعتقد أن الناس يفهمون قوانين العلم حسب مستواهم الفسيولوجي وحياتهم اليومية".

وأضاف: "إذا أسقطت حجرًا من يدي، فأنا أعرف أنه سيسقط إلى أسفل. دون الحاجة إلى صيغة فيزيائية. إذا شعرت أن هناك شخصًا ما يتحمل اللوم لما آلت إليه حياتي، إذا سأقبل بذلك. هناك العديد من الناس الذين يشعرون بهذه الطريقة. معظم الناس في الواقع. ما الذي يتبع ذلك؟ كل ما يُقال عن "يرماكوف" ليس هراءً، إنه الحقيقة. اكتشافات علمية حقيقية. سيحصل أحدهم من ورائها على جائزة نوبل".

"سايبير 22": "لكن ما الذي ينبغي عليّ فعله؟ ربما عليّ ضرب "يرماكوف" على رأسه بعجلة؟".

"جرامبا بوك": "بإمكانك فعل ذلك. إنها مهمة لن تتطلب أكثر من نصف ساعة".

ترجع معرض المرايا المشوهة أكثر داخل أعماق الإنترنت اللا نهائية. بعد فترة غير محددة من الوقت، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" أن كل حرف من النص يبكي. نزت البقعة الرمادية في النافذة الساطعة عبر الستائر، تدفقت وارتفعت طبقات دخان السجائر تحت السقف، وانبعث صوت احتكاك حاد من أعماق الفناء، بينما كان الحارس الطاجيكستاني يحفر عبر الأسفلت المتجمد بمجرفته. جعله معطف البلدية ذي اللونين الأزرق والبرتقالي يبدو كخفساء استوائية تعيش في درجة حرارة تحت الصفر.

أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة أنه لا بد وأن يوجد شخص ما ليتحمل اللوم على ما يحدث في حياته. كان الشعور الذي يلحق روحه بلسانه النحيف اللزج هو الحسد؛ حسد لكل المواطنين الذين وجدوا المذنب في شخص "ماكسيم تي يرماكوف". كم كان ذلك مريحًا لهم! بالطبع، لعشرين سنة تقريبًا لم يتم منح الناس في هذه البلاد أي فرصة حقيقية لمعرفة من الملام على كل التغييرات التي اجتاحتهم، لطالما كانوا مجرد بيادق في خطط الآخرين الخبيثة. أين أعداء الشعب اللعينين؟ لا تحدث للناس أشياء كهذه دون أعداء حقيقيين خبثاء! أعطوهم لنا!

عند هذه اللحظة، بدا "ماكسيم تي يرماكوف" كأنما غرق في غيمة غريبة متدفقة، ضباب شفقي. جرَّ عبء قلبه إلى القاع. كانت تلك حالة غريبة لم يختبرها من قبل. كل أعراضه أصبحت مقززة: كوبه، لأنه اضطر إلى الشرب منه؛ سريره، لأنه كان مخصصًا للنوم؛ حذاؤه، لأنه كان من المفترض ارتداؤه في قدميه والسير بداخله.

ظن "ماكسيم تي يرماكوف" أن ما يشعر به هو اليأس. وقف بمواجهة الكمبيوتر، حافي القدمين، مرتدياً الروب المفتوح، ينتفس في ثقل بصدرة المترهل المتعرق ذي الشعر الذي يشبه الفراء الأبيض الصغيرة في المنتصف. "توقف، توقف، توقف"، هكذا أمر نفسه. كل ذلك مخطط له. هذا هو ما يعتمد عليه المتنبئون الاجتماعيون. لقد رتبوا لكل ذلك عن قصد. عليه الهروب من كل ذلك. إنه بحاجة إلى شيء يتشبث به، أي قشة يتشبث بها. كان الأمر كما لو أن كل شيء من حوله ملون، لكن بمجرد خدش الطلاء الخارجي، يعود كل ما هو بالداخل كما كان. كل شيء مصنوع من المادة الرمادية نفسها. وفوق كل شيء، سرقت تلك العاهرة السامة "أيكاً" أمواله.

كان المال هو ما سينفذه ويدفئ قلبه! عشرة ملايين دولار. عندما استيقظ في الصباح، خطرت له فكرة المال. لم تكن قد تبلورت بالكامل بعد، بل كانت كالضوء في النفق المنحني، رمادي وشبهي في البداية، لكن كلما اقترب يفتح أكثر كالعين، مكتسباً القوة والحياة. المال: إنه المادة الحيوية التي كانت الموطن الحقيقي للفرد العادي. إنه كالماء بالنسبة إلى الأسماك، أو كالحمص، أو طبقات الرواسب الثقيلة في قاع البحر التي تحتاج إليها أنواع معينة من الكائنات الدقيقة. سنفكر في المال. في خيالنا، سنفتح حقيبة صغيرة ثقيلة بضغطة متزامنة على القفلين الناعمين؛ سننظر برهبة وتوقير إلى ترتيب رُزَم العملات المصرفية المنمقة كالحجارة. سنشم تلك الرائحة: الكثير من الدولارات الجديدة تقوح منها رائحة مريرة.

الآن، سنأخذ منها حجراً واحداً؛ ليس من المنتصف بالضبط وليس من الطرف. إنه مسطح ومضغوط، لم تتأثر النقود بعد من لمسة الأصابع البشرية. لم تعط نفسها لأي أحد قبلنا. ثقل الرزمة الممتع كغموض وثبات وزن مجلد من الشعر لم يُقرأ بعد أو حتى يُفتح لأول مرة. عشرة ملايين دولار. بهذه النقود سأتمكن من تحقيق ذاتي. لن تظل الحياة قفصاً. كل المسوخ التافهين من رجال الدولة الحمقى وحتى "أيكاً" سيصبحون ضعفاء. سنتبخر كل المشاجرات. سيصبح كل ما كان يحدث في الشهور الأخيرة القليلة تافهاً. سنتنصر الحرية والطمأنينة.

وبهذه الأفكار في رأسه، غرق "ماكسيم تي يرماكوف" في نوم عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ على صوت رنين التليفون المزعج. كانت المكالمات على خط "ناتاشا" الأرضي. لم يستعمله "ماكسيم تي يرماكوف" كثيراً بما أن مكالماته غير محدودة على التليفون. كان الجهاز العتيق موضوعاً على خزانة رثة في أبعد ركن من الغرفة، وعلى الرغم من جهوده لإغراق نفسه أكثر في دفء السرير، ظل التليفون يرن. فكر "ماكسيم تي يرماكوف": "ما الذي تريده مني في يوم العطلة العامة؟ تحيتي وتهنئتي؟".

كان يعني بذلك "ناتاشا" الخبيثة التي لم تتصل به على التليفون لتوفير المال. كان لا يزال مترنحاً وهو يضرب الأرض بقدميه العاريتين حين مشى بخطوات ثقيلة ناحية

الخرزانة وأمسك بالسماعة الزلقة، ثم أوقعها، ثم أمسكها وهي تتأرجح على سلكها الحقيقير بين أكوام الغبار الخفيف وصاح بخشونة:

- "يوم المرأة" سعيد!

أجابه صوت غير مألوف، صغير وواهن، لكنه صوت ذكوري بالتأكيد:

- ولك أنت أيضًا!

سبَّ "ماكسيم تي يرمكوف" وأعاد السماعة بغضب إلى مكانها. فَرَكَ وجهه بكف يده في دائرة، فصدر عنها صوت حفيف خشن، ثم رأى عينيه في المرأة ليجدهما حمراوين بالكامل بفعل النوم. شعر وكأن عينيه تستجوبانه بشأن شيء ما. ارتفع صوت رنين التليفون مجددًا.

سأل "ماكسيم تي يرمكوف" بضعف وهو يحمل السماعة بكتفه وهو يشعل ما تبقى من سيجارة لم ينهها في اليوم السابق كان طعمها كالروث:

- ماذا تريد؟

قال الصوت الذي سمعه لتوه بحدة:

- لا تنهي الاتصال، لديَّ شيء مثير أخبرك به. إن بحوزتنا خطيبتك "مارينكا أناتوليفنا يجوروف". لا تتصل بالشرطة. نريد ثلاثة ملايين دولار مكونة من عملات مستعملة.

صاح "ماكسيم تي يرمكوف" مقاطعًا الغريب وقد استفاق كليًا أخيرًا في الغرفة الباردة الممتلئة بالدخان:

- توقف، توقف! هل فقدتم عقولكم يا رجل؟ هل تشاهدون الكثير من الأفلام؟ من أين يمكنني المجيء بثلاثة ملايين دولار؟ إن كان ينقصك عشرة دولارات من أجل شراء جرعة مخدرات، فيمكنني المساعدة في ذلك!

أجابه المتصل المجهول بامتعاض قائلاً:

- أتحب أن أقطع إصبعها وأرسله إليك؟ عليك أن تعرف بأننا لسنا بلهاء. إن لم تأتِ بالمال، فسنرسل إليك "مارينكا" قطعة تلو الأخرى؛ أصابع اليد والقدم أولاً، العشرين جميعهم. ثم الأنف، وساقًا، وشيئًا آخر يسمح بتركها على قيد الحياة. وفي النهاية، الجسد في حقيبة منفصلة. هل ترغب حقًا في استلام طرود كهذه؟

هزَّ "ماكسيم تي يرمكوف" رأسه نفيًا، مما جعل الأغراض الموجودة بالغرفة تتبعثر ثم تعود لحالتها الطبيعي مجددًا، كلعبة "المشكال" - الـ "kaleidoscope" - حسنًا، كم كان يمتلك في حساب العملة الأجنبية؟ هل يسحب كل شيء ويخسر الفائدة؟ كم أن «مارينكا» فتاة حمقاء وغيبية، حمقاء، حمقاء! لا بدَّ أنهم دعوها إلى مطعم ما، ثم أخذوها بدلًا منه إلى قبو فارغ تمامًا وأرضيته مغطاة الثلج، تتبعث من المبردات الصدئة صرخات حزينة. من الأفضل عدم التفكير الآن. إن تخيلُ مشاهد كهذه قد يبدد كل أمواله، وأعصابه أيضًا، وأسوأ شيء هو أن تلك الحمقاء لن تعيد له «سنتًا» واحدًا من أمواله بعد انتهاء الأمر!

سأل «ماكسيم تي ييرماكوف» المختطف المنتحب بصوت خشن:  
- أيكفيكم مائة ألف دولار؟ هذا كل ما أملك. يمكنك أن تسأل «مارينكا»، إنني لست  
«أوليجاركي».

صاح المختطف بسخط:

- أنت لست «أوليجاركي»، أنت مجرد أحمق! لقد أخبرتك: ثلاثة ملايين. حصولك  
على المال مشكلتك أنت. لا يهمننا، أتفهم؟

سمع صوتاً أنثوياً أخف يصدر همهمات غاضبة، مما جعل المختطف يتلعثم ويتمتم  
محاولاً إسكاتها. كما سمع صوت موسيقى هادئة. كان بإمكان «ماكسيم تي  
يرماكوف» سماع الموسيقى نفسها المنبعثة من التليفزيون تقريباً، تصل إليه عبر  
الجدران من شقق جيرانه، مما خلق انطباعاً لديه بوجود مكان واحد مفتوح حيث  
يمكنه أن يمد يده ويلمس المختطف.

قال «ماكسيم تي ييرماكوف» باسترضاء، وهو يتذكر أيضاً محتويات بعض الأفلام  
المتصلة بذلك الموقف:

- حسناً إذاً، دعني أتحدث إليها.

سأله اللص المنتحب بعدم ثقة:

- إلى من؟

ثم قال بنبرة منخفضة للمرأة الغاضبة التي تضغط عليه بهمسات محمومة بدت  
كصوت صفير غلاية المياه:

- لا، ليس أنت!

قال «ماكسيم تي ييرماكوف» ضاحكاً:

- «مارينكا أناتوليفنا يجور وفا».

قال المختطف بوهن:

- إليها؟ حسناً، موافق.

أسقط الأحمق سماعة التليفون فاصطدمت بمنضدة القهوة، أو أيّاً كانت قطعة الأثاث  
التي كانت تحمله. أصبح صوت التليفزيون واضحاً في الحال، حيث يعرض الآن  
(تماماً كالتليفزيون في الشقة المجاورة) لحناً شرقياً مشوهاً ذكره بألم الأسنان.

استمع «ماكسيم تي ييرماكوف» بتركيز. لا، ليس قبواً. نظرًا إلى الضوضاء الكثيفة  
المكتومة التي خدمت كخلفية لكل الأصوات الأخرى، يبدو أن المكان في طابق  
مرتفع للغاية، فوق شارع عام رئيسي، به ازدحام مروري في تلك اللحظة. ظلت  
الأبواب تُفَتَّح وتُغَلَق في المكان، وأصوات ناعسة تنادي على بعضها بعضاً،  
وصوت صلصلة أطباق حيث كان أحدهم يزيلهم من فوق المائدة، كما كان هناك  
صوت ملعقة أو شوكة تدور حول طبق ووقعت على الأرض مصدرة جلبة. كان

هناك ستة أشخاص على الأقل. سمع "ماكسيم تي يرماكوف" صوت الشخص المنتحب الذي أصبح بعيداً يقول:

- هيّا، أين هي؟

أتاه الرد الغاضب:

- في الغرفة الصغيرة، إنها لا تزال نائمة.

صاح الرجل المنتحب بكآبة قائلاً:

- إنها ليست هناك!

عند تلك اللحظة، تحدث امرأتان تبتعدان عن بعضهما بعضاً بكلام مبهم، سمع كلمات مثل:

- أيها الحمقى.

- إلى أين ذهبت؟

صاحت "مارينكا" من مكان ما. بدت على قيد الحياة وبحال جيدة:

- إنني هنا!

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" برجفة في قلبه. فُتِحَ باب آخر وسمع صوت مياه تتساب من صنوبر قوي ساخن يملأ حوض استحمام. همسات، صيحات، صوت خطوات ثقيلة لأقدام حافية. في النهاية سمع صوت "مارينكا" في السماعه قائلة:

- "ماكسي"! لقد أحضروني إلى هنا، ووضعوا غمامة على عيني. أنقذني يا "ماكسي"! سيقتلونني! أرجوك!

كانت كل نبرة من نبرات صوتها مزيفة، كان الأمر بأكمله يذكره بغناء رتيب مؤدى بصورة سيئة لأغنية شعبية. قال الرجل المنتحب وهو يختطف منها السماعه:

- يكفي هذا! فلتأتِ بالمال، سنتصل بك فيما بعد!

ظل "ماكسيم تي يرماكوف" يحدق ببلاهة في التليفون القديم الذي يشبه جمجمة أصفر لونها مع مرور الزمن لكنها مع ذلك ظلت محتفظة ببقايا من المنطق، كما لو أنها أوّل مرة في حياته يرى شيئاً كهذا. ذهب بعد ذلك إلى المطبخ وأخرج من الثلاجة كيكة مزينة بـ"جيلي" الفواكه شبه الشفاف. أزال الفواكه بأصابعه والتهمها، ثم أتلّف ديكور الحلوى الجميل باقتطاع قطعة كبيرة بالكريمة والتهمها أيضاً. لعق سكين المطبخ الملتقطاً طعم المعدن الأسود الكريه من خلال طعم الحلوى بينما النصل يداعب لسانه. حينها ما سمعه في التليفون كان أقلّ شبهاً بأصوات مجموعة من الأفراد الثملين وأكثر شبهاً بمجموعة من الأصدقاء الذين يعانون آثار الثمالة بعد ليلة شرب عنيفة. لو اختُطف أحدهم لما صرخ قائلاً "إنني هنا!" من الحمام. لم يكن ليصبح الأمر قابلاً للتصديق على أي حال.

لفترض أن "ماكسيم تي يرماكوف" المعجب بتهديدات الشخص المنتحب لديه المال بالفعل، وأنه قد حصل عليه بالطريقة الوحيدة التي تمكنه من ذلك؛ عن طريق

كتابة وصية لصالح "مارينكا" في أسرع وقت، ثم بعد ذلك، يفقد عقله كالأحمق. حتى مع ذلك، لم تكن "مارينكا" لتتمكن من الحصول على المال قبل ستة أشهر على الأقل. هل سيقفون عليها حبيسة طوال هذا الوقت؟ لنقل إنهم سيفعلون ذلك، إن الفدية كبيرة للغاية مما سيجعل الأمر يستحق العناء. لكنها ستضطر إلى الظهور في مكتب كاتب العدل بنفسها من أجل جميع الإجراءات القانونية. أم هل يمكن أن يتم ذلك بواسطة محامٍ؟ حتى لو كان ذلك ممكناً، إن الخطة بأكملها خرقاء، هناك الكثير من العوائق.

كان الأمر بأكمله غيبياً بطريقة ما. لكن مع ذلك، ألم يكن هناك الكثير من الحالات التي اجتمع فيها الغباء مع الطمع مما أدى إلى توابع سيئة للغاية، والمتهم لم يتمكن من توقع نتيجة تخطت مدى فكره الباهت القصير؟

اللجنة على ذلك! كانت الطائرات تسقط من السماء والمباني تنهار، والضحايا تصل إلى المئات. تطلب منه النضال من أجل الفرد العادي تحمّل كل ذلك الضغط، وكان ذلك كحمل درع ثقيل يطرق عليه العالم بأكمله. بدا أن "ماكسيم تي يريماكوف" تمكن من التعامل مع الأمر حتى هذه اللحظة، على الرغم من أنه لم يكن عملاقاً. لكنه الآن يتعرض لضربة تسللت عبر دفاعاته، ومن شخص قريب وعزيز إذا أمكن أن نصف "مارينكا" بهذا.

ربما عليه الاتصال بـ "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف". لم يتحدثوا معاً على التليفون منذ وقت طويل. بعد كل شيء، فإن التعامل مع الاختطاف هو عمله. أم هل كان ذلك في الواقع هو عمل الشرطة؟ تساءل "ماكسيم تي يريماكوف" حينها عما يحدث في لعبة "رأس فارغ". لا شك أن هناك عصابات من اللاعبين المسعورين مشغولة بمحاولة إنقاذ فتاة سمراء مُختطفة. وكان الزوار الافتراضيين لشقة "ماكسيم تي يريماكوف" يتأملون بقايا الكيكة وحقيبة المسدس الملقاة في الممر لتبدو وكأنها كلب ضال نائم.

ربما ينبغي عليه أن يتفقد سلاحه.

في تلك اللحظة، رنّ تليفون "ناتاشا" مجدداً مصدرًا صوت رنين مخنوق. أتاه صوت المختطف المنتحب صائلاً بهستيرياً في السماعه:

- هل تظني ألعب معك أيها الأحمق؟ هل قررت التظاهر بالغباء؟ لن ينفك ذلك! ألا تعني الحياة البشرية شيئاً بالنسبة إليك؟ ألا تعني لك حياة خطيبتك أي شيء؟ هل ترى أنك أكثر قيمة من أي أحد؟ أي نوع من الرجال يجعلك هذا؟

قال "ماكسيم تي يريماكوف" متجهماً، وقد أصبحت الأمور من حوله غير واضحة:

- اهدأ، اهدأ. لِمَ العجلة؟ هل أفقدتك النساء عقلك، بمن فيهن خطيبتي المزعومة؟

قال الرجل المنتحب بحيرة وقد أصبحت نبرته أنعم:

- لماذا تقول "المزعومة"؟

قال مشيراً إلى ملقنه المجهول في مكان ما من الغرفة ذات الأصدقاء المتعددة:

- "تينوشكا"، إنه يقول..

أصبح كل شيء مشوشاً مرة أخرى، ثم انفجر سخط أنثوي كخزانة ممتلئة بأنية فخارية تسقط على وجهها. من بين الضجيج العام تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من سماع صوت "مارينكا". قال "ماكسيم تي يرماكوف" للمختطف بحدة:

- دعني أقل لك أيها الحقير، لو أن النساء اللاتي كتبن سيناريو هذه المسرحية لم يجدن شخصاً أقوى منك لتأدية دور رجل العصابات، فإنني مشفق عليهن بالفعل. خصوصاً وأنا في يوم عيد المرأة. يمكنك محاولة قطع أصابع "مارينكا" الملطخة بطلاء الأظافر، ولكن عليك بالطبع الحرص على عينيك، حيث إنها ستقتلعهما قبل أن تفعل. ولا تتصل بي مجدداً.

أنهى "ماكسيم تي يرماكوف" المكالمة بعنف، ثم ألقى السماعة بسلكها الملتوي في مكانها. تموجت نبضات كهربائية عبر سطح روحه. ماذا لو.. بعد كل شيء؟ لا، الطريقة التي حدث بها كل شيء واضحة جداً؛ نفذ صبر "مارينكا". إنها تريد أن تضع يديها على المال الذي تظن أنه ملك لها؛ فتحاول أن تفعل شيئاً حيال الأمر ويوصلها تفكيرها إلى خطة لا تستحق حتى أن يُطلق عليها هذا الاسم، مجرد شيء يصلح فقط في المسلسلات، لكن ليس في الحياة الواقعية أبداً.

إن الأشرار لئيمون للغاية، لن يسمحوا للقطعة بسرقة لبنهم: هكذا هو أسلوب حياتها، لكن إلى متى يمكن أن يستمر ذلك، بعد أن ينتهي كل شيء؟ لقد حاولت القيام بحركة ذكية، وهي تظن أنه ليس هناك أي أحد ذكي بما يكفي ليفكر في الأمر بمنطقية. لكن "ماكسيم تي يرماكوف" كشفها، يا لها من حقيرة. لكن، ماذا لو كان مخطئاً؟ إذاً، سيصله الطرد الموعود ثم سيتبعه اتصال آخر. لن تستحق طريقة أخرى عناءهم. ماذا كان يعني بذلك؟ إنه يعني أن ينتظر، ويفكر ملياً في طريقة تمكنه من انتزاع ملايين من المتنبئين الاجتماعيين - تلك الملايين التي بدت فجأة بطريقة ما فظة بالنسبة إلى "ماكسيم تي يرماكوف". إنها ليست أموالاً على الإطلاق، بل إكسوار مسرحي في مسرحية تشويق مبتذلة والتي تورط فيها بشكل ما.

يا لها من عطلة رائعة! تقحّص "ماكسيم تي يرماكوف" مسكنه الحقير. كان الغبار منتشراً في كل مكان. تجمّع الغبار على إصبعه على هيئة صوف ليفي خشن رمادي. أنتجت شقة "ناتاشا" هذا الغبار السميك، مستخدمة عملية خاصة بها؛ أضافت الأسمنت المتساقط إلى الغبار. كانت الأرضية مغطاة بقشور اليوسفي والتي جفت حتى أصبحت تشبه حراشف التنين والجوارب القذرة. كانت مرآة الدولاب الملطخة ببصمات الأصابع مغطاة ببصمات لونها مثل ألوان الطيف. تحرك "ماكسيم تي يرماكوف" ببطء شديد وارتدى بنطلونه "الجينز" القديم كثير الجيوب، ثم سكب بعض الماء الساخن في دلو أحمر بلاستيكي، فتحوّل إلى اللون الوردي وبدأ بتنظيف المكان.

عند انتهاء كل شيء، كان هذا أفضل عمل محتمل لمثل هذا اليوم اللانهائي والمبهم. كانت نبضة الكهرباء لا تزال تتموج عبر روحه. جعله الدلو، والخرق الساخنة

والجهد الذي اضطر لبذله من أجل الوصول إلى الأركان المظلمة المهملة يشعر بالحرارة. احتوت المحبرة مكعبة الشكل الموضوعة على لوح الكتابة الرخامي على علكة عتيقة؛ المجلة اللامعة العالقة خلف السرير في وضعية حمامة جريحة ترفض الاستسلام تمامًا. تمكن من رؤية آثار أحمر شفاه "مارينكا" - الذي كان تنظيفه صعبًا - في كل مكان على الأكواب المتسخة المحتوية على قطران أسود وفطر رمادي.

انبعثت فجأة رائحة الزئبق عندما مسح الغبار الرمادي الخفيف، والذي ظل على المائدة بسبب صندوق مكياج العين الخاص بـ"مارينكا"؛ المساحيق التي أعطت عينيها المنتفختين والرطبتين ميلهما ذي الطابع المصري المزيف.

لا بدَّ أن المخطط الذي أراد "ماكسيم تي يرماكوف" ترتيبه من أجل إنعاش نومه حمل حبوب المادة متناهية الصغر عبر الشقة والآن قامت بنشر نفسها كالحبر السري في كل مكان حرفياً؛ على الأرض، وعلى الأثاث، وعلى النافذة الباردة البلاستيكية، نظفت الخرقه حروفاً هيروغليفية داكنة من الصعب حتى على أقوى المنظفات هزيمتها. أصدرت المرأة صريراً حاداً في أثناء تلميعه لها. قطب حاجبيه وهو يمسحها من جانب إلى الآخر ومن أسفل إلى أعلى. بدا كأنه يزيل خيوط عنكبوت ممتدة على فتحة ثم يعيد نشرها مرة أخرى في الحال. حيث يكونها من حبيبات متناهية الصغر تحتوي على مخزون لا ينتهي من الطلاء.

اللعة، لن يتمكن أبداً من تنظيفها!

بدأ تليفون "ناتاشا" في الرنين للمرة الثالثة. ارتعش "ماكسيم تي يرماكوف" بعنف، انقبض شيء ما في معدته. أمسك السماعة المهتزة بيد مبللة وأشعل سيجارة مبتلة أيضاً، وبدا وكأنها محشوة بلحم مفروم، زمجر قائلاً:

- حسناً، ماذا تريد الآن؟

قال صوت عزيز ومتقف لا يطاق، كذوبان قليل من السكر في الماء:

- بني، إنني أمك.

التقط "ماكسيم تي يرماكوف" أنفاسه. كم الوقت؟ إنها لا تزال الثالثة والنصف فقط. نفذ صبرها مجدداً. لطالما كانت تتصل أولاً في يوم عيد المرأة ويوم عيد ميلادها. صاح "ماكسيم تي يرماكوف" بابتسامة مزيفة وهو ينظر إلى الدلو الأحمر الذي تشابهت المياه الكثيفة بداخله مع حساء الخضراوات الروسي:

- أمي، "يوم المرأة" سعيد! أتمنى لك الصحة الجيدة، والسعادة والعمر الطويل!

- لقد قلقت لعدم اتصالك لمدة طويلة، ظننت أن شيئاً سيئاً حدث لك.

كان صوت أمه خنوفاً على نحو لا يُطاق. كان صوتها لا يطاق عموماً. وبه طعم ذلك الشراب الحلو لدرجة مقرزة الذي كانت تحضره جدته وكان عليه تناوله خلال موسم الشتاء البارد، ملعقة واحدة ثلاث مرات في اليوم. الأشياء التي عادت لذاكرته من طفولته. تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من تخيل منضدة تليفون والديه بحيوية

استثنائية، مجففة وهشة، ترتعش كرد فعل لأي خطوات تجعل التليفون الجليل، الأقدم حتى من جهاز "ناتاشا"، يهتز كما لو كان حصالة ممتلئة بالعملات.

أصرت أمه وهي مستعدة للصراخ من ضيقها:

- إذا كيف حالك يا بني؟ هل أنت مريض؟

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" بسخط في السماعاة الزلقة التي تؤدي هذه المرة إلى منزل أبويه:

- أمي، ما الذي يجعلك تفكرين هكذا؟ لقد كنت مشغولاً فقط، كنت أنظف، وكنت على وشك الاتصال بك. لماذا تفترضين هذه الأشياء بهذه السرعة؟ لماذا تتخيلين دائماً تلك الأشياء؟

- حسناً، حسناً، توقف! لا تتحدث مع أمك بهذه الطريقة!

لطالما تمكنت أمه من التحول من النبرة الخنوعة إلى المزاح الغريب الذي تعودت على استخدامه لإبعاد عنزة الجيران عن قطعة أرضهم في المنزل الريفي - واستخدمت هذه النبرة مع الناس عندما يرون فيها ضعفاً لا يليق بمعلمة موسيقى معروفة بالبلدة. تضمنت صفات هذه الحالة النقر بأصابعها الصفراء على الحبيبات الصغيرة المجاورة لحلقها وهجوم حاد من قصر النظر، مما يجعلها تضيق عينها بطريقة تجعلها تبدو وكأنها مصابة بالحوال خلف عدستي نظارتها ذات الإطار الذهبي.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" متراجعاً فوراً لعلمه بأن الاعتراضات لن تؤدي إلا إلى شجار طويل جداً تتخلله الكثير من المناورات المتضمنة لحظات صمت مهينة ومكالمات تليفونية بعد منتصف الليل والتي لن تحل أي شيء:

- متأسف يا أمي. أخبريني إذاً، كيف حالك هناك؟ كيف حالك؟ وكيف حال أبي؟

تتهددت أمه في البداية، كما لو كانت مترددة ثم بدأت بإخباره. أوصى الطبيب لأبيه بـ"جل" ألماني مكلف للغاية، من أجل مفاصله. كان أبوه غاضباً تماماً، وظل يقول إن الأطباء يحصلون على نسبة من الربح عندما يوصون بأدوية كهذه. لو جاء "الجل" بنتيجة، فسيذهب الأسبوع القادم إلى جمعية حماية المستهلك، لكن لو لم يساعده فسيظل في المنزل. أتى بعض تلاميذ أمه لزيارتها اليوم.

هل يذكر "ليدوتشكا مالينينا"؟ لقد أصبحت الآن معلمة موسيقى في روضة أطفال. ماذا عن "تانيا نوسكوفا"؟ كانت تعمل كسكرتيرة لمدير محل "كراسنوجوري". كانت "تانيا" موهوبة بالفعل، لكن انظر كيف انتهى بها الأمر. كما أتت أخريات أيضاً، جميعهن بالغات ويبدون جميلات في معاطفن الجلدية. هنأها بمناسبة العطلة وقدمن لها مطحنة قهوة جديدة، كما أحضرن الكثير من الزهور.

في الشهر الماضي، كسر أبوه المزهرية الكبيرة عن غير قصد. كانت تحتوي على زهور "القنطريون". والآن، ليس لديها أي شيء لتضع فيه باقات الزهور، فتركتها

على البيانو. لم تعد تثق بالترام، لكن الأتوبيسات تسير جيدًا. وقبل رأس السنة مباشرة، افتتحو مطعمًا صينيًا في المكان نفسه الذي به محل المعدات.

تسارعت كلمات أمه من خلال فتحات السماعه كالماء المنساب من الدش. بدا كما لو أنه إذا تمكن من التحكم في السماعه والسلك فسيتمكن من غسل الغرفة بأكملها بتلك الخشخشة الرطبة. لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من الوصول إلى سجائره نظراً لقصر السلك، وقد أراد بشدة وضع نهاية لكل ذلك، فصرخ قائلاً:

- أجل، لقد حدث شيء ما! أتريدون معرفة ما هذا الشيء بالتحديد؟

لكنه كان يعرف أن المفارقة هي أن قلق أمه الدائم كان يتمحور حول مما إذا كانت حرارته مرتفعة، أو ما إذا كُسرت ساقه، أو هل ألقى الجيش القبض عليه؛ كلها أشياء لا علاقة لها بالواقع. في ذلك العالم الخيالي، لم يبلغ "ماكسيم تي يرماكوف" الثامنة عشرة، فهو افتراضي كألعاب الفيديو. ربما كانت هناك طرق لكسر تلك الأوهام لكي تتمكن رياح الواقع السوداء من لطم ذلك الوجه العجوز الملطخ بمساحيق التجميل، ولكي تجبر هاتين العينين البالييتين ذوات اللون الشبيه بلون أمواج البحر العكر على أن تريا بطريقة سليمة.

ماذا ستكون نتيجة شيء كهذا؟ لن تساعد ابنها، لن تفهمه، لن يكون هناك دعمًا معنويًا، لا شيء. على الأرجح سيكون هناك احتجاج فوضوي، ومحاولة لاكتشاف الذنب الذي ارتكبه ابنها، مثلما كان طوال حياته في كل شيء، وسينتهي بها الحال فوراً في المستشفى بسبب نوبة متجمعة من كل أمراضها المتركمة دفعة واحدة. لو حدث هذا، فسيصبح حاله أسوأ. اضطر إلى الكذب ونطق كل الأشياء الطبيعية المتوقعة؛ مثل: "تهاني يا أمي".

قالت له أمه بحزم بعد انتهاء سردها لكل شيء متعلق ببلدتها. تحيّل "ماكسيم تي يرماكوف" تلك البلدة البعيدة عن موسكو وكأنها نموذج مصنوع من الورق المقوى:

- الآن أخبرني بكل شيء عن نفسك.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" محاولاً أن يكون مرحاً قدر الإمكان:

- أوه يا أمي، ليس هناك ما أخبرك به. لا أزال أعمل في المكان نفسه. قمت بتصليح السيارة مؤخرًا. وحاليًا، أنظف الشقة، هذا كل شيء تقريبًا.

قالت أمه وقد شعرت بالإهانة:

- أنت لست صادقًا معي.

فكر "ماكسيم تي يرماكوف": "نعم، أنا لست صادقًا".

أكملت أمه قائلة:

- أنت تكذب عليّ بالطبع.

فكر مجددًا: "كيف؟".

أكملت أمه:

- ألا تذكر كيف اعتدت على أن تحكي لي لساعات عن كل شيء حدث في المدرسة وعن الفتية والفتيات الآخرين؟ لقد اعتدت على العودة إلى المنزل مسرعاً ثم تلقي بحقيبتك في الطرقة، وكان أول شيء تقوله حينها: "أمي، أمي!".

عاد "ماكسيم تي يرماكوف" يفكر مجدداً: "والآن، أنتِ تكذبين".

- حسناً، افعل ما تشاء. إن الآباء ليسوا مهمين لدى أبنائهم البالغين. هل بإمكانك على الأقل المجيء وقضاء عطلتك معنا هذه المرة أم أنك ستذهب إلى "قبرص" مجدداً؟

قال "ماكسيم تي يرماكوف":

- سأحاول قدر استطاعتي يا أمي.

فكّر بينه وبين نفسه: "وما العطلات اللعينة التي بإمكانني الحصول عليها الآن؟ حتى وإن تمكنت من الحصول عليها فسيكون المنزل هو آخر مكان أعود إليه!".

قالت أمه:

- هذا جيد. يمكنك الذهاب إلى صيد الأسماك مع أبيك. كما أن سقف المنزل الريفي يحتاج إلى بعض الإصلاحات. فلتأت.

أخيراً، وبعد وقت طويل، أنهت المكالمة. كان "ماكسيم تي يرماكوف" منهكاً ومتعرقاً حين هرع إلى علبة سجائره. إن أمه كالمرض، يزداد سوءاً أكثر وأكثر. لماذا كانت مكالماتها ووداعتها وازدراؤها نصيبها بالاكنتاب بهذا الشكل؟ لماذا يظل حضورها قوياً لساعات بعد انتهاء مكالمتها التي استمرت لخمس دقائق فقط؟ ودائماً ما تذكره بطفولته وبصباه وبشبابه، وتهينه بها باستمرار؛ حتى بعد أن حاول كثيراً التحرر من كل ذلك!

فجأة، تذكر المبنى الطويل ذا الطوابق الثلاثة وحجارته الرمادية. الذي بدا كأنه بُني بحجارة من التلج القذر الذي لم يذب بفعل سخونة الصيف.

كلما اقترب من السماء، زادت ملكية المدينة للمبنى: كان السطح المستوي ممثلاً بسيفان الهوائيات الحديدية الجافة، كما كان هناك في عدة شرفات بعض أطباق الأقمار الصناعية والتي بدت كما لو أنها مطلية من الداخل بالمينا. كلما غرق المبنى في الأرض أكثر، كلما غرق في الحياة الريفية. كان الفناء الأمامي محاطاً بسور ضئيل بدا كالمشط الذي يفتقد الكثير من الأسنان، ولا يتخلله الشعر بل العشب والنباتات وحتى قصب التوت، الذي نضج عليه في الصيف التوت المرّ ذي الحبات الثلاث. داخل الفناء، دجاجات كسولة ذوات ذيول تشبه رأس الفأس تتجول في أنحاء المكان القذر. من أجل إدخال بعض التحضر في الروتين اليومي، قام سكان المبنى بوضع مشاتل زهور تكونت من إطارات سيارات قديمة ممثلة بزهور "النجم".

كان الشيء الوحيد القريب من المبنى الذي يحبه "ماكسيم تي يرماكوف" هو شجرة المشمش القديمة: أصبحت فروعها عارية، وكان جذعها الملتف مدعوماً بركيزة حديدية - لكن كل ربيع كانت الزهور البيضاء الصغيرة الأنيقة النامية عليها تنفتح وتتحول إلى سحابة رمادية متفتحة يمكن رؤيتها من محطة الأتوبيس. اختفت

الدعامة كلياً من شجرة المشمش وتبقت فقط السحابة بلون وجمال السحب المترامية في السماء. كانت أشجار الفواكه القديمة دائماً مجعدة وبدت وكأنها محتقنة بالدماء كبيض الدجاج. يتذكر "ماكسيم تي يريماكوف" أن أمه كانت دائماً تعاني الحساسية تجاه المشمش.

كانت عائلة "يرماكوف" تعيش في الطابق الثاني. الرائحة المميزة والحلوة لمدخل المنزل، الرنين المميز للباب الحديدي الذي يعزل الإنسان عن الشارع. كانت شقة مكونة من أربع غرف أطلقت عليها الأم "أربع خلايا". حتى في تلك الأوقات ذات الأسعار المرتفعة، لم يكن سعرها يتجاوز الخمسين ألف دولار. لطالما كان هناك الكثير من الأحذية المسطحة البالية الملقاة على الأرض في الطرقة - ولم يكن لدى أي أحد من أفراد الأسرة زوج من الأحذية خاص به. كان طعام الجميع يُقدم في أدوات المائدة الفخارية الخشنة نفسها، لم يكن هناك أي شيء شخصي عدا شاي الجدة، حيث كان يُقدم لها في كأس نحيفة تشبه الخزف الصيني وهو مزين بعبارات "لا تتسنى" الشاحبة. بناء على تقليد في العائلة، كانت جدته هي الوحيدة التي بإمكانها العزف على البيانو بصورة ملائمة، وهو شيء يستحيل تصديقه عند النظر إلى أصابعها الصفراء الملتوية المتشابكة في بعضها بعضاً فوق معدتها.

كان جسد جدته بالغ الصغر كقرود رمادي صغير؛ وجفناها بيدوان كطبقات من الجلد المجعد ولهما لون حساء الدجاج نفسه: كانت العين اليمنى صافية، أما اليسرى فمغطاة بسحابة تشبه الدهون البيضاء في الحساء عند إخراجها من الثلاجة.

كانت جدته تحتل ركنًا في السرير المعدني الأثري، والذي بدا لوحه الأمامي والخلفي كسوري مقبرة. شاركت هذا السرير مع جده "فاليرا" حتى وفاته. كان على أحد جانبي السرير المواجه للباب رف كتب هزيل، حافظه بها فراغات ومصمم وكأنه حائط برج. بطريقة ما، تكوّم على ذلك الرف ثلاثة أضعاف الكتب التي يستطيع تحملها. بدا كأن ذلك الرف، الذي كان يزن الكثير جدًا مما منع أي أحد من التفكير في نقله، سينفجر بفعل ضغطه الداخلي كقنبلة خشبية. من غير المحتمل تقريبًا محاولة إخراج واحد المجلدات الصلبة المذهبة من مكانه على الرف، كما لم يكن من المرجح أن تعود أي فائدة على الفرد إذا فعل ذلك: لا بدّ أن كل الكلمات بداخل تلك الكتب قد اختفت.

ذات يوم، تمكّن "ماكسيم تي يرماكوف" من أخذ كتاب سميك للغاية والذي لم يكن يقف باستواء عند وضعه على ظهره. اكتشف أن بعض الحروف داخله كانت سليمة، ولكن هناك كلمات أخرى مسحوقة وقد انقلبت رأسًا على عقب. كان ظهر الكتاب مقوسًا وهناك قصاصات رثة من ورق المناديل تغطي رسومات الأجساد البشرية العديدة. لم يتمكن من إعادته مجددًا إلى مكانه، حيث رفض الكتاب أن ينغلق ثانية بعد أن فتحه أحدهم أخيرًا، وكان عليه إخفاؤه تحت الأريكة.

اكتشف بعد ذلك بكثير أن كل الكتب في المكتبة كانت بالفرنسية؛ تلك المكتبة التي تحولت إلى ما يشبه الحجر الأسود العملاق وتقف في مكانها كمنحدر مظلم وسط حياة العائلة الصاخبة والحيوية. كل تلك الكتب الثمينة التي تخص الجدة. لا يتذكر "ماكسيم تي يرماكوف" أنها تحدثت عنهم ولو مرة واحدة، مثلما لم تجلس على الإطلاق أمام الآلة الموسيقية التي شعرت تجاهها بكرهية حقيقية.

أثار البيانو في جدتي نوعًا من الغضب الساخر. كان البيانو السوفيتي متهاكًا، ويتكون من صف متواضع من المفاتيح البالية، كما أنه لم يحتل مساحة كبيرة من الصالة ذات الستة عشر مترًا مربعًا. اعتادت أم "ماكسيم تي يرماكوف" على أن تقول:

- إن تطلعاتها أعلى من اللازم.

بهذه الطريقة، كانت تعرّف الغرور التام الذي أحاط بالمرأة الضئيلة كالصوف القطني. في أثناء الشجارات اليومية التي كانت تحوم في هواء تلك الغرف الأربع الكئيبة، دائمًا ما أخذ صف جدته. كانت أمه على صواب: فقد طهت الطعام، وغسلت الملابس، ونظفت المنزل، وكوّت كيلو مترات من ملاءات السرير بعد أن جفت في الهواء، لكن "ماكسيم تي يرماكوف" كره الصواب ورفض غريزيًا حياة تتطلب فعل كل ذلك. كان ذلك الصواب المتراكم عبر السنين هو ما جعل مكالمات أمه

النادرة لـ"موسكو" تقريبًا لا تطاق. لطالما كان طهي أمه مقرفًا: حساء غامض به خيوط من اللحم وكرات لحم صغيرة لا طعم لها.

ماذا لو عرفت أم "ماكسيم تي يرماكوف" ما يفعله الآن. جلس يراقب تليفون "ناتاشا". ظل لمدة نصف ساعة أو أكثر يلمع زجاجة عطر "مارينكا" الصغيرة وهو ممسكًا بها بواسطة خرقة ممتلئة بالتراب. كانت الزجاجاة زلقة وكانت كأنها على وشك الانصهار كقطعة "الكراميل" إلى أن يظهر حشوها الأصفر الحلو.

في الفناء بالخارج، وقف بعض الحمقى يشعلون الألعاب النارية المدوية والتي كانت تشبه كرات مختلفة الألوان من الصوف الرقيق وقد تناثر في الهواء. كانت الساعة السابعة والنصف، أصبحت المياه في الدلو باردة والمكان بأكمله مقلوبًا رأسًا على عقب، كان ينبغي عليه على الأقل إعداد بعض الشاي وربما عليه إنهاء كيكة الزبادي.

كان حجم النفايات التي حملتها ذاكرته غريبًا. اعتادوا في المنزل خلال العطلات على شراء الكيك المحلي الثقيل مربع الشكل، والمحشو بطبقات سميكة من السمن الملون. كانت زينة الكيكة تماثل شكل القماش نفسه ذا المربعات الموضوع على المائدة.

كانت أمه هي من تقطع الكيكة بنفسها دائمًا متجنبة أي ضرر قد يحدث لأي زهرة أو وردة دهنية: كانت تقضي وقتًا طويلًا تقيس القطع بالسكين وتعبس بوجهها قبل تحديد الخط المناسب للقطع. لسبب ما، كان من المهم بالنسبة لها المحافظة على الزينة كأنما لم تُمس الكيكة على الإطلاق، ربما ليسهل إعادة وضع القطع بجانب بعضها بعضًا مجددًا. كانت ألوان بعض الكيك لدى الحلواني رائعة؛ كالأخضر الصنوبري مثلاً، أو الأزرق المائل للأبيض كبعض قطع الصابون.

دائمًا ما قدموا للجدة أكبر قطعة، فكانت تختبرها في شك بملعقة التحلية القديمة المتأكلة الخاصة بها ثم تقلبها على جانبها وتتركها كما هي ملقاة على الطبق المزخرف بكلمة "لا تنسني".

اكتشف "ماكسيم تي يرماكوف" الفرق بين ملعقة الشاي وملعقة التحلية في موسكو في حدث لإحدى الشركات الأخرى، بمساعدة امرأة نحيفة تشبه المومياء المغطاة بالضمادات بفستانها المصمم خصيصًا من شرائط من قماش شبه بالي. بعد ذلك فعل "ماكسيم تي يرماكوف" كل ما بإمكانه ليتجنب لقاء المومياء مجددًا، على الرغم من أنه احتاجها لأمر خاصة بالعمل وقد أعطته بطاقتها المنقوشة. في المنزل، كل السكاكين والشوكات والملاعق العادية ما إن تُغسل، تلقىها أمه في درج المطبخ ككومة واحدة مبللة وهي تصدر صوتًا عاليًا.

أمي، أمي، أين كنت عندما كنت أكبر لأصبح أحمق هكذا؟ كانت أمه في محطة الباص عند المتجر المركزي. كانت تقف هناك في الصف مع البائعات الأخريات أمام الأقفاس الممتلئة بالأغراض المغطاة بورقة الجرائد. كان هناك صف أبيض من جرار جبن اللبن الرائب، والقشدة، مختلفة الأحجام. بدت وكأنها عرائس

“ماتريوشكا” لا لون لها. اشترتهم أمه من مكان ما مقابل أربعة آلاف “روبل” لكل كيلو جرام ثم باعتها بستة آلاف.

كان ذلك هو الوقت الذي توقف فيه مصنع أبيه عن العمل تمامًا، حيث توقف عن التنفس حرفياً ولم يعد يصدر ضوضاء صغيره المألوف في الليل؛ كان أبوه يجلس بهدوء في المطبخ بوجه متجهم ويدين ثقيلتين تبدوان كجذور قُطعت من الأرض، أو كان يقضي وقته في المنزل الريفي حيث ماتت كل أرانبه لسبب مجهول. في تلك الفترة الزمنية، كانت النساء هن من أنجزن كل شيء. النساء البسيطات، أو النساء اللاتي أجبرن على البساطة، كأمه، هن من تمكّنن بطريقة ما من استشعار الاختلافات في الأسعار ضمن حدود مقاطعاتهن الريفية المألوفة، مثلما يستشعر السمك التغير في ضغط المياه؛ فقامت النساء بتحديد المتاجر ذات التخفيضات دون أي خطأ وتوجهن إليها. كانت النساء فقط هن من استطعن أن يوفرن المال، حيث استخلصن حرفياً من الهواء القاسي المشمس والرياح المغبرة التي حملت كنوزها وأسقطتها في الحال - الأكياس الفارغة والمتلألئة لشوكولاتة “مارس” و”سنيكرز”، والعلكات وعلب السجائر الفارغة. لم يوجه لهن أي أحد الشكر على المال الذي وفرنه.

كان جُبْنُ أمه المتخثر جافاً وذا مذاق يشبه الكلس، كما أن وزن المنتج وتقسيمه على الأعداد الكبيرة من الجرار المعقمة أعطاه مظهر ورائحة مستشفى أطفال. لم يبيع كل شيء خلال يومين وقد أصبح الآن يفوح أكثر برائحة حفاضات الأطفال وكان ينبغي عليهم أن يأكلوه حتى آخر قطعة. حتى الآن بإمكان “ماكسيم تي يرماكوف” الإحساس بذلك الطعم الرقيق في فمه، تلك الصورة المهينة كانت لا تزال هناك أمام عينيه: أمه، وسط الرياح وهي تقف منتصبية كحارس شرفي أمام قفصها الممتلئ بالأغراض وتقضم بأسنانها على ضفيرة شعر وهي تنتظر بحسد إلى المرأة المجاورة لها، التي وقف أمامها رجل سمين يشترى منها زوجاً من الجوارب.

كان أطفال الحي يضايقون “ماكسيم تي يرماكوف” بسبب تجارة أمه في منتجات الألبان. الآن، ما كان عليه إلا أن يقول لهؤلاء الأوغاد الحمقى قاطني الشقق القريبة كلمة واحدة وهي - “البيزنيس” - وكانوا سيصمتون في الحال.



إلى أن يصل الأطفال لطول آبائهم نفسه، فهم - ببساطة - لا يلاحظون الحياة من حولهم. إن الأمر يشبه طبقة السحب التي تخفي ما فوقها. بالنسبة إلى “ماكسيم تي يرماكوف” فحتى مع تساقط المطر، فإن رأسه عديم الوزن يستقبل تلك القطرات ويحوّلها إلى عاصفة ثلجية أنستته كل شيء آخر. لكنه، لم ينس كل شيء؛ هناك ذكرى واحدة فقط باقية له عن أمه وهي تبيكي في صمت وذقنها يرتعش. بدا له ذلك المنظر من الأسفل كما لو أن أسنانها كانت تضايقها. كان بإمكانه أن يقول: “أحرقت دموع أمي مؤخرة رأسي”. لكن لم تكن الدموع ساخنة، بل كانت دافئة وحسب، وقد

تبخرت بداخل شعره القصير بسرعة بطريقة ما، كأنما كان شعر وجلد وكيونونة  
“ماكسيم تي يرماكوف” كالصحراء التي تشتاق إلى تشرب قطرات الأمطار.

كان يتذكر هذا التشرب طوال حياته، لهذا السبب لا يحب “ماكسيم تي يرماكوف”  
أن يعلق خارج منزله تحت الأمطار من دون قبعة. ليس هناك منطق يحكم طريقة  
حفظ أو نسيان الذكريات. إن حقيبة الذاكرة تشبه حقيبة اللاجئ، كأن يهرب رجل ما،  
أو يهاجر، أو يترك وراءه كل ما احتفظ به خلال حياته، ويكتفي بأن يأخذ بتسرع ما  
تستطيع يده الوصول إليه، حتى عندما تبدو الحياة مستمرة بهدوء وطبيعية.

ما هذه التغيرات التي تطفو فجأة على سطح الوعي؟ هنا مثلاً، توجد صورة أخرى  
مضنية: جدته تمد شفرتها العلوية المتجعدة الشبيهة بورقة غار جافة إلى كوبها المائل  
الذي يظهر منه الشاي عبر زجاجه الرفيع الشفاف كالعسل. لماذا؟ ما علاقة ذلك بأي  
شيء؟ يبدو الأمر غير منطقي، لكن إن حاول مسحه فلن يتمكن.

فيما بعد، تحسنت الأمور قليلاً بالنسبة إلى أمه. ظهرت الدروس الخصوصية وقد  
حلت محل مهنتها السابقة كمعلمة موسيقى بالمدرسة التي ظلت مغلقة للأبد، لأن  
مبنى المدرسة ذا لون اللحم النيء المدخن وبه شبه أعمدة بيضاء كالأضلاع تبرز  
منه، أصبح ملكاً لشركة تتاجر في اللحوم. كان بعض الآباء لا يزالون يصدقون أن  
تعلم البيانو أمر جيد للطفل.

غالبًا ما كان يأتيها الطلاب النابغون في المدرسة الموسيقية المغلقة: مجموعة  
متنوعة من الأطفال الصغار وبعضهم أكبر حجمًا، وأحدهم كبيرًا بما يكفي ليوحي  
بأنه تم استخدام بعض جذوع الشجر غير المقصوفة في بناء هيكله الضخم. بعد  
إعطائهم أحذية منزلية ليرتدوها، كانوا يسيرون بعد ارتدائها وكأنهم يرتدون  
زلاجات وكل واحد منهم يسير إلى الآلة الموسيقية المفتوحة ليأخذ دوره في العزف.  
لم تجر أصابعهم الناعمة المطاطية الصغيرة، بل سارت ببطء على أصابع البيانو  
البيضاء والسوداء؛ كانت بعض تلك التمرينات تشبه لعبة الفتيات “الحجلة”.

لو أنه دخل الصالة في أثناء أحد الدروس، كان “ماكسيم تي يرماكوف” يرى رأسين  
منحنين وأربعة مرافق تعمل - وبطريقة ما كان بإمكانه رؤية جدته عبر الصالة  
الخضراء، متدثرة أسفل البطانية بعيدًا عن الأصوات الحمقاء التي تصدر عن  
موسيقى الطلاب. بطريقة ما، كانت كل الأصوات الموسيقية، التي تخص جدته  
بطريقة مباشرة وشخصية، ترن بداخلها، مما جعل ذلك يبدو كأنه يؤثر في  
حضورها الجسدي الفعلي.

أحيانًا، كان الراديو يبث شيئًا ما بدا كفوضى مضطربة لـ “ماكسيم تي يرماكوف”،  
وكان تأثيرها في جدته كالماء الساقط على زهرة محتضرة. لكن نادرًا ما كان يحدث  
ذلك، احتوت كل موسيقى حياتهم اليومية في الأغلب على سموم تغلغت في الحال  
داخل أنسجة المرأة العجوز وقد فشلت في القضاء عليها، فقط لأن دمها حملهم ببطء  
شديد عبر عروقها الزرقاء البارزة التي تبدو في بعض الأماكن كالودود الميت. على  
عكسهم جميعًا، كانت جدته صمًا؛ كان الصمت ملجأها الوحيد.

لم يرغب في أن يكون سبباً في تعذيب أمه، أراد فقط أن يستغل وقته في تعذيب ألعابه وأن يتسكع في الجراج، ومن أجل ذلك، قاوم "ماكسيم تي يرماكوف" باستماتة عندما حاولت أمه أن تجبره على تعلم العزف. ظنت أمه أن سبب رفضه هو أن الفتيات هن من يتعلمن البيانو. أعطته أمه مثلاً لطالب ضخم ذي شعر بني يدعى "فالوف"، والذي كان يقضي عامًا كاملاً كي يفك شفرة القطعة الموسيقية العنيدة نفسها، وطالب آخر ذي شعر أحمر يُدعى "لينتشيك جيرنستين"، كان شعره يشبه اللهب المتطاير من فوهة الصاروخ، وكان يطلق جسده النحيف بأكمله في الهواء عندما كان على أصابع البيانو.

لم يمتلك "ماكسيم تي يرماكوف" القدرة الأولية القليلة التي كان يمتلكها هذان الاثنان. تسببت أصابعه الخرقاء التي كانت أحياناً تتشابك وتتداخل بوضوح في أثناء تمريناته في إصابة المرأة العجوز بالجنون.

كان ذلك مهمًا على وجه الخصوص بالطبع، كانت تدور في رؤوس النساء العجائز كل أنواع الأفكار. لكن كانت جدة "ماكسيم تي يرماكوف" مميزة. لم تشعر بأبسط اهتمام بحفيدها الوحيد، ولا حتى بذرة عاطفة، لا شيء على الإطلاق. لكن كان ذلك السبب بالذات هو ما جعل "ماكسيم تي يرماكوف" يحترم جدته كثيرًا. لم تكن ذات أهمية على الإطلاق وكان النظر إليها منفراً، وكانت لديها رواسب غريبة تحت عينيها وعلى خديها الغائرين، على الرغم من كل ذلك، فقد كانت رائعة تمامًا.

لم يتخيل نفسه يهنئها بعيد المرأة. لم تكن تتقبل المرأة العجوز تهنئة أي أحد في أي عيد من الأعياد. لم تبال بهم جميعًا بالتساوي. وبالطبع، جذب "ماكسيم تي يرماكوف" اهتمامها في إحدى المناسبات، وقد اكتشف فيما بعد أن ذلك كان نتيجة التقارب العميق بين حساسية المرأة العجوز تجاه الأصوات المنظمة موسيقيًا ورأسه الذي لا وزن له والذي مثل ظاهرة جاذبية حملته كقفاه.

كانت تشير إلى "ماكسيم تي يرماكوف" بسبابة مقوسة دون حماس. اعتادت جدته أن تمسك برأسه بين يديها بالطريقة نفسها التي يمسك بها الناس طبقاً من على الرف. كانت تتحسس جمجمة "ماكسيم تي يرماكوف" بتعبير عن عدم الثقة العميق، متسببة في ارتعاش المخ بداخل الجمجمة. كانت المرأة العجوز تنظر بالفضول نفسه إلى عيني وأذني "ماكسيم تي يرماكوف" كقطة تتفحص جحر فأر.

لا بد أنها رأت أو شعرت بشيء ما؛ لم يدرك "ماكسيم تي يرماكوف" حينها أن ليس كل شيء متعلقاً برأسه الطبيعي، وظن أن هناك ذبابة أو عصا دخلت فيها وكانت جدته تبحث عنها كي تخرجها.

كان ذلك غريباً: متى ماتت؟ ربما منذ سبع أو ثماني سنوات. بالطبع لم تتصل مطلقاً بـ"ماكسيم تي يرماكوف" في موسكو، وبالكاكاد كانت أمه تذكرها، إلى أن جاءت اللحظة عندما ظل عدم ذكرها ممتدًا لفترة طويلة ما يعني أن المرأة العجوز لم تعد على قيد الحياة. بفضل أمه انتقل له الانطباع بأن خلف خزانة كتبها، كان حجم المرأة العجوز يتضاءل تدريجيًا إلى أن اختفت تمامًا، ودون الاستعانة بأي أطباء أو

وثائق رسمية أو جنازة. بدا كما لو أنها تحللت كلياً في هواء شقتهم العفن، كقطعة سكر تذوب في كوب مياه.

كان "ماكسيم تي ييرماكوف" يفكر فيها كثيراً، في الواقع، كان حضورها في ماضيه أقوى من حضور أبويه. حتى مع ذلك، فقد غاب عن حضور موتها تماماً، أو بالأحرى لم يهتم ولو قليلاً بهذا الحدث البعيد.

لم تكن جدته تكثرث على الإطلاق بأحواله في موسكو، على عكس أمه التي كانت تطالبه في البداية بتقارير مفصلة على التليفون. شعر "ماكسيم تي ييرماكوف" بسعادة مميزة في الكذب عليها في كل شيء، كأسماء أصدقائه وأسماء أساتذته، وترتيبات مقرات إقامة الطلبة، وعناوين المعارض والمسرحيات الجديدة في العاصمة. كوّن كل ذلك في خيال أمه صورة رائعة تماماً عن موسكو، والتي احتفظت بها في ذهنها وهي منتشبة برؤية "ماكسيم تي ييرماكوف" في خيالها وهو يذكر من أجل امتحانه في غرفة خضراء بالطابق الثالث.. في الحقيقة كان جالساً حينها وعلى ركبتيه جلست زميلة له ثملة في غرفة صفراء بالطابق الخامس.

أعطى ذلك الكذب التليفوني "ماكسيم تي ييرماكوف" شعوراً مبهجاً بالحرية. من دون شك لم تلحظ موسكو الكبيرة والحقيقية ببساطة كل تلك التعديلات المزيفة، حتى لو كانت تحدث في الواقع. على الرغم من ذلك، فبالنسبة إلى أمه التي ذهبت إلى هناك ذات مرة لتتأكد من كل شيء، كان المكان قبيحاً ولا يبعث على السرور. لم تتمكن من التعرف على المبنى الجبسي الرمادي مثل المبنى متعدد الأعمدة والمبنى ذي السقف المصنوع على هيئة عدة قباب الذي وصفه لها "ماكسيم تي ييرماكوف"، ثم خرجت عائدة إلى مترو الأنفاق وتحوّلت من محطة إلى أخرى حتى وقت متأخر من الليل، ككرة تتحول من حفرة إلى أخرى عندما يتم إمالة طاولة لعبة "بينبول" وهزّها.

بإمكانها العودة مجدداً، أليس كذلك؟ في خضم كل تلك الأحداث. تساءل ما الذي ستقوله لو اكتشفت الحقيقة بأكملها فجأة؟ بالطبع سيكون أول رد فعل لديها هو الفرع والسخط على فشل ابنها في الامتثال للسلطات. بالطبع سيفعل ذلك الجانب الموجود داخل روح كل أم روسية والممتلئ ببطولة التضحية بالنفس، حيث تُعزف أغنية "وداعاً يا سلافيانكا" العسكرية باستمرار.

لقد تقلصت غرائزها الأمومية الحيوانية بسبب التعليم، ليس فقط التعليم الذي تلقته، ولكن الذي منحه لطفلها أيضاً، المبنى على التصحيح الثابت والذي لا يجب انتهاك حرمة للعالم المحيط. اعتادت أمه أن تقول له؛ تعليقاً على رأسه الغامض الشبيه بكرة القدم المقذوفة - الخطيرة كأرض معركة محاطة بقذائف طائرة - في حصة التربية الرياضية، أو عندما يرفض الذهاب في رحلة مملة وغير مريحة مع زملائه: - يسير الجميع بنظام، إلا أنت.

استخدمت أمه دون وعي مصطلحات مرتبطة بخطط المعارك والمشية العسكرية والجيش والانضباط. رنّ صدى المشية العسكرية والحذاء العسكري الأحمق الموحد

الذي يصدم الأرض في رأس "ماكسيم تي ييرماكوف" مما جعل تفاحة آدم ترتعش في حلقة؛ كان يتقياً دون قصد ببساطة عند رؤيته مجموعة من الجنود متدليّ الأذان يسرون في الشارع في أي فيلم.

تساءل عمّا إذا كانت "مارينكا" قد اتصلت بأمه في الأيام القليلة الماضية. كانت لديها القدرة على الاتصال في أي وقت لنشر الأخبار السعيدة: "سأتزوج ابنك ماكسي". لكن لو حدث ذلك لأخضعت أمه لتحقيق شامل على التليفون. على أي حال، ما الذي يجعلها تتقرب من أم زوجها إذا كانت تنتظر ميراثاً يصل إلى عدة ملايين؟ فلتأخذ المال وتهرب به كالفأر. الأفضل لها أن تسافر به إلى أوروبا. هل كان عليه أن يفكر في "مارينكا" بهذه الطريقة في ذلك الوقت؟ ماذا لو رن رجل عصابات ذي سن ذهبية جرس شقته وأعطاه مغلفاً، فيجد بداخل المغلف قطعة جمبري بارد وردي: إصبع مقطوع.

ظل "ماكسيم تي ييرماكوف" يفكر متحدناً لنفسه وهو يعيد تسخين المياه في الغلاية الكهربائية بعد أن نسي للمرة الألف أن يصب المياه المغلية في الكوب المبلل المحتوي على كيس الشاي المتجهّم الذي امتص مياه الصنبور: "ثم بعد ذلك تجد من يقول..".

إن هناك ذلك الرأي الأحمق المنتشر الذي يقول إن موسكو ليست روسيا الحقيقية ولا شيء بها أصيل، وإن الحياة الواقعية وما إلى ذلك تبدأ فقط خارج الطريق الدائري السريع. في الواقع لقد كان العكس صحيحاً. إن حقيقة أن أمه عاشت حياتها بأكملها في بلدة حقيرة ريفية ذات شوارع ضيقة والتي لم تقدم لها أبسط مفهوم عقلي أو بصري عن الحياة وراء حدودها هي ما فسرت انسحاب أمه من الواقع. لم تكن البلدة نفسها قادرة على توليد واقع أصيل ومن ثمّ أن توفر لسكانها أرضاً خاصة بهم تحت أقدامهم، باستثناء مركز التاريخ الصغير، وهو مجموعة من الهياكل الجالسة القرفصاء والمغطاة بالضمادات وبعض التفاصيل القديمة الغريبة، مثل ديك رياح صديء أو برج صغير مغطى بالبلاط ويشبه مخروط الصنوبر.

لقد بُنيت البلدة باستخدام هياكل متنوعة تماماً: البنايات الأربع ذات الطوابق السبعة المسماة عمارات "ستالين" التي زينت ميدان المصنع؛ ثم عمارات "خروشيف" المكونة هنا من ثلاثة طوابق فقط لأن البلدة حينها كانت صغيرة للغاية؛ ثم عمارات السبعينيات القذرة ذات الخمسة طوابق، ذات الألواح الخرسانية المترابطة بواسطة طبقات سوداء خشنة والتي عند مزجها بقضبان نوافذ الطابق الأرضي أعطت انطباعاً بالسجن؛ وأخيراً، مباني السلسلة المعاصرة؛ الأناقة في مواجهة الطوب الأحمر، متضمناً مركز تجاري واحد ضخم مبني بالكامل من ألواح زجاجية ملونة بالأزرق بدت كأنها تضيف زرقة مزيفة للسماء الباهتة. أينما نظرت ستري تلك المباني المقلدة المزيفة، وستشعر بأنه هناك في مكان ما توجد المباني الأصلية الأكثر جمالاً وواقعية.

في السابق، خلال سنوات الاتحاد السوفيتي الهادئة الكثيرة، كانت البلدة لا تزال تمتلك ذلك السحر المظلم المميز للضباب والأمطار والرذاذ اللانهائي في العطلة.

فيما بعد، عندما تم إقرار سياسة "البيريسترويكا" - "Perestroika" - إعادة هيكلة النظام الاقتصادي والسياسي، فجأة، أصبحت مجموعة صغيرة للغاية من المواطنين أثرياء، انكشف الواقع المزيف بكل وضوح. وقفت نبتة صبار خضراء بلاستيكية ضخمة للغاية، تشبه شجرة رأس سنة، أمام مطعم مكسيكي، وهو جزء من مبنى متقوس ذي عدة طوابق يقع فوق مطعم صيني، ويبدو من بعيد وكأنه خياشيم سمكة.

افتُتح مكان غريب آخر، "كازينو". في ظلام الليل، أنارت الأضواء الملونة المبنى ذا القبة والجناحين الصغيرين، لكن في النهار، نكتشف أن ذلك الجمال المدعي كان في السابق دار سينما رثة ومتداعية، مما جعلها بالكاد تتجو من التصليحات التجميلية التي كوَّنت مظهرها الزائف.

الآن، وبعد كل تلك السنوات، يؤمن "ماكسيم تي يرماكوف" بأن أمه أصرت على شراء الكوخ الريفي من أجل إعطاء شقتها "ذات الخلايا الأربع" حالة المسكن الحضري الأصيل. كانت الأصالة مستمدة من التناقض. كان المنزل الريفي مبنياً من الألواح الخشبية وله سقف حديدي يتسرب الماء منه دائماً، وسط أرض جرداء يُفترض أن الغرض منها هو الزراعة. لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" مطلقاً من أن يفهم تحت أي مسمى أخلاقي كان مفروضاً عليهم الذهاب كل عطلة نهاية أسبوع مستقلين باص قذراً ثم يجرون حقائبهم الثقيلة لمسافة كيلو متر ونصف من المساحة المحلية التي تتكون من المحاصيل الشائكة والبقر القذر.

وبداخل ذلك الصندوق الخشبي غرفة بها سريران متصلان ومطبخ وكومة من أدوات المائدة خلف ستار، وهناك فرن مسطح صغير، ينفث دخاناً كثيفاً من بين شقوقه عندما يبدأ الحطب الجاف بالاشتعال، حيث يئن من الرطوبة. رفضت الحياة أن تستمر بداخل ذلك المنزل الصغير الخيالي؛ وفي خمسة أيام فقط، نمت طبقة من العفن الناعم على قميص ترك في المنزل الريفي.

كان القماش المخملي الناعم الجنائزي النموذجي لملابس المنزل الريفي الثقيلة قد نُفِع في طبق من الملح في اليوم السابق فقط.

كان يمكن لكل ذلك أن يُصبح محتملاً لو أن ذلك الكوخ صالحاً للعب الأطفال، فهبيئته كانت توحى بأن قصة خرافية يمكن أن تدور داخله، على عكس الملعب الموجود بفناء البلدة والذي غالباً ما يحتوي على زجاجات "فودكا" فارغة تتدحرج أسفل المقاعد. على أي حال، تعامل والداه مع كوخمهم الريفي بجدية تتم عن قلة الذكاء.

كادت أمه تُصاب بالشلل في أثناء اهتمامها بصفوف الخضراوات وهي تغني بصوت عالٍ ممتدحة التربة الغنية التي لم تكن موجودة في أي مكان في العالم باستثناء أرض حديقته. كانت التربة رائعة بحق: في الشتاء اللطيف لوَّنت الثلج المذاب كالحبر الصيني، وفي الصيف غالباً ما ازدهرت بالأعشاب المترفة، ولسبب ما كانت تستكثر قوة عصائرها الهائلة على الجزر والبنجر الأحمر.

كان والد "ماكسيم تي يرماكوف" مقتنعًا تمام الاقتناع بأن الأرانب، بما أنها تتكاثر بسرعة شديدة (أو كما أحب أن يقول مكرراً "بمتواليه هندسية") فبإمكانها حل جميع مشكلات الأسرة فيما يتعلق بالمال والمؤن. كانت الوحوش الصغيرة في الواقع ضخمة للغاية بأذان تشبه أذان الحمير وأقدام ذات مقاس أربعين. مع ذلك، يتذكر "ماكسيم تي يرماكوف" أن عائلته أكلت لحم الأرانب مرة واحدة فقط: كان لحمها صلباً وداكناً، وقد علقَ بين أسنانه، كما احتفظت ذاكرته بصورة أبيه وهو يهز أذنيه القرمزيتين في أثناء قضمه لساق أرنب كانت تقطر بالدهن، كما لو أنه كان يحاول استيعاب حقيقة ما صعبة.

كانت خطة أبيه فاشلة تماماً، حيث خذلته المتواليه الهندسية بطريقة ما. لكن لم يلمه "ماكسيم تي يرماكوف" على ذلك. ما لم يسامح أباه عليه مطلقاً هو أنه لم يتحلل بالإرادة مطلقاً من أجل شراء سيارة، وبهذا لم يعلم ابنه القيادة.

شقت العائلة طريقها سيراً وهي مثقلة بالحقائب متجهة إلى المنزل الريفي بمحاذاة الطريق الترابي الممتلئ بالحفر، بينما تخطتهم سيارة جيرانهم "التشيغولي" متسببة في طحن الحصى الصغير. اكتسى وجه أبيه بتعبير يوحي بأن شخصاً ما لوّث الهواء. في ضاحية الحديقة التعاونية، بالقرب من بستان شجر "جار الماء" ذي اللون الأخضر الباهت، وقفت سيارة "زابوروتشيتس" قديمة كانت ذات يوم زرقاء وقد أصبحت الآن عمياء في كلتا العينين وتقف على حجارة بدلاً من إطارات.

أحبَّ "ماكسيم تي يرماكوف" التسلق داخلها، وصولاً إلى كرسي السائق المخلوع، ثم يدير عجلة القيادة المهترئة يميناً ويساراً، متخيلاً أنه يقود السيارة وأنه شخص بالغ. اشترى "ماكسيم تي يرماكوف" بأول نقود كسبها، عن طريق إعادة بيع جهازي كمبيوتر "400"، دراجة نارية ثقيلة من نوع "إينترزاك"، وقد كانت قديمة للغاية ذات بطارية تُسرب ومقاعد مهترئة، وصُممت حسب تصميم لا يزال محفوظاً في ذاكرة سلاح الفرسان الجليل.

أمضى الصيف بأكمله في إعادة تجميع حصان الحرب القديم ذاك. بالطبع لم يكن يجرؤ على تعريض رأسه الخفيفة لرياح قوية بكل محتوياتها؛ كان يعلم بأن الهواء دائماً ما يحتوي على أغراض أكثر من التي يعرفها الشخص العادي: من حشرات وغبار أخشاب عفنة وحتى أواني الزهور المتساقطة من الشرفات. لكنه حل تلك الأزمة بواسطة الخوذة، والتي كانت في الواقع أحد أسباب شرائه للدراجة النارية. بداخل ذلك الشيء المريح، أصبح رأسه أكثر كثافة وهدوءاً، لم يعد يشعر برياح المعلومات الشديدة المدغدة.

لكن لم يكن بإمكانه المشي في الشارع مرتدياً الخوذة كطفل في روضة أطفال متتكرراً في زي رائد فضاء من أجل حفل العام الجديد. اشترى "ماكسيم تي يرماكوف" خوذة جديدة غالية الثمن، وحمراء ومتيّنة، بها فتحتي تنفس، بحجم المكنسة الكهربائية، أعطته شعوراً بالأمان لم يضاهاها شيء فيه. تسبب شراء الدراجة النارية والزي المصاحب لها في أول شعور حقيقي بالسعادة في حياة

“ماكسيم تي يرماكوف”. شعر حينها للمرة الأولى بأنه هو وأباه شخصان مختلفان عن بعضهما تمامًا.

تراجع والد “ماكسيم تي يرماكوف” فجأة ونمت لديه عادة النظر من خلال ابنه، وعندما خاطبه بالقليل من الكلمات عند الضرورة، بدا كأنه يجهد نفسه من أجل رؤية شيء ما خلف ظهره، شيء مهم كان ابنه يمنعه من رؤيته. جعل شراء الدراجة النارية من “ماكسيم تي يرماكوف” شخصًا بالغًا وغير ضروري في الوقت نفسه. في بعض الأوقات، لم يكن قادرًا على إخفاء سعادته بعد انطلاقة ممتعة على الطريق السريع حيث يرتمي أمام طاولة العشاء بابتسامة واسعة تكسو وجهه المحترق، ثم ينهض والده بهدوء حيث يتسبب في رفع الطاولة وأطباقها المهترزة بعض الشيء في أثناء نهوضه، ويرحل بظهره المنحني، ورأسه الأصلع العاكس لضوء المصباح متجهًا إلى سريره.

كان من العيب إعطاء الفواتير لأبويه: كان من المستحيل أن يسدداها. كلما زادت النقاط في تلك الفواتير، زادت عليه التكلفة. لم تكن الفواتير فقط هي ما لم يكن بإمكانه ذكرها، بل كان عليه أيضًا أن يحرص على ألا يتفوه بأي شيء، ولا حتى تلميح في نبرة صوته في كلمة واحدة. كان عليه أن يبتسم بخبث ويحتمل محادثات العائلة التي لم تكن تدور حول الأشياء المهمة، حيث كانت تدور فيها العبارات مثلما يمررون لبعضهم الملح أو الفلفل في أثناء الطعام؛ وكانت أمه تكسر الأطباق بين الحين والآخر، لكن ليس جميعها.

لو أنه حاول إيقاظ هذين الطفلين ذوي الشعر الأبيض أمام الواقع، لانتهى الأمر بكارثة. أدرك بعقله، ليس بقلبه للأسف، أن والديه عاشا حياتيهما داخل مبرد أسود اللون، حيث كانا شخصين تعيسين، وبإمكانهما دائمًا العثور على رد ما لشكواه: باقتان من الأمراض المزمنة لم يتم علاجهما كما ينبغي في المركز الصحي بالمنطقة، زوجان من الأيدي المتعبّة والسيقان الخشنة المتصلبة، سجادة خضراء تشبه العشب، نافذة مطبخ مواربة ذات تعبير لا يمكن محوه لورقة جرائد جفت ذات مرة عليها، جِرار قاتمة بها نوع ما من الطعام بداخل ثلاجة مهترزة، أظافر طويلة، ونظارات مكسورة، سقف المنزل الريفي دائم التسريب.

لم يكن لديهما علم على الإطلاق بما حدث لهما. لم يدركا أن الدولة خدعتهما جيدًا، مثلما فعل مصنعهما، حيث إن في الواقع، لم يكن لدى أي أحد خطط لهما ليعيشا طويلاً ويزدهرا.

كان عليهما فتح أعينهما أمام الواقع حين كان لا يزال لديهما بعض القوة، في وقت ما قبل الخامسة والثلاثين. الوقت تأخر الآن. انظر، لقد ذهب والده مهرولاً إلى ميدان المصنع مجددًا ليحصل على جرعة: أعلام حمراء، مسيرات ثورية وخطيب رنان على منصة ضخمة، كان الاثنان معًا يبدوان كتماثيل أبطال الحرب وأبطال العمال البرونزية التي تقف أمام نقطة التقطيش التابعة للمصنع.

بدا الأمر بالفعل كما لو أنهم جرّوا أحد هؤلاء التماثيل مقطوعة الأنف إلى الميدان وأشعلوا فيه النيران أمام الناس، وكان لدى جميع الحمقى الآخرين ما يقولونه أيضًا. مزرعة ممتعة تمامًا. أكان بإمكان أبويه تغيير أي شيء لو عاشا حياتيهما بأعين مفتوحة؟ بالكاد، كانا ليعيشا في الشقة نفسها، ويعملا في المصنع نفسه، ويتناولان منتجات الألبان المختمرة نفسها كوسيلة للبقاء. لكن على الأقل سيعيشان في تعاسة آدمية. لم يكونا ليزحفا من حالة بائسة حقيرة إلى أخرى، والأسوأ، التظاهر بأن امتلاك سرير ذي قاعدة ومرحاض حقير ويحيط بهما مستنقع من الخضراوات هو شيء جيد.

لن يكون هناك منزل ريفي بالطبع، ولا عطلات تخييم لكل عشرة أشخاص والرقص الأبله على نغمات الأكورديون. لكن مع حالتها التي يعيشان عليها الآن، لم يشعر تجاههما بأي أسف صادق.

لدى كل طفل خط قاتم يتقاطع مع حياته، خط يتجاوزه، رافعًا ركبتيه للأعلى. قبل الوصول إلى هذا الحد الفاصل، فأنت مفتتح تمام الاقتناع بأن بإمكان أمك وأبيك فعل كل شيء، بأن الشخص الوحيد الذي سيصبح أفضل وأقوى منهما سيكون أنت عندما تكبر. بعد ذلك ترى والديك على حقيقتيهما ولن يكون لديكم أشياء مشتركة تتحدثون عنها.

هناك العديد من المناطق الغامضة في الطفولة، لكن لم يهتم أحد بدراستها بتدقيق. المنطقة الوحيدة المعروفة، والتي وُصفت بما يكفي، هي عندما يكتشف الطفل حين يكون بين الخامسة والسابعة أنه سيموت، وأن الجميع سيموتون، كما سيموت أبوه وأمه. اكتشف "ماكسيم تي يرماكوف" هذا الأمر في الوقت المناسب، بمساعدة جده "فاليرا"، الذي عثروا عليه ذات صباح وكان جسده باردًا بجانب جدته التي شاركت السرير المتهالك ذا الشرائط مع الرجل المحتضر حتى نهايته. بعد ذلك بستة أشهر فقط بدأت المرحلة الغامضة التالية. سأل "ماكسيم تي يرماكوف" أباه:

- أبي، هل ستصبح الرئيس في عملي حين تتقدم في السن؟

تمتم أبوه وهو يخفض حاجبيه فوق عينيه اللتين كانتا ترمشان بسرعة:

- قد أصبح الرئيس، وقد لا أصبح.

اعتقد "ماكسيم تي يرماكوف" أن كل البالغين، أو على الأقل البالغين المحترمين يصبحون رؤساء في أعمالهم عند تقدمهم في السن، مثلما سيتخرج طالب في الصف الأول من المدرسة بعد أحد عشرة سنة، إلا لو كان مغفلاً ميؤوس منه. الآن، مع تقدمه في السن، أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أن السؤال الذي وجهه لأبيه ربما كان أكثر الأسئلة ألمًا على الإطلاق. لكن لم يغير ذلك الإدراك من أي شيء. في ذاكرته، ظل أبوه عاجزًا وغازبًا، ولديه قطعة ورق صغيرة ملتصقة على جرح في ذقنه الحليق، وهو يخرج حزامه من بنطاله المهلهل - على الرغم من أنه لم يتمكن من إجبار نفسه على استخدامه لأغراض تعليمية. بعد ذلك أصبح هناك ذلك المنزل الريفى المقيت والملل والبعوض، وحساء اللحم البني المملب في الأوعية المصقولة

بالمينا، وسيارة "تشيغولي" في قطعة الأرض المجاورة، الوحيدة في مجمع الحدائق بأكمله، والمستنقع الأسود الصغير بقاعه المقرف الموحل الذي كان يبدو كأنه على قيد الحياة، والأمطار والضباب والعشب الخشن.

فيما تفكر يا "ماكسيم تي يرماكوف"؟ أنت لا تفكر في "مارينكا"، أليس كذلك؟ لا يمكنك التفكير بطريقة سليمة على الإطلاق. كم مرة اتصل بها على التليفون قبل اليوم؟ نحو مرتين في الأسبوع على الأكثر. لكنه الآن اتصل بها تقريباً مائة مرة في ليلة واحدة. لقد حصلت تلك الحشرة على ما أرادته: كان "ماكسيم تي يرماكوف" يحلم أكثر من أي شيء آخر بأن يسمع نطقها للحروف المتحركة على طريقة سكان موسكو عبر سماعة التليفون. لكن ماذا بعد ذلك؟ تركت أفكاره عن "مارينكا" رأسه بمجرد دخولها. ذكرى ممتعة: تقريباً حتى الصف الثامن كان "ماكسيم تي يرماكوف" يفهم تعبير "يدخل من أذن ويخرج من الأخرى" فهماً حرفياً، حيث اعتبره تأكيداً على حقيقة أن رؤوس الجميع كانت مساحات غير محدودة، وإلا فما المقصود من تلك العبارة؟

كان هناك شيء ما مثير للاهتمام: لماذا يملك "سيرجي يفجينيفيتش كرافستوف" مثل تلك الفقاعة الغريبة شبه الشفافة على كتفيه؟ ربما كان في الأصل "هدفاً رئيسياً"، لكنه شفي بطريقة ما، كالعلاج الإشعاعي أو الحقن مباشرة للرأس؟ لا بد أن يكون هناك سبب لعدم وجود شعرة واحدة على فقاعته ولماذا لدى ذلك التكوين الرأسي شكلاً غريباً كالأخطبوط. بإمكانه افتراض أن الطيور على أشكالها تقع؛ قد يكون لدى كل الضباط الكبار في اللجنة الخاصة تشوهات دماغية. ماذا لو كان هناك علاج من نوع ما لمشكلة "الهدف الرئيسي" المزعومة؟ لكنهم لم يخبروا "ماكسيم تي يرمواكوف" عنه! فقط أطلق النار على نفسك وانتهى الأمر. بالطبع، حالاً. لماذا يمر الوقت بهذا البطء؟ إن الساعة بالكاد تتحرك. ها أنا ذا أجلس كدمية خشبية على طاولة المطبخ الخشبية، متروكاً بمفردي للأبد. لا يكاد يفاجئني زحف ذكرياتي المبهجة من كل مكان الآن بعد أن أطلقت أمني كل ذلك بمكالمتها.

في الطفولة يكون كل شيء أصيلاً. "متجرنا"، الذي كان يعرج عليه "ماكسيم تي يرماكوف" مع أمه في طريق عودتهما من روضة الأطفال، كان أهم متجر في طرق الحي الملثوية اللا نهائية. كان هناك رسوم معلقة بداخله ملونة كالخرائط توضّح كيفية ذبح بقرة ملونة بالأحمر والأصفر؛ لطالما كان المكان مظلماً نظراً لكثرة الزبائن بداخله، ولم يتكس الناس بداخل المتجر بأي طريقة قديمة معروفة، كانوا دائماً يكونون صفيين سميكين ملتقنين ليشكلا جسد حلزون؛ كان هناك بائعة ترتدي قبعة شفافة، وتضع البضائع على ميزان وللحظة تبعد يدها وهي مأخوذة بغموض عملية التوازن التي يشير إليها المؤشر المرتعش حتى يتوقف. في مكان ليس ببعيد عن المتجر يقع "الكرملين"، وهو جدار طويل من الطوب الأحمر يزحف من تحته نبات "الأرقيون" المثمر بقوة مبهجة خاصة ووقحة.

كان "ماكسيم تي يرماكوف" على يقين بأنه لو سار حول الجدار بأكمله فسيتمكن دون شك من رؤية ذلك البرج ذي المداخل الذهبية وشجرة العام الجديد النجمية التي

يعرضونها على التلفزيون أحياناً. عموماً، امتلك كل شيء من حوله قوة الأصالة الحيوية. كانت شجرة البلوط القديمة ذات اللحاء حجريّ اللون التي نمت خلف روضة الأطفال وكسرت الأسفلت بجذورها هي الشيء الوحيد الذي لا مثيل له في العالم: بدت كما لو كانت أكبر بكثير تحت الأرض مما تبدو عليه فوقها.

كان هناك غموض ما في الطرق التي اتخذتها أمه في طريقها إلى المنزل؛ الأبنية الصفراء التي أحاطتهم بدت عادية من الشارع، لكن عند النظر إليها من الفناء كانت تبدو مغطاة بالشقوق والبثور، كانت تكمل بعضها بزوايا غريبة، متسببين في تشكيل نوافذ باهتة وغير مأهولة وكانت أنابيب الصرف تبدو كالتنانين الصدئة.

لطالما كانت أوراق الشجر المتساقطة في تلك الطرق رطبة كلوحة زيتية، في الشتاء، كانت رقاقت الثلج، والتي كان بعضها في سُمك شجر "البتولا"، تتجمد على الكورنيش الصفيحي في كل مكان. عند حلول الربيع، هدأ تساقط الثلوج وأصبح أسود و متموجاً ليثبه أصداف بلح البحر؛ همست الجداول المتدفقة بأصوات منخفضة، بينما شقت طريقها عبر الثلج والتربة وصولاً إلى الرمال البيضاء؛ في الصيف، بقت نوب باهتة من الجداول على الأرض لمدة طويلة. كوّن النهر الصغير المتقلب المتدفق عبر المدينة دوامة بالقرب من مبناهم. كان بإمكانه رؤية جزء منه من النافذة، يتلأأ ويومض بنجوم رقيقة وسط البريق الخشن الأكثر مادية لأوراق الشجر.

كان النهر صغيراً بطريقة مبهجة، لكن رائحته سيئة. قالوا إن قاعه كان ملوثاً وقذراً، لذلك لم يسبح فيه أحد أو يذهب للصيد هناك؛ أحضر أبوه السمك اللعين المنتفخ من البحيرة، التي لم يذهب إليها "ماكسيم تي يرماكوف" قط. لكنه اعتاد الجري إلى النهر دون إذن والديه، بصحبة بعض جيرانه الشباب الذين أحياناً ما يكونون ودودين وأحياناً أخرى يصبحون عدوانيين. اعتاد الصبيان على الجري فوق الصخور الأسمنتية التي برزت من المياه، والتي نمت عليها أعشاب مائية زلقة ذات لون أخضر فاتح. اعتادوا هناك على الإمساك بسمكة سوداء كالعلاقات لا اسم لها، ووضع "تيشيرت" قديم في المياه ثم رفعه لأعلى حيث يخرج الطين والسمك، وتنتفخ فقاعة ثقيلة من المياه عبر القماش. قفزوا هناك في المياه من الحرارة الحارقة، ثم يتسلقون على الضفة حيث تمتلئ سراويلهم الداخلية بالطمي وطعم الحديد في حلوهم المنتفخة، الذي يشبه الطعم الذي يتبع تلقي لكمة في أنفك مباشرة.

هناك على الضفة الفوضوية، حيث كان يجلس "ماكسيم تي يرماكوف" بعيداً عن المزاح العاصف، وجد ذات مرة قرط امرأة بحجم خطاف السنارة. تلقى هناك ذات مرة ضرباً دون سبب من بعض الحمقى الذين لم يكن يعرفهم، كانت لديهم جبهات منتفخة وجماجم حلقة بدت كحبات بطاطس مقشرة بغلظة؛ كان من الغريب أن الضربات التي تلقاها على رأسه لم تؤلمه، لكن في الداخل ظل رأسه يضيق أكثر فأكثر، شعر بأنه سينفجر في أي لحظة انفجاراً سيطيح بكل هؤلاء الحمقى جانباً وكل شيء آخر معهم.

حينها، في طفولته بُني عالم أصيل من القذارة والقمامة، وكان ذلك العالم مستعداً ليمدّ واقعه الأصيل فيما وراء الغابات والجبال؛ في البلاد بأكملها. اتضح له أنه لا يوجد أحد يرغب فيه أو في هرائه. قبل الدخول في أي علاقات مع موسكو، يصبح شاب مثل "ماكسيم تي يرماكوف" مدرّكاً لنفسه ولمكانه في الحياة عبر علاقاته بمركز مدينته الأصلية. كان هناك أيضاً عاصمة صغيرة نظيفة منمقة ومنظفة بعناية، وكانت غالية الثمن جداً قياساً بالمعايير المحلية.

يتجول المراهقون في شارع "لينين" ويستلقون على الكراسي المحيطة بالمناضد البيضاء المعدنية خارج بار "بافاريان كورت"، حيث كانوا يشاهدون بعيون ضيقة فتاة سميكة ذات ضفيرة عريضة تكنس قطع أوراق لزجة عن العشب باستخدام مقشاة منزلية وفتاتين أخريين ترتديان ملابس ثمينة ووجوهاً محلية رخيصة تتدس خلسة وبشهوانية داخل سيارة "فولكس فاجن" قديمة. شارع "لينين"، ميدان "فكتوري" كانت هذه هي المدينة الصغيرة القديمة الأصلية، كل شيء آخر غرق في الغبار والظلام، لم تكن مدينة بالمعنى الحرفي للكلمة. كل الفتيات الجذابات اللاتي يحملن شعورهن بالأهمية فوق أحذيتهم ذوات الكعب العالي التي تماثل في ارتفاعها أعمدة السور، لم تلتفتن إطلاقاً إلى الشباب ذوي الوجوه المليئة بالبثور الذين أتوا إلى المدينة على ظهر دراجاتهم النارية المتهاكة الهجينة من أجل رشفة بيرة.

إن المثقفين الموجودين وسط الزحام الذين بقوا في الأمسيات بصحبة كتب "تشخوف" السوداء، يقرأون في كتبهم السوداء التي لا يعرف أحد من كتبها هم من هزموا الرعاع وجعلوهم يكتفون بالفتيات الأقل جاذبية.

كان ذلك حين شاهد "ماكسيم تي يرماكوف" الكثير من أفلام هوليوود على شرائط الفيديو، مما جعله يقوم بالمغامرة التي كانت الذكرى الوحيدة الجيدة التي أحضرها معه إلى موسكو الباردة من بلدته الأصلية خلف الطريق الدائري السريع المتجه للعاصمة. أشارت الصور الفوتوغرافية القديمة عندما كان والداه شابين إلى أن المدينة كانت ممثلة بعدد كبير من التماثيل ذات الأكتاف العريضة التي عبّرت عن أفكار ذلك العصر، بقع بيضاء تقع بين كل مجموعة من الشجيرات. تضمنت صوراً للتماثيل "السوفيتي" الكلاسيكي الشهير: "فتاة تمسك بمجداف" - Girl with an Oar - وأقربائها: صانعي الحديد المسترخين بأقنعتهم المرفوعة؛ نساء المزارع الجماعية بحزم القمح الضخمة، كتيجان الأعمدة السميكة؛ الشباب العلمي بأدواتهم العلمية التي كانت تبدو كأدوات البستنة؛ وأيضاً لسبب أو لآخر، رماة القرص الرياضي، الكبار والصغار، مرتدين سراويل داخلية رياضية من أجل الحشمة. بمرور الوقت تحطمت الأفكار المثالية، كما حدث الشيء نفسه لتماثيل الحدائق: وبين الحين والآخر، في مكان ما بعيداً ممثلاً بالحشائش، يمكنك أن تقابل شاباً مشوهاً لديه وجه شبيه بأثر حذاء، ولديه بدلاً من ذراعين، أسلاك حديدية مغبرة يوجد على بعضها أحياناً بقايا رسغ وذراع متدلّية كالقفاز. بعد ذلك اختفى هؤلاء المقعدون بالتدرّج أيضاً. عندما وصل "ماكسيم تي يرماكوف" إلى الصف الحادي عشر في المدرسة، تبقى من تلك التماثيل العديدة عشرة فقط، لا شيء سوى أنها

كانت واقفة على حافة سطح أحد أكثر مباني شارع "ستالين" وقارًا وهيبه، منتصبه من أجل الإدارة العليا للمصنع.

ذبلت وتهاكت بفعل الرياح، وأصبحت مجرد ظلال غامضة أمام السماء الفاترة وعلى الرغم من أنها كانت مختلفة في البداية، فإنها الآن أصبحت متشابهة وتماتل ظلالاً أو أعمدة من الدخان. مع مرور السنوات، غيّرت أنصاف الآلهة تلك وقفاتها، أصبحت محدبة، والآن بدلاً من تحديقها للأمام أصبحت تنظر إلى الأسفل إلى حيث قامت السلطات البلدية مؤخرًا بإنشاء منطقة للمشاة ووضع رصيف جميل من البلاط بلون البيج.

وجدت التماثيل التي تخطت زمنها الهاوية ذات السبعة طوابق جذابة، حيث أرادت منذ زمن طويل الوصول إلى الأرض والتحطم إلى قطع حادة وسط المارين المفروعين، وبهذا تستعيد كينونتها المفقودة، بالطريقة نفسها التي يفندي بها الناس أرواحهم بعد الموت. لاحظ "ماكسيم تي يرماكوف" كل ذلك وعرف كيف يمكنه استغلاله استغلالاً مذهلاً.

بدايةً، بعد ارتدائه لخوذة دراجته النارية ليكتف رأسه المتخلخل، كان يركبها ويخرج للاستطلاع. اكتشف بين المداخل الحديدية واحداً حيث كان الباب الحديدي يقطع برتابة بلسان قفله المكسور، شق طريقه عبر باب سحري لم يكن مقفلاً ووصل إلى عالية أصدرت قدماه صوتاً عندما سار على أرضيتها الممتلئة بحبيبات طينية وزبل الحمام؛ من هناك، بعد كسر ألواح متداعية من نافذة سقوية صعد إلى السطح وفوجئ بريح قوية شديدة تحمل طعم الحرية.

هنا، دوّت كل خطوة من خطواته كالرعد؛ فوق السطح ذي اللوح الحديدي الأحمر الصدي، الذي تُبّت بزواية معينة ليُجعل من المستحيل تقريباً الحفاظ على رسوخ قدميه حتى مع ثني ركبتيه، كان هناك رقائق من الصدا والطلاء وبعض القمامة الجافة الصلبة تتمايل لأعلى وأسفل؛ بدت برك المياه الجافة حول حافة السطح كالخرق البالية. بدت التماثيل من هنا ضخمة، تشبه أفيالاً رمادية تقف على ساقيها الخلفيتين. مدّ ساقيه على الجانبين وشقّ طريقه بخطوات صغيرة ثابتة محددة بمحاذاة درابزين كان لا يزال سليماً في بعض الأماكن وفي البعض الآخر تآكل حتى برزت القضبان الحديدية، زحف "ماكسيم تي يرماكوف" حول جميع الصور المنقوشة. حتى مع اقترابه، ومع لمسه لأذرعها المصدومة والثنيات الحادة لملابسها البيضاء بفعل فضلات الطيور، لم يتمكن من تحديد الخامة التي صُنعت منها. في مرفق أحدها المثني، من الواضح أنه لامرأة، اكتشف قطعة ورق مقوي صلب من نوع "آيس كريم" بالفواكه لم يتم إنتاجه منذ عشر سنوات أو أكثر؛ عند النظر إليها من الجانب، بدت العديد من التماثيل كجماجم مقطوعة الأنف.

اختار "ماكسيم تي يرماكوف" لنفسه أحد أكثر التماثيل إجلالاً - تمثال لرجل ذي مهنة غير معروفة الآن، والذي كان ينظر في الاتجاه الصحيح: ناحية ميدان لم يكتمل بناؤه في مركز واجهة المبنى، وهي مساحة أكثر راحة بكثير من ميدان

“فكتوري” الممتلئ بالحصى - كما كان مزيناً بنافورة صغيرة مستديرة عندما يُنظر إليها من أعلى، تبدو كما لو أنها ترسل قبلات متلألئة في الهواء.

في الصباح التالي، وصل رعا ع المنطقة إلى الميدان الصغير يصرخون ويتميلون بنقل بين أنية الزهور على ظهر دراجاتهم - ثلاثة من طراز “إيتزخاك” واثنان “أورالز”. كان يتدلى على كتف “ماكسيم تي يرماكوف” مكبر صوت أصبح يعمل ببطاريات عصرية بفضل الخبرة التقنية لأحد الأوغاد. لحسن الحظ لم يحم أحد بإصلاح المدخل الذي كان يكشف المكان سابقاً. في العلية، انغمس “ماكسيم تي يرماكوف” في غسل خطوط من التار الأسود الموجودة بفعل الزمن وكشط حبيبات طينية، مما تسبب في سحابة من الغبار جعلت مساحة العلية بأكملها - التي تخترقها أشعة ضوء مائلة - تكتسب هيئة طيفية.

على السطح، انعكست أشعة الشمس القاسية عن خوذة “ماكسيم تي يرماكوف” فجعلته يبدو وكأنه حاكم مائل ومجرد؛ أصابت الحكمة “ماكسيم تي يرماكوف” في النقطة التي لمست فيها أشعة الشمس رأسه.

مثلما توقع بالضبط، تمكّن من سماع هرج ومرج في الأسفل. عندما اقترب من صوره المنحوتة وهو يتحرك بثقة أكبر من اليوم السابق؛ لكن بميل قليل، رأى “ماكسيم تي يرماكوف” الناس يتدفقون باتجاه الميدان الصغير غير المكتمل. من الأعلى، بدأ الناس الذين كانوا مكوّنين من رؤوس وأقدام يتدافعون بالتناوب ويحتشدون كالقواقع الزاحفة ولكن كانت حركتهم أسرع بعض الشيء.

قال الأوغاد الشباب لتحسيس الحشد:

- سوف يقتل نفسه! الرجل الواقف على السطح! انظروا، سيقفز في أي لحظة!

عندما ظهر “ماكسيم تي يرماكوف”، بدأ الناس بإصدار ضوضاء أعلى. تراجع الناس إلى الخلف، ونظروا إلى أعلى، وتركوا حقائبهم بجانب أقدامهم. بدت وجوههم كأطباق الخضراوات المسلوقة. أثار الأوغاد الشباب من حماس الحشد فازادوا من سرعة دراجاتهم النارية.

صاح من بين الحشد رجل ذو شارب وخصر مرتعش كحزام أمان ويرتدي “تيشيرت” قتال أصفر:

- أنت، أيها المخنث! ما الذي ستفعله؟ انزل وإلا سلمناك للشرطة!

غنى بعض الأطفال الصغار الذين يرتدون قبعات “بيسبول” مقلوبة وهم يجرون في كل الاتجاهات ويتقافزون كضفادع سعيدة:

- أيها المخنث، أيها المخنث، طر إلى بيتك!

وقف “ماكسيم تي يرماكوف” منتصباً قدر استطاعته. نظر إلى تمثاله المحذب كأنما يسأله: “مستعد؟”. ظل التمثال صامتاً. كان رأسه الثقيل ذو التجعيدات الأسطوانية الذي بدا كأنه ملتف حول بكرات عملاقة تتجرف إلى سحابة ممتدة إلى نقطة التمزق، ويشرق عبرها الجنون. كان هناك خط رطب فوق رأس العملاق

المضروب، كأن باستطاعة التمثال البكاء بدموع من التار؛ بين أصابع اليد المنقوشة الممتدة، حيث عصفت الرياح ببعض الأتربة، ثلّوت ساق نبات متييسة صغيرة نحيلة مثل اللعبة وهي تحمل زهرة صغيرة عمياء.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" في مكبر الصوت:

- انتبهوا!

لكنه نسي أن يرفع حافة الخوذة، لذا دوى صدى الكلمة في رأسه.

- انتبهوا أيها المواطنون!

دوى النداء العالي هذه المرة في أنحاء ميدان "فكتوري"، ومثل لعبة محطمة ومعها ألعاب أخرى صغيرة، التفت نحوه جميع من في الميدان من ثوار وظلوا ساكنين.

صاحت بعض العاهرات ذوات الشعر المستعار ماسي اللون والممتلى بدبابيس شعر تتوهج على نحو لا يطاق أعلى رؤوسهن:

- هيّا أيها السمين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالإلهام يتجّر داخله، ويرفعه بعض الشيء فوق أرض السطح مما جعل باطن قدميه المنشبتين بالسطح تتحرر من الحديد الأحمر البني وقال:

- أيها المواطنون! أنا لست المنتحر! أنا المفاوض!

أمسك "ماكسيم تي يرماكوف" بمرق التمثال المشوه مستطرّداً:

- انظروا هنا! انظروا إلى هذا الرجل! لقد كان يقف هنا بهذا الجمال منذ سنوات كثيرة، وهو يشاهدكم أيها المسوخ القبيحة! لقد فاض به الكيل! لقد أزعجتموه أخيراً، هل تفهمون؟ إنه يريد أن يقفز ويتحطم إلى أجزاء عديدة. لكن دعونا نطلب منه البقاء واقفاً هكذا لعشر سنوات أخرى! وأن يحب المنظر الذي يراه لمدة أطول بعض الشيء! أن يستمتع بمشاهدتكم أيها الأغبياء! أن يظل يحتمل كل ذلك! كيف يمكنه الهرب منكم؟

كان الصوت الذي ارتفع من الأسفل كرد عليه يشبه ضربة مكتومة على الدف يصاحبها رنين أجراس صغيرة. كان الحشد المتعلق حول النافورة يتزايد بسرعة ضاغطاً على الأوغاد الشباب ودراجاتهم النارية. أتى نحيب آلي من اتجاه نظر "لينين" على الجانب الأيمن وظهرت سيارتا جيش تومضان بأضواء علوية اخترقت الأمواج البشرية كقوارب هشة.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يلقي بمكبر الصوت خلف ظهره ويحيط التمثال بذراعيه:

- لا تقفز يا صديقي! لا تفعلها! إن الحياة جميلة!

كان أول ما شعر به هو الراحة الدائمة المتكاملة المنبعثة من داخل التمثال مخترقة معطفه وأضلاعه. ثم بدأ رأس "ماكسيم تي يرماكوف" تدور قليلاً بينما تحولت السحابة المجنونة إلى الأسود كثريط صور سلبي، وتمايلت السماء فجأة. في الواقع، لقد كان التمثال هو الذي أصدر من أعلى قاعدته المشروخة أنيناً خشناً يفطر القلب. في اللحظة التالية رفع التمثال المعطف المهلهل الذي يغطي جسد "ماكسيم تي يرماكوف"، ثم صدر عنه صوت قرقعة وحك معدته مثل ورق الصنفرة البشع وهو يمزق قضبان وكتل من الأسمنت على قاعدته، بدت وكأنها جذور يغطيها الطين بعد أن اقتلعت من الأرض، ثم انطلق في الهواء بوجه هادئ سقط للأسفل باتجاه الحشد.

كانت حركة التمثال مدمرة. كان "ماكسيم تي يرماكوف" مصدوماً كما لو أن صاروخاً انطلق من بين ذراعيه، ظل "ماكسيم تي يرماكوف" لوهلة غير قادر على استيعاب ماذا كان أو أين كان، لقد رأى فقط التمثال الحجري يدور في الهواء ثم ينفجر حرفياً عند اصطدامه ببلاطات الرصيف ذات اللون البيج؛ من بين الكتل المكسورة والتراب الرمادي ظهر هيكل حديدي بدائي وتواثبت رأس العملاق التي سقطت في النافورة، وبرزت من سطح المياه عين واحدة مفتوحة على اتساعها في ذهول. عند هذه النقطة شعر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة بأنه لم يكن متشبثاً بما يكفي: كانت قدم واحدة بداخل حذاء غير مربوط وممتلئاً بالهواء معلقة فوق الهاوية، بينما انزلقت ركبة الساق الأخرى عن حافة السطح، وكان الجزء المهلهل من الدرايزين الذي بإمكانه بالكاد تحمّل وزن جسده المرتعب الخدر يلتوي ببطء متهيئاً لسقوط المفاوض.

كان كل شيء بالأسفل كالحلم، كان الميدان الممتلئ ببقايا التمثال التي انتشرت في زوايا غريبة، كان الناس يساعدون شخصاً يشبه الصرصور ليقف على قدميه وكانت مجموعة من رجال الجيش تشق طريقها بصعوبة باتجاه المدخل.

بالكثير من الجهد، وهو متشبث بيأس في السطح، تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من سحب نفسه للخلف مسافة متر واحد كي يمنع وقوع الكارثة وجلس على أطرافه الأربعة وهو يشعر ببقعة لزجة على معدته تصبح أكثر برودة. بعد ذلك قادته غريزته. زحف عبر الحديد المدوّي، وكسر الألواح الهشة عن أبعد نافذة سقفيه من مكانه ثم قفز إلى داخل العلية التي كانت لا تزال مهجورة، وحينها، لحسن الحظ وجد نفسه في ممر غير مألوف وكانت هناك امرأة مسنة تُخرج حقيبة صغيرة من القمامة سمّحت له بالخروج أيضاً. كان ذلك المدخل البعيد يفضي إلى شارع جانبي يحتله بالكامل كومة قمامة ذات قمة مزدوجة والتي ألقت فوقها المرأة المسنة حقيبتها، وهناك خلف صناديق القمامة الممتلئة وقف فتى ممتعض تمكن بمعجزة ما من فهم الموقف، حيث كان ينتظر فوق دراجة "ماكسيم تي يرماكوف" الـ"إيتزخاك" المزمجرة.

قال الفتى بصوت حاد ما إن قفز "ماكسيم تي يرماكوف" على الدراجة:

- "ماكسو"، الخوذة! تخلص من الخوذة الرديئة!

طارت الخوذة المزينة بتفريغات نجمية إلى صندوق القمامة وكأنها مجرد وعاء طهي. زمجرت الدراجة وانطلقت ببطء وثقل ثم بدأت تتزايد سرعتها. لم يكن رأس "ماكسيم تي يرماكوف" محميًا وقد اندفع الهواء عبره ممتلئًا بجسيمات شائكة ولاذعة. تمكن الفتى الذكي، الذي كان يعرف جميع الفجوات في جميع أسوار المدينة، من المرور عبر سور موقع المصنع؛ كانت المباني الرمادية كخلايا نحل عملاقة، وتطير خارجها نحلات رماية لاذعة باتجاه رأس "ماكسيم تي يرماكوف". سارا فوق خط سكة حديدي ضيق، ثم اتجها من أسفل سلسلة حديدية مرتعشة منخفضة ثم خرجا إلى طريق ريفي هادئ. مرًا بمزارع الغابات المضئية بفعل أشعة الشمس، امتدت المساحات الزراعية الشاسعة في كل مكان؛ كانت الدراجة تبدو كأنها لا تتحرك، تنن فقط وتهمهم كالذباب أمام زجاج نافذة. لكنهما تمكنا من الفرار بعد كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أثناء وليمة المنتصرين في تلك الليلة الصاخبة، أثبت رأس "ماكسيم تي يرماكوف" الممتلئ بالقمامة الذي جمعها في أثناء المطاردة، لأول مرة قدراته على إطلاق الكحول في الهواء. آمنَ "ماكسيم تي يرماكوف" بصدق بأن الفتى الذكي الذي ساعده على الهروب من الشرطة أصبح الآن صديقه للأبد. مع ذلك، فإنه في الليلة نفسها، أعلن منقذه وهو يكشر عن أنيابه الصدئة أن "ماكسو" مدين له بالنقود. لذا أعطاه "ماكسيم تي يرماكوف" نقودًا. باع الدراجة النارية الحمراء وملا راحتي يدي الفتى بالنقود ببذخ، وهو يعرف بأنه لن يتمكن من قيادة دراجته النارية مجددًا في البلدة القديمة الصغيرة. لم تعد البلدة القديمة الصغيرة موجودة.

لم يهتم "ماكسيم تي يرماكوف" حتى بالاستفسار ما إذا كان قد أصيب أحد في أثناء سقوط التمثال، كان كل ما لاحظته هو أنه تمت إزالة التماثيل الأخرى؛ بقيت في أماكنها أشباح ذات حياة قصيرة، تتلألأ بهشاشة، كأسطوانات مياه معدنية عملاقة - ثم اختفت هي أيضًا.

كان قد تبقى شهرًا مايو ويونيو فقط حتى يتخرج في المدرسة. تحولت المدينة القديمة الصغيرة إلى مساحة فارغة، بقعة بيضاء على الخريطة، كما لو كانت مغطاة بتلج دائم على الرغم من الطقس الدافئ. كم عدد البقع البيضاء مثل هذه موجودة على خريطة روسيا، ما كمية الثلج الموجود في البلاد! موسكو، فقط موسكو - كم رغب "ماكسيم تي يرماكوف" في الذهاب إليها، كم حاول بصعوبة أن يتكيف على تلك الغرف المستأجرة الرخيصة الحفيرة، حيث تكون أحواض الاستحمام أقدر من مراحيض حمامات محطة السكة الحديدية، حتى منحوه سريرًا في مسكن طلبة؛ كم كان من الصعب عليه العمل من أجل تحمل تكاليف الجامعة في محل حقير مزري خارج محطة مترو الأنفاق، يسير بين المواطنين وألعاب الأطفال المشعثين ذات الألوان السامة، حتى شق طريقه وأنشأ شركة التجارة الدولية الخاصة به، حيث قرر لأول مرة أنه نجح!

الآن، ها هو ذا، يجلس في شفته المستأجرة كما لو كان جاثمًا على حافة جرف، وهو يشعر بغضب شديد بينما يلتهم الفوضى اللزجة التي تبقّت من الكيكة، كما كان يأكل أيضًا شريحة لحم مدخن في الوقت نفسه. كانت كل تلك الإنجازات هناك معه.

كان الدلو الممتلئ بالماء القذر يضيء بالأحمر في منتصف الغرفة، قعقت حبيبات من الثلج على ألواح النوافذ الزجاجية، ظهرت للعيان كاميرات المراقبة المخفية حيث تهتز الهوائيات الملحقة بها، ونام المنتبئون الاجتماعيون بسلام بجانب النوافذ المطلة على السلم.

كانت الساعة الثالثة صباحًا، وقد سمع حينها رنين جرس الباب.



ها هي أمامه. القطة الصغيرة المسكينة. كان معطف الفراء التي ترتديه مغطى بكنث مبللة كما لو كان لعقه لسان مثلما تنظف القطة نفسها. كان الفستان الأصفر متجعّدًا ومغطى بعلامات مائية من آثار مشروبات مسكوبة جافة. كانت أطرافها متكسرة، وحذاؤها عالي الرقبة المدبب من الأمام رباطه معقد وغير مربوط بطريقة صحيحة، لكن كانت كل أصابع يديها المرتعشتين سالمة. قال "ماكسيم تي يرماكوف" بانحناءة ساخرة:

- أحبيك تحية العطلة! يوم أمس سعيد عليك يا عزيزتي!

تلقى وجهه في الحال صفة مفاجئة. لم يشعر "ماكسيم تي يرماكوف" بصفة كهذه من قبل مطلقًا. شعر بأن وزن خدّ الأيسر الذي تلقي الصفة في الحال أثقل بكيلو جرام كامل من خدّ الأيمن. من الواضح أن رأسه لم تكن بأي حال عديمة الوزن مثلما تخيل سابقًا. يا لك من عاهرة! ثلاثة ملايين دولار من أجلك؟ خذي هذه!

تراجعت "مارينكا" بسرعة تجاه الباب ممسكة بوجهها. احترقت كف "ماكسيم تي يرماكوف" ولسعته كأنه تصدى لتمريرة ثقيلة في مباراة كرة طائرة. كان الباب المطل على السلم لا يزال مفتوحًا فاستيقظ منتبئ اجتماعي من نومه وصعد إلى الطابق الموجود به "ماكسيم تي يرماكوف" بخطوات خفيفة وأطل بأنف طويلة شبه شفافة وعين ترمش بجانبها.

صاح فيه "ماكسيم تي يرماكوف":

- هذا ليس من شأنك، ابتعد من هنا!

ثم أغلق الباب بغضب شديد، وقد تخيل في أثناء مروره بسرعة رهيبه كيف أنه كان بإمكانه تكوين صداقات مع الضباط ومعرفة جدول تغيير وردياتهم ودعوتهم لشرب الشاي، وسؤالهم عن ظروفهم المنزلية، وتعاطفه معهم، وشكوته لهم بدوره من النساء ورؤساء العمل. كل شيء إنساني وصادر من القلب. بعد كل شيء، ما الذي يجعله أسوأ من تلك المرأة العجوز المضيفة "كلايازينا" التي تعيش في شقة رقم أربعمائة وستة؟ كان بإمكان المنتبئين الاجتماعيين استخدام حمامه الذي يوجد فيه مرحاض "ناتاشا" الثمين. بدلًا من كل ذلك، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالرغبة

في فتح الباب وصفقه مرة أخرى، وهذه المرة أراد أن يقبض على الأنف شبه الشفاف الذي بدا كقطعة ثلج زلقة. قالت "مارينكا" بلثغة وهي تحاول بطريقة ما أن تقف مستقيمة على حذائها ذي الكعب العالي:

- أنت وغد يا "ماكسي" .. يا لك من وغد!

كان من الواضح أنها تعاني آثار ما بعد الشمال. كان خدُّها الأيسر ملتهدًا، وفمها الطويل داميًا ومسطحًا على أسنانها، وغير قادر على فصل نفسه عن الأسنان. مع ذلك، فإن العينين المغطتين بمكياج الأمس التافه تلالأتا بيأس عميق ومضيء، مما جعل "ماكسيم تي يرماكوف" يشعر بالقليل من الخوف. ماذا لو أنهم فعلوا شيئًا لها بالفعل؟ خلعت "مارينكا" حذاءها وهي مستتدة إلى حائط الطرقة ثم سارت وهي تعرج متجهة إلى الغرفة بمشية المرأة المعتادة على أحذيتها ذات الكعب العالي. سألتها "ماكسيم تي يرماكوف" وقد تمكن من إزالة دلو ممتلئ من أمامها في الوقت المناسب.

تمايلت "مارينكا" جيئةً وذهابًا وهي تحتضن كتفها غير المتوازنتين:

- كيف تمكنت من فعل ذلك يا "ماكسي"؟ كيف تمكنت من فعل ذلك؟ ألا تراني إنسانًا؟ لن تهتم إن متت، أليس كذلك؟ ألا أستحق أي شيء جيد في حياتي على الإطلاق؟ أنتركهم يقطعون أصابعي وساقَيَّ كحيوان تافه؟ لن يهتم أحد بذلك.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" واضعًا ذراعيه على فخذه:

- لكنك أنت من خطط للأمر بأكمله! أتظننني لم أسمعك تجيبين عن ذلك الأحمق من الحمام؟ لقد كانت السماعة ملقاة بإهمال. لم يكن هناك أي اختطاف! لم يكن هناك أي أحد سيقطع أصابع أحد. لقد قضيتم جميعًا وقتًا سعيدًا، ونتم مع أي شخص رغبت فيه وكان موجودًا هناك، وفي الصباح قررتم تحسين موقفكم المالي. من أين يمكنني الحصول على ثلاثة ملايين دولار من أجلك؟

زمرت "مارينكا" بدورها وقد لمعت عيناها تحت حاجبين منخفضين:

- ما الذي يحمل قيمة أكبر عندك، إنسان أم ثلاثة ملايين دولار؟

أصرَّ "ماكسيم تي يرماكوف":

- لكن من أين بإمكانني الحصول عليها؟ أخبريني كيف يمكنني فعل ذلك؟ هيا، أخبريني بالخطوات التي يجب علي اتباعها.

أراد أن تقصح "مارينكا" عن شيء ما، شيء مثل: "أنت تكتب وصيتك ثم تطلق الرصاص على نفسك"، ثم بعد أن تقول ذلك بصوت عالٍ ستدرك حينها مدى خطورة الأمر بأكمله. بدلًا من فعل ذلك، ألقت "مارينكا" برأسها للوراء مبعثرة شعرها المعقوف الأشعث عبر كتفها المشدودتين كالدخان الأسود، وصرخت باتجاه السقف. صرخت من قلبها مما أجهد حلقها الأبيض وقد امتلأ صوت نحيبها المستمر بيأس وحشي خبيث تفهمه "ماكسيم تي يرماكوف".

قبل أيام قليلة انزلق هو نفسه في اليأس، في وسيط غير مألوف كلياً ومظلم، يبدو كالسائل أكثر منه كالغاز، الذي اعتصر قلبه بالطريقة نفسها التي يعتصر بها تيار الماء حذاءك المطاطي. أنت لحظة الهزيمة الكبرى عند "مارينكا" وأفضت بشكواها التي تقطر القلب عن انعدام التطابق بينها وبين حياتها. عن كونها لم تولد وسط عائلة ثرية رفيعة المستوى من موسكو وعن عدم امتلاكها لكل شيء ينبغي أن يكون ملكاً لها أوتوماتيكياً لمجرد أنها تعيش في العالم؛ عن احتمالية نشأتها كفتاة جيدة، لديها شعر مفروق من المنتصف بعناية أعلى رأسها الدافئ وعينان مليئتان بالعدوبة والإشراق - لكنها اضطرت إلى أن تصبح عاهرة، وأن تنزلق إلى القاع القذر، وحتى حينها لم تُمنح السعادة، ولم تتمكن مطلقاً من الرضا بحياة دون تلك السعادة البسيطة التي تمنحها موسكو. أخبرني إذاً، هل الإنسان يستحق أكثر من ثلاثة ملايين دولار؟ انظر إليّ، إنني إنسان، أين نقودي؟ لماذا لا تجيبوني أيها اللعينون؟ آه! آه! آه! آه! إن "مارينكا" عنيدة للغاية، هذا هو ما لم يلحظه "ماكسيم تي يرماكوف" من قبل. بإمكان "مارينكا" أن تضرب برأسها الحائط الذي فرّق بين موسكو الثرية وتدفق المقاطعات والآخرين - بإمكانها أن تضرب الحائط بنفسها حتى موتها تاركة دمها المتخثر عليه. إن هناك أيضاً نوعاً من النبيل والبطولية في ذلك.

تمتم "ماكسيم تي يرماكوف" بنبرة استرضائية:

- حسناً، اذهبي واغتسلي، ساعد الشاي. تحتاجين إلى النوم، لذا لن أقدم لك القهوة.  
ابتسمت "مارينكا" ابتسامة حمراء متخثرة كاشفة عن لثتها المشقوقة:  
- أنام! معك؟ هل جننت يا "يرماكوف"؟ لقد خننتي. لقد ضربتني. إنك قادر على ضرب امرأة أيها المتوحش! إن لديّ سناً متخلخة الآن. أيها الوغد.  
عند هذه النقطة تجهم وجهها فبدت أكبر بعشر سنوات وسال المكياج الأزرق على خديها، حيث أزاحه تدفق الدموع الغزير من عينيها المتلاثلتين بصورة لا تحتمل، واستطردت:  
- كنت سأتزوجك يا "ماكس"! ربما أكون أحببتك وكنت أختبرك. الآن انتهى الأمر، أفهم؟ انتهى الأمر! أعطني حقيبة الآن!  
أعطاه "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يرفع كتفيه في لا مبالاة الحقيبة الحقيبة ذات الحواف القذرة التي أسقطتها "مارينكا" على الأرض بجانب حذاءها المتداعي وقالت:

- ليست هذه أيها القدر! واحدة كبيرة، أو حقيبة سفر ما! كي أضع فيها أغراضي!  
جرّ "ماكسيم تي يرماكوف" في طاعة حقيبة قاتمة فارغة ذات عجلات عالقة من الدولاب. اضطر أن يأتي بها إلى موسكو من عشر سنوات وسحبها خلفه في أرجاء المدينة من مكان لآخر. كان بداخلها بنطال "جينز" و"تيشيرت" من المدينة القديمة مندمجين بحزمة تفوح منها رائحة غسيل قديم للغاية متجاوزة الزمن والغبار، بجانب سترة سوداء قصيرة من "البوليستر" والتي اعتادت على إصدار صوت

صغير وهو يمشي مرتدياً إياها، لكنها الآن انكشمت، وكان كل شيء ذا مقاس صغير كمقاس الأطفال تقريباً، على الرغم من أن "ماكسيم تي يرماكوف" لم يكن طفلاً بأي حال عندما أتى إلى العاصمة. قبل أن يخرج ملابسه القديمة من الحقيبة، بدأت خرق "مارينكا" متلائة الألوان بالطيران إلى داخل الحقيبة والتي أصبحت في الحال كومة هالكة من الماضي تحافظ عليها الحقيبة. هرولت "مارينكا" في أرجاء الشقة وهي تدوس الأرضية بحذائها ذي الكعب العالي الثقيل، وهي تعري الشماعات داخل الدولاب بوحشية، تجذب وشاح، وسراويل داخلية، وقمصان نوم حريرية متكومة هنا وهناك.

أزاحت زجاجات طلاء أظافر من أمام النافذة إلى حقيبة بلاستيكية مصدرين طقطقة حين هبطوا فوق الملابس البالية ودُفنت تحت سروال داخلي ذي زوايا حادة وجاف أحضرته من الحمام. بدا سروالها وكأنه غلاف ورقي مهترئ لرواية رومانسية للنساء قُرئت منذ مدة طويلة؛ تبع كل ذلك كوب وملعقة وشوكة - بدت هيئة "مارينكا" وكأنها مُدانة بجرم ما، وأنها في طريقها إلى السجن.

في النهاية، ألقت نظرة مهووسة على الغرفة الفوضوية ثم أغلقت الحقيبة وجذبت السحاب المتيبس بهزات عنيفة. أصبحت الحقيبة تبدو أكثر قتامة الآن، وبها جانب منتفخ كما لو كان بداخله مرفق بارز من داخلها.

قالت "مارينكا" امرأة وهي تجاهد من أجل إدخال قدميها في حذائها مجدداً:  
- أعطني بعض النقود.

لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من الرفض فأخذ حافظته وفتحها وهو يتأمل أوراق الخمسمائة "روبل" الهزيلة. كم عليه أن يعطيها؟ لو سارت الأمور هكذا فسيجد نفسه قريباً يلجأ إلى مدخراته الخاصة كي يتمكن من النجاة. قبل أن ينظر من وراء كتفه أخذت "مارينكا" كل النقود تاركة الحافظة مفتوحة بتعبير ينم عن الدهشة وبداخلها فقط بعض الفكة. تذكر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة صوت جده "فاليرا" الرنان الذي بسببه كانت تهدده جدته بأن تلقي عليه كتاباً فرنسياً حتى وهي تضحك:  
- عامل الفتيات جيداً في السرير، لا تسمح لهن أبداً بمنحك (جنس فموي).

ثم مضياً:

- لا أتذكر كم مر من الوقت منذ أن أدركت بأن الحياة قذرة.

اقترح عليها "ماكسيم تي يرماكوف" دون حماس وهو يتبعها حاملة حقيبته إلى إضاءة الطرقة الصفراء:

- أتريدني مني إيصالك؟

قالت "مارينكا" باحتقار وهي تتعثر في معطف الفراء الطويل الخاص بها والذي تركته معلقاً بإهمال من كتفيها:

- يمكنني الاعتماد على نفسي. في الواقع، هناك سيارة بانتظاري في الأسفل. إنني أكرهك الآن يا "يرماكوف"، ها قد قلتها. كم أكرهك. لقد أضعت كل تلك السنوات

معك. لقد دلتك. لا يهم. سوف تدفع ثمن كل دمة بكيته. ستدفعه برصاصة، هكذا.  
ألا تظني إنسانة؟ أنني ليس لدي كرامة؟ انتظر فقط، سنلتقي مجددًا!

بتلك التهديدات غير المترابطة شقت "مارينكا" طريقها أخيرًا باتجاه السلم وهي تدفع الحقيبة العرجاء غير المتوازنة. من الواضح أن المصعد لم يتحرك لأي مكان آخر منذ أن أوصل "مارينكا" إلى هذا الطابق، وفتح في الحال بابها الزجاجي بلطف أمام قدمي "مارينكا" فركلته بعنف. أغلقت أبواب المصعد وتحرك للأسفل، مما أصدر صوت قعقة في السلم المظلم كمؤخرة بندقية.

هزَّ "ماكسيم تي يرماكوف" كتفيه قليلاً وفرك كتفيه الباردتين ثم عاد لشقته. كان هناك أثر رمادي تركته الحقيبة خلفها على مقدمة حذائه الثمين من نوع "سيزار باشيوتي"؛ كانت الحقيبة التي أصبحت الآن تعيش في الطرقة ككلب مليء بالقمل مستتدة إلى الحائط كوقفة شخص ثمل منحني. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة بأنه تعرض للسرقة. هكذا بدا كل شيء من حوله، كما لو أن المكان تعرض للتهب. على الرغم من أن "مارينكا" قد أخذت أغراضها فقط، ولم تلقِ بالأعلى الإطلاق للأغراض الأخرى، حيث أعدتهم في مكانة القمامة نفسها. لكن انتظر لحظة: المحبرة المكعبة والشيء المكعب الآخر الذي يحتوي على فتحتين من أجل الأقلام كانا منفصلين فوق مكتب المعلمة الشرفي، لكن قاعدة الكتابة اختفت. تساءل "ماكسيم تي يرماكوف" عما قد تحتاج إليه "مارينكا" من قطعة الرخام القبيحة تلك. ستفزع "ناتاشا" لذلك. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يرتمي على سريره المنهوب الذي لا يحتوي على جسد امرأة عليه:

- وكل تلك السنوات التي أضعتها عليك.

لقد رحلت - رائع جدًا! لن نطلب منها العودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يعد شهر مارس ولا حتى أبريل ربيعًا في موسكو. إنه الفراغ ما بين الشتاء والربيع، حينما لا يتقدم الوقت للأمام، بل يترنح ذهابًا وإيابًا، وتختلط الأيام الحارة بالباردة كأوراق الكوتشينة. ذابت الثلوج الهزيلة التي عملت كمجمع للأوساخ والقذارة خلال شهور الشتاء، تاركة ممتلكاتها الذائبة والمتلاشية ملقاة في كل مكان، كقصاصات الورق المنجرفة، وقصاصات ورق "البوليثلين" الهشة الرمادية، وأعقاب السجائر المسحوقة. قبل أن يقوم عمال الفناء "الطاجيك" بكنس العشب، بدأت ندفات ثلج مبللة بالتدفق لأسفل، مما قلل من الرؤية والسرعة على الطرق تمامًا كما تصبح الرؤية غير واضحة داخل مغسلة السيارات، الفرق الوحيد هو أن غسيل السيارة في هذا الطين لم يجعلها أكثر نظافة؛ انهارت الخيام تحت ثقل الثلج في أرضية مخيم المحتجين ضد "ماكسيم تي يرماكوف". لمدة أسبوع، اقتربت درجة الحرارة من الصفر، مما جعل الماء يصبح في حالة انتقالية تشبه الصمغ. ثم أصبح الجو دافئًا مجددًا وحل محل الغبار ذي طعم الورق المشتعل بغبار يحمل طعم الفلفل الأسود. ما إن تدفأت الأشجار وتشكلت البراعم عليها، وأصبحت الأفرع

المساء مدبية، بدأ الذباب الأبيض بالطيران مجدداً وبين ليلة وضحاها تضخم كل شيء، أصبحت الأرض كفروة خراف سميكة، وقد تلوّنت بالأحمر البني من عشب العام الماضي. تلك التغيرات الحادة في الطقس أعطت "ماكسيم تي يرماكوف" صداغاً مقرفاً، وأقراص الدواء التي تساعد الناس العادية لم يعد لها أي تأثير فيه.

مع ذلك، لم يكن الطقس المتغير هو أسوأ مخاوفه، حيث إن المتجر المحلي الصغير الذي رحّب به بودّ مؤخراً، امتنع على نحو قاطع عن خدمته. كما حدث الشيء نفسه في كل المتاجر الأخرى القريبة: قابله أفراد الأمن بوجوه من الصفيح وقطعوا طريقه وألقوا بالسلة المرتعشة من يده، حيث بادلوا نظراته الحاقدة إلى عروقهم البارزة بابتسامات مظلمة متشفية.

تذكر "ماكسيم تي يرماكوف" أنه لا يمكنه مهما حدث أن ينتهي به الأمر مع "الميليشيا". على الرغم من أنه لم يهتم بـ"الجنين" ورؤسائه الحمقى، فقد وجد نفسه يشعر بالتردد أمام أفراد أمن باب أحد المتاجر والذين بدوا وكأنهم طلاب مدرسة هزيلون يرتدون سترات أكبر من حجمهم. كان هذا التردد عرضاً سيئاً، سيئاً للغاية؛ لكن حتى مع ذلك بدأ "ماكسيم تي يرماكوف" بتجنب منافذ البيع بالتجزئة التي تبيع الطعام.

كان بإمكانه الانزلاق تدريجياً إلى الموت جوعاً لولا مضيفه مدمن الكحوليات "شوتوف". في بساطة هذا الرجل أصلي المولد في موسكو المقدسة، الممتلى على نحو ثابت برائحة مريرة دهنية شبيهة برائحة بذور الطماطم، والذي اعتاد ركوب سيارات "الميليشيا" المستوردة برشاقة إلى منزله الثاني في قفص القروء بقسم الشرطة، من الواضح أنه لا يفهم كل ما يدور حوله. عند عودته من المكتب، رنّ "ماكسيم تي يرماكوف" جرس الباب السفلي المغطى بالجلد؛ تحولت العين السحرية العكرة إلى الإظلام ورمشت، بعدها ظل منتظراً لخمس عشرة دقيقة أخرى وهو يستمع إلى أصوات غريبة كأنهم كانوا ينقلون الأثاث. بعد ذلك انفتح الباب لمسافة عشرة سنتيمترات وأطل "شوتوف" برأسه بمهارة عبر الفتحة كالفأر، دائماً ما يترك أحد أحدى المنزل الممزقة المهترئة بالداخل. أحياناً بدلاً من "شوتوف" تطل عاهرة ملتقة بإهمال بقميص نوم، وأحياناً أخرى ذراع امرأة عارية ذات أظافر مقضومة لامعة وكتلة شعر مبللة تحت إبطها هو ما ينحسر خارجاً ببساطة. أعطاه "ماكسيم تي يرماكوف" قائمة مشترياته والنقود بداخلها ثم اتجه للأعلى. بعد ذلك بفترة قصيرة، يأتي "شوتوف" أو إحدى عاهراته بالطعام وتقرير مالي مفصل. مثلما لا يسمحون لأحد بدخول شقتهم لا يدخلون شقق غيرهم ويظلون واقفين أمام الباب على مرأى المتبئين الاجتماعيين الذين يلقون بنظرات خاطفة مستاءة على النشاطات غير المصرح بها لهذا العنصر غير الاجتماعي.

في البداية، كان "ماكسيم تي يرماكوف" خائفاً من أن العاهرات قد تحاولن أن يحُمن حوله كالسماك بناء على غريزتهن العملية، ثم يتسللن إلى داخل الشقة ثم إلى سريره. لكن الفتيات لم يتصرفن بهذه الطريقة على الإطلاق: فقد وقفن باهتمام، بأرجلهن المتقوسة بمحاذاة بعضها، تاركات مساحة بينه وبينهن كالتى توجد في الأسوار

الخشبية. كنّ كلهن غير جذابات بطريقة غريبة: لديهن شامات غليظة، وشفاه نحيفة، وأنوف عظيمة كالتي لدى طلاب المدرسة الكادحين - وبكل صراحة، بسيقان كهذه لم يكن عليهن ارتداء تنانير قصيرة ذات شقوق طويلة تصل تقريبًا إلى مناطقهن غير المثيرة. بالطبع لم تكن شقة مدمن الكحوليات "شوتوف" الصغيرة نوع المكان الذي قد تجد فيه امرأة مثل "كلوديا شيفر"، الممثلة وعارضة الأزياء الألمانية، فجأة. كانت جميع الفتيات مجتهدات - كان الاجتهاد تقريبًا هو الجانب الإيجابي الوحيد في كفاءتهن العملية المشكوك فيها؛ غالبًا ما يكون هناك تفسيرات على قطعة ورق ملحقة بالفواتير، مكتوبة بخط منمق أنثوي يبدو كرسوم "دانتييل" رفيعة جميلة. فكّر "ماكسيم تي يرماكوف" في "شوتوف" وعاملاته:

- إنه يحصل عليهن من الملجأ، لا بدّ أن هذا هو ما يحدث.

بالنسبة إلى معاملاتهم النقدية، فإن سكان الطابق السفلي كانوا أميين حتى آخر "كوبك"؛ كان أجرهم دائمًا ما يكون زجاجتي "فودكا" من أرخص الأنواع والذي قد يجعل المرء يظن أنه قادر على التسبب في تسميم أجساد الفتيات النحيلات مما قد يميتهن. اقترح "ماكسيم تي يرماكوف" عدة مرات أن يشتري "شوتوف" لنفسه نوعًا جيدًا. لكن "شوتوف" الذي يبدو واضحًا أنه غير قادر على فهم السبب الذي قد يجعل شخصًا ما يدفع أكثر لنوع بنفس القوة والتركيز، فيكتفي بهز رأسه الأشعث بخصلاته الدهنية الملونة من بين شعره الرمادي.

يقول مفسرًا الجاره الساذج:

- إن "الفودكا" ليست جيدة لصحتك عمومًا، بل على العكس.

إنه محق.

ظل "ماكسيم تي يرماكوف" منتظرًا خطوة المتبئين الاجتماعيين القادمة. في الربيع يواجه الحمقى مشكلات جديدة: حرائق غابات هائلة اندلعت في كل مكان وأتى الدخان متصاعدًا من التمويجات العميقة لغابات الصنوبر كما لو أن الأرض انشقت هناك. عرضت الأخبار حرائق مشوشة مشتعلة بحجم مدن كهربائية مضيئة تم تصويرها من طائرات الهليكوبتر، ارتفع شرر ورقائق الرماد تجاه السماء بفعل الحرارة، وتغطت مساحات أشجار الصنوبر بالدخان وامتد الدخان حتى غطى الأرض حولها كذلك. اشتعلت النيران في بلدات سيبيريا. صرخ الضحايا المشردون وهم يحتضنون أبناءهم، توقفت أشكال غامضة من سيارات نقل الجثث مغطاة بالسخام على طرفي الطريق، كانت الخسائر البشرية بالآلاف.

ظهرت شخصيات جديدة في لعبة "رأس فارغ" وهم مقاتلو الحرائق الذين من دونهم لا يمكن خوض أي مهمة خطيرة بعد الآن. اكتسب الرجل السمين الافتراضي الآن إمكانية نفخ ألسنة هائلة من اللهب التي تحول العملاء السريين والاستراتيجيين، والقناصة إلى شعلات ملتهبة في الحال. أشعل الوحش النافخ للنار حرفيًا قرى تعود لعصور سحيقة وشوارع حضرية مميزة من تقارير التليفزيون ومحاها عن وجه

الأرض؛ كان الشيء الوحيد الذي بإمكانه إيفاف الرجل السمين هو موتور ناري صوته مزعج مثل صوت المنبّه.

في الأساس، كان ذلك الأمر مجرد تفسير تصويري من أجل الناس كي يعرفوا مَنْ المسؤول عن كل شيء. كان هناك إجراءات جديدة وأكثر حدة يجب أن تؤخذ من أجل إضعاف "ماكسيم تي يرماكوف". بعد ذلك، ذات يوم، بينما كان يجري متجهاً للمكتب متجاوزاً المتظاهرين الملطخين على نحو درامي بالسخام بسبب الحرائق، رأى "ماكسيم تي يرماكوف" شيئاً جعل قلبه يغوص حرفياً في حذائه.

هل كان هو أم لا؟ فكّر "ماكسيم تي يرماكوف" في هذا الأمر طوال اليوم وهو يحدق في سطح المكتب الممتلئ بالغبار الذي تتخلله رسومات بالأصابع. ذلك الرجل الواقف هناك مرتسمة على وجهه نظرة خاوية، وهو يحمل عمود لافتة يمسك بها وكأنه ممسك بحاجز رصيف محطة المترو. إنه أصغر من أن يكون "فوفان كولييزنيكوف"، كتفاه أقل عرضاً. لكن مع ذلك فقد كان هو، "فوفان" الكبير: بدا شعره الخشن الرمادي كما لو كان متعفنًا، وبدت سترته الشبيهة بقماش المراتب كما لو أنها خيطت في المزرعة نفسها التي سرق منها "ماكسيم تي يرماكوف" مغلفاً قذراً ممتلئاً بالدولارات. في الواقع لم يتعرف "ماكسيم تي يرماكوف" على "فوفان" بعينه بل بجهازه العصبي الذي بدأ يهتز في رعب. بطريقة ما تعاون "سكيوبولد" و"كازاخ" مع "فوفان" الكبير ليكونوا رعباً ثلاثياً: لطالما طارد "ماكسيم تي يرماكوف" شبح سكين ساطع كالمرآة، مكشراً من بين أشعة شمس الربيع المتسللة من النافذة مداعباً بشرته مشذباً شعره الواقف في رعب.

ماذا يمكنه أن يفعل؟ كان بإمكانه قطع المسافة جرياً من الرواق وحتى سيارته الـ"تويوتا" التي تركها بحكمته في شارع جانبي منعزل منذ قرابة خمس عشرة دقيقة. لم يكن من السهل عليه الجري وهو مرتدياً معطف المطر البلاستيكي المتغضن الذي يحميه من الخضراوات المتعفنة - الآن بعد حلول الربيع - فذلك المعطف خلق بداخله جواً بخارياً ساخناً. ربما سيأتي "فوفان" غداً مجدداً. هؤلاء الوشاة الحمقى يعرفون عملهم على أكمل وجه: لقد أحضروا الرجل الوحيد الذي بإمكانه حقاً تسميم حياة "ماكسيم تي يرماكوف"، أتوا به إلى هنا وأوقفوه في بقعة ظاهرة.

انتهى يوم العمل وابتهج الناس وهم يخرجون من المكاتب لتحية الطقس الجميل. بهذا المعطف السميك بدا "ماكسيم تي يرماكوف" كإعلان لمنتج من اللحوم المعلبة بينما كان يمشي بتناقل في الخلف آخر المتظاهرين. كان "فوفان" لا يزال واقفاً في المكان نفسه يدخل سيجارة حيث يثبتها بين أسنانه غير الاعتيادية التي بدت كالحجارة الصغيرة. وقفت امرأة عجوز ترفع الطرف الآخر من لافتتها عالياً. كان أنف المرأة معقوف وشعرها رمادي وبدت من الجانب كغراب أبيض عجوز، لكن اللافتة كانت منخفضة بصورة ملحوظة من ناحية "فوفان". تتهد "ماكسيم تي يرماكوف" بعمق واستعد للجري ولكنه تقاجأ حين شعر فجأة أن ساقيه خفيفتين ولا يمكن السيطرة عليهما، حيث حملتاه مباشرة إلى "فوفان". كان هذا مريعاً، مستحيلًا؛

قبل وصوله إلى عدوّ بنحو عشرة أمتار استنشق "ماكسيم تي ييرماكوف" القليل من ذلك العطر المألوف لهؤلاء الناس، مزعجًا كالديبور، ومع كل خطوة يخطوها تزداد الرائحة ثقلاً متدفقة إلى مخه المنتفخ كما لو كان عش الديبور بداخله.

تراجع المتظاهرون المرتبكون ومعظمهم كانوا نساء مسنات يرتدين أوشحة من الشاش الأسود؛ أصدرت اللافتة صوت طقطقة وهم يشدونها لتكشف المكتوب عليها: "لقد مات أبناؤنا بسببك يا "يرماكوف"! "بصق "فوفان" سيجارته وركّزت عيناه المنتفختان اللتان بهما حمرة كالدّم وزرقة مالحة على بقعة في مكان ما بالقرب من أنف "ماكسيم تي ييرماكوف".

قال "ماكسيم تي ييرماكوف" وهو تقريباً غير قادر على سماع صوته من بين أزيز الدبابير:

- حسناً يا "فوفان". مرحباً بك هنا.

جعل الخوف يده التي تحررت من معطف الأمطار وامتدت لعدوه كأنها مغطاة بقفاز من الصوف الشائك.

رَمَسَ "فوفان" بعينه ونظر بمفاجأة إلى يده الشبيهة بمخلب. أمسك باللافتة أسفل ذراعه ومدّ مخلبه كأنه ليس مقتنعاً كلياً بأنها موجودة. أصبحت المصافحة ملتوية ومؤلمة؛ لم يكن مخلب "فوفان" ضخماً مثلما يتذكره "ماكسيم تي ييرماكوف" بأصابعه القصيرة الصفراء، لكنه كان لا يزال محتفظاً بقوة هائلة وخشنة جعلت عظام "ماكسيم تي ييرماكوف" تتصهر معاً.

سأله "ماكسيم تي ييرماكوف" ببهجة مجبراً نفسه على الابتسام:

- كيف حالك يا "فوفان"؟

رداً على ذلك، ارتعش وجه "فوفان" المتعفن متجهماً باحتقار مما أوضح في الحال أن حياة "فوفان" الكبير أبعد ما تكون عن وصفها بأنها على ما يرام. قال "ماكسيم تي ييرماكوف" بابتسامة عريضة للغاية لدرجة أنه شعر وكأن شفثيه وصلتا إلى أذنيه:

- إنني مدين لك ببعض المال، أتذكر؟

أكد "فوفان" ما قاله بحذر:

- أجل.

كان صوته الخشن والغليظ لا يزال كما هو والذي كان يجعل "ماكسيم تي ييرماكوف" يتصبب عرقاً بارداً قبل عشر سنوات.

قال "ماكسيم تي ييرماكوف" بإحساس مؤكد أنه يشاهد نفسه في حلم غريب:

- لنذهب إلى منزلي، سأرد لك المال.

بدأت عينا "فوفان" الحمران كأحشاء السمك ترتعشان في مقلتيهما. قال بأزيز وهو يتلوى:

- وما سبب هذا الحظ المفاجئ؟

أجابته "ماكسيم تي يرماكوف" بصدق متذكراً أنه لا يزال محتفظاً ببعض الدولارات في المنزل - الجزء "الرمادي" من راتبه، الموجود في مغلف:

- يُصادف أن لديّ المال.

الآن، أصبح دور "فوفان" في الترنح محاولاً أن يخطو للسيار واليمين والأمام والخلف بحذاءه الرياضي المتهاك.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بحزم:

- هياً بنا.

قالها واتجه ناحية الصف غير المستوي من المتظاهرين قاصداً سيارته الـ "تويوتا".

بعد ترده مدة أطول قليلاً، لحق "فوفان" بـ "ماكسيم تي يرماكوف" كأنما كان يجذبه مغناطيس بالوعد بالمال، مما أجبر الغراب الأبيض ذا الأنف المعقوف على السير خلفهما وهو يصرخ باحتجاج إلى أن لحق به "فوفان" وترك عصا اللافتة تسقط ببساطة على الأرض. بينما كان يمر أمام شاحنة أمن الدولة المزينة هذه المرة بإعلان لوكالة سياحة متضمناً نخلتين وهميتين بدتا شبيهتين بمصاييح طولة خضراء، لاحظ "ماكسيم تي يرماكوف" بسعادة خبيثة التجهم المرتسم على وجوه المتنبئين الاجتماعيين الواقفين في الخدمة. طرأت الأفكار عبر عيونهم الوامضة كالرموز المرسومة على اللوائف الدائرية لآلات القمار حتى توقفت اللوائف عن الدوران وثبتت على الفكرة نفسها: "ماذا لو تمكنوا من قتله، بإمكانهم فعل ذلك". تهلل "ماكسيم تي يرماكوف" داخلياً قائلاً:

- لكن ليس بإمكانكم فعلها!

ثم وجّه إشارة بذينة للغاية إلى المتنبئين الاجتماعيين.

كان واضحاً من البداية أنه لن يحدث سوى المشكلات بينه وبين "فوفان" الذي سار دون يقين مترنحاً وكل خطوة يخطوها تهدد بعركته وسقوطه. في البداية ظنّ "ماكسيم تي يرماكوف" أن "فوفان" لم يرغب في الذهاب للحصول على نفوده، لكنه خمن فيما بعد أن هذه هي طريقته في المشي لا أكثر: مثل الطريقة التي يحرك بها الناس دولاباً ثقيلًا حيث يحركون جانباً ثم يحركون الجانب الآخر وهكذا. عندما جلس "فوفان" على كرسي السيارة الـ "تويوتا" المريح صغر حجمه وبدا منكمشاً؛ كان واضحاً أنه لم يركب سيارات فاخرة كهذه من قبل مطلقاً. بعد إسقاطه لعلبة سجائر من التابلوه إلى الأرضية، حاول "فوفان" الإمساك بالعلبة وإعادتها لمكانها وقد تلوى وتغير لون وجهه إلى الأزرق في صراع غير متكافئ بينه وبين حزام الأمان الذي يقيده. كانت ساقاه الضخمتان الخرقاوان تبدوان مثل الأفخاخ الخاصة بالدبابات. قاد "ماكسيم تي يرماكوف" السيارة الـ "تويوتا" وهو يسأل نفسه: "لماذا أفعل كل ذلك؟".

كانت السيارة تصدر طنينًا؛ شعر "ماكسيم تي يرماكوف" وكأنه يقود قنبلة موقوتة تم إخراجها من بين صفوف المتظاهرين وسُرقت بنجاح تحت أنف المتتبعين الاجتماعيين وأصبحت الآن ملكًا له مؤقتًا.

على السلم، حاول الضباط الذين أبلغهم زملاؤهم عن سلوك الهدف أن يحرقوا "ماكسيم تي يرماكوف" بنظراتهم الذابلة، لكن الهدف دفع "فوفان" بخفة داخل شقته الخائفة. خلع "فوفان" حذاءه المتهاك وهو ينظر في الأرجاء؛ كانت جواربه ذات درجات مختلفة من الصوف الرمادي الرخيص ويبرز "كالو" سمين من خلال فتحة في أحدهما كالعين الحمراء. انكمش "فوفان" في ركن المطبخ في الحال. أنزل رأسه إلى مستوى كتفيه، وبدت أذناه كخضراوات أُخرجت من حساء ساخن.

اقتراح "ماكسيم تي يرماكوف" بود ممسكًا بالغلاية:

- قهوة؟

- النقود.

- كما تحب.

في الغرفة، أخرج "ماكسيم تي يرماكوف" رزمة الدولارات من أسفل كومة ملابس - لقد أعطوه مؤخرًا النقود المتهاكة التي لا يريدونها أحد في مكتب العملات في موسكو. عدّ خمسًا وعشرين ورقة شبيهة ممزقة من فئة المائة دولار. ثم وكأنما لكزه أدهم في كتفه، أضاف خمس ورقات أخرى.

قال بفخر عندما عاد إلى المطبخ:

- هاك، تفضل، بالإضافة إلى بعض الفوائد أيضًا.

أمسك "فوفان" بمكسبه المفاجئ غير المتوقع بكلتا يديه اللتين كانتا ترتعشان على نحو ملحوظ. استغرق وقتًا طويلًا حتى هدأ، ثم فَرَكَ كل ورقة نقدية بأصابعه كأنه يأمل في أن يقسم الاحتكاك ورقة المئة دولار إلى اثنتين. في النهاية، وضع الدولارات في جيب معطفه الطويل الداخلي وأقل عليهم بزرًا صغيرًا.

قال بصوت مبتهج كرية وهو يضع ساقيه الطويلتين القذرتين أسفل طاولة "ناتاشا" ذات اللون الأبيض الثلجي:

- حسنًا، الآن يمكنني تناول شراب إن كنت ستقدمه لي بالطبع. احتفظ بالقهوة، ما أُرغب فيه..

عند هذه النقطة رفع "فوفان" عينيه إلى السقف، كأنه يتوقع أن تأتي إليه زجاجة "فودكا" من السماء متدلّية بشرائط حريرية.

اتجه "ماكسيم تي يرماكوف" إلى البار وهو يحك رأسه. استغرق دقيقة محاولًا الاختيار بين "الويسكي" و"الفودكا" و"الكونياك". مدفوعًا بحدسه، جمع الزجاجات معًا بين ذراعيه وأمسكها كأنه يمسك حطب المدفأة. لماذا يحتفظ بهم في حين أن كل هذه المشروبات الكحولية الراقية كانت غير مهمة بالنسبة إلى "ماكسيم تي

يرماكوف"؟ لقد احتفظ بها في الأساس من أجل الفتيات، لكن لم تكن الفتيات أهم شيء بالنسبة إليه الآن. عند رؤية "فوفان" لتلك الخمر الباهظة تلاً لأوجهه.

قرر "ماكسيم تي يرماكوف" أن يقدم له كل شيء، فقطع قطعة كبيرة من اللحم البارد وفتح علب شرائح لحم وأسماك مستهلكا الجزء الأكبر من المؤن التي أحضرتها له العاهرات المجتهديات.

شرب "فوفان" الخمر كمحترف مُحترماً الكوب الصغير؛ ملأه حتى حافته، ثم انحنى فوقه وهو يرفع الكوب لفته نصف المفتوح وقذف محتوياته فجأة في حلقه؛ كان للحركة نوع من الانسياب السلس تذكر بضربات المجاديف وسط دوامة عنيفة. من باب الأدب، لم يأخذ "فوفان" كوب "ماكسيم تي يرماكوف" الذي لم ينهه مطلقاً، كما أنه لم يأخذ الزجاجاة لكي يعيد ملء كأسه.

أجل، لقد أصبحت الحياة سيئة. قضى حكماً بالسجن لمدة عامين، عامين بالتمام والكمال. لم يكن بإمكان أي أحد لم يخط على أرض "المنطقة" معرفة معنى ذلك. ماتت أمه عندما كان في السجن. ظلت لأسبوع تعاني التهاب الزائدة الدودية خائفة من أن يطلبوا منها نقوداً أكثر من اللازم في المستشفى. كانت تخاف من أن تدفع مقابل أي شيء في أي مكان، فقد ظنت أنهم سيجعلونها تدفع مليوناً مقابل طبق مكرونة في المطعم. صحيح أنها أمه، لكنها حمقاء. ثم حين أخذوها في سيارة الإسعاف، اكتشفت أنهم استأصلوا الزائدة الدودية مجاناً، وقد قضى هو مدة سجنه دون أي طعام مُرسَل إليه من الخارج، لم يأكل سوى حساء الخضراوات. حينما خرج من السجن، عمل في عدة أماكن مختلفة. لم يكن بإمكانه الذهاب إلى الكلية بعد السجن. اكتفى بالمحاضرات المسائية، بين هذا وذاك. كان يذهب لأي مكان به مساعدات جيدة. طرد من عمله الأخير لقوله الحقيقة. لا يريد أحد أن يواجه الحقيقة. قال "فوفان كوليكنيكوف" لرئيس العمال:

- "فاليري بافلينتش"، أنت وغد.

بالطبع كان وغداً، الجميع يعرف ذلك. على أي حال، طردوه من العمل فوراً، وكتبوا سبب الطرد أنه اخترق قواعد السلامة، ولم يمنحوه أجر ثلاثة أشهر متحججين بأن المكتب لم يكن يحتوي على أي نقود. أخبروه أن بإمكانه الحصول على أي نوع من المعدات المستهلكة كي يبدأ عمله الخاص. لكن ماذا كان نوع تلك المعدات؟ كانت معدات انتحارية خالصة، فلتنس كل شيء حول قواعد السلامة. قالوا له:

- خذها، نحن لا نمانع على الإطلاق!

تعاملوا معه على أنه أحمق.

عندما تسأل عن حياة أحدهم فعليك أن تستمع إليه. ما إن شعر بالراحة، تحدث "فوفان" باستقاضة بالبلاهة البديهية لشخص من طبقة العمال الذين يرون كل شيء. كان ينظر بين الحين والآخر على صدره إلى مكان النقود كما لو أنه مُنح ميدالية جديدة لامعة. اختفى شعور "ماكسيم تي يرماكوف" بالرعب وهو يراقب ضيفه

القادم من الماضي بدلاً من الاستماع إليه. اختفى ذلك الشعور مثل لاصق يتم انتزاعه بالتدريج من فوق قلبه مع كل دقيقة تمر.

في بداية الربيع الدافئ، اكتسب "فوفان" اسمراً فظ، كان واضحاً أنه ليس اسمراً طبيعياً، بل طبقة من الأوساخ التي لطخت جلده. كانت رقبتة مليئة بثنيات بيضاء تبدو كشرائح لحم الخنزير المقدد المقلية. لم تعد الوشوم على قبضتي "فوفان" واضحة.. كانت تجعل قبضتيه مرعبتين. ارتدى في بنصره الأيمن خاتم زواج انغرس في اللحم متسبباً في ظهور لون أصفر كئيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل كان "فوفان" متزوجاً؟ كان لا يزال متزوجاً بصورة ما. عملت "ناديا" ميكانيكية في مصنع، أو ربما لم تعد تعمل هناك. جاء "فوفان" إلى المنزل ثملاً بعض الشيء ذات مرة، سقطت "ناديا" وهي تحاول أن تطرده فنهض هو ورحل. لطالما كان "فوفان" صادقاً في كل شيء في حياته متضمناً العلاقات العائلية. هكذا كان "فوفان" دائماً؛ لا تعبت معه. كانت "ناديا" امرأة طيبة: عندما طرد رئيس العمال الأحمق "فوفان" من العمل، جاءت لتأخذه إلى المنزل. غسلت كل شيء وأعدت بعض الكفتة. بعد ذلك، ظهر أعداء "ماكسيم" أنفسهم له؛ الرجال الرماديون الذين أتوا في الشاحنة. عرضوا عليه عملاً في موسكو، كل ما كان عليه فعله هو أن يقف في مظاهرة ما، مقابل خمسمائة "روبل" في اليوم. صرخت فيه "ناديا" قائلة:

- لا تذهب، إنني خائفة.

لكن ليس هناك فائدة من الاستماع للنساء. من أين ستأتيه فرصة كهذه مرة أخرى؟ بالإضافة إلى أن السفر إلى موسكو كان مثيراً بالنسبة إليه حيث يذكره بأيام شبابه. انظر الآن كيف أصبحت الأمور جيدة: لقد قابل صديقه القديم الذي سدد له دينه. ربما على "فوفان" بدء عمله الخاص. يشتري منزلاً صغيراً على البحر، ويقدم الطعام للسياح، والغوص من أجل الزوار، عشر دقائق في عمق ثلاثة أمتار. مجاناً لكل أصدقائه القدامى!

قاطعه "ماكسيم تي يريماكوف" منتبهاً من ذهوله:

- توقف، توقف! ماذا كنت تعمل لدى رئيس العمال الأحمق ذلك؟

سأله "فوفان" في مفاجأة:

- هل أنت أصم أم ماذا؟ لقد أخبرتك بروسية واضحة: غواصاً في مركز للغطس في "سامارا".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذاً هكذا كان الأمر! هذه هي حقيقة الأمر بأكملها. انتقلت فجأة خطة "ماكسيم تي يريماكوف" لـ "إطلاق النار على نفسه" والبقاء على قيد الحياة من حيز السراب إلى الواقع. ماذا كانت متطلبات المحاكاة عالية الجودة كي تختفي الجثة في الحال بعد إطلاق النار؟ إلى أين؟ تحت المياه. طلقة في الرأس على جسر في الليل، أن يسير

في أثناء نومه فتمسك يده المسترخية بالمسدس وتطلق النار على رأسه، انفجار صغير وسط تموجات سوداء ومحيطات مشوشة وظلمة حالكة وضعف، وقائل محترف يعطي "ماكسيم تي يرماكوف" خرطومًا يتنفس من خلاله وهو يجرُّ لأبعد قدر ممكن، إلى ضفة نهر مهجور.

بعد ذلك، سيحاول المتنبئون الاجتماعيون البحث عنه دون جدوى، لن يعثروا عليه أبدًا. دعهم يلقون بشباكهم في القاع باحثين عن رجل غريق. بالطبع لا يزال هناك الكثير من المشكلات، وريث صادق، ومستندات مزورة. لكن يمكن فعل كل شيء مقابل النقود. يمكنه أيضًا إجراء عملية تجميلية لوجهه، حتى أمه لن تتمكن من التعرف عليه. لكن ليس لأمه أي علاقة بكل ذلك. بعد ذلك يمكنه إرسال مائتي ألف دولار لأبويه كي يعيشا في شارع جيد، على الرغم من أنهما سيظلان محتفظين بحياة الفقراء حتى ولو كان بحوزتهما مليون أو اثنان، لم يكن هناك علاج لهذا الأمر.

تحدث الرجلان ورأسهما قريبان من بعضهما. غطت على صوتيهما الموسيقى الحماسية المنبعثة من الراديو المرتفعة لأعلى مستوى ممكن لتصل إلى أذان المتنبئين الاجتماعيين المنهكة. أصبح "فوفان" متحمسًا للغاية ومزهوًا بنفسه كالطاووس عندما اكتشف أنه سيحصل على عشرة آلاف دولار زيادة على الثلاثة الذين حصل عليها الآن. بدأت الثنيات الحمراء والبنية والبيضاء أسفل ذقنه بالتحرك في توتر. بدا أن "فوفان" يعتبر أي نقود يحصل عليها بمثابة جائزة، وليس تعويضًا عن عمله؛ بل هي وسام، أو على الأقل ميدالية. حوّل عرض "ماكسيم تي يرماكوف" "فوفان" إلى بطل روسي محتمل. بناءً على ذلك، بدأ الغواص المتقاعد الذي تقوح من أنفاسه رائحة الثوم البغيضة بشرح صعوبات المغامرة. كانت المعدات هي أول شيء. بذلة غوص جافة، وجهاز تحكم في الطفو، وملابس داخلية حرارية خاصة، وقناع، وأشياء أخرى، اثنان من كل شيء، كل واحد سيكلف مائتي ألف "روبل". كان نهر "موسكوف" هو ثاني هذه الصعوبات. تم تنظيم معدل تدفق مياه النهر بنظام خاص من الصمامات المتحركة في منسوب المياه لذلك فالتيار ضعيف وبطيء للغاية. هناك أيضًا نحو ثلاثة أمتار من الطمي في القاع، بالإضافة إلى مراكب وسيارات وثلاجات غارقة. هناك أيضًا جنث! أما ثالث الصعوبات فكانت عدم قدرة "ماكسيم تي يرماكوف" على الغوص.

ألقى "فوفان" الدرس على "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يحني صدره فوق طبق اللحم البارد:

- كيف ستقفز؟ هل تقفز ببطنك إلى المياه؟ هل شاهدت بهلوانًا من قبل؟ سوف تؤذي نفسك بشدة، ولن تتمكن من حملك أسفل المياه، لن تتمكن من التنفس على الإطلاق. كيف صحتك؟ كانت صحتي جيدة بما يكفي لفعل ذلك وما زالت، لكن ماذا عن صحتك؟ هل تعرف ما إصابة تغيّر الضغط؟ سوف تتمزق أوعيتك الدموية تمامًا وينتهي بك الحال ملقى على سرير في مستشفى كتمثال "أبولو" رخامي جميل مغطى بالعروق. كما أن عليك معرفة كيفية التعامل مع المعدات، لكنك ستكون

معدوم الحيلة تمامًا، لن تتمكن حتى من إشعال مصباح تحت المياه. كيف سأتمكن من سحبك؟ وماذا إن تمكنت من انتشالك حيًا ثم تموت عند إخراجك؟

كان كل أسئلته في محلها. في الواقع بدا المشروع مرعبًا وغير مريح على الإطلاق. سيتحتم عليه القفز من ارتفاع إلى مياه النهر المظلمة ويتخبط وسط بيئة الصرف الصحي تلك، ثم يخرج مبللًا بالكامل إلى ضفة نهر مستنقعية، ثم يظل مختبئًا في مكان ما لسنة أشهر في انتظار النقود، بعد ذلك يهرب من البلاد، وبالطبع ليس عبر مطار "شيريميتيفو" الدولي أيضًا. دون إغفال حقيقة أن "فوفان" الكبير الذي أخاف "ماكسيم تي يرماكوف" كثيرًا سيظل موجودًا بالجوار مدة طويلة.

لكن لم يكن هناك فرصة على الإطلاق لتجنب كل ذلك. إن فكرة اضطراره إلى العيش في شقة مراقبة والتجول بسيارته في الشوارع متبوعًا بشاحنات المتتبعين الاجتماعيين المنتكرة كافية لجعل "ماكسيم تي يرماكوف" راغبًا في إطلاق الرصاص على نفسه بالفعل. أجل، أجل، إن هذا هو ما كانوا يعتمدون عليه. كان عليه التأكد من أن "فوفان" مهتم بالفعل، خصوصًا لأنه سيفيده كثيرًا بعد أن يقفز؛ سيستخدمه لتأجير شقة صغيرة في مكان هادئ خارج موسكو وخدمته، أو يمكنه توريث مدمن الخمر "شوتوف" في الأمر.

اقترح "ماكسيم تي يرماكوف" بهمة عالية:

- بالمناسبة، بعد انتهاء الأمر يمكنك الاحتفاظ بالمعدات، المجموعتين.

أراد تأمين نفسه من شراء أي معدات قديمة وحفيرة تم تجميع أجزائها مجددًا وعرضها للبيع. قال "فوفان" بتجهم كاشفًا عن أسنان رمادية متشققة ولثة زرقاء:

- هذا رائع! هذا ما أحب سماعه. حسنًا، دعنا نقوم بالأمر. عليك أن تخدم أصدقاءك. أعطني نقود المعدات، سأحضرها وأعمل معك لبعض الوقت، سأعثر على منطقة مائية، حتى لو كانت بركة في قرية بها براز. سيكون لديك برنامج تدريب خاص، ثم سنجعلك تقفز أسرع مما تتخيل.

استلم "فوفان" النقود في الليلة التالية، كاملة ومن عملات ورقية جديدة من فئة الخمسة آلاف "روبل": مشى بتناقل في الطريق المألوف إلى السيارة الـ"تويوتا" الواقفة، وهو لا يزال دافئًا من نشاطه في المظاهرة، حيث تمكن بالصدفة من إصابة كتف "ماكسيم تي يرماكوف" ببيضة فاسدة. بينما كان يعدُّ النقود ويضعها في جيبه، احتفظ بمخزونه من الصواريخ في حقيبة بلاستيكية على ركبتيه.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" مشيرًا برأسه إلى الحقيبة القذرة الملطخ قاعها بالمخاط:

- هل يعطونكم هذا أم أنكم تحضرونها بأنفسكم؟

أجاب "فوفان" الكبير بصراحة وهو يعبث بورقات الخمسة آلاف:

- إنهم ملك لي، لقد فسدوا، فقلت لم أظل محتفظًا بها! لكنهم يحضرون أغراضًا كل صباح، صناديق كاملة من الطماطم، وأحيانًا يحضرون كمثرى وكويو وموز، لم

أر كل ذلك، لكن الناس هم من يقولون هذا. أحياناً يكون بداخل صندوق كامل حبتي طماطم فاسدتين أو ثلاث فقط.

وتابع:

- يتسارع الناس على اختطافها ويأخذونها إلى منازلهم في حقائبهم. بالطبع هناك من لا يأخذون أي شيء؛ مَنْ لديهم شخص ما قد مات بالفعل.. حسناً، إن هذا شأنهم. يبقى هذا الأمر النساء سعيدات على كل حال. إنهن يعلننها ويستخدمنها لأغراض مختلفة. سأتصل بزوجتي "ناديا" لتأتي، يمكنها إحضار بعض العلب أيضاً.

لم يبدُ "فوفان" مهتماً بأي حال بما يحدث من حوله ولا بالأسباب التي تحتم عليه إلقاء الخضراوات الفاسدة على "ماكسيم تي يرماكوف". كانت لديه فكرة مبهمة حول الانتخابات الجارية، وعن فيلم ما جاري تصويره. لم يكن الأمر من شأنه. ما إن حصل على الأربعمائة ألف ذهب لشراء المعدات. أعطاه "ماكسيم تي يرماكوف" مع النقود تليفونه القديم بخط جديد وأعطاه تعليمات بالاتصال فقط من أجل العمل، حتى لا ينتشر الرقم بلا داعي. لكن "فوفان" اتصل به كل يوم تقريباً: طلب منه نصائح، تباهى، أرسل صوراً مشوشة لشيء ما أو لآخر يشبه سمكة استوائية ضخمة.

في البداية، بعد إلقائه النظر في مواقع بيع مختلفة، أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أن "فوفان" يبالغ في أسعار المعدات، لكنه أدرك أمراً غريباً أيضاً، وهو أن الغواص المتقاعد أحب مهنته بالفعل وكان يحاول بذل قصارى جهده بشوق واضح.

سأل "فوفان" بعد أسبوعين وهما جالسين في مطبخ "ماكسيم تي يرماكوف" المزجج حيث جعل البقعة الدافئة في الركن ملكاً له:

- من فوق أي كوبري ستقفز؟ تقريباً هناك على الأقل عشرون كوبري هنا.

أراد "ماكسيم تي يرماكوف" القفز من أعلى كوبري "كريمسكي"، لأن المياه أسفل ذلك الكوبري هادئة ومُرحة، دون شك لأنه جسر مُعلق. بدا النهر أسفل كوبري "كريمسكي" كأنه امتداد مشدود، كبطانية الأمان التي يستخدمها رجال المطافئ مثلاً كي يقفز الناس فوقها من النوافذ دون إيذاء أنفسهم. لا شك أن هذه الصفة الاستفزازية أوضحت سبب أن "كريمسكي" هو أكثر كوبري في موسكو مرتبط بحوادث الانتحار.

لم يكن الكوبري الحجري الضخم سيئاً أيضاً، بمنظره المطل على "الكرملين" الجدير بالبطاقات البريدية وشكل كاتدرائية "المسيح المنقذ" الشبيهة ببراد الشاي المزين؛ فسوره الحديدي الإمبراطوري ذو الأعلام يبدو مشجعاً على تسلقه.

أجاب "فوفان" الكبير بغضب شديد لاختياره قائلاً:

- ينبغي عليك أن تكون ذكياً، لكنك أحق للغاية. هل تنوي الخروج من النهر إلى ضفته تحت سمع وبصر الناس في المدينة؟ أم أنك تظن أن بإمكانني الزحف لمسافة عشرين كيلو متراً في القاع مع رجل بضخامتك؟ علينا كذلك أن نرى كيف يبدو

القاع، وإلا فستقفز مباشرة على صخرة بارزة، وتصبح كفراشة محنطة. لا أريد أن يحدث شيء كهذا. عليّ الاهتمام بهذا الأمر بنفسى، وأرى ماذا سأجد.

بدأ "فوفان" بفعل ذلك بالضبط ما إن أنفق كل النقود التي أخذها من أجل المعدات. اعتاد على الظهور في شقة "ماكسيم تي ييرماكوف" عند منتصف الليل ليمتع مستثمره بتقاريره من تحت الماء ويخدم نفسه بنفسه فيما يخص محتويات الثلجة والبار. كان يصل ضخماً ورطباً تاركاً آثار أقدام على أرضية الممر، أصدرت أصابع قدمه الخشنة صريراً بداخل جواربه المتهالكة كما أصدرت معدته ضجيجاً وهو متجهاً إلى المطبخ كما لو كان بداخله حوض أسماك به جهاز تنقية الهواء يعمل بقوة.

التهم وشرب كل شيء باستثناء القهوة لأنه يكرهها. بدأ المطبخ الصغير الذي امتلأ بصوت التشويش الصادر من الراديو، وكأنه نهر منعزل تحت الثلج في أدنى "ماكسيم تي ييرماكوف" المسدودتين؛ كان الجيران في الطابق الأعلى يطرقون على السقف كأنهم صيادون يحاولون اختراق الثلج ليصنعوا فجوة ويصطادوا منها السمك. كان من الصعب عليه التحدث دون رفع صوته لدرجة الصراخ، اضطر إلى الانزلاق أسفل طبقات الضوضاء ليسمح لصوته بالاختباء تحت سطح الطاولة التي سقطت من عليها شوكة وسكين على الأرض دون إصدار صوت على الإطلاق. تعامل "فوفان" الكبير مع الأمر بصورة أفضل، لا شك أنها مهارة اكتسبها في السجن، بعيداً عن مهاراته تحت الماء.

بناءً على ما قاله "فوفان" الكبير، والذي فهم منه "ماكسيم تي ييرماكوف" عن طريق قراءة شفتيه، فإن قاعي نهر "موسكو" ونهر "ياوزا" كالـ"جيلي". تمتد الرؤية القصوى لعمق متر ونصف تقريباً. ضباب قاتم، أغراض طافية، أغصان شجر غارقة. مراكب مهشمة، بيضاء ومتهالكة كدلو مسحوق غسيل. كاد يعلق به ذات مرة. لم ينظف أحد المكان من قبل، وكان ذلك طريق العاصمة المائي الرئيسي، شيء لعين! كان من الصعب رؤية الشمس من القاع، ترتعش بإنهاك فوق الأمواج، كسمكة صغيرة في شبكة. كان العمق أربعة أمتار فقط، يالها من مزحة!

قال "فوفان" محدقاً في عيني "ماكسيم تي ييرماكوف"، كأنما يدعو لينظر من خلال عينيه المملتين الزجاجيتين الزرقاوين وصولاً إلى روحه مباشرة:

- من المستحيل الغوص في وسط "موسكو". هناك دوريات تمر هناك! أسماك القرش! انسَ أمر كوبري "كريمسكي".

بناءً على كلام "فوفان" الكبير فقد رأى كثيراً أنفاقاً جانبية مغلقة بقضبان حديدية حولها مجموعة من غواصين حربيين يحومون بجانبها. من المرجح أن تلك الأنفاق تقود إلى مكان ما في "الكرملين" أو إلى غرفة محصنة سرية حكومية. نمت الطحالب على القضبان وكانت تهتز كما لو كانت حية، كديدان بداخل وعاء، والظلام خلفها كان مرعباً. "من الأفضل ألا تقترب من هناك!".

كاد أن يُلقى بالقبض على "فوفان" تحت الماء بمفرده، لكن ماذا لو كان يجرُّ أحدهم معه حينها، ما الذي قد يحدث له؟ ظهر هذان الغواصان فجأة من العدم، أخذ هذان الشخصان "فوفان" من ذراعيه، اللذين حسبما يتذكر كان لديهما رؤوس تشبه رأس المسؤول المدني الذي أتى ليستأجر "فوفان" للاشتراك في المظاهرة: كالبالونات الطويلة لكن غير منتفخة بشدة. كان "فوفان" محظوظًا لتمكنه من الخروج، فقد كان زلقًا كسمكة الأنقليس.

كدليل على حسن حظه، أخرج "فوفان" لـ "ماكسيم تي يرماكوف" بعض النقود. لقد عثر على حقيبة يد نسائية وثلاث حافظات رجالية في القاع. كانت الحقيبة النسائية التي بالت بسبب النهر بها القليل من الفكة، لم يتمكن من معرفة الفترة الزمنية التي كانت فيها، فقد كانت مغطاة بالوحل. لكن كانت الحافظات الرجالية جديدة وممتلئة بالنقود أيضًا. جفف "فوفان" الكبير النقود بحرص. من المرجح أن يتمكن من تبديلها بعملات جديدة من البنك، حيث إن البنك كان مُجبِرًا على قبول أي أوراق نقدية.

كانت غنيمة "فوفان" مصنوعة من الجلد ومشوهة وباهتة: كان الدليل الوحيد على أن هذه الأوراق المبللة هي حقًا نقودًا هو شكلها المميز، والذي ظهر من خلال الرسومات المميزة عليها. يمكن تمييز جانب وجه "لينين" المتجهم في بعض الأماكن، أو فم ملكة إنجلترا الرفيع، كان ذلك يعني أنها جنبيات إسترليني! لم يتخل "فوفان" الكبير عن الأمل. كان لديه حقيبة ظهر ممتلئة بنقود كهذه من غنائمه من نهر "فولجا". لو كان سينشئ عمله الخاص فستقديه تلك النقود. وجد "فوفان" أيضًا في نهر "موسكو" سكينًا صديًا من دون مقبض بدا كسمكة مقلية، وسلسلة ذهبية ثقيلة مهشمة انجرفت مع التيار وتشابكت في كومة قمامة ضخمة.

بالمناسبة، لم يرغب "فوفان" على الإطلاق في التخلي عن دخله الهزيل من المظاهرة. لقد وقف بضمير خلال ورديته (اثنتا عشرة ساعة في اليوم)، وتناول الطعام الساخن الذي كانوا يحضرونه في البراميل بتلذذ، وتعرّف على شخصيات معينة مشبوهة، وأصبح أحد أفضل رماة الخضراوات الفاسدة، لم يتخطه سوى "التتار" الذين ظلوا دون منازع في القوة والتلذذ اللتين كانوا يصيبون بهما الهدف وجودة اللطخات التي كانوا يتسببون فيها. بعد إلقاء حبة طماطم على معطف الأمطار البلاستيكي كان يلوح له بيده كأنما يقول له: "مرحبًا. إن الأمر ليس شخصيًا".

أحيانًا ما تظهر امرأة ما تظل تحوم حول "فوفان" وعيناها تنتظران جهة الشمس. من المرجح أنها "ناديا" التي ذكرها وبالحكم من خلال الحقائق الكبيرة الملقاة عند قدميها، فقد كان تغليب الطماطم يسير جيدًا.

كان هناك شيء سيئ يحدث لـ "ماكسيم تي يرماكوف". كان يشعر بمصدر حيوي مهم بداخله يُستنزف تدريجيًا. كل شيء بداخل الإنسان له حدوده العملية: القلب أطول، والكبد أقصر. كيف يمكننا تعريف المادة، واستنفاد تلك المادة الذي تعرض له "ماكسيم تي يرماكوف" كنقص في ضغطه الداخلي الجوهري، مُذبيًا ضغط البيئة

الخارجية بشكل محسوس وأكثر تهديدًا؟ أي شيء هو هذا؟ أهي شجاعة، أم قدرة على الاحتمال؟ على الأغلب، هو موقفه غير المهم تجاه كل الأشياء.

كان تآكل موقفه يخلق فراغًا في روحه. أراد "ماكسيم تي ييرماكوف" أن يكون وحيدًا، دون أي ضباط متنبئين اجتماعيين ذوي وجوه باهتة، دون أي كاميرات تغزو شقته، دون أي شبيهه كرتوني له في لعبة "رأس فارغ"، التي امتص مرحها الصاخب قوته بطريقة غامضة تشبه طريقة مصاصي الدماء، والذي تسبب نفثه للنيران في إصابته بحرقه المعدة. اشتاق إلى أن يكون وحيدًا في مساحة شاسعة مفتوحة، لكن جعلته هذه الرغبة أكثر إدراكًا بوحدته الحقيقية التي لم يفكر فيها من قبل. ليس هناك صديق حقيقي واحد، حتى "مارينكا" اختفت دون أثر، لم تظهر ولم تتصل به. و"ناتاشا"، عندما أتت من أجل الإيجار لم تجلس لفترة طويلة، ولم تفرك إصبعها على الأثاث، اكتفت فقط بخفض رأسها الصغير لمستوى كتفيها وتراجعت إلى السلم أسرع ما أمكنها. لم يبد أنها لاحظت اختفاء لوح الرخام القيم ولم تنطق بكلمة عن طرده، من الواضح أنهم تحدثوا معها وشرحوا لها ما يجري.

كان هذا هو ما وصل إليه "ماكسيم تي ييرماكوف": كان سيقبل بالجلوس والتحدث مع "ناتاشا"، وتناول الخمر مع مدمن الكحول "شوتوف". يمكنه الشعور بأن مراقبته ليلاً ونهارًا داخل جدران شقته تجعله متعطفًا وهو ما يعطيه شيئًا ما من الاحتشام، سلوكيات أنثوية؛ لو ظهرت امرأة فجأة في سريره، فستجعله كاميرات المراقبة يبدو عاجزًا جنسيًا. يا ليت هناك أحد آخر مكان "فوفان"! كان "ماكسيم تي ييرماكوف" يشعر بأنفاس الغواص المتقاعد الرطبة على وجهه طوال الوقت؛ إن اقتراب وجه "فوفان" للأمام من وجهه ليتحدثا في سرية كان أشبه بوضع وسادة على وجه "ماكسيم تي ييرماكوف" لخنقه بها. كان مخطئًا حين ظن أن المتنبئين الاجتماعيين لا يملكون الوقت. لقد كان "ماكسيم تي ييرماكوف" هو من لا يملك الوقت.

ليس لديه وقت، لكنه يحاول قتله. مع تزايد ساعات النهار غير الضرورية، أصبح اليوم أطول من اللازم بالنسبة إلى "ماكسيم تي ييرماكوف". ظل يتململ طوال اليوم، كحبة فاصولياء في وعاء زجاجي. كان يذهب للتمشية يوميًا بعد العمل. في السابق فكّر في نهر "موسكو" ببساطة كشريط غير مرئي من المياه الرمادية التي تتلألأ على يمينه أو يساره وهو يقود سيارته بمحاذاته، حيث فصله مؤقتًا عن المشهد الحضري المتطور. كانت تفوح من نهر "موسكو" رائحة امرأة عجوز؛ لطالما كان الصوت الذي ينتج عن ارتطام موجاته بالجسور وكأن الأمواج تطالب الجدار الحجري العمودي بأن يعانقها. بدت المياه ثقيلة، وهو ما يمكن تفسيره ببساطة بسبب التلوث الذي تعرضت له طوال كل تلك السنوات التي مرت منذ آخر مرة تم تنظيف القاع فيها. كان ربع نهر "موسكو" فقط مكونًا من مياه طبيعية بيئية، أما باقي مكوناته فشقت طريقها وصولًا إليه عن طريق فروعه اللانهائية الممتدة في المدينة، حيث تمتص في طريقها المواد الكيميائية الحيوية للعاصمة والخمسة عشر مليون نسمة القاطنين بها.

كانت أنسجة المدينة الضخمة هي ما انساب عبر تلك الضفاف المنحنية؛ كانت تلك المادة الصفراء الحيوية مشبعة بالمعلومات، وقد كان النهر غير القادر على حمل انعكاس "الكرملين" على سطحه صدناً كمركب حربي غمرته المياه حتى منتصفه، سُحِبَت ملفاته الباهتة إلى نهر "أوكا"، و"فولجا" وصولاً إلى النهاية المسدودة لبحر "قزوين".

بعيداً عن الطقس، تمتلك الانعكاسات على سطح نهر "موسكو" قوة ملحوظة: حين تدمرهم الأمواج والرياح، يعيدون تشكيل أنفسهم مرة أخرى في الحال، تتجمع عناصرهم الأفقية مجدداً كما لو كانوا ملتصقين بقاعدة ثابتة مُشكّلة بعناية أخفتها المياه المتلألئة عن العيون.

كان نهر "موسكوف" شبيهاً بعض الشيء بمقابر "موسكو" الغامضة التي تتلوى بداخل تلال المدينة كمخلوقات حية، تتحرك وتغير من هياكلها، تتشابك مع بعضها ببعض وتموت، تاركة خلفها قشورها المتعفنة، وهو ما تسبب في انهيار بعض المباني الشهيرة وميل بعض أبراج الأجراس القديمة تماماً مثل برج "بيزا".

يحمل مترو أنفاق "موسكو" السمات نفسها. نظام من القصور المبهجة على نحو غريب لا تحتوي على أي واجهات أو أسطح، من دون أي مظهر خارجي أو جوهر حقيقي. مترو أنفاق "موسكو" الذي ينقل سبعة أو ثمانية مليون راكب يومياً، قاوم بعناد استيعابه بالحواس البشرية: لا بدّ أن يكون هناك سبب ما لدى الناس؛ أنوفهم في الكتب وظهورهم في ظهور بعضهم بينما ينطلق القطار ويطيّر عبر النفق الزلق الزيتي الأسود ويعبر محطة تبدو كهيكّل عظمي متحجر: خزائن مضلعة، وأعمدة مغطاة بقشور خارجية، وكابلات طيفية تحمل مصابيح متفرقة تمر بسرعة وتختفي. ماذا كان ذلك؟ ليس هناك طريقة لمعرفة ذلك.

في مترو الأنفاق، كان عقل "ماكسيم تي يرماكوف"، مقيداً من أعلى بطبقات لا يمكن اختراقها من الحجارة والتراب، يشبه بالون ارتفع حتى ارتطم بالسقف. بالإضافة إلى تيارات الهواء التي يضخها نظام التهوية، شعر عقله أيضاً بتيار هوائي خفيف ينساب عبر الجدران. كان مترو الأنفاق كالفقار يتم ارتدائه باستمرار في يد معنوية بها الكثير من الأصابع. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بهذه الحركة في المترو، ليس فقط بواسطة رأسه العائمة، بل بواسطة عموده الفقري أيضاً. تمكن من ملاحظة المصابيح القاتمة في العديد من المحطات، مُتدلّية من السرايب العليا فوق السكك الحديدية الفارغة، تتأرجح باضطراب وعشوائية دون أي سبب مرئي، كدلاء مياه من نهر "موسكوف" يحملها أحدهم على كتفه.

لاحظ "ماكسيم تي يرماكوف" نفس تلك الحركة المرتفعة والمتأرجحة، نفس إيقاع الرقصة المملة التنافسية لتدفق النهر: كان الإيقاع واضحاً تماماً ولا يشبه أي شيء آخر. الآن، وجد "ماكسيم تي يرماكوف" جاذبية هذه الـ"موسكو" الجديدة ذات الأحشاء الممتدة، ربما كانت بنفس قوة تلك الجاذبية التي استدرجته من المدينة الصغيرة إلى موسكو المتلألئة والثرية والفريدة كلياً، تلك التي استقبلت "ماكسيم تي يرماكوف" كواحد من سكانها ثم أغرقته تدريجياً في هوتها العميقة، بعد أن

أوضحت من البداية أنه ليس هناك أي سلام بالأسفل في أرضها ولن يكون هناك أبداً.

قاوم "ماكسيم تي يرماكوف". لكن حتى مع ذلك فقد قادته خطواته بحتمية إلى نهر موسكو. تأمل المراكب في النهر التي بدت شبيهة بأحذية ذات مقاسات مختلفة، بسبب حالتها المتهاكلة. كما أنه ذهب في رحلة بالمركب ذات مرة: ارتعشت مؤخرة السفينة كما لو كانت مصنوعة من الصفيح، تراقصت رقائق صغيرة من الطلاء الأبيض، اهتاج المحرك واضطرب، وخلف فقائيع مائية خضراء في أثره. على يمين ويسار "ماكسيم تي يرماكوف"، على بعد قرابة عدة أمتار، كان متنبئون اجتماعيون يستندون إلى الدرايزين. لدى أحدهم أنف طويل وحاد، ولون فتحتي أنفه وردي فاتح. حاول البصق في المياه، لكن الرياح حملت الخيط المتلألئ للزج إلى الجانب، مما جعل المتنبئ الاجتماعي يجهز نفسه لمحاولة أخرى مقلداً حركة طائر يطعم طفله من منقاره.

بالقرب من حافة المركب، وقف شخص يضحك، تطايرت كتلة متألئة من شعر امرأة في الهواء فوق كتف سمراء، غمرت بعض الزجاجات البلاستيكية وهي عائمة في المياه، ذبلت كتل ثقيلة من زهور "الليلك" على الضفتين وبهت لونها الأرجواني. تسببت الرياح وضحكات الناس في إحضار نفحة من الحرية. انطلقت طيور النورس في الأرجاء، وقد رفرقت بحدة كأنهم كانوا على وشك اقتلاع أجنحتهم الحادة من جذورها، وعندما مر المركب أسفل الكباري، أصدر الحديد الرطب الداكن همهمة خافتة.

ربما تمكّن "ماكسيم تي يرماكوف" من الاسترخاء في أشعة الشمس، لو لم يكن المتنبئ الاجتماعي على يمينه ويساره متوترين بهذا الشكل. صب الاثنان اهتمامهما المتوتر على الحقيبة التي ظل "ماكسيم تي يرماكوف" متشبهاً بها في حضنه كدميته المفضلة. كان بالإمكان توقع وجود المسدس المسطح الثقيل بداخلها؛ بدا المسدس مؤخرًا كما لو أنه اكتسب وزناً زائداً. لا شك في أن تقارير المتنبئين الاجتماعيين ذكرت اهتمام "الهدف" بالنهر، وكان ذلك شيئاً جيداً. عندما تأتي ليلة الطلقة الفارغة والقفزة، سيقول الحمقى لبعضهم إن هذه هي النتيجة المتوقعة، لأن "الهدف" كان يحمل كثيراً في النهر لمدة طويلة مما دفعه للجنون.



أخيراً، أعلن "فوفان" الكبير بسعادة، عندما ظهر في ليلة ممطرة مبللاً بالكامل من رأسه حتى قدميه (لديه مبدأ ألا يحمل مظلة على الإطلاق).. ربما لم يعد القطرات المطر مياهاً حقيقية بالنسبة إلى محترف مثله:

- وجدتها، وجدت البقعة المثلى لك!

كان "ماكسيم تي يرماكوف" مستعداً، لكن قلبه نبض نبضة عالية مفاجئة مقاطعاً صوت المغني المنبعث من الراديو وقال:

- إذا؟

- كوبري مترو أنفاق "ناجاتينو" ! إنه ليس عاليًا جدًا والمياه أسفلها عميقة للغاية. من الواضح أنه ليس مجرى النهر الطبيعي، فقد حفرنا قناة ماء، لذا فهو لا يزال مستويًا تمامًا. كما أنه ليس كبيرًا للغاية، يمكنك السباحة لمسافة خمسمائة متر لتجد نفسك وقد وصلت إلى الغابة. رث وقذر، هذا هو ما نحتاج إليه. يمكننا الخروج منه وتبديل ملابسنا ونتسلل هاربين بهدوء. علينا فقط إخفاء حقيبة تحتوي على ملابس وكل الأغراض التي ستحتاج إليها قبل أن نقفز في النهر.

لم يكن على "فوفان" الكبير أن يذكر الحقيقة: كما لو كان "ماكسيم تي يريماكوف" ينوي السير عبر موسكو مرتديًا جهاز التنفس تحت الماء والزعانف. كان يعرف كوبري مترو "ناجاتينو"، لقد ذهب لرؤيته. لم يفكر قط أن الاختيار سيقع على تلك البقعة التي يصعب وصفها. لم تكن في منطقة صناعية، كان جسرًا غير مميز على الإطلاق، على طراز مركز إقليمي من الدرجة الثانية؛ به الكثير من النباتات الخضراء اللامعة والرثة، حيث تبدو أغصان الأشجار عارية على الرغم من أوراقها التي بدت ككتل من القماش معلقة بعشوائية كي تجف. الكوبري نفسه يشبه الآلة الكاتبة: بين الحين والآخر يمر قطار عبره متسببًا في صوت شبيه بالجلبة التي تصدرها الآلة الكاتبة عندما يقوم مستخدمها باستخدام بادئة السطر، والمشاة والسيارات تتهاذى أسفلها وكأنها حروف لا نهاية لها. بدا كأن كل شيء ينتهي به الحال هنا، إنسان أو سيارة، يفقد فرديته؛ من فوق الكوبري، حتى حديقة "كولومينسكو" بدت شيئًا حقيرًا، مجردة تمامًا من مظهر الحدائق الممتع والمستدير الخاص بها. بالطبع كان يفضل مكانًا أفضل لانتحاره. لكن كان الشيء المهم هو أن ينفذ الأمر، وعلى المناظر الطبيعية الانتظار.

استطرد "فوفان" بهمسة متفاخرة:

- كما أنني وجدت شيئًا آخر! لقد وجدت بركة يمكننا أن نتدرب فيها. إنها في بقعة بعيدة، بالقرب من "تشيخوف"، تبدو قريبة من موسكو لكن لا أحد قريب منها. لقد اقتربنا من منتصف يونيو، أعتقد أنه حان وقت البدء.

احتج "ماكسيم تي يريماكوف" بضعف:

- لكن الجو بارد، تصل درجة الحرارة إلى عشر درجات مئوية، كما أنها تمطر.

- أنا لا أدعوك لغطس صغير. أتظن أن الغواصين هم في الواقع سياح بدوام كامل؟ وأكد لك أنه ليس هناك عطلات. لا يهتم الغواص بموسم الصيف. إن الماء دائمًا ما يكون باردًا في الأعماق. لكنها لا تمطر أبدًا، هذا ما يمكنني أن أعدك به! لذا توقف عن هذه السخافات. إن لدينا بذلات جافة، مضادة للمياه، كما لدينا ملابس داخلية دايفة. لقد أحضرت أفضل الأنواع! انظر، لقد أحضرت لك مجموعتك، جربها، فلتنن ذراعيك وساقيك بعض الشيء وسأقوم أنا بتعديل بعض الأجزاء في أماكن متفرقة.

قال "فوفان" ذلك ثم مدَّ يده بخفة أسفل الطاولة حيث حقيبة ظهره السوداء المكتنزة.

قال "ماكسيم تي يريماكوف" وهو يجذب مرفق "فوفان":

- لا! ليس هنا. لاحقًا. عندما نصل إلى البركة. على الضفة.

سأله "فوفان" الكبير بذهول وهو يعود لجلسته المعتدلة:

- ماذا بك؟ هل أنت خائف من بذلة غطس؟ حسنًا، لطالما كنت جبانًا بعض الشيء، لا أقصد إهانتك، وما زلت كذلك. ستحدث بيننا مشكلات حقيقية!

ابتسم "ماكسيم تي يرماكوف" ابتسامة صفراء. ألن يبدو أبله لو أنه ارتدى معدات الغوص أمام الكاميرات المخبأة؟ كما هو الحال، ظل السؤال المسيطر على الوضع هو: هل بإمكانهم تمييز ما يدور بينه وبين "فوفان" من ضجيج الراديو؟ ربما كانت كل تلك الألعاب التي تدور على الطاولة بالمشروبات والأطعمة قد تم تسجيلها منذ مدة طويلة، ولكن من ناحية أخرى، ما الذي بإمكانهما فعله؟ أين يمكنهما إجراء محادثة؟ أيمنهما الذهاب لأحد البارات؟ لم يكن هناك أي يقين من عدم التسجيل لهما بواسطة تقنيات حقيرة عالية الجودة. بالإضافة إلى أنه لا يوجد يقين بأنهم كانوا سيسمحون لـ "ماكسيم تي يرماكوف" بدخول البار. كان هناك أفراد أمن في كل مكان بأزيائهم الموحدة ذات الأزرار المعدنية.

على الرغم من أن الأمر مخزي، فإن "ماكسيم تي يرماكوف" أصبح يشعر بالتهديد من أبواب المطاعم الآن أكثر مما شعر به عندما وصل لتوه إلى العاصمة ولم يكن بحوزته "كوبك" واحد. كانت الخطة بأكملها تشبه منزلًا متذبذبًا من الورق. أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" ذلك بوضوح. عندما يحدث كل شيء في النهاية، سينتاب المتنبئين الاجتماعيين شكوك هائلة حول ما إذا كان عليهم توزيع النقود أم لا. كيف تطورت علاقات السبب والتأثير طالما لم يتم العثور على أحد؟ كان عليه أن يأمل في أن يصدق هؤلاء الحمقى ما يرغبون في تصديقه. إنهم بشر أيضًا، وهذا يعني أنهم كانوا غاضبين أيضًا من العمل لدى ذلك الرجل، وهو ما يعني أنهم وبنسبة كبيرة يتأثرون كما يتأثر غيرهم من البشر.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بنبرة استرضائية وهو يسكب لـ "فوفان" كأس "كونياك" سميك كالعسل:

- حسنًا، فكر كما تشاء، لكن الأفضل أن تفكر بشأن النقود. لن تجد عشرة آلاف دولار في قاع النهر. أخبرني، هل رأيت أي أحد يتبعك؟ هل هناك أشخاص يبدون كالحمقى يمشون في جديّة وبخطوات ثقيلة خلفك؟

صاح "فوفان" بدهشة مرحة:

- أنت.. جبان حقًا، أليس كذلك؟ إنك موهوم، هذا هو ما يُطلق على حالتك. إنك خائف من الحياة وتتخيل أعداء في كل مكان، كما أنك ممثل أيضًا. كيف تمثل في الأفلام بعقلك الفاسد هذا؟

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" في دهشة بدورته:

- ممثل؟ من أين جئت بهذه الفكرة؟

فسّر له "فوفان" الكبير طوعًا:

- لقد فاز ابن عم "ناديا" في مسابقة على الإنترنت فأرسلوا له "تيشيرت" عليه صورتك بالإضافة إلى شيء آخر، لا أتذكر ما هو، شيء ما كالـ"شامبو". على واجهة الـ"تيشيرت" توجد صورتك، وعلى الخلف توجد جمجمتك، غير اعتيادية نوعاً ما، تشبه قارة إفريقيا. تعرّفت عليك "ناديا" في الحال، وقالت إنها قرأت على الإنترنت أنك ممثل معروف، وتمثل في برنامج واقع ما.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مصححاً بألية:

- برنامج واقعي.

حسناً، هذا جيد. من الواضح أن الشهرة أنت للهدف الرئيسي حتى رغماً عن هؤلاء الحمقى. قبل أن يدرك الأمر، قد يجد "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه صانع أخبار، بعيداً عن نوع التمثيل الذي يؤديه. لكن بحلول ذلك الوقت، سيكون من الأفضل أن يكون في مكان آخر بعيد وبحوزته النقود.

قال "فوفان" الكبير بملل متفكراً وهو يفرك خدَّ العظمي الفارغ بسبابته:

- هناك شيء واحد لا أفهمه: إنك جبان للغاية، كيف يمكنك إذاً أن تؤدي أدوارك؟ إنني لا أخاف من أشياء كثيرة، لكن عندما ينظر إليّ الكثير من الناس في الوقت نفسه، أشعر بالخوف.

- ما المخيف في الأمر؟

رفع المجهود الفكري الشعر المتناثر فوق جبهة "فوفان" المشدودة مما جعله يشبه عُرف الطيور:

- هذا هو ما لا أستطيع فهمه، إن الأمر لا يتعلق بأني اهتم برأيهم فيّ. أن تصرخ حين تقول شيئاً ما، أو تتعامل بخشونة، لا يناسبني ذلك، بل يناسب الحمقى الخائفين. أنا أقول ما بداخلي وانتهى الأمر. أي شخص لا يعجبه الأمر فليذهب إلى الجحيم. إن الأمر متعلقاً بنظرهم إليّ.. أن يكونوا كثيرين، وأنا فقط في مواجهتهم.

حسم "ماكسيم تي يرماكوف" الأمر قائلاً:

- جميع الأفراد يقفون وحدهم في العالم.



أشكركِ على اتصالكِ في عيد المرأة يا أمي، فمن دون هذه المكالمة لم يكن "ماكسيم تي يرماكوف" ليتذكر أي شيء عن الدراجة النارية والخوذة. ذلك الشعور بالأمان، بالانقطاع عن سيل المعلومات العارم من حوله، بامتلاك كل قنوات وفروع عقله الضبابية أسفل قشرة صلبة، كل ذلك سمح له بالشعور بالأمل المترعزع الذي تم تغليفه ذات مرة في خوذة بأن رأس "الهدف الرئيسي" لم يتم تسجيله من بين المعدات الخاصة للمتنبئين الاجتماعيين. بدت مهمة بسيطة للغاية: العثور على البركة المنعزلة دون وجود سيارة المتنبئين الاجتماعيين خلفه طوال الطريق. لكن بسيارته الـ"تويوتا" المرآبة من كئيب بواسطة فريق كامل من الحمقى سيكون ذلك مستحيلاً. لذا كان عليه استخدام الخوذة والدراجة النارية.

كان يجب أن يكون اختياره هو دراجة نارية رياضية، بعد تجربته مع الدراجة الـ"إيتزخاك" الثقيلة، التي سارت بثقل عبر طرق الريف الناعمة والتي تصل سرعتها إلى ثمانين كيلو مترًا في الساعة فقط. بالطبع يمكنه تجربة دراجة كلاسيكية أو واحدة حديثة في حالة جيدة، قد يمنحه ذلك فرصة أيضًا. ولكن من أجل الانطلاق سريعًا من نقطة البداية واختراق الزحام المروري في اتجاه غير متوقع، يجب أن تكون دراجة رياضية، وحش ضاري بعينين بلوريتين مائلتين؛ يمكن لسرعتها أن تصل إلى مئة كيلو متر في الساعة خلال ثانية واحدة. قالوا إن دراجة نارية رياضية هي أكثر الطرق كلفة للانتحار. لكن لم يكن ذلك حقيقيًا، يمكن الانتحار بتكلفة أكثر من ذلك. لكن، ما الذي سيخسره "ماكسيم تي يرماكوف" حقًا؟ وعلى الرغم من ذلك، فإن مجرد التفكير في دراجة نارية رياضية والسرعة التي تصل إليها، كل ذلك جعله يشعر وكأن أحدهم قد انتزع الكرسي الذي كان يجلس عليه من أسفله.

دون أن يحسم قراره بعد، اتجه "ماكسيم تي يرماكوف" في يوم سبت لطيف إلى معارض الدراجات النارية، مصحوبًا بطبيعة الحال بسيارة الخدمة السرية الـ"لادا 9" التي كانت تتهدى في مرآته الخلفية كثمرة تفاح ناضجة في طبق ذهبي. لم يزعج "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه بإيقاف السيارة في مكان يسمح له برؤية ممتازة عبر امتداد من زجاج شفاف يعرض دراجات نارية مصقولة بالورنيش اللامع ويتجمع حولها الزبائن الذين يسيل لعابهم. توقف فقط حين ظهر له موقف سيارات متعدد الطوابق غير مكتمل البناء والذي تحول مؤقتًا إلى منفذ للبيع. بالداخل، كانت هناك برودة ورائحة ترابية غريبة وضوء كهربائي أصفر بسيط. بدت الدراجات أقل سحرًا، لكن أكثر واقعية. كان أول شيء فعله "ماكسيم تي يرماكوف" هو تحديد خط مباشر إلى المكان الذي يبيعون فيه الخوذات. حقق التقدم الأثر المستحق: بدت الخوذات اللامعة المرصوفة بعناية وكأنها معرض للبيغاوات. ما إن جذبت نداءاته في أعماق المساحة الأسمنتية المحيطة انتباه مدير ذي كتفين محدودبتين وذراعين مرتخيتين تطايرا في الهواء في أثناء سيره كما لو أنهما نميا من النقطة التي تنتهي عندها أكامم الآخرين. جرب "ماكسيم تي يرماكوف" جميع الخوذات لديهم. بطبيعة الحال، كانت الوحيدة التي ناسبت رأسه الصغيرة هي الأكبر حجمًا من بينهم، والوحيدة من هذا المقاس ذات السعر المخفض والمزينة بدوامات حمراء متألئة. خوذة مناسبة ومريحة، ومن دون تموجات أو اهتزازات. أشعرته بالانعزال كأنما اخترق رأسه السماء.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بصوت مرتعش، وهو يعيد شعره لوضعه الطبيعي بعد أن وقف تمامًا بسبب ارتدائه للخوذة:

- حسنًا، لنذهب الآن ونلقي نظرة على الموديلات الرياضية.

سأله المدير وهو ينظر إليه بشك واضح:

- الموديلات الرياضية؟ هل أنت متأكد؟

- نعم، ما المشكلة؟

قال المدير الوقح، الذي بدا هو نفسه أشبه بدبوس ورق مكتبي أكثر من شبهه بسائق دراجة نارية:

- حسنًا.. أعذرني، ولكن من الواضح أنك لست واحدًا منا. إن الدراجات الرياضية تتطلب مهارات وخبرة غير هينة بالقيادة السريعة. بالإضافة إلى أن هينتك، كيف أصف لك الأمر، توحى بجلسة مستقيمة على كرسي الدراجة. صدقني، ستجد ذلك أكثر راحة بكثير. يمكنني أن أريك دراجة عادية رائعة.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مزمرًا دون حتى أن يدرك أنه جذب البائع النحيل من ياقة قميص عمله الأزرق، حيث أخرجه من بنطاله المهلهل كخرقة مجعدة:

- ماذا؟ ما هذا الهراء؟ هل طلبت نصيحتك؟ لقد أتيت إلى هنا كي أشتري دراجة نارية حقيقية!

قال البائع الخائف ملوحًا بذراعيه في الهواء وقد شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بتقاحة آدم البارزة في عنق البائع ترتعش أمام قبضته المضمومة:

- حسنًا، حسنًا، آسف يا سيدي! هناك دراجة رائعة، وحش حقيقي، ليست مجرد دراجة!

تنفس "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يترك البائع الذي هرول إلى أعماق المحل بمسار متعرج متوتر وهو يعيد قميصه بداخل البنطال كما لو كان حقيبة فارغة. أسرع "ماكسيم تي يرماكوف" خلفه بخطوات متناقلة وهو على وشك البكاء. لمح بطرف عينيه رجلين آخرين في زي أزرق موحد، من الواضح أن الواقعة جذبت اهتمامهما، حيث كانا يقتربان من جانب مقابل للحظيرة الأسمنتية، كان أحدهما ذا كتف عريضة وقد كان يقترب ببطء حاملاً شيئاً ما في يده. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" بتوحش:

- عظيم، الآن سألتقى ضرباً شديداً.

لثانية تقريباً شعر بالضيق لأن المتبئين الاجتماعيين تراخوا في عملهم الروتيني ولم يعودوا يتبعون الهدف لتفقد محتويات سلة مشترياته.

قال الرجل عريض الكتفين وهو يقف أمام "ماكسيم تي يرماكوف" بابتسامة عريضة ممتدة حتى أذنيه الورديتين:

- مرحباً، من فضلك، هل يمكنني الحصول على توقيعك هنا؟

اتضح أن الشيء الذي كان يحمله الرجل الممتلئ ما هو إلا ملصق نادي معجبين، عليه صورة كرتونية لـ "ماكسيم تي يرماكوف" واقفاً أمام خلفية ممثلة بسحب مشتعلة. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" بحدة وهو يخط توقيع المدبب على صورته: "أتساءل لماذا لا يوجد مثل هؤلاء المعجبين أمام المكتب أو في الفناء؟".

قال البائع الشبيه بدبوس الورق المكتبي وهو ينقل عينيه اللامعتين من الصورة إلى الأصل:

- يا إلهي! كيف لم أتمكن من التعرف عليك في البداية؟ حسناً، إن هذا يوضح كل شيء!

وسط ثرثرتهما، أرشد البائع الشخصية الشهيرة إلى دراجته المستقبلية. دراجة من نوع "ياماها"، لونها أصفر وفضي. كانت رائعة تماماً: حتى مع وقوفها في مكانها، بدت كأنها تسير بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الساعة. لكنها بدت أصغر من أن تستوعب حجم "ماكسيم تي يرماكوف": كانت أشبه بطائر صغير ذي ذيل مدبب أكثر من وحش ضاري يجلس فوق إطارين أسودين منتفخين وعريضين. جلس "ماكسيم تي يرماكوف" على الكرسي بقلق؛ شعر في الحال كيف أن "وضعية الجمبري" التي تفرضه عليه الدراجة مؤلمة وضاغطة على معدته.

قال البائع ذي الكتفين العريضتين والدورة الدموية النضرة البادية في خديه بتعاطف:

- ربما قد تحتاج إلى استخدام بديل؟ رجل ما يؤدي الحركات الخطرة بدلاً منك.

غمغم "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يعدل من وضع كتفيه ومرفقيه ليتناسب مع المقود المنخفض:

- عليّ القيام بذلك بنفسني.

أوماً الباعة باحترام وهم يخبرونه عن الضمانات والضوابط، كما أكدوا أن الإيقاف يجب أن يكون هادئاً حتى لا تتهالك الإطارات ويصبح لونها أسود وأزرق بفعل الأسفلت المرمر. قرر الجميع أن "ماكسيم تي يرماكوف" يحتاج إلى أفضل حماية ممكنة، فأحضروا له بذلة جلدية ذات اللونين الأسود والأحمر من المخزن لنتناسب مع الكماليات الأخرى التي اشتراها. وأحضروا له كذلك زوجاً من الأحذية عالية الرقبة الثقيلة وقفاز ذي أصابع سميكة. ألبسوا العميل المتعرق كل ذلك، ثم أوقفوه أمام مرآة غير مكتملة ملصقة على عمود أسمنتي. ذكّره الانعكاس بملصق من معمل الأحياء بالمدرسة يعرض صورة تشريحية للتكوين العضلي للإنسان، ما عدا ذلك، لم يكن تشريح الجسد المرتدي البذلة بشرياً بل من سكان المريخ. كانت الركبتان المزودتان بزلاجتين خارجيتين من مكانهما بصورة غير طبيعية، وبدت الدوامات المرسومة على الخوذة كاستعراض لأفكار غير بشرية طافية حول رأس كائن فضائي. لم يكن هناك أي شيء في مظهر ذلك الكائن في المرآة قد يوحي بأنه "ماكسيم تي يرماكوف".

غمغم "ماكسيم تي يرماكوف" من داخل الخوذة:

- سأخذهم، وأريد حقيبة ظهر أيضًا.

مرت لحظة رعب شديد حين فكر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة أن في الوقت الذي يبدد فيه وقته في صالة العرض، ربما يقوم الحمقى بتجميد رصيده في البنك. لكن تمت عملية الدفع بسلاسة وفي أثناء إعادة البطاقة له مجددًا، وعد "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه بسحب باقي المال. بعد توصيل المعطف وحقيبة العميل إلى سيارته الـ"تويوتا"، وافق البائع عريض الكتفين ذو الوجه المتورد على قيادتها إلى شارع "يوسوف"، مما أثار حسد البائع الآخر الشبيه بدبوس الورق المكتبي. تتمم "ماكسيم تي يرماكوف":

- حسنًا، سأخذ الدراجة في جولة.

انطلق بعد ذلك بخطوات خرقاء ثقيلة تجاه الدراجة التي بدت عيونها الحذرة المائلة مثبتة على المفتاح الصغير المعلق بأصابع الفقاز الخشنة الذي يرتديه.

قاد "ماكسيم تي يرماكوف" على المنحدر المائل وهو يدلي ساقيه كي يحتك حذاؤه بالأرض ليشعر مثل طفل صغير على حصان خشبي. كانت شاحنة المتنبئين الاجتماعيين الزرقاء الصدئة تستريح بهدوء أسفل ظل الأشجار الكسول، وبالحكم من خلال حركة فكيهما المتعاقبة فقد كانا يتناولان غداءهما بداخلها. لم يلتفتا إلى خروج الفزاعة الجلدية ذات الرأس المغطى الذي نظر إليهما مباشرة نظرة خاطفة من وراء مقدمة الخوذة. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يضغط على دواسة الوقود:

- استمتعا بوجبتكما أيها الأوغاد.

زمجرت الدراجة وقفزت. لجزء من الثانية لم يدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أين كان، ثم أدرك أنه لا يزال في الشارع نفسه مندفعًا بالقرب من الصف المجاور مباشرة باتجاه سيارة "جيب" مزمجرة كان يطلق سائقها البوق بغضب شديد. لم يعرف كيف تمكن من تفاديها. تضمنت المواجهة القصيرة بقعًا من الضوء المسببة في العمى وصراخ طويل مر بجانبه والكثير من الأبواق: عندما تمكن أخيرًا من السير في صفه، وجد أنه يتكون من العديد من المصدات الخلفية المتراسة كقطع على لوح الشطرنج ومرايا بارزة من كل مكان. استجابت الدراجة إلى دواسة الوقود أكثر من استجابتها للمكابح وتخطى "ماكسيم تي يرماكوف" ثلاث إشارات حمراء من أربع وهو يشعر كأنه ذبابة لاذت بحياتها لتوها من بين كفين ودون أي إصابات. كحصان لم يتم ترويضه، حاولت الدراجة بين الحين والآخر الففز من الأمام، مما جعل "ماكسيم تي يرماكوف" يميل للأمام بوزنه الكامل ليجبر الإطار الأمامي على البقاء على الأسفلت. أجهد "ماكسيم تي يرماكوف" جسده المنهك، متراقصًا مع الدراجة، متبادلًا كيلو جرامات من وزنه مع وزن الدراجة الحديدي من أجل تفادي العقبات الجنونية التي أصبحت أكثر شبيهًا بسراب من المرايا المرتعشة تعكس صورة ممتدة لسائق دراجة نارية على وشك أن يتحطم. حتى مع ذلك، قرر ألا يأخذ أي منحنيات بعد، وسمح ليوم السبت المشمس في "موسكو" أن يقوده في طريق

مستقيم، كأنه يقود دراجته بداخل أنبوب. بالكاد تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من أن يميز "موسكو" حيث ظهرت التركيبات المألوفة من الهياكل المعمارية على المدى البعيد، لكن عند الاقتراب منها أصبح كل شيء مشوشاً، وكل عابر يشبه ظفر الإصبع.

فجأة أوصلت الدراجة "ماكسيم تي يرماكوف" إلى طريق سريع، ظن أنه "نوفوريشكو شوسيه"، أو ربما لم يكن هو. كان الخط الذي يقسم الطريق نصفين ينساب تجاهه كشريط حريري. بطريقة ما حدث الأمر، باستقلال تام عن إرادة "ماكسيم تي يرماكوف"، ضغط حذاء سائق الدراجة الجديد على الدواسة وقام القفاز بزيادة السرعة. عند هذه النقطة حدث شيء ما لحاسة التوازن واستيعاب المكان اللذين لم يكونا جديرين بالثقة سابقاً على كل حال: الآن أصبح كل شيء يبدو كما لو أن الدراجة وسائقها يطيران أفقياً بل صعوداً لأعلى. منتشياً بالسرعة ومشبعاً بها، كان "ماكسيم تي يرماكوف" عمودياً على مؤخرته في مواجهة جدار من الأسفلت والعديد من المركبات المختلفة ملتصقة به كصناديق بريد ضخمة. في البداية ظلت تلك الصناديق ساكنة، ثم بدأت بالتساقط أمام "ماكسيم تي يرماكوف" بأسرع مما يمكنه تجنبها. بدا كأن هناك شخص ما رسم خطأ من الطلاء الأخضر الثقيل على يساره ويمينه باستخدام فرشاة طلاء منزلية؛ مرّت فيلات من الطوب الأحمر الباهت من جانبه كالألعب.

في النهاية، بدأ نظام تهوية البدلة المنتظر بالعمل: جفّ عرق "ماكسيم تي يرماكوف" وهو ما جعله يشعر وكأن جسده مغطى بخيوط عنكبوت لزجة. على الطريق السريع لم يتمكن من تقادي المنعطفات مستسلماً لأوامر الدراجة التي كانت مترددة في التخلي عن سرعتها، تشبث "ماكسيم تي يرماكوف" بانحناءاته كالجعبة التي يعلقها الفارس على جانب حصانه، شعر وكأن الأسفلت يومض عندما اقترب منه بزواية خطيرة، حيث بدا من هذه الزاوية مثل قرص فونوجراف متهالك. لم يفكر "ماكسيم تي يرماكوف" في أي شيء، لم يرغب في أي شيء. لقد كان فقط متفاجئاً لعدم وجود أي دراجات نارية أخرى على الطريق السريع. في مرة واحدة فقط رأى مجموعة مكونة من خمسة سائقي دراجات نارية أمامه كانوا أيضاً يسرون بسرعة معقولة، على الرغم من أن الدراجات النارية التي كانوا يقودونها ليست رياضية. حافظ السائقون الخمسة على تشكيل ثابت: بدا كأن هناك نبضات مغناطيسية منظمة تعمل بين السائقين. على عكس جميع الأشياء في ذلك العالم العمودي، لم يسقط راكبو هذه الدراجات لأسفل بل ظلوا في المقدمة لمدة طويلة وكانت الدراجات مرتعشة ومنتفخة كما لو أنها كانت على وشك الانفجار في أي لحظة؛ لم يملك "ماكسيم تي يرماكوف" الوقت الكافي ليتفحص ظهورهم الجلدية المزينة بتحذيرات من الفولت العالي وأطفال يلعبون بأعواد الكبريت. كان عليه تخطي الركاب الخمسة، لم يكن أمامه أي خيار آخر: متدلياً تقريباً بجانب دراجته، متسبباً في إحداث شرارات من الأسفلت بركبته، لم يهتم بأي شيء آخر من حوله. ارتعش راكبو الدراجات مجدداً وتراجعوا واحداً خلف الآخر ثم انفجروا وراءه مثل

مفرقات الحفل التي تطلق الورق الملون. ظل على قيد الحياة بأعجوبة، ظل "ماكسيم تي يرماكوف" يتخطاهم ومن حوله قصاصات الورق، أحياناً بيضاء وأحياناً ملونة وهي تومض أمام عينيه؛ برزت التلال أمامه ثم غاصت مجدداً وقفزت الدلافين على يمينه وظلالهم الملقاة على الطريق التي تمر سريعاً، وهو ما جعل الوقت يمر على الطريق السريع مثلما يمر في فيلم يتم إسراره؛ مثل أن نرى السحب وهي تجري سريعاً في السماء.

فجأة توقف صوت المحرك؛ زمجر مرة أخيرة ثم توقف تماماً. بنعومة شديدة، قاد سائقو الدراجات دراجاتهم إلى الحافة متسببين في ارتفاع الأتربة. يا لها من تقنية رائعة. أنزل "ماكسيم تي يرماكوف" مسند الدراجة بضربة خرقاء من حذائه، ثم ترجل عن الدراجة بحرص وكأنه امرأة. لم تتمكن ساقاه من حمله على الإطلاق. شعر بظهره المخدر كنتوء أرضي حاد مجعد. تذكر أنه لا يزال يحمل حقيبة على ظهره فمد يده إليها باحثاً عن سجائره لكنه لم يجد أي شيء فخلع قفازه وأخرج علبة السجائر ودسّ واحدة في مقدمة الخوذة.

عندما خلع الخوذة، شعر كأن شخصاً ما أزال غطاء غلاية مياه. بالمقارنة مع العزلة الفارغة بداخل الخوذة، كان الصمت المحيط بـ "ماكسيم تي يرماكوف" فسيحاً وفارغاً. كان هناك صوت جاف في القاع، كأن شخصاً ما يشحذ سيقان العشب المتلألئة بأداة حادة؛ في الأعلى، زمجرت السحب. هناك منحدر أخضر على اليسار منتثر عليه أكوام صغيرة وافرة من التراب، ربما يكونون من صنع حيوان الخلد؛ على قمة المنحدر صف من أشجار الحور المتراسة في صف مظلم في مواجهة الشمس، وكانت ظلالهم الممتدة تبدو كأنها رسمتها يد طفل. على اليمين، على بُعد عشرة أمتار بالضبط من الطريق السريع، تحولت المساحة إلى لقطة بعيدة؛ عضية على الوصول إليها تماماً، مبنى ما طويل ومنتصب وسط مرج، أحد جدرانه مضيئاً بفعل ضوء ما قبل الغروب؛ بعد ذلك كان كل شيء مجموعة من الأمواج والشرائط التي بهنت كلما امتدت إلى الأفق؛ كان هناك خط أزرق من الأشجار بشق متقن وسطه، وكان هناك سن أمامية سقطت في تلك النقطة - لا بد أنه طريق سريع آخر أو مخرج حاجز ضد النيران. لم يكن لدى "ماكسيم تي يرماكوف" أدنى فكرة عن المكان الذي وصل إليه. لكن من الممكن أن يكون المتنبئين الاجتماعيين قد تمكنوا من تحديد ظاهرة الجاذبية بمعداتهم المتقدمة.

على الرغم من أنه لا يبدو صحيحاً. لم يشعر "ماكسيم تي يرماكوف" منذ أن ظهر مسوخ أمن الدولة في مكتبه بأنه محاط بمثل هذا الفراغ الهادئ. شعر برغبة في الجلوس على العشب ثم الاستلقاء. كانت هذه هي الحرية. شعر أن بإمكانه أن يظل معلقاً في هذه البقعة السعيدة للأبد، ولا ينهض إلا حين يضطر أن يأكل ويشرب. بالإضافة إلى كسب المال بالطبع. كلا، لم يكن "ماكسيم تي يرماكوف" ينوي ترك هؤلاء الحمقى قبل أن يدفعوا له. لقد كان الأمر شبيهاً بعناق بينه وبين دب، كانت تلك هي المشكلة، لكن طغت الجرأة على "ماكسيم تي يرماكوف" ودفعته لقيادة اللجنة الخاصة في رقصة كأنها امرأة. ضرب "ماكسيم تي يرماكوف" الأرض

وسط حماسته يقدم أصبحت تشبه الفطيرة داخل الحذاء. ما الذي سيجعله يسمح بدخول "فوفان" إلى مطبخه وينهك نفسه على دراجة نارية رياضية لو لم يكن لأجل عشرة ملايين دولار؟ إن هؤلاء الحمقى يدينون لـ "ماكسيم تي يرماكوف" بعشرة ملايين دولار من أجل ذلك ولكل شيء آخر.

في أثناء محاولته لكي يشعر بالابتهاج، رأى "ماكسيم تي يرماكوف" أن القفاز جعل لون يديه أسود في نفس لون عنكبوت الأرملة السوداء، وهو أنسب شيء لإخافة الأطفال. كانت يدها الممسكتين بولاة السجائر والسيجارة ترتعدان، لم يتمكن من السيطرة عليها. في النهاية، ملاً دخان التبغ عقله الشفاف متسبباً في سعادته وأصبحت الأرض من تحت قدميه أكثر ثباتاً. في أثناء بذله المجهود من أجل استقامة ظهره المشدود الصغير، رأى "ماكسيم تي يرماكوف" راكبي الدراجات الذين تجاوزهم على الطريق السريع. اقترب منه أحدهم بسلاسة وبزمجرة متصاعدة تدريجياً؛ أصبح بإمكانه تمييز وجه قائدهم الذي يبدو كقفذ البحر، وكان ذقن الراكب الثاني على اليسار يتطاير بفعل الرياح مما جعله يبدو كـ "بابا نويل" مرتدياً ملابس جلدية ضيقة. كان لدى الدراجات نفسها ذلك المقود الطويل الشهير البعيد عن مكان ركوب السائق، جعلتها إطاراتها الأمامية تشبه إحدى الآلات الزراعية: مجارف آلية أو آلات جز الحشائش.

صرخ راكبو الدراجات بصوت أعلى من زمجرة محركاتهم:

- أنت يارجل! أيها الأحمق! أحسنت!

لوحوا لهم في أثناء مرورهم به، وابتعدوا وصوت زمجرت دراجاتهم يتبعهم وكأن رحيلهم يشبه صفحة من كتاب قد قُلِّيت.

اللعنة! لا يزال عليه أن يكتشف ما الذي حدث للدراجة. دار "ماكسيم تي يرماكوف" حول الدراجة التي لا تزال ساخنة وهو يعرج ليجد على مقدمتها بقع صفراء وحمراء لحشرات ميتة. كان الأمر بسيطاً للغاية: لقد نفذ الوقود. بسبب اعتياده على سيارته الـ "تويوتا" والتي تُعد متواضعة ولا تستهلك الكثير من الوقود، أخفق "ماكسيم تي يرماكوف" في حساب شهية دراجته الجديدة ذات اللونين الأصفر والفضي. ظن أنه مر بجانب محطة وقود على مسافة ليست بعيدة، على بُعد خمسين كيلو متراً تقريباً. من المؤسف أنه لم يلوح بدوره إلى الراكبين الآخرين، حيث ظهروا لتوهم في نقطة بعيدة مرتفعة من الطريق السريع وبدوا كمنل من الرسوم المتحركة.

سمع "ماكسيم تي يرماكوف" أن على راكبي الدراجات مساعدة بعضهم؛ وفي الوقت نفسه فإن السيارات القليلة التي كانت تمر في يوم السبت على الطريق السريع، والتي تستغرق وقتاً طويلاً للغاية كي تتحول من مجرد نقطة على المرآة إلى حجمها الطبيعي، زادت من سرعتها عندما لوَّح لها بيده المتسخة. بإمكانه الاتصال بشاحنة جرّ، لكنه يعرف أي نوع من المنقذين سيأتي إليه: حاملو بطاقة التعريف المربعة ذات الوجهين ورسم النسر في جيوبهم. كلا، لقد تخلى "ماكسيم تي

يرماكوف" عن الكثير من المال كي لا يقابلهم اليوم على الأقل. إذا ما خياراته الأخرى؟

بعد ذلك، لم يصدق "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه عندما أجبر نفسه على السير. جعل المقود المنخفض عملية دفع الدراجة الـ"ياماها" غير مريحة لكتفيه في البداية ثم أصبح الأمر مؤلماً تماماً. تمت "ماكسيم تي يرماكوف" عبر أسنانه المطبقة، وهو يسير بتناقل داخل حذائه المغطى بتراب رمادي جعله يبدو كقماش اللباد: - أيها الأحمق.

ظلت الخوذة ذات الخمسمائة دولار المعلقة على المقود مثل الدلو تصدر صوتاً يشبه الخشخشة قبل أن تنزلق من مكانها. لم يعرف "ماكسيم تي يرماكوف" سبب عدم توجهه إلى موسكو حيث سيجد دون شك محطة وقود. عوضاً عن ذلك، ظل مستمراً في اتجاه تلك البقعة في الأفق التي يختفي عندها الطريق السريع.

مع كل خطوة يخطوها، تزايد عدم يقينه. بدا الهواء غريباً ومكوناً من طبقات. كانت السماء فوق رأسه تشير إلى أن الوقت لا يزال نهاراً، لكن الليل ارتفع من الأرض والعشب الذي عكس ألوان الغروب، أصبحت قاعدته مظلمة.

تمايلت الدراجة الـ"ياماها" في محاولة منها للاستلقاء على الأرض على جانبها أو دعس قدمه بإطارها الخلفي؛ سألت قطرات العرق على ظهره للأسفل تحت بذلته كأنما هناك شخص ما يرسم بإصبعه على ظهره. استكمل "ماكسيم تي يرماكوف" خطواته الثقيلة ولم يعد مهتماً بالسيارات التي تمر من أمامه أو من خلفه وتغمره بدوامات من الحرارة ثم تختفي في الحال.

كانت جميع مظاهر المدنية بعيدة عن الطريق السريع: امتدت أمامه لبعض الوقت مدينة صغيرة ملتفة بالضباب وراء التلال ذات نوافذ نحاسية ساطعة تومض في الغروب. كان الطريق السريع ملتقاً حول مستنقع طيني صغير به جذوع أشجار بارزة منه بخطورة تبدو كشموع في تورتة؛ ارتفع نقيق ضفادع غير مرئية وبنغمات متنوعة ذكرته بفرقة أغانٍ شعبية من "تشوكوتكا". امتد الطريق السريع عبر غابة مغلقة بالصمت امتصت "ماكسيم تي يرماكوف" بداخلها. بدت السماء من الفجوات بين قمم الأشجار كنهر باهت منعكس في الشرائط الرمادية بالأسفل المتسلق لأعلى وأعلى، ولكن بين جذوع الأشجار كان المكان مظلماً كبطن الفرن باستثناء الضوء المتسلل من بين أغصان شجر التامول، والذي يبدو مثل خيوط من الدخان أو مثل عالم آخر يعيش فيه النبات فقط وسط تلك الظلمة القاحلة.

غمغم "ماكسيم تي يرماكوف" بثنائيم كثيرة ثم صرخ ثم عاد ليغمغم مجدداً. تذكر جده "فاليرا" الذي كان بإمكانه تحريك الأثاث وإشعال أعواد الثقاب بسبابته المميزة. كانت الجدة تدخل في نوبات من الضحك الشديد بسبب الأصوات الغريبة التي كانت تخرج من فم الجد "فاليرا" بشعره الأبيض المتلألئ بالماجنيسيوم والعصا المرتعشة في يده. لكن الكراسي الصغيرة سقطت على الأرض، وتمايلت الدواليب فسقطت التماثيل الصغيرة التي كانت فوقها على الأرض، كما اشتعلت أعواد الثقاب الرطبة

وأحياناً العلبة بأكملها مرة واحدة. كان الجد "فاليرا" يصرخ ولعابه يتناثر على بسكوته المالح الجاف:

- أيها الوغد! أنت تستحق الشنق!

غمغم "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يجرد دراجته الـ"ياماها" المقاومة للحركة بعناد أمام الانحدارات الحادة:

- أنت تستحق الشنق، أنت تستحق الشنق.

نجحت تعويذة جده: ما إن وصلا إلى قمة التلة المنخفضة، ظهرت لافتة محطة الوقود ذات الألوان "النيون" المضيئة بالأسفل، مع تلالؤ دافئ لمطعم مفتوح طوال اليوم بالقرب منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بطبيعة الحال، أدرك المتنبئون الاجتماعيون بسرعة شديدة ما يقوده هدفهم الآن، خصوصاً مع عدم محاولة "ماكسيم تي يرماكوف" الاختباء حيث إنه سجّل وسيلة مواصلاته الجديدة في مصلحة المرور والتي سلمته لوحة أرقام. لكن خدعة الانطلاق كالطلقة لتخطي إشارات المرور أثبتت نجاحاً ملحوظاً. عند خط البداية، ظهرت شاحنات الأمن الوطني وسيارات الـ"لادا 9" بمحركاتها المطورة بقوة وهي ترمجر، لكن ما إن تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر وجدت الأعجوبة التقنية نفسها مقيدة وسط السيارات الأخرى فأصبحت دون نفع، وبدا وجه السائق المتيبس كأنه زهور موضوع على نافذة. تعطل المتنبئون الاجتماعيون أخيراً؛ لم يعد "ماكسيم تي يرماكوف" رفيقهم الدائم وسط الازدحام المروري.

متباهياً ببقايا شعوره بعدم الاهتمام بأي شيء، كانت الدراجة وظهره يهتران حين انطلق بسرعة 100 كيلو متر في الساعة وهرب من بين الشقوق الضيقة والممرات في اتجاهات غير متوقعة: العديد من المحاولات للإحاطة بالهدف، حيث كانت الكثير من سيارات الأمن الوطني تندفع في الوقت نفسه من جميع جوانب الطريق فتسببت في ازدحام هائل أعاق أي فرصة لإكمال ملاحقتهم إيّاه.

من المرجح أن بحوزة المتنبئين الاجتماعيين طائرات هليكوبتر، لكن دون شك لم تتمكن سلطة اللجنة الخاصة من التمادي في إفساد شوارع موسكو الممتلئة بالأسلاك المعلقة في الهواء ولافتات الإعلانات. على الرغم من خروجه من طريق موسكو السريع الدائري، فقد شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالاهتزاز الممل لشفرات الهليكوبتر بدلاً من أن يسمعه، وتمكن من أن يلمح بطرف عينيه طائرة غريبة تشبه جيتاراً أسود تسببت في عاصفة من الرياح فوق غابة أشجار التامول. لكن الطيف ذي الهالتين المتلألئتين بألوان قوس قزح مر سريعاً واختفى، ربما كان سبب وجوده هناك غير متعلق به على الإطلاق.

أصبح المكان المفتوح الملتف حول القذيفة الثملة - التي هي "ماكسيم تي يرماكوف" - خارج طريق "موسكو" الدائري السريع مكان عزلة وحرية؛ بدا كما لو لم يكن هناك أي بث إذاعي أو تليفزيوني في الأثير، وقد اختفت شبكات التليفون بالكامل

واحتترقت جميع الأقمار الصناعية العسكرية والمدنية في مداراتها. ربما كان ذلك تأثير الخوذة التي أصبحت طاقة إخفاء "الهدف الرئيسي". عندما عاد "ماكسيم تي يرماكوف" كالابن الضال إلى فناء منزله بعد شجار ما، استمتع بملاحظة سمات الضباط التي أشعرته بمشاعر مختلطة للغاية. كاد يقسم بأن أحد تلك المشاعر الرئيسية كانت سعادة صادقة؛ بدا على الضباط عند رؤيتهم للهدف، الذي طال انتظاره، الارتياح الشديد، وهو ما لم يرغب فيه "ماكسيم تي يرماكوف" على الإطلاق.

بعد صمت طويل، اتصل الأحمق رقم 1 "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" فجأة. قال "كرافتسوف" بصوت جاف خدش أذن "ماكسيم تي يرماكوف" كما لو كان "الجنين" يقحم إصبغه المثلج بداخلها:

- "ماكسيم تيرينتيفيتش"، إننا فلقون للغاية. إنك تخاطر بحياتك بغباء شديد وهو أمر ضروري لعملنا.

أجابه "ماكسيم تي يرماكوف" بحقد:

- اغرب عن وجهي، إنكم تغضبونني وسوف أغرق نفسي.

بعد ذلك، بدأت شاحنات المتنبئين الاجتماعيين بالتحرك بحرص شديد: قاموا بمحاولات رمزية في ملاحقته بدلاً من الانطلاق في ملاحقته مباشرة. توقفوا عن تتبعه بالكثير من الشاحنات حيث تظهر جميعها على الطريق الرئيسي في الوقت نفسه، متسببين في نحيب وعويل مرير عند الاصطدام بالسيارات المستوردة البريئة تمامًا. كان "ماكسيم تي يرماكوف" سعيدًا بنفسه. لم تحدث معجزة بالطبع، لم يصبح سائق دراجة نارية رياضية محترف في أسبوع، في الواقع كان أقرب إلى دب السيرك الجالس على دراجة نارية.

لكن مع ذلك، فقد تعلم شيئًا ما. اتضح أن أي رياح حتى لو لم تكن قوية فيإمكانها إزاحة الدراجة النارية عن الطريق السريع كعلبة كرتونية فارغة. كما اتضح أيضًا أن الطريق المبلل يتسبب في انحراف غير متوقع لإطاراته وأن الندى الخفيف المتساقط من السحب الثقيلة في المساء يتحول عند القيادة بسرعة شديدة إلى طلقات سلاح آلي كثيفة. من الناحية الإيجابية، نشأ ارتباط بين الدراجة الـ"ياماها" وجسد "ماكسيم تي يرماكوف" كالرابطة التي بين الأوعية المتصلة؛ لم يعد "ماكسيم تي يرماكوف" يشعر بالطريق بواسطة حزام الأمان مثلما كان الحال عند قيادته لسيارته الـ"تويوتا"، بل بواسطة عموده الفقري بأكمله، من مؤخرته وحتى رأسه.

رأى أخيرًا البركة التي أعجبت "فوفان" كثيرًا. كانت بيضاوية وعلى حافتها عشب كثيف يشبه الذقن النابت، كانت تيارات المياه على سطح البحيرة شبيهة لتعابير الوجه الإنساني. بدت المياه كثيفة كالحساء. برزت كتل فارغة متعكرة على السطح المشمس، وتمايلت الأعشاب المائية يمينًا ويسارًا مثل شباك الصيد، كما برز من المياه جذع شجرة تنتشر عليه خطوط عفن أخضر، ومن وقت لآخر تقفز ضفادع صغيرة من عليه فبدت وكأنها كتل ممتدة من البصاق.

تردد "ماكسيم تي يرماكوف" تمامًا في القفز في مكان كهذا. لكن انعدام حساسية "فوفان" الاحترافية فيما يتعلق بالمياه من أي نوع جعله سعيدًا للغاية. نصب "فوفان" على الضفة خيمة باهتة كانت ذات يوم صفراء. انتقل إلى الخيمة محتفظًا بالمال الذي أعطته له لجنة الأمن الوطني لإيجار سرير في نزل ما. كانت "ناديا"، المرأة التي تنام ناحية الخزانة، هي من تدير المنزل باقتدار هنا أيضًا، حيث تطهو حساء البطاطس في غلاية فوق نار مخيم صغيرة، وتغسل الملابس بحيوية في حوض، وبين الحين والآخر تبعد خصلات شعرها الجميل المبتل عن جبهتها وتثبت حركتها للحظة وترفع يدها الممتلئة بالصابون بجانب صدغها حيث يبدو واضحًا خاتم زواج عريض يتلألأ في الرغوة المتدلّية. من الطريقة الكسول والمثابرة التي تتبع بها "فوفان" خطواتها، بدا واضحًا أن الحياة العائلية تناسبه جيدًا.

لم يجد "ماكسيم تي يرماكوف" قط ما يجذبه للنساء من هذا النوع: شاحبات وذوات أعناق ممتلئة وسيقان ملتقة سمينة، وعلى الرغم من ذلك فقد وجد نفسه يحسد "فوفان"، لم تكن "ناديا" لتضعه تحت الضغط من أجل المال. تمكن "فوفان" باستخدام طريقة لا يعلمها إلا الرب من اصطياد سمك صغير سمين بحجم حافظة النقود من البركة. نظفتهم "ناديا" وهم يضربون بذبولهم بضعف ثم ألقت بمخلفات السمك الرمادية والزعانف في البركة، وعلى مسافة ليست بعيدة من البقع الزيتية الداكنة المنتشرة، دخلت "ناديا" المياه واستحمت. أسفل المنحدر ذي العشب النامي المتجه إلى المياه، كان هناك شريط من الرمال الرمادية والذي من الممكن أن نطلق عليه اسم شاطئ إذا أردنا. قبل نزولها المياه، رشّت المرأة المياه على نفسها؛ على شاماتها ومسامها وخصلات شعرها الخفيف على بشرتها؛ قامت بحركة خرقاء عندما وصلت المياه لركبتيها كحافة الفستان. في السابق، قابل "ماكسيم تي يرماكوف" نساء ساخطات فقط، تسيطر عليهن الرغبة بأن يعنين للرجل أكثر وأن يمتلكن أكثر.

كانت "ناديا" راضية بوجودها الغريب وغير المريح مع "فوفان" وقد جعلها ذلك معجزة استثنائية، على الرغم من الاعتيادية في كل شيء شكّل شخصيتها البسيطة غير المتطلبة.

أحيانًا كان استحمامها ينقطع بفعل عاصفة مفاجئة من الرياح تدير شعرها في الهواء كالقطن الصوفي الثلجي؛ بعد ذلك تأتي الأمطار العاصفة الناعمة فتجري "ناديا" البيضاء المبتلة، بينما تتساب على بطنها مياه بنية من على صدر ملابس السباحة كي تنفذ بنطال "فوفان" المعلق على حبال الغسيل. لكن لم يهتم "فوفان" أينما تكون مياه، سواء بالأعلى أو بالأعلى أو في كل مكان. حينما كان يرتدي بذلة الغوص القصيرة الثقيلة كفرو الدب بدا على الرغم من ذلك رشيقيًا، كما لو أنه وُلد في ذلك الزي المطاطي ذي القناع والزعانف وأسطوانة الأكسجين على ظهره. بدا القناع المدبب غريبًا، حيث جعل "فوفان" يبدو مزيجًا من الدب والديناصور الزاحف المجنح. اتضح أن وضع جميع هذه المعدات الباهظة أمر يتطلب مهارة معقدة. أولاً، يجب على "ماكسيم تي يرماكوف" ارتداء الملابس الداخلية الرمادية الخاصة والتي

كانت مناسبة له تمامًا، ثم الثوب الداخلي المبطن، بعد ذلك بدأ العذاب الحقيقي: حارب "ماكسيم تي يرماكوف" بذلة الغوص كأنها أخطبوط، وعندما أدخل ساقيه أخيرًا في الحذاء والبنطلون وأدخل ذراعيه في الكمّين، وجد أن إغلاق السحاب المحكم والذي كان لسبب ما في الخلف بين الكتفين، كان بنفس سهولة رفع نفسه في الهواء من قفاه على طريقة البارون الألماني "مونشهاوزن".

ظل "فوفان" يردد وهو يقف على أحد الجوانب ويحكُّ الصوف الرقيق على صدره: - هكذا، هكذا، تعلم أن تقوم بذلك بنفسك. من الذي سيساعدك عندما تطلق الرصاص على نفسك وتغرق؟ لن يساعدك أحد.

كان للغوص تأثير غريب في "ماكسيم تي يرماكوف"، حيث جعله يشعر بالشعور نفسه الذي يشعر به طفل لديه عام ونصف العام تقريبًا ذو ساقين مقوستين وشعور بالضيق في عانته. عندما أحكم "فوفان" إغلاق حزامه حول خصره الممتد وألبسه الصدرية المعلق عليها أسطوانة الهواء، شعر بأنه على وشك السقوط على مؤخرته الصغيرة. أخيرًا، رأى "ماكسيم تي يرماكوف" عالم تحت الماء. في البداية، كان الشعور بالضبط كما لو كان يغرق في الحمام؛ لم يكن حوله سوى تشوش بني تتخلله فقاعات صفراء. فيما بعد، عندما توقف "ماكسيم تي يرماكوف" عن تخبطه بالبئس تحسنت الرؤية قليلًا. عكست مجموعة من الحجارة البنية أشعة الشمس المتموجة؛ تمايلت أعواد من أعشاب البحر يمينًا ويسارًا، بعضها سميك والآخر نحيف؛ تآرجحت بعض الحيوانات البحرية بقوة وهي تدفن نفسها في الرمال؛ تمر أسماك صغيرة بسرعة بين الحين والآخر كبقعة باهتة من أشعة الشمس. كان طعم الهواء المنبعث من أسطوانة الهواء إلى القطعة الموصلة بالفم يشبه طعم الزيت. كان لديه مشكلات كبيرة مع التنفس: بعد عدة دقائق انسد الخرطوم وانسد رأسه، انطلق "ماكسيم تي يرماكوف" إلى السطح وهو يبصق جهاز التنفس.

قال "فوفان" مزمجرًا وهو على السطح بجانبه:

- تنفس من فمك!

صحيح أن مستوى "ماكسيم تي يرماكوف" في قيادة الدراجة النارية الرياضية يتحسن، بفضل دراجته القديمة التي تحللت عند ذلك الوقت بالطبع، لكنه لم يكن مقدرًا له أن يصبح غواصًا على الإطلاق. لسبب ما، على الرغم من محاولات "ماكسيم تي يرماكوف" الجادة لفعل كل شيء بصورة صحيحة تمامًا، فإنه كان ينتهي به الحال تحت الماء مقلوبًا على ظهره طوال الوقت. اقترب منه "فوفان" في الظلام، وأدار صمامًا ما في كمّ "ماكسيم تي يرماكوف" مستخدمًا مخلبًا؛ في اللحظة نفسها، اشتد ضغط المياه على جسد "ماكسيم تي يرماكوف". شعر وكأنها تعترضه. ساعد ذلك قليلًا في الحفاظ على ثباته بين السطح المضيء والقاع المظلم؛ ومع ذلك رفضت الزعانف إطاعته، حيث اشتبكتا معًا والتصقتا بالطين كألواح الخشب، وامتلأت أذناه بصريير متوتر وحاد ومؤلم. اتضح أن البذلة المزعوم أنها "جافة" ليست مانعة للماء بعد كل شيء: عندما خلعها بعد أن أنزل "فوفان" الأسطوانة

المبتلة عن صدره، كان "ماكسيم تي يرماكوف" مبتلاً. تركه الانغماس في البركة البنية منهكاً تماماً؛ كان "ماكسيم تي يرماكوف" يرتعش من الضعف وهو يشرب ويلتهم الطعام دون تمييز كل ما قدمته له "ناديا" المتعاطفة بما في ذلك قطع الخبز الرمادي الجاف والسّمك العظمي حلو المذاق.

قال "فوفان" وهو يتمدد بجانب نار المخيم التي تحولت للون الرمادي ونشرت رقائق رمادية:

- أجل، أنت لست جيداً في ذلك الأمر، لا أعرف ما مشكلتك؟ لماذا تهبط هكذا كل مرة؟ كأن مركز جاذبيتك يتجول طوال الوقت في جميع أنحاء جسدك. ربما علينا إمدادك بسترّة مثبتة أخرى على ظهرك.

بعد عشرة أيام من التدريب في كل ليلة تقريباً، ظهرت فكرة رائعة في رأس "فوفان" الفوضوي.

سأل نفسه بذهول واضح على ملامحه الجافة الباهتة:

- لكن لا يمكنك القفز من على كوبري مرتدياً بذلة غطس وزعانف وأسطوانة أكسجين، أليس كذلك؟ سيُفصح أمرنا في الحال.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" منفجراً فيه بسخط:

- لقد قلت لك ذلك منذ البداية أيها اللعين!

رد عليه "فوفان" بشراسة وغضب:

- لا تصرخ فيّ، أنا من يقوم بالصراخ! هل حذرتني من أنك بهذا السوء في السباحة؟ لم تفعل. مستحيل أن أتمكن من إمدادك بقناع تحت الماء. هل فكرت في ذلك أيها اللعين؟ أيها المفكر العظيم! لنفترض أن بإمكاننا التنفس بواسطة أسطوانة واحدة، سأدخل خرطوم التنفس الخاص بي في فمك، إن هذا أمر طبيعي. إذاً على الأقل ستعيش، لكنك لن ترى أي شيء على الإطلاق!

تمتم "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً:

- ماذا عن البذلة؟

قال "فوفان" بتجهم:

- إن البذلة مشكلة أيضاً. البذلة الجافة ليست مفيدة. سترتدي ملابسك في المنزل، ستضطر إلى ارتداء معطف طويل فوقها وتخبي ساقيك في بنطال وهكذا. لكنك لن تتمكن من إغلاق أزرار المعطف فوق البذلة الجافة حيث إنك سمين بما يكفي، لكن هذا أسوأ. كما أن البذلة الجافة ثقيلة، فعندما تتسلق الحاجز سيتمكنون من رؤيتك. لكن هذه ليست أكبر مشكلاتنا. إن البذلة الجافة تحتوي على هواء بداخلها مما سيجعلها تطفو. عندما تقفز في النهر لن تغوص في الحال. سيكون عليك إفراغ الهواء منها وسيستغرق ذلك ثلاث أو أربع دقائق. سيتمكن أي أحرق من رؤيتك هناك طاقياً على سطح المياه وأنت لا تزال على قيد الحياة بعد إطلاق النار على نفسك.

سأله "ماكسيم تي يريماكوف" وهو يكظم غيظه:

- ماذا سنفعل إذا؟

جال "فوفان" بعينيه في أرجاء المكان وهو يكسر فروع شجرة صغيرة ويلقيها في النار وقال:

- ماذا سنفعل؟ أعليّ أن أعرف؟ ما الذي يتلقاه المخرج الخاص بك كأجر؟ حسنًا، دعنا نقول إن هناك مخرجًا من المشكلة. سنشتري لك بذلة أخرى خاصة بصيد الأسماك بالرمح. سبعة مليمترات من مادة "النيوبرين" المطاطية. إننا في الصيف الآن فلن تتجمد. أنا من سيكون مستلقيًا تحت الكوبري بانتظارك لمدة لا يعرفها إلا الرب. سنحتاج أيضًا إلى ثقل مختلف. سأحضر لك مقلاة بها أربطة كتّفل فهي تستخدم من أجل صيد الأسماك بالرمح أيضًا، يمكنك ارتداؤها تحت السترة. لكن بعد ذلك هناك نقطة مهمة أخرى. اتضح لي أن عليّ سحبك تحت الماء، مما يجعلني قارب السحب الخاص بك إضافة إلى كل المصاعب الأخرى. إن ذلك عمل شاق!

- وماذا في ذلك؟ ألم يكن هذا هو ما اتفقنا عليه؟

أجابه "فوفان" سريعًا:

- لا أتذكر ذلك! وإن كنت لا أتذكره فهو لم يحدث. على أي حال، عليك دفع ثمانمائة دولار من أجل الثقل والبذلة بالإضافة إلى ألف من أجلي. الدفع مقدمًا. إن كان ذلك لا يعجبك فهو شأنك. بإمكانك القفز بكل المعدات كالضفدع لكن عليك التأكد فقط ألا تعلق الزعانف بالحاجز.

تنهد "ماكسيم تي يريماكوف" تنهيدة عميقة. سحب نقوده من حسابه بالبنك، وما إن خصم جميع النفقات من أجل التحضير لخطته لم يتبق له ما يكفيه لستة أشهر في أثناء اختبائه. لقد اقترب كثيرًا من الإفلاس. انتظره "فوفان" وهو يحرك عضلات فكه وينفخ دخان سيجارته من خلال فتحتي أنفه الضيقتين. كانت "ناديا" المخلصة تقف بانتظاره خلف ظهره ومعها كومة من الأطباق في حوض. توقفت عندما سمعت حديثهما وتجمدت مكانها بعينيهما الرماديتين المفتوحتين قدر اتساعهما في أمل خائف.

زمر "ماكسيم تي يريماكوف" قائلاً:

- حسنًا، لقد أقنعتني.

ابتسمت "ناديا" بابتهاج، وارتبكت للغاية ثم هرولت باتجاه الماء وفي طريقها ضربت بعوضة قرمزية كانت واقفة على عنقها الأبيض. استرخى "فوفان" وأخذ رشفة كبيرة من كوبه المعدني الأسود المحتوي على شاي مركز للغاية. قال بصوت هادئ وهو يحطم شعلة إلى شرارات بعصا:

- عليك أن تفهم، إنني لن أسحبك طوال المسافة بأكملها فحسب، حيث إنني سأقوم بتمرينات إضافية معك. إذا، الآن أنا وأنت سنقوم بالغوص بطرق مختلفة.

بدأ "الغوص المختلف". كانت بذلة الغوص الجديدة ضيقة: عندما ارتداها "ماكسيم تي يرماكوف" شعر كأنه وسادة محشوة بإحكام. الآن، قفز في البركة دون تغطية رأسه وقد ابتلعت المياه كما هو في الحال، حيث جذبت واعتصرت فريستها الناعمة غير المستقرة محاولة إجبارها على وجهات غير محددة. كان طعم البركة شبيهاً بطعم الأسماك المتعفنة والكرنب. لقد حملها طوال الوقت في تجويفه الأنفي البلعومي الملتهب والممتلئ باللعاب.

أغلق "ماكسيم تي يرماكوف" عينيه قدر استطاعته أسفل المياه، لكنه مع ذلك فتحهما عندما ارتطمت يداه المتخبطتان في شيء صلب؛ على الأغلب كان ذلك الشيء الصلب هو "فوفان" المظلم تماماً، ينفث فقاعات مثل غلاية المياه، وحش ذو وجه بحجم لتر، الذي تسبب في تعثر "ماكسيم تي يرماكوف" كدمية عاجزة، جذب ذراعيه المتيبستين المستقيمتين في مكان ما وبعد أن هزَّهزةً شديدة أدخل قطعة التنفس الصلبة بين شفثيه نصف المغلقتين؛ ثم أخيراً، ومع ابتلاعه لكمية هائلة من الطين، بدأ الأكسجين بدخول جسد الرجل الموشك على الغرق. كان من المستحيل تقريباً عليه أن يتعلم ألا يسعل ويختنق تحت الماء، حيث بدأ أن التحكم السليم في التنفس السلس يعتمد على حجاب حاجز جبان تحت ضلوعه والذي لم يكن باستطاعة "ماكسيم تي يرماكوف" التحكم فيه.

كان بإمكانه فقط أن يتمنى أن يسير كل شيء على ما يرام في اللحظة الحرجة. تمكنت البركة من التسلل داخل "ماكسيم تي يرماكوف" كأنه عشبته وهي ترويه، حيث حملها بداخله في كل مكان، كان يصدر صريراً في أثناء سيره بقدمين ممتلئتين بالطمي وسمكة نهريّة صغيرة ترتعش داخل معدته؛ لو أن جسد الإنسان مكون من 70 لـ 90 بالمائة من الماء، ففي حالته جاء ذلك الماء من البركة، حيث حاول "فوفان" دون توقف أن يغرقه بشغفه الجامح.

ظل "فوفان" يردد وهو يسحب "ماكسيم تي يرماكوف" الذي ينزلق ويتقيأ حتى أوصله إلى العشب المتشابك المتناثر على ضفة النهر الحقيرة أسفل كوبري مترو "ناجاتينو":

- تدريب شاق يؤدي إلى حرب سهلة. لا تقلق، أسبوع آخر أو اثنان من الغوص وسيصبح الأمر أسهل كثيراً.



قبل أن يصبح الأمر "أسهل كثيراً" كانت هناك بعض الأسئلة المهمة التي تحتاج إلى إجابة. السؤال الأول: من الذي سيكتب اسمه في الوصية؟ كان هناك إجابة واحدة: "لوسي" الصغيرة. كانت الشخص الوحيد الذي يوقن "ماكسيم تي يرماكوف" أنه لن يسرق الميراث، بل إنها ستسلمه إياه حتى آخر "كوبك" وستجمل حتى من الحصول على عمولة.

ذهب "ماكسيم تي يرماكوف" إلى مكتب محام وكتب الوثيقة. هل عليه الاتصال بـ "لوسي" الصغيرة الآن أم فيما بعد من العالم الآخر؟ لا، الآن ليس فكرة جيدة: إن

“لوسي” روح طيبة، من الممكن أن تبوح بالمعلومة سهواً عندما يقوم الحرقاء المبتهجون في المكتب بجمع النقود من بعضهم من أجل شراء إكليل زهور جنازة زميلهم الراحل العزيز. دعها تبكي في البداية قليلاً، ثم تبتهج عند سماعها الخبر.

ستحصل على بعض النقود من العملية على كل حال، عشرون ألفاً مثلاً. أو لا، عشرة آلاف تكفي. إن للنقود طريقة ما للذوبان بين أيدينا حتى وإن كانت نقود طائلة. حسناً، انظر، قريباً لن يتبقى أي شيء من مدخراته التي جمعها شيئاً فشيئاً لشراء شقة، ولن يتبقى أكثر من جزء صغير للغاية، بعد هذا كل ما سيفعله هو الاستسلام. بإمكانه أن يطلب من “لوسي” الصغيرة زيارة جثته المزيفة في مخبأه السري وإحضار الطعام والأغراض الأخرى، كما يمكنها حتى الطهي وتنظيف المكان في نهاية الأسبوع. بإمكانه أن يثق بها أكثر، حيث إنها لم تكن عاهرة بعد كل شيء، ليست عاهرة كالاتي بذلن مجهوداً شديداً للحصول على زجاجتي “فودكا” مزيفتين، من المرجح أن ذلك هو سعرهم على المستوى المهني. كانت “لوسي” الصغيرة ستساعده حتى دون مقابل مادي، ببساطة بدافع التعاطف، بدافع الشفقة تجاه “ماكسيم تي يرماكوف”، فهو قد يموت، وبهذا فسيكون قد عانى بالفعل.

لم يكن يعلم ماذا يجري مع طفلها بطبيعة الحال. كانت “لوسي” الصغيرة في المكتب كما هي في كل ساعة من كل يوم، من المستحيل معرفة أي شيء من خلال النظر إليها. دائماً ما ترتدي الفستان الكتاني الرمادي نفسه، متجعداً من الأمام والخلف، كما تضع مشبك الشعر نفسه متدلياً منه بعض خصلات شعرها المتناثر فبدا وكأنه حلزون يتشبث بسيقان العشب. وتضع “لوسي” الصغيرة نظارة ضخمة على وجهها الدقيق؛ عندما كانت تتحني فوق الأوراق على مكتبها كانت النظارة تسقط عليها مصدرة صوتاً عالياً. كان “ماكسيم تي يرماكوف” يسمع ذلك الصوت المزعج البلاستيكي في كل مرة يمر فيها بجانب المكتب الخارجي. وبعدها ألقى نظرة خاطفة مرة واحدة على ما تخبئه تلك النظارة المخدوشة لم يعد يريد أن يراها مرة أخرى. قد يكون ما تسبب في الهالات السوداء تحت عيني “لوسي” الصغيرة اللتين لمعتا بجنون هادئ هو الكثير من الشاي.

تساءل “ماكسيم تي يرماكوف” في قلق عما إن كانت وريثته المختارة ستفقد عقلها عند موت ابنها أم لا.

في الوقت نفسه، بدأت أشياء غريبة تحدث لـ “ماكسيم تي يرماكوف”. كان يفقد السيطرة على خياله. تخيل الشقة الصغيرة المظلمة الحقيرة التي سيقضي فيها ستة أشهر أو أكثر دون حتى أن يتمكن من الخروج. رأى أريكة متهاكة عليها وسادات صفراء رطبة، وورق حائط كئيب ذا نمط من الزهور الصغيرة السخيفة، وتليفزيوناً معطلاً مغطى بالغبار، لكنه سينظر إليه أكثر من أي شيء آخر في كل الغرفة. عندما تظهر “لوسي” الصغيرة في ذلك المخبأ في أيام السبت مثلاً، ستكون هي الكائن الأنثوي الوحيد الذي يثق به “ماكسيم تي يرماكوف” في العالم بأكمله. قد يبدو الأمر شبيهاً بالحب. ستطهو وتنظف من أجله، وربما حتى تفعل شيئاً آخر من أجل “ماكسي” المسكين.

بتفكيره بهذه الطريقة، بدأ "ماكسيم تي يرماكوف"، الذي بدأ يشعر بالنعيم الجنسي منذ رحيل "مارينكا"، بالنظر لا إرادياً إلى "لوسي" الصغيرة بعيني الذكر الشبقية. لقد أذهله كيف يمكنه التركيز بشدة على مفرق صدرها الصغير على امتداد خط الرقبة بظله السميك المرهف. اختلس النظر ذات مرة عندما رفعت "لوسي" الصغيرة بارتباك طرف ثوبها ووضعت نقطة من الصمغ على عقدة خيط في جوربها التحتي الضيق؛ إن منظر ذلك الجورب الحريري والظلام الحميمي الذي تكهن به من فوقه اخترق أحلامه. وصلت الأمور إلى أن صوت سقوط النظارات تسبب في انتصاب عضو "ماكسيم تي يرماكوف" الذكري في الحال.

كان من الغريب أن عاهرات مدمن الخمر "شوتوف"، اللاتي كُنَّ نحيفات ويتراقصن بعظامهن في أثناء سيرهن، لم يثرنه ولو بدرجة قليلة. كان بإمكانه التوصل إلى اتفاق جيد هناك. لكن فيما يخص "لوسي" الصغيرة، كان من المستحيل لمسها الآن، حتى شخص ساخر طوال الوقت كـ "ماكسيم تي يرماكوف" يفهم ذلك. كان هناك شيء ما إجرامي في الرغبة التي أثارته فيه ذلك الكائن المنهك التي كانت تَزِن أقل من نصف وزن "ماكسيم تي يرماكوف" بما في ذلك رأس العصفور الصغير الذي تملكه. لكن ما الذي يمكن فعله لو كان "ماكسيم تي يرماكوف" مهووساً بـ "لوسي" الصغيرة ولا أحد آخر؟ ما جريمته بالضبط؟ أه، ياله من جماع كان بإمكانه منحه إياها على مكتبها، حيث سينامان فوق عملها الأحرق، وحياتها التعيسة المحطمة! طالما لم تخلع نظارتها فقط.

بوجوده داخل "لوسي" الصغيرة والكثير من المشكلات في رأسه التي تمددت كالسحابة الذرية، توجه "ماكسيم تي يرماكوف" إلى فناء منزله في ليلة يوم جمعة دافئة ملبدة بالغيوم. فقد أرسل لـ "فوفان" رسالة نصية قائلاً فيها إنه لن يأتي اليوم. أراد يوم عطلة، وربما يتمكن أخيراً من التحدث مع جاره الطيب "شوتوف" بعد سكب مشروبات كحولية صالحة للاستخدام الأدمي داخل القرد الصغير المنتفخ. كان يمكنه افتراض أن عمل "شوتوف" سمح له بإنشاء صلات مشكوك فيها. الشيء المفاجئ هو أن عاهراته كن مرغوبات فيهن، تدفق إليهن الزبائن مثل النمل الزاحف ناحية قطعة من الحلوى، ومن كل الأنواع أيضاً، من شاب ذي آذان بارزة تبدو كأن بإمكانها التحليق به، إلى رجل مسن بدين ذي لحية صفراء وعكاز مرتعش في يد تبدو كدجاجة مغلقة آلياً. بالحكم من عيونهن المنخفضة في عفة ومهارتهن الواضحة في الامتزاج مع الجدران، فإن معظم عاشقي فواكه "شوتوف" الجافة الخضراء متورطون في أعمال غير قانونية، من المرجح أن تتضمن تزوير المستندات. كان هناك الكثير منهم وكان الرقم يتزايد، كأن كل أفراد الطبقة القذرة من سكان موسكو الذكور أرسلت ممثلين عنها إلى وكر الرذيلة. تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من تخيل الرجال وهم في انتظار الفتيات، جالسين على كراسي منهلكة في الطريقة كأنهم في مركز طبي تابع للتأمين الصحي.

ما إن أوقف سيارته، ترجل منها "ماكسيم تي يرماكوف" بتأنٍ وسط الهواء الرطب الخانق وعلى الأسفلت المغطى بالأمطار الهادئة. كانت السحب كالرماد الدافئ. في

طريقه إلى المدخل ألقى نظرة خاطفة اعتيادية على المتظاهرين بالفناء الواقفين أسفل القطرات المنتثرة الناعمة، البعض يحمل مظلات والبعض الآخر من دونها.

ألقى نظرة خاطفة، ثم نظر متأملاً وتجمد في مكانه. كان هناك بين مجموعة الأيدي المستأجرة عسيرة الوصف جسد امرأة طويلة ترتدي فستاناً سهرةً قرمزيًا يتلألأ في لمعة؛ كانت الرياح تهب من أسفل مثلما تفعل قبل هبوب العاصفة تحرك حافة الفستان الحريري في كل الاتجاهات وتلفه حول الساقين الطويلتين المرتعشتين فوق الحذاء ذي الكعب العالي. تشوش الوجه قليلاً كحال مساحيق التجميل التي تغطيها، كانت عظام الخدين تشبهان الكمثرى الممتلئة بالكدمات، وكانت الأحجار الكريمة المعلقة في عنقها تشبه الدموع. لكن مع ذلك فقد كانت رائعة، بنفس روعة امرأة عندما تكون على وشك إطلاق النار على شخص ما. كانت هذه المرأة هي "مارينكا"، حيث كانت ترفع يدها الممتدة وتمسك بها شيئاً أسود ثقيلًا يبحث عن "ماكسيم تي يرماكوف" بعينيه المؤذبتين الشبيهتين بعيون الطيور.

ترجع "ماكسيم تي يرماكوف" وقد شعر فجأة بميل سطح الأرض أسفل نعلي حذائه وقال:

- مهلاً، مهلاً..

صرخت "مارينكا" قائلة:

- سوف تدفع ثمن كل دموعي أيها القدر!

في الحال هزَّ الشيء الأسود الثقيل ذراعها حتى الكتف وانطلق شيء مدبب أحمر ساخن ومرَّ بجانب "ماكسيم تي يرماكوف"، شعر وكأنه أحرق الشعر الناعم المنتصب فوق رأسه.

صرخت أصوات رجال غليظين من مكان ما بعيد:

- اتركيه! انبطحي!

ثبتت "مارينكا" قدميها ذات الحذاء ذي الكعب العالي وهزَّت فخذيها كراقصة تعبر ووجهت المسدس مجدداً.

كرجل اعتاد على الاستلقاء على سرير نظيف والنوم عليه، لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من إجبار نفسه على القفز فوق الأرض المتربة وظل يحوم في الأرجاء بذراعيه فوق رأسه مثل بطريق بدين. أصابت رصاصتان أخريان الأشجار الخشنة، سقطت قطرة مياه باردة على رأس "ماكسيم تي يرماكوف"، ظن أنها الرصاصة، بعدها أحس وكأن شيئاً ساخناً يسيل على ركبتيه.

في تلك اللحظة، سقطت فوقه جثة حيوان ثقيلة تفوح منها رائحة العفن والعرق وقماش مكوي رخيص. سقط على الأسفلت بساقيه ملتفتين حول بعضهما وكان ذلك مؤلماً، انسحقت ركبته وشعر كأنما اشتعلت فيها النيران. لهت "ماكسيم تي يرماكوف" وشعر بالقلم المعدني البارز من جيب قميص الرجل الآخر يرتطم بأسنانه.

كان المتنبئ الاجتماعي الذي أسقطه أيضًا يسير متخبطًا كرجل يتعرض لنوبة، يحك ساقيه بغلظة كأنه يحاول أن يزحف على الأسفلت ويسحب معه "ماكسيم تي يرماكوف" مخوشًا ورث الثياب. فجأة، تجمّد في مكانه، بدا كأنه يهيئ نفسه للقفز عموديًا على أطرافه الأربعة، وقد اختفى بالفعل للحظة، لكنه تجسد مجددًا وأصبح مرتخيًا. انسابت نقطة صلصة سميكة مالحة على طرف فم "ماكسيم تي يرماكوف" المنتخ ولعقها دون قصد.

بصرخة مكتومة دفع "ماكسيم تي يرماكوف" الرجل المرتخي بعيدًا عنه، وقد بدت ذراعه الرخوة وكأنها تلوّح مرحبة لأحد ما. كان أول ما رآه عندما نهض وسط الأمطار هو الفستان القرمزي وقد تهدل بفعل المياه. أمسك رجلان من رجال المتنبئين الاجتماعيين بذراعي "مارينكا" ملتويين خلف ظهرها: كانت القلادة ذات الأحجار الكريمة المزيفة تتدلى من عنقها وتتأرجح بقوة، وكان بالإمكان رؤية الشق بين ثدييها المتأرجحين من خلال خط العنق المنحني، وقد جعل ذلك "مارينكا" تشبه سمكة مشقوقة من عند البطن وقد أخرجت أحشاؤها.

تجمع المتظاهرون بالقرب من بعضهم وبدوا على استعداد للوقوف هكذا حتى الموت أسفل مظلاتهم المتشابكة. ظهر مراقبون غير واضحين في أماكن مختلفة في الشرفات الزجاجية ذات الأسوار، حيث بدوا كسكان حديقة حيوانات مُعلّقة.

كافح "ماكسيم تي يرماكوف" كي يقف على قدميه، وهو يصرُّ بأسنانه بسبب ركبته المصابة، حينها فقط ألقى نظرة واضحة على المتنبئ الاجتماعي الواقف في المكان. أحد ضباط الأمن الوطني مثل أي واحد آخر: جبهة ضيقة بتجعيده واحدة عميقة، ورأس حليق لونه مثل لون الحديد، وندبة صغيرة على الذقن ثابتة ككعب حذاء ملتو. كانت الصفة الوحيدة المختلفة هي أنه كان مبيّنًا. بدت عينا المتنبئ الاجتماعي لامعتين ولم تطرفان بسبب الأمطار. انساب سائل أحمر سميك من تحت رأسه التي تلقت الرصاصة، حيث تحطمت في الحال تحت الأمطار وانسابت في مجرى هزيل مخفف ملوّن وصولًا إلى مصرف المجاري المزعج اللاهث. همس "ماكسيم تي يرماكوف" دون صوت:

- ما الذي يهمني في ذلك؟ لا يزال الكثير منهم أحياء.

لكن لم يكن ذلك حقيقيًا. حمل "ماكسيم تي يرماكوف" طعم الدم المالح لذلك الرجل في فمه، كان قفص "ماكسيم تي يرماكوف" الصدري هو مصدر معاناته، احتفظ حجابته الحاجز بشعور الخفة الذي يأتي غالبًا عندما تغادر الروح الجسد. عندما مات رجل الأمن الوطني، كان هو و"ماكسيم تي يرماكوف" جسدًا واحدًا، كانا شخصًا واحدًا. قاما بالأمر معًا. أقرب لبعضهما بعضًا من الكاهن، وأقرب من أقارب الدم، مما جعل "ماكسيم تي يرماكوف" يصبح نسخة من ذلك الرجل، الذي رحل بسبب رصاصة قُصِدَتْ بها رأس "الهدف الرئيسي"، كأنه تلقى رسالة فسرت كل شيء بخصوص "ماكسيم تي يرماكوف".

كانت صدمة الأمطار الحادة تحاول إنعاش الجثة الثقيلة الملفوفة في ملابسها الثقيلة الرخيصة كقماش زيتي. في النهاية، أتى أحد زملاء الرجل الميت مهرولاً، كان لدى الزميل وجه يبدو ملتويًا بصفة مستمرة ولسبب ما كان جسده جافًا من المياه. انحنى الزميل بجانب الجثة وتحسس نبضه أسفل فمه المفتوح. نهض ببطء وهزَّ إصبعه.

صرخت "مارينكا"، وهي تبدو كجوال فلفل أحمر في فستانها الأحمر المبتل تمامًا:

- أيها الأوغاد! اتركوني أيها الحمقى!

كان هناك مجموعة كاملة من المتنبئين الاجتماعيين، وبمساعدة بعض الشرطيين الذين وصلوا، يكافحون ويلوون ظهرها بقوة كي يدفعوها بداخل سيارة شرطة.

فجأة، كأن أمرًا إلهيًا جعل رؤوسهم جميعها تلتفت جهة اليمين، ومن ذلك الجانب، من ناحية طريق "يوسوف"، أتت سيارة "فولجا" متهالكة عبر بركة عريضة جعلتها تبدو كبجعة سوداء وجناحيها المبتلين مرتقعين قليلًا. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" بينه وبين نفسه قائلاً وهو يمسح وجهه المبتل بكف يده الجاف:

- عطلة سعيدة أيها الأحمق.

بطبيعة الحال، خمن في الحال من كان ذلك الشخص الذي يسرع هكذا عبر العاصمة في تلك القطعة السوفيتية الأثرية، ولم يكن مخطئًا. كان أطول المتنبئين الاجتماعيين منحنياً باحترام وهو يهرول باتجاه سيارة الـ"فولجا" الشبحية بمظلاته التي تتلألأ تحت الأمطار، بالضبط كما يحدث في الأفلام القديمة، واندفعت ساق رجل مقوسة مرتدية حذاءً أسود بسيطاً كالأحذية المطاطية. كان الرجل الذي خرج من الـ"فولجا" بحركات حذرة كأنه كان يرفع بنطاله في الوقت نفسه هو "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف".



ما إن استقامت رأس رئيس حمقى الأمن الوطني، اختفت الأمطار من السماء كما لو بفعل السحر. ظهرت شمس الظهرية المبكرة مرتعشة كصفار بيض يخرج من القشرة، تلالأت أوراق الشجر المبتلة بألوان قوس قزح الساطعة، وأغلق المتظاهرون في الفناء مظلاتهم المهلهلة ووقفوا في أماكنهم كما هم: خانقين، ومتفاجئين، وباهتين كالفطر السام. سحب "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه وهو يعرج ويسب حتى وصل إلى مقعد أخضر بالفناء بدا مطلياً حديثاً ولكن انتفخ خشب المقعد بسبب الرطوبة. ارتدى جالساً مدركاً أنه ليس هناك فائدة من الشعور بالأسف على بنطاله.

كان "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" مستاءً. ظهر على رأسه المميز شبه الشفافة بقع قرمزية، كما لو كانت قبلات حميمية. كان فمه الشاحب يرتعش كقم السحلية. لقد ظهر مسخ الدولة في موقع الحادث مرتدياً البذلة الرياضية نفسها التي يتذكرها "ماكسيم تي يرماكوف" ذات الخطوط المتهالكة على البنطال. كانت السترة مفتوحة فوق صدره الأملس كاشفة للأنظار عن صليب أرثوذكسي ذهبي بحجم كيكة عسل، لكن على "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف"، على بشرته غير البشرية،

تلاً لأ الذهب كالحديد. بعد وقوفه أمام المتبئ الاجتماعي الميت، الذي كان مبتسماً للشمس الصافية بأسنانه العادية، اتجه رئيس الحمقى تجاه "ماكسيم تي يرماكوف" بخطوات طويلة سلسلة متصلة.

قال بغضب بارد وهو يحملق في أنف "ماكسيم تي يرماكوف":

- "ماكسيم تيرينتيفيتش"، من فضلك أخبرني عن مكان سلاحك الخاص في اللحظة الحالية.

تمتم "ماكسيم تي يرماكوف":

- إنه معي، أين سأكون محتفظاً به؟

تساءل عن المشهد الذي تخيلوه، هل كان عليه الرد بإطلاق النار على "مارينكا"؟

تحت نظرة مسخ الأمن الوطني ذات اللمعة الخطيرة التي لا تطرف، مد "ماكسيم تي يرماكوف" تجاه حقيبه الملازمة له كالكبد المريض. لم يُفتح القفل لأسابيع وقد كان عالقاً. في النهاية، تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من التعامل مع آلية القفل الملتوية وفاحت من الحقيبة رائحة عفن جلدية ورائحة سندوتش لحم نسيه بداخلها.

أدخل يده من أجل العثور على الغرض المتسبب في ثقل الحقيبة الملحوظ، تفاجأ "ماكسيم تي يرماكوف" عندما وجد نفسه يخرج القاعدة الرخامية لأدوات الكتابة ملفوفة في قبعة استحمام نسائية.

صاح "الجنين" بصوت ثابت:

- لقد سرقت منك السيدة "يجور وفا" المسدس الذي استخدمته لتوها في إطلاق النار عليك.

زمجر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يهز قطع أوراق ممزقة، وأشرطة مسكنات صفراء جافة مهلهلة، وفتات من التبغ خارج الحقيبة:

- لقد خمنت ذلك.

قال "الجنين" حاملاً مقبض مسدس الـ "ماكاروف" العصري المنسي ذي الرائحة الكريهة:

- خذه، لقد أظهرت إهمالاً إجرامياً، ومن أجل مصلحتك، يجب ألا تتكرر مثل هذه الحادثة الصادمة بعد الآن.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بابتسامة وقحة على وجهه بينما كان يجف في الشمس:

- كم أنا خائف! كم أنت مخيف! لكن اسمح لي بتذكيرك يا سيد "كرافتسوف" بأنني لا أعمل في قسمك الخاص، وأنني لم أطلب منك سلاحاً شخصياً. يمكنك الحصول عليه إذا أردت.

لكنه أخذ المسدس.

أجل، ألن يبدو رائعاً وهو يتسلق سور الكوبري محملاً في النهر وموجهاً سبابته إلى رأسه؟ لكن ماذا عن "مارينكا"! لقد أطلقت عليه النار حقاً؛ والآن فمصيرها هو

السجن. لم تكن مهمة بملابسها الرثة المبهجة التي لن تعود مواكبة للموضة عندما تكون في ورشة بالسجن تخطيط بداخلها قفازات عمال.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" دون اهتمام مركزاً نظره على أنف رجل اللجنة الخاصة الذي بدا مختوماً عليه برقم روماني:

- وكيف تنوي التعامل مع السيدة "يجوروفا"؟

أجابته مسخ الأمن الوطني بلا مبالاة:

- ستعاقب بأقصى ما يمكن للقانون الوصول إليه.

- كم هذا رائع! تلك هي ألعابكم اللعينة، ما علاقة "مارينكا" بأي شيء؟ أنتم من استقز الحمقاء المسكينة، لقد عبثتم بعقلها كلياً، وليس عقلها هي فقط بالمناسبة! لقد أطلق عليّ أحدهم النار سابقاً، هل علمت ذلك؟ لقد تسبب في قطع جزء من أذني. بالإضافة إلى متضرري الكوارث الآخرين بمسدساتهم اللعينة. ما الذي يضمن لي ألا يقوم رب أسرة ميته بإطلاق النار عليّ بالفعل؟ هل ستلقون به في السجن أيضاً؟

أكد عليه "الجنين" بصوت بارد:

- أجل، كل هذا يخص أمور علاقات السبب والتأثير، التي تمثل أنت بالنسبة إليها عقدة سرطانية خبيثة. إن القانون الواحد من أهم آليات السبب والتأثير، وعلينا الحفاظ على القانون خلال هذه المدة الحساسة سواء أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يحكم قبضته على مقبض المسدس لا إرادياً:

- حسناً، لا تتوقع أي شكاوى مني. كما أنني لن أقدم أي شهادات قضائية.

قال رئيس الحمقى بعجرفة:

- لن يكون هناك حاجة لشكواك. دعني أذكرك، في حال أنك لم تلاحظ، إن ضحية الجريمة ليس أنت، بل رجل آخر. بعيداً عن ذلك، فإنني أتمنى ألا تكون قادراً على الشهادة لأسباب متعلقة بأهدافنا. بمعنى، أن السبب في عدم قدرتك على الشهادة هو أنك لن تكون على قيد الحياة حينها.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يبدأ بالاهتزاز بفعل الضحك المكتوم، مما جعله يشعر بوزن دهونه الزائدة على ضلوعه:

- حقاً؟ هل هذا هو ما تتمناه؟ أتظن أن عليّ إطلاق النار على نفسي الآن؟ هل أعدت حشو المسدس من أجلي؟ لأنني لا أعرف الطريقة يا زعيم!

عند هذه النقطة، جمّع مسخ الأمن الوطني شيئاً بني اللون بدا شبيهاً بحبيبات اللب بداخل الكمثرى المطبوخة بالسكر؛ حول عينيه وابتسم ابتسامة حزينة ألقّت بشعور مخيف في قلب "ماكسيم تي يرماكوف". نظر كلاهما إلى المتنبئ الاجتماعي الميت الذي بدا كأنه هَرَمَ لعدة سنوات خلال عشرين دقيقة فقط. كان هناك شخص ما طويلاً ونحياً يؤدي ما يشبه رقصة متأرجحة فوقه باستخدام كاميرا وهو يقربها للغاية من وجه الرجل الميت كما لو أنه يحاول التحدث معه بلغة الطيور.

في هذه الأثناء، أتت سيارة إسعاف عبرت فوق البرك الطويلة الفضية بأنوارها الزرقاء السماوية الواضحة والمرثية. سحب المسعفون، بوجوه متعبة ومتجهمة، نقالة من الخلف. أنهى المصور سلسلة نقراته العالية وأشار إلى المسعفين بالتقدم. لكن قطع هذه الإيماءة المتحضرة بفضاطة موجة من أذرع حمقى الأمن الوطني الباردة: توقف المشهد تمامًا وتصلب، تراجع المسعفون إلى سيارة الإسعاف وجلست امرأة ذات صفائر شعر رمادية منهكة متدلية أسفل قبعتها الطبية في إنهاك على الرصيف.

قال "الجنين" لـ "ماكسيم تي ييرماكوف" مشيرًا إلى الرجل الميت:

- انظر إلى هذا من فضلك. أريد منك أن تتكرم وتخبرني ما الفرق بينك وبين هذا الرجل.

أجاب "ماكسيم تي ييرماكوف" سريعًا:

- إنه ميت وأنا حي.

عندما حاول استنشاق الهواء شعر وكأن نبضات كهربائية تسري في ضلوعه.

لم يقل مسخ الأمن الوطني أي شيء لبعض الوقت، أضيف رقمان في الحال لرقم "5" الروماني على أنفه: بالإضافة إلى تأدبه شديد الحساسية، من المرجح أن تلك علامة على الغضب الشديد التي بإمكان أحد ضباط القيادات العليا بدائرة الأمن الفيدرالية للاتحاد الروسي التعبير عنها.

في النهاية تحدث مُرغمًا الكلمات على الخروج من فمه:

- إن اسمه "ساشا نوفوسيلتسيف"، لم يصل بعد إلى الثلاثين من عمره وهو..

قال "ماكسيم تي ييرماكوف" مقاطعًا بابتسامة ساخرة:

- ترك زوجة وطفلين صغيرين.

قال مسخ الأمن الوطني مؤكدًا بعدائية:

- ترك زوجة وطفلاً صغيرًا. لكن الفرق الحقيقي بينكما هو هذا، اليوم قام الملازم "نوفوسيلتسيف" ببساطة ما كنا نحاول إرغامك على فعله منذ عدة أشهر. لقد فكرنا في عدة سيناريوهات، وقمنا بالعديد من الخدع، وأنفقنا الكثير من أموال الدولة - من المؤسف أن أيًا منها لن يدخل جييبك. لم يضرب أحد للملازم "نوفوسيلتسيف" وعودًا بملايين الدولارات أو المجد بعد موته. لم يختره أحد أو يخبره أنه مميز. لقد قام بحمايتك من الرصاصة بجسده، بهذا يحافظ على إمكانية وقف تزايد الطاقة السلبية. لقد فعل ذلك ببساطة. أما أنت - لماذا ليس بإمكانك فعلها؟ ما الذي يجعل حياتك أهم من حياته؟

قال "ماكسيم تي ييرماكوف" بصبر:

- كونها حياتي، كم مرة عليّ إخبارك بذلك؟ ربما كان رجلك هذا "نوفوسيلتسيف" رجلاً طيبًا. إن كان قد سألني عن رأيي قبل ذهابه ليعمل لصالح لجنتك، ربما كان

بإمكاني تغيير رأيه. لكن لا، لقد كان عازماً على اختيارك. بعد ذلك تزوج وأنجب طفله. إذاً، مَنْ المسؤول أمامه؟ هذا هو سؤالِي. ليس لديّ فكرة عن سبب قفزه أمام الرصاصة اليوم.

وتابع:

- صراحةً، لا يمكنني حتى تخيّل سبب ذلك. لم أكن أعرف "نوفوسيلتسيف"، ولم أقابله يوماً حتى، لكن عندما أتخيل معارفي وهم يضحون بأنفسهم، هل يمكنك أن تتخيل أن تخيلي للأمر لا يفلح مع أي واحد منهم؟ كل ما أصل إليه هو مجرد كتلة من الهراء، حفل معربد بالمكتب به قفز طقسي عبر النيران. على الرغم من ذلك فإنني أعرف الكثير من الناس في موسكو. أناس مبدعون وأذكيا يعرفون كيف يجنون الأموال. إذاً، هل جميعهم غير عاديين؟ خطأ؟ لو كان استعطاف الناس مهماً بالنسبة إليك، فعليك أن تفهم حقيقة أنهم جميعاً أناس عاديون؛ مثلي تماماً.

تقاجأ رئيس الحمقى ولعق شفثيه المليئتين بالبقع بسرعة بلسان صغير جاف وأبيض كإصبع الطباشور. صاح باحتقار:

- لم تخبرني بأي شيء جديد. إنني لا أخفي أي أوهام. خلال الخمسة عشر عاماً الماضية أصبح أمثالك هم الأغلبية: الإنسان له أعلى قيمة، وأنا ذلك الإنسان. إنسان بدائي مغرور وسط ظروف تعزز وسائل الراحة في الحياة آلياً. حتى شاب جاهل يعيش في مكان حقير، وسط القذارة والفقر، يرى نفسه مثلك، مدير يقود سيارة "تويوتا". شخص ما لا يدين بأي شيء لأي أحد، إلا إن كان مديناً لأحدهم بالمال. لكن دعني أؤكد لك يا "ماكسيم تيرينيتشيتش" أن الحياة العادية ليست إحصائية. حتى لو تبقى منا خمس بالمائة أو حتى واحد بالمائة فلن يكون هناك أي فرق: نحن العاديون وليس أنتم.

علّق "ماكسيم تي يرماكوف" بسخرية:

- الواجب، والوطنية، وحب الوطن. لا يمكنني استيعاب كيف يمكن الشعور بكل ذلك بداخلك. إنها ليست منطقة خاصة. بالطبع تريد الدولة مني أن أشعر بكل هذا، لكن لماذا أحتاج إليه؟

صاح رئيس الحمقى مكوراً أصابعه في قبضة ورافعاً إياها كأنه لا يعرف ماذا يفعل الآن بحزمة العظام المغطاة بالجلد هذه:

- نعم. تغييرات مذهلة! منذ عشر سنوات كان النقاش على الأقل مفهوماً. الآن اختفى، تبخر. لم يثبت "ساشا نوفوسيلتسيف" أي شيء لك اليوم. ليس بإمكاني إثبات أي شيء أيضاً، يمكنني فقط أن أشهد في المحكمة. إن حب البلاد يعد تجربة شخصية بعمق، من المستحيل التخلص منه بالطرق العقلانية. إنه نوع خاص من الحماس الذي يسمح لك بالنوم قليلاً والعمل بجد. إنه إيمان محتد يسير عكس الموقف الحالي. دعني أخبرك بشيء ما، إنني أحتقر دمي "ماتريوشكا"، وآلة الـ"بلايكا" الموسيقية وكل تلك الحلي الخشبية الملونة، وأكره المنتحبين الثلثين وعندما أسمع كلمات "روح روسية غامضة" أتحسس مسدسي. لكنني أحب كل ما يمثل قوة بلادي.

وأضاف:

- أحب الصناعة والتسليح. أحب التحسينات الصادقة. أبتهج عندما أركب عربة قطار جيدة من مصنع "تفير"، وعندما أشتري حذاءً ذا جودة عالية صنّع في موسكو. أحب معاملنا السرية، التي تجعلنا متقدمين بفارق شاسع عن مهندسي الأبحاث الأجانب. أريد أن أكون جزءاً من القوة لا الضعف، وبهذا أحب أن أرى القوة في نفسي وفي إخوتي المواطنين. لكن أنت يا "ماكسيم تيرينتيفيتش" وكل من يشبهونك لستم ممثلين عن الإنسان البدائي، بل إنكم هدر للمكان. اعذر ابتدائي، لكنك لا تملك أي شيء لا يمكن بيعه بالمال.

ردّ "ماكسيم تي يرماكوف" الهجوم قائلاً:

- لا أملك الكثير مما يمكن بيعه بالمال، وهذا يزعجني أكثر بكثير، وتوقف عن إلقاء أخلاقياتك عليّ. إنني أحب الأحذية الإيطالية، وبإمكان من يخطون أحذية موسكو المتهرئة ارتداؤها بأنفسهم. هل لأنني وُلدت هنا لا يمكنني أن أرغب في أفضل الأشياء لنفسي؟ لماذا يعلقون صناعة السيارات الروسية حول رقبتني في حين أنها لم تنتج سيارة واحدة جيدة منذ مائة عام؟ إنني مستعد للدفع مقابل الجودة بكل سرور، مقابل التكنولوجيا الذكية والمهارات الصناعية المتقدمة. لكن أنت وأمثالك من الناس ترغموني على الدفع مقابل انعدام المهارات والفشل والغباء والعمل السيئ اللعين، وكل ذلك بأسعار خيالية باسم الوطنية. تلك هي الحقيقة الأساسية في حياتنا هنا، وأنت متفاجئ من عدم رغبتني في التضحية بنفسني؟ إنني لست على استعداد بالتضحية بأي شيء على الإطلاق، حتى ولو بساعة واحدة من وقتي الخاص، ولا "روبل" واحد.

سأل مسخ الأمن الوطني بابتسامة لاذعة تحمل تركيبة معقدة إما من الحديد وإما من الذهب:

- ماذا عن جودة الشوكولاتة التي تعلن عنها بسعادة؟

أجابته "ماكسيم تي يرماكوف" بقرف:

- أنا لا أنتج الشوكولاتة، بل أنتج الإعلان. إنه منتج مختلف. قد لا يكون عملي الإبداعي واحداً من تحف العالم الفنية الرائعة، لكنه يصل إلى المعايير الأوروبية. إنني أعرف ماذا أقول وماذا أعرض كي أجعل الناس تستمتع باستهلاك تلك القمامة. لكنني لست مسؤولاً عن العملية بأكملها مهما كان ما تظنه. إياك أن تحاول إلقاء مسؤولية عالمية على كاهلي. انظر فقط إلى ما أنتم مسؤولون عنه أيها الوطنيون اللعينون. لكن الفرد المنفصل لا يمثل لكم أي شيء، مجرد برغوث حقير. لقد دمرت حياة "مارينكا" ولم تهتم على الإطلاق. لكنك بدأت بالذهاب إلى الكنيسة، حيث وُحِّدت حقوقك الأخلاقية. أعتقد أن أجهزة استشعارك لا تحصي الناس فرداً فرداً في كل مرة. ما المدى الذي يجب أن يصل إليه حجم تجمع الناس قبل أن يبدأ إحساس الواجب عندك بالعمل؟ بدءاً من مئة وأكثر؟ ألف؟ لقد استهلكتم ألافاً وألافاً من الناس العاديين، كما يوضح تاريخ قسمكم المجيد، وإياك أن تدلي بصليب الورع الخاص

بك أسفل أنفك، لماذا لا تغلق ملابسك فوق صدرك، أغلق سترتك؛ سيبدو ذلك أكثر احتراماً.

ببطء، وبتجهم باهت، سحب رئيس الحمقى السحاب البلاستيكي وأغلق الياقة المحبوكة حتى ذقنه المائل الذي بدا كحبة بطاطس مقشرة بها جزء متعفن تم قطعه بسكين.

قال الأحمق ملخصاً الأمر بنبرة قاسية:

- إذا، لم تتعلم أي شيء من حادث اليوم؟

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" ضاحكاً:

- ما الذي أحتاج إلى تعلمه؟ فلتكتب نهاياتك الخاصة بك لسيناريوهاتك التافهة. أنت من تسبب في سخط الناس، والآن عليك التعامل معه، كن يقظاً، احمني.

كوّر مسخ الأمن الوطني قبضته مجدداً ولوّح بها في الهواء كأنه يريد أن يقضمها لكن لا يعرف من أي جهة يفعل ذلك. بدلاً من أن يفعل ذلك، أشار بضيق إلى المسعفين الذين ملوا من الوقوف هناك لمدة طويلة فعادوا متهاديين كبط متعب وهم يحملون النقالة من أجل المتنبئ الاجتماعي المتمدد على الأسفلت.

عندما حملوا الرجل الميت تدلّى رأسه بصورة غير طبيعية ورأى "ماكسيم تي يرماكوف" فجوة الرصاصة المملخة بالدم الأسود تبدو كعلامة تسببت فيها سيجارة مشتعلة أدخلت بعنف في الرأس من أجل إطفائها. صاحب اختفاء الملازم إلى أحشاء سيارة الإسعاف على هيئة رزمة أنيقة ممددة صياح غاضب؛ ففي ذلك الوقت من اليوم يأخذ أصحاب الكلاب الموجودين في الفناء كلابهم المسنة ذات العيون الحمراء، والآن أصبح القطيع بأكمله مقيداً بسلاسلهم بما في ذلك كلب "كاليازينا" من فصيلة الـ"دشهند"، الذي يجرّ جسده البدين الصغير كالفقمة؛ بينما تقدمت "كاليازينا" ممسكة بقبعة القش الصفراء البشعة التي ترتديها وجلست القرفصاء على ساقيها المترهلتين اللتين تتقاطع فيهما مجموعة من الأوردة السوداء كأغصان عنب جافة.

ظل "ماكسيم تي يرماكوف" جالساً هناك هادئاً كجوال على المقعد المغطى بماء الأمطار حيث شعر بإنهاك مفاجئ بدلاً من الإحساس الانتصار؛ طنّت حشرة متألئة أمام وجهه جعلته ينتفض، وكاد المسدس المتدلي من يده المخدرة ينزلق على العشب المتلألئ. تدريجياً، تفرق شهود الحادث وذهبوا لبيوتهم ثم جلسوا أمام تليفزيوناتهم التي عرضت تقريباً ما حدث مجدداً. غادر المتنبئون الاجتماعيون وكالعادة تركوا زوجين متطابقين من الحراس، وبحوزتهما الترمس والسندوتشات.

صرخ "ماكسيم تي يرماكوف" منادياً على رئيس الحمقى وهو في طريقه إلى سيارة الـ"فولجا":

- سيد "كرافتسوف"، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟

أجابته وهو يلتفت إليه من خلف كتفه الملتفة:

- ماذا؟

- لقد شعرت بالفضول فجأة، من الذي ورثت عنه صفة "الهدف" الشاذ؟ أمي أم أبي؟ إنهما يبدوان لي عاديين تمامًا، شخصين غير مثقفين محترمين. أم أن الوراثة ليست مرتبطة بالأمر على الإطلاق؟

أجابه رئيس الحمقى بنبرة جافة:

- لقد درسنا ذلك التساؤل. لقد كانت الشروط المسبقة موجودة في جدك "فاليري دميتريفيتش ييرماكوف". لقد كان شخصًا مؤذيًا للغاية.

أنهى الأحق الأول كلامه وركب سيارته بكامل جسده دفعة واحدة مثل كرسي قابل للطّي، ورحلت السيارة المتهالكة التراثية وقد تظاهرت في اللحظة الأخيرة بصعوبة المرور عبر المنعطف الضيق الذي يؤدي إلى الخروج من الفناء. تمت "ماكسيم تي ييرماكوف" بعد رحيله قائلاً:

- أيها الوغد، أيها الوغد.

للحظة خاطفة رأى ظل جده المائل في الهواء المظلم الحلو كالعسل وهو مستندًا بنتاقل إلى عصا شبحية.

مرت ساعة وربما أكثر. ربما أكثر بكثير. جلس "ماكسيم تي ييرماكوف" على ذلك المقعد اللزج غير قادر على فعل أي شيء عدا تدخين سيجارة وراء أخرى، مما جعله يشعر بأن فمه خشن ولا طعم له كالجُزء الداخلي في قفاز صوفي قديم. بدت سحب وقت الغروب كقصاصات ورق محترق، أسود ومشتعل حيث تحيط النيران بحوافهم ولم يتبقَ أي شيء من بياض النهار.

اختفى المتظاهرون واحدًا أو اثنين في كل مرة، ذابوا وسط الغسق الكثيف، إلى الظلام العارم لكُتل أوراق الشجر، حتى ظل واحد فقط وهو أكثرهم ثباتًا، وعند النظر إليه عن قرب تبين أنه شجرة مستديرة. أومضت مصابيح الفناء ثم أضاءت، وكان الهواء ممتلئًا بالحشرات. كان هناك "عث بوم" كبير، وعت صغير رمادي، وجميعهم يصرون صوتًا وكأن دقيق ينسكب من المصابيح.

كان المسدس يفوح بالرائحة اللاذعة نفسها؛ لم يعرف "ماكسيم تي ييرماكوف"، الذي لم يحمل في حياته مسدسًا تم إطلاق الرصاص منه لتوه، كيفية التعامل مع تلك الأدخنة الكيميائية المشتعلة التي اخترقت أنفه ورئتيه. كان مرتبًا تمامًا ومنهكًا؛ حتى فكرة العشرة ملايين دولار المنعشة بدت كأنما فقدت سحرها.

لا يزال "ماكسيم تي ييرماكوف" يشعر ببصمة المنتبئ الاجتماعي الميت على نفسه، كأنه كان حجرًا ضخمًا بداخله حفرة ما. بإمكانه مسامحة نفسه لشعوره بالتخدر والضعف بعد أن تم إطلاق النار عليه وتعرضه للضغط. لكن كيف يمكنه البدء بالتحرك واستكمال تحركه؟ أم أن عليه إهمال كل شيء، ويبقى جالسًا في مكانه هنا بمؤخرته ملتصقة بالمقعد حتى نهايته؟

على يساره، من ناحية الممر الذي يقود للمدخل، سمع صوت جلبة متسارعة ثقيلة لحداء بكعب عالٍ، كأن هناك شخصاً ما يكتب معادلة كيميائية على سبورة مدرسية بطبشور. كانت إحدى عاهرات "شوتوف". تعرف عليها "ماكسيم تي يرماكوف" حيث إنها كثيراً ما أحضرت له مشترياته وبدت دائماً كأنها مصابة بالزكام أو أنها كانت تبكي لتوها. كانت تنورتها المتنافرة المغطاة بزهور الليلك تتلألأ وهي تسير، برزت من أسفلها ركبتيها النحيفتين كمكواتين.

سألت بصوت إنساني مفاجئ وهي تتوقف أمام المقعد:

- ما الأمر؟ ألسنت على ما يرام؟

رفع "ماكسيم تي يرماكوف" عينيه المنتفختين. شعر بالألم عندما حرك جفنيه، وكأن محتويات عقله المكثف استخرجت بملعقتين.

- ماذا حدث؟ تبدو مروعاً. هل يمكنك النهوض؟

حدقت العاهرة في "ماكسيم تي يرماكوف" بجدية قصيرة النظر. كان شعرها يشبه الدوامات بلون البنجر، وكان وجهها النحيف ملطخاً بمساحيق التجميل، مما جعله في لون قشر البيض. لكن كانت عينا العاهرة صافيتين على نحو مفاجئ وشعر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة بالخجل.

تمتم وهو يدخل المسدس خفية داخل حقيبته:

- يمكنني النهوض، ولكن من أجل ماذا؟

فكرت العاهرة للحظة أخرى، وتلاعبت كالطفل بابزيم حقيبتها الكبيرة الفضية الزيتية التي بدت كبالون فارغ، النوع الذي يباع في المهرجانات المحلية العامة مع الخنافس والزرافات المنتخفة. خشخشت الحقيبة الفارغة في الهواء وتطايرت خصلات العاهرة على جبهتها، من الواضح أن السبب هو المجهود الذهني الذي كانت تقوم به.

في النهاية قالت:

- جلوسك هكذا ليس جيداً لك، تعال معي لشقتنا. لا أظن أن "فاسيلي كيريلوفيتش" سيمانع.

في حين كانت العاهرة تتحدث مدّت ذراعها البيضاء ذات الشعيرات الصغيرة إلى "ماكسيم تي يرماكوف" وأنهضته من على المقعد بهزة جعلت قلبه الفيّاض يرتج. حسناً، لم لا؟ على أحدهم أن ينتزع "ماكسيم تي يرماكوف" اليوم من حفرتة العميقة. لن يؤذيه القليل من الابتهاج. سار متثاقلاً خلف العاهرة على ساقين ثقيلتين مرتخيتين وهو يرى ظهرها المسطح والتتورة الضيقة التي تنعكس عليها الأضواء فتبدو مثل زينة شجرة رأس السنة.

في الحقيقة لم يرغب فيها على الإطلاق. ماذا لو ألحق بنفسه العار بمقارنة نفسه مع رجال العاصمة العاديين؟ حتى لو تمكن من تخيل "لوسي" الصغيرة في سريرهم الاشتراكي بدلاً من العاهرة فستفسد رائحة العاهرة كل شيء، فهي رائحة شبيهة

برائحة المستشفيات، رائحة سائل التبييض والأقمشة القطنية. لماذا لم تضع عطرًا مع كل هذه الوفرة من مساحيق التجميل؟ ولماذا تترك ظهرها المستدير مكشوفًا هكذا في حين أن ظهرها يبدو كالعدّاد المكتبي؟

توقف المصعد عند الطابق الخامس في مواجهة باب وكر الإثم مباشرة ذي الحشو المقطوع المتدلي منه. بالكاد قاوم "ماكسيم تي يرماكوف" الضغط على الرقم الذي سيحمله إلى طابقه. ضغطت العاهرة على زر الجرس وهي تقضم شفرتها السفلية: ضغطة طويلة ثم ثلاث ضغطات قصيرات ثم وقفة ثم نغمة معقدة ذات إيقاع ذكرت "ماكسيم تي يرماكوف" للحظات بأمه، وبالبيانو الخاص بها وبتلاميذها. سمع "ماكسيم تي يرماكوف" من الداخل صوت خطوات رجل وانتصب في وقفته كالأبله.

قال صوت ما ناعم وعميق ومألوف من مكان ما:

- "ساشينكا"، أخيرًا، شكرًا للرب.

ظهر مدمن الخمر "شوتوف" عند المدخل، وبدا متغيرًا على غير عادته تمامًا. أولاً، لم يكن ثملاً على الإطلاق، إضافة إلى أنه من الواضح أنه لم يعانِ الثمالة لأسبوع على الأقل. كما اختفت التجعيدات المتناثرة والهالات الزرقاء الرمادية أسفل عينيه: انبعثت الصفات الثابتة لرجل في منتصف العمر بعظمتي خديه المائلتين وأنف على هيئة صافرة من الصفيح. لا يزال ذقنه الأحمر ملتويًا لكنه بدا محترمًا. وارتدى "شوتوف" بنطالاً مهندماً وقميصاً نظيفاً أبيض كالورق، أما قدماه فمزينتان بحذاء منزلي جديد من القטיפيّة، ورُصت أحذية المنزل الأخرى القديمة المتهالكة في الركن القريب كأغراض منزلية أساسية ومحترمة.

قال "شوتوف" لـ "ماكسيم تي يرماكوف" وهو ينحني قليلاً كأنه يتحدث مع شخص غريب:

- مرحبًا. "ساشا"؟

ثم خاطب ضيفه المفاجئ مرة أخرى وهو يسحب العاهرة من ذراعها النحيفة إلى داخل عتمة الممر:

- اعذرني.

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" في مفاجأة وهو ينظر بفضول في أرجاء حجرة انتظار وكر الرذيلة:

- حسنًا، إذا فهي تُدعى "ساشا"، مثل ذلك الملازم.

كما هو الحال في مثل تلك الأماكن، كان هناك مصباح عارٍ متدليًا من السقف بحبل أسود كئيب يذكر بالمشنقة؛ على اليسار باب كان في يوم ما أبيض، من المرجح أنه يقود إلى الحمام وقد تحول لونه إلى الأصفر كعظمة عتيقة وهو مثبت باعوجاج في إطاره. على الرغم من ذلك، فقد احتوى رف المعاطف، المثبت على الحائط، على

الكثير من الملابس الأنيقة على الشماعات، كما كان هناك خمسة أو ستة أزواج من الأحذية متراسة في صف منمق على الأرض المنظفة لتوها كالمراكب في ميناء.

همس "شوتوف" والعاهرة، ورأساهما قريبان من بعضهما، وكانت لكلمات صاحب المنزل العصية على الفهم نبرة استجوابية تأنيبية، بينما أجابته العاهرة بصوت مُجبر واضح وهي تعبت بالخرز الزجاجي المتدلي من رقبتها. بدأ "ماكسيم تي يرماكوف" يشعر بالضيق لتركه بمفرده أمام الباب على السجادة المطاطية الصغيرة المكتوب عليها "مرحباً" وهو يفكر بينه وبين نفسه قائلاً: "هل يتطلب الأمر توصية خاصة كي يحصل أحدهم على خدماتهم، كالانضمام إلى نادي خاص مثلاً؟".

في النهاية، قال "شوتوف" بارتياح مخاطباً "ماكسيم تي يرماكوف" أيضاً بابتسامة مكبوتة أظهرت الفجوة بين أسنانه؛ حيث بدا حينها فقط وقد تعرف على زائره:  
- حسناً إذًا، أنتِ محقة يا "ساشينكا"، أنتِ محقة.

ابتسمت العاهرة أيضاً بسرعة من فوق كتفها وجذبت خصلاتها الحمراء الملتفة. أسفل كومة القش التي اتضح أنها شعر مستعار، يوجد رأس ذو شعر عادي رطب من عند الصدغين، ومن الواضح أن ذلك الرأس غير معتادٍ على الذهاب إلى الكوافير؛ رأى خصلات من الشعر الرمادي تشبه حبال الصيد.  
قالت العاهرة:

- سأبدل ملابسك إذا يا "فاسيلي كيريلوفيتش".

ثم انطلقت وهي تقبض بقوة على الشعر المستعار في قبضتها.

قال مضيف "ماكسيم تي يرماكوف" بترحاب، واضعاً أمامه زوجاً من الأحذية المنزلية متطابقاً مع الذي يرتديه بالضبط، ومن الواضح أنه لم يتم ارتداؤه من قبل:  
- حسناً يا "ماكسيم تي يرماكوف"، لا تقف مكانك هكذا، تفضل بالدخول.

قال له "ماكسيم تي يرماكوف" في صراحة وبدهشة حقيقية:

- إنها أول مرة أراك فيها دون أن تكون ثملاً.

ابتسم "شوتوف" الغريب مجدداً وداعب ذقنه وشاربه، كان الأمر مشابهاً لحريق صغير يتلوى عبر كومة من المواد المشتعلة ثم قال:

- ستتفاجأ كثيراً يا "ماكسيم"، لكنني لا أشرب على الإطلاق.

إن هذا شيء مفاجئ بالفعل بلا جدال. تبع "ماكسيم تي يرماكوف" خطوات "شوتوف". أصابه الدوار من كثرة النظر في المكان حوله. وصلا إلى غرفة واسعة بلون الورق المقوى وأول ما رآه بداخلها كان مسرحاً مضيئاً ذهبياً لعرض الأيقونات الدينية، والذي ذكره لسبب ما وبشكل واضح بمسرح العرائس. كانت الأجسام الاعتيادية ذات الخطوط الخارجية الناعمة بأحجام مختلفة، العذراء المباركة بحاجبين مرتفعين مقوسين، وهي تحمل تمثالاً صغيراً للمسيح على ركبتيها. وهناك شموع داكنة تشبه حلوى "الطوفي" تحترق أمام مسرح الأيقونات؛

ولكل شعلة دموع شمعية. تراقصت الشعلات الصغيرة أمام الهالات المقدسة الذهبية. لسبب ما، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بكل خصلة شعر في رأسه.

أعلن "شوتوف" أمام الناس الذين ملأوا الغرفة بهدوء:

- الآن يا أصدقائي دعوني أقدم لكم جاري، اسمه "ماكسيم"، من الواضح أنه تعرض لتجربة سيئة. لقد أحضرته "سانشا".

قال الرجل البدين المسن الجالس في المكان الأقرب بصوت أجش متناغم وهو ينهض قليلاً عن كرسيه بالنيابة عن الآخرين:

- كل الحاضرين مرُّوا بتجارب سيئة، مرحباً به إذاً.

كان لدى الرجل المسن لحية صفراء شبيهة بلحية التيس ووحمة بلون البازلاء المسلوقة على أحد جانبي أنفه. فكَرَّ "ماكسيم تي يرماكوف" وهو ينحني له بارتباك:

- إنه الزعيم هنا.

تعرف قليلاً على الكثير من الأشخاص الموجودين في الغرفة. رأى الشاب ذا الأذنين الشبيهتين بألة الناي وهما مدفونتين بداخله حتى قمة رأسه بحافة شعره الباهت المضيء؛ كما رأى الرجل المخيف الذي قابله عدة مرات في المصعد، الآن فقط أصبح الرجل المخيف من النوع العادي المثقف بخط رأس متراجع ونظارة طبية مربعة وأثر حرق على خده الأيمن تشبه أومليت باللحم. كانت العاهرات هناك أيضاً، لم يكن "ماكسيم تي يرماكوف" ليتعرف عليهن لو لم يستلم منهن حقيبة بلاستيكية ممثلة بمشترياته كل ثلاثة أيام.

بتجرد وجوههن من أي أثر من مساحيق التجميل، تجردت وجوههن أيضاً من أي صلة من الجمال، لكنهن مع ذلك امتلأن برقبة غريبة شبيهة بتلك الرسومات الباهتة على صور الأشعة. كانت العاهرات يرتدين فساتين أكثر أناقة من تلك التي يرتدينها حينما يتجولن في الأثناء بملابس العمل: بلوزات فضفاضة بشعة، وتورتات طويلة، جميعها بألوان كثيفة داكنة أو ممثلة بزهور صغيرة كزهور البابونج الجافة التي توجد في الصيدلية، أو حبوب الشعير.

عند إلقائه نظرة مقربة على ملابسهن، كان واضحاً له أن تلك الملابس لم تُصنع خصوصاً لهن، بل تم شراؤها من الكشك نفسه الذي يبيع الملابس الرخيصة مثل التنانير المتلألئة والسترات القصيرة ذات الفراء المليء بالكتل. وفي أماكن متعددة منه ترى خيوطاً من القماش أو جيباً مقطوعاً. كل ذلك كان عبارة عن سلع استهلاكية حقيرة، ومن المؤكد أنها ليست لغرض الصلاة.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" بحذر الرجل المسن البدين عند أقرب فرصة:

- ماذا تفعل هنا؟ أتريد الجنس مع فتيات يرتدين فساتين أنيقة؟

ضحك الجميع ضحكاً محايداً رداً عليه؛ لم تكن الضحكات مهينة ولا مستاءة، ابتسمت العاهرات فقط بإحراج، واحمر وجه إحداهن ذات الحاجبين الذكوريين الداكنين.

تدخل "شوتوف" بابتسامة أظهرت سنّه الأمامية الوحيدة مجدداً قائلاً:

- سنتفاجأ أكثر يا "ماكسيم"، لكن كل فتياتنا صالحات والكثير منهن عذراوات.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالحرص أكثر مما شعر به منذ أن كان في العاشرة من عمره، ربما منذ أن أعطاه ابن جيرانهم الداعر مجلة جنسية ليشاهدها، وقام بطيئاً لتشبه آلة الفلوت، لكن "ماكسيم تي يرماكوف" ارتبك وأسقطها فانفتحت الصفحات على مرأى الجميع. في الأيام الحالية، عندما أصبح الجنس أخيراً حاجة عادية يمكن إشباعها بطرق متعددة، تخيل "ماكسيم تي يرماكوف" بأن هناك شيئاً ما غير لائق متعلق بالعذرية. شعر فجأة بالحرارة كما لو أنه دخل غرفة البخار في الحمام مرتدياً معطفاً صوفياً ثقيلاً.

سأل رجل يجلس في مواجهته بلهفة:

- اسمع، ألسنت أنت "يرماكوف" من لعبة الكمبيوتر؟

كان لذلك الرجل كتفان ضيقتان ورأس كبير غريب يعلوه جبهة مميزة صفراء تشبه غلاية مغلقة بالطين.

تمتم "ماكسيم تي يرماكوف" محاولاً أن يخمن ما إن كان الرجل يعمل لصالح اللجنة الخاصة:

- حسناً، أعتقد أنه أنا.

قال الرجل باستياء:

- حسناً، هذا هو السبب إذًا. إن لديّ طفلين، أحدهما في الصف السابع والآخر في التاسع، وهما يلعبانها، من المستحيل إبعادهما عنها. لم يعودا مهتمين بواجباتهما الدراسية، كما توقف ابني الأكبر عن ممارسة الملاكمة، هل تصدق ذلك؟ لقد اخترعوا وباءً حقيقياً! هكذا هو حال نصف طلبة المدرسة، وليس هناك ما يمكن فعله حيال ذلك الأمر!

نصحه "ماكسيم تي يرماكوف" بسخرية قائلاً:

- اكتب رسالة إلى الرئيس. دع الرئيس ينهي الأمر بأكمله. أنا موافق على ذلك كلياً.

تطلع إليه الرجل بعينين عاجزتين مرهقتين، يشوشهما ضباب الحزن الأبيض الذي أصبح يعانيه مؤخراً، والذي لا يتعامل معه جيداً. بدار رب الأسرة النحيف ذلك واحداً من هؤلاء الأشخاص الذين يتأثرون بعمق بالكلمات الجارحة ويأتيهم الرد المناسب بعد انتهاء الموقف، ويعانون كثيراً حتى يصلوا إلى تلك الردود، وأحياناً يلجؤون بياس إلى القضاء، حتى بسبب أطفالهم الذين شوهمهم البلوغ. وهم نوع معروف من البشر، لكن يبدو أنهم قد تطوروا بطريقة ما، لأن ملامحهم الصغيرة التي تبدو وكأن صخرة المنطق قد سوتها بالأرض، أفرجت فجأة عن ابتسامة.

قال الرجل شاعراً بالذنب:

- ما الذي أقوله؟ إنك تعاني أكثر مني بكثير بسبب لعبة "رأس فارغ". اسمح لي بتقديم نفسي: "إيفان أنتونوفيتش لوكين". فرد ليس له شأن عظيم: أدرس الجغرافيا في مدرسة "هيومانيتيز-Humanities" الابتدائية رقم 2. لكنني في خدمتك لو كان بإمكانني المساعدة.

بعد قول ذلك، نهض الرجل ومد يداً غليظة مغطاة بشعر أسود خشن إلى "ماكسيم تي يرماكوف". أمسك "ماكسيم تي يرماكوف" بحذر هذا الشيء الميت الحي، متخيفاً وهو يفعل ذلك فصلاً كاملاً من الحقييرين في مرحلة البلوغ الذين يعدون معلم الجغرافيا هذا مصدرًا لا ينضب من السخرية وهدفًا للمضايقة المستمرة. بعد ذلك، بدأ الجميع يحذون حذو "لوكين"، ينهضون ويقدمون أنفسهم. "جليب نيكولايفيتش"، و"فيتيا"، و"أيرينا"، و"سفيتا"، و"إيجور بيتروفيتش"، و"فولوديا"، و"إيليا" - لدقيقة شعر "ماكسيم تي يرماكوف" كما لو كانت الوجوه تدور في دائرة باتجاه واحد والأسماء تدور في الاتجاه المعاكس.

لا يهم، سينجح الأمر بطريقة ما. قُدِمَ إلى الضيف الجديد كرسيان من جهتين مختلفتين في الوقت نفسه، أحدهما جاف وضعيف، والآخر ضخم وتم تجميع أجزائه معاً، وعلى ظهره سترة طويلة على الطراز القوقازي. اختار "ماكسيم تي يرماكوف" الكرسي الخالي من الملابس مفكرًا بأنه من الواضح أن أحدًا لم يهتم هنا بالتأنيث.

كانت قطعة الأثاث الرئيسية طاولة ضخمة بيضاوية الشكل؛ تجمعت حولها المجموعة الغربية. والطاولة مغطاة بمفرش أبيض أبعث ما يكون عن النظافة ومجددًا مثل ملاءات السرير. كان على المفرش قطع فنية تتباهى بجمالها: سبع زجاجات "فودكا" مفتوحة بعناية، وكؤوس "فودكا" باهتة، وإناء بلاستيكي ضخم يحتوي على بيرة مصدرًا صوت قرقرة من داخله بين الحين والآخر. كما تكوّم بجانب كل ذلك على أطباق صفراء أو على المفرش مباشرة الوجبات الخفيفة: رقائق البطاطس، وقطع من السمك المملح، ونوع ما من السمك غالي الثمن ذي لحم ناعم أبيض، وسجق مسلوق ومقطع، ودجاجتان مشويتان، من الواضح أنه تم شراؤهما من محطة مترو الأنفاق.

أعطت الحياة الجامدة شعورًا واضحًا بالقرع. تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من معرفة المصدر من خلال الشم: كانت قطع السجق محترقة، وانتفخ السمك الأبيض الثمين حتى أصبح شبيهًا بالخبز الأبيض.

أعلن "ماكسيم تي يرماكوف" خوفًا من أن يبدأ هؤلاء الناس بتقديم هذا الطعام المقرف الذي لم يلمسه أحد تقريبًا له:

- بالمناسبة، لقد فسد السجق.

رفع "شوتوف"، الذي جلس على رأس الطاولة، يديه المفتوحتين مطمئنًا، لكن قبل أن يقول أي شيء فتح الباب ودخلت "ساشا" بعد أن بدلت ملابسها. كانت ترتدي وشاح رأس قرويًا بسيطًا للغاية حول رأسها وبدلت قلادة الخرز الزجاجي الفضة

بصليب صغير صفيحي داكن والذي بدا كذبابة معلقة بين عظمتي ترقوتها. كان وجهها من دون أي مساحيق تجميل، ولونه وردي لطيف مغطى بنمش بدا كأنه سقط من جبهتها على خديها كالرمل في الساعة الرملية. كانت تحمل في يديها إناء شاي صينيًا كبيرًا منقوشًا عليه زهورًا زرقاء.

قالت وهي تخطو بحذر بحملها الساخن:

- متأسفة على التأخير يا "فاسيلي كيريلوفيتش"، لقد أعددت بعض الشاي.

سارعت الفتيات الأخريات إلى مساعدتها، حيث وضعن المشروبات الكحولية في منتصف الطاولة، وظهرت الأكواب مختلفة الأشكال والأحجام أمام الضيوف في هذه الوليمة الغربية، بدءًا من أكواب "كوزنيتسوف" المطلية بالذهب المخصصة لشرب الشاي وحتى أكواب الأطفال ذات اللون الأزرق الباهت المنقطة بالأبيض. وضعت الفتيات شرائح خبز رمادي رفيعة للغاية ومشمشًا مجففًا على أطباق منفصلة. كان لون الشاي المنسكب من الإناء البدين بالكاد أصفر؛ أخذ بعض الحاضرين القليل من السكر على حافة ملعقة وأذابه في المشروب وامتتع آخرون. قبل بدء تناول الطعام صلى الجميع. تقاجأ "ماكسيم تي ييرماكوف" وهو يشاهدهم.

تذكر "شوتوف" وقال:

- آه، "ماكسيم"، هل أنت صائم؟

التقت "شوتوف" إلى "ساشا" قائلاً:

- هل هناك شيء يناسب ضيفنا؟

أجابت بذكاء:

- لدينا جبن طازج، أحضرته كي أخذه معي للمنزل، سأذهب لإحضاره.

قال "شوتوف" مخاطبًا "ماكسيم تي ييرماكوف":

- ستحضره "ساشا" في الحال. لكن لا تلمس أي شيء على المائدة، كل هذا مزيف. تحسبًا لحضور قوات الجيش المحلية لتقتيشنا أو ظهور أي دخيل.

سأله "ماكسيم تي ييرماكوف" غير قادر على الصمت أكثر من ذلك:

- لكن ما الذي يحدث هنا بالضبط؟ من أنتم؟ طائفة محرمة؟ أم أنكم لجنة خاصة أخرى؟ لقد ظهر اليوم أحد كبار ضباط جهاز الأمن الاتحادي مرتديًا صليبيًا في سلسلة ذهبية. أم أنكم وكالة الاستخبارات المركزية؟

- "ماكسيم"! بالطبع نحن لسنا تابعين لجهاز الأمن الاتحادي أو وكالة الاستخبارات المركزية. إننا مجرد ناس عاديين. على الرغم طبعًا من أن هذا هو أصعب شيء يمكن تصديقه. سأحكي لك القصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طُرد "فاسيلي كيريلوفيتش شوتوف" من معهد الأبحاث العلمية عند وقوع الإصلاحات السياسية والاقتصادية دون إعطائه "كوبك" واحدًا بل بعقدة نقص

حادة، وأعلن عن أنه مذنب لكل السنوات التي أمضاها في العمل على أصناف من الحديد غير قادرة على المنافسة، وقد ثبت عدم صحة ذلك فيما بعد. طلقته زوجته الجميلة - البدينة قليلاً - التي ظنت أنها تشبه "مارلين مونرو"، وسريعاً ما تزوجت رجلاً ألمانياً، تاجر أحذية ناجحاً. وعندما انتقلت لتعيش على نحو دائم في ألمانيا أخذت ابنهما "أليوشا" معها.

بعد أن امتصت أفكاراً متحذرة عن النظام الصحيح للأشياء من تلك الدولة المطاطية الفيدرالية الوردية، تمكنت من انتزاع النفقة الزوجية من "شوتوف" بحرفية، حتى عندما اضطرت إلى خصم لا شيء من اللاشيء الذي يملكه. عبر كل درجات الازدهار التي كانت تعيش وسطها حينها، لم تتمكن من الشعور بالطبيعة المينافيزيقية قصيرة الأجل لتلاعبها بالأصفار، في حين تمكن "شوتوف" - الذي مثل كثيراً بالفعل خلال تلك السنوات - من رؤية أن العالم يتم تأكله بنقوب سوداء صغيرة، لكل منها نفس عمق الكون.

كانت قصة "شوتوف" المؤسفة عادية تماماً، لكن بدأت الأشياء الاستثنائية تصيبه. بدأ فجأة برؤية أشخاص. أشخاص نظر إليهم طوال الوقت قبل ذلك: أحياناً في مترو الأنفاق لا يمكن أن ينظر أي من سكان موسكو دون مواجهة ظهر منحنى أو ركبتى امرأة ملتصقتين ببعضهما وفوقهما الكثير من الحقائق. ظهرت حشود الناس ثم اختفت كالبخار دون أن تتطلب أي مجهود ذهني منه ولا تمتلك أي استمرارية في المستقبل. الآن، زاد التعداد السكاني في موسكو حتى بدا كأنه قد تضاعف. بعد رفضه من قِبل معاهد الأبحاث والكليات وورش المصانع الباردة، لم يتعجل هؤلاء الرجال والنساء الاختفاء عن الأنظار؛ بملابسهم المختلفة، ووجوههم المصمتة، وأحذيتهم البشعة التي تبدو محترقة. لم يعد سكان موسكو يسرعون بخطواتهم في كل مكان، تزايدت التكتلات البشرية وبدأت بالاهتياج، مما سيمنع أي شخص على عجلٍ من المرور عبرهم.

في ممرات مترو الأنفاق القديمة الطويلة التي تصل بين محطتي مترو ظهر صوت مميز وحاد، الصوت نفسه الذي تصدره آلة نفخ إذا دخل فيها اللعاب. على الرغم من محاولات "شوتوف" كبت عقله العملي بالـ"فودكا" السامة، فقد أدرك فجأة بأنه لم يحتج إلى أحد كل هؤلاء الناس المنتشرين في الشوارع. كل واحد وواحدة منهم بمفرده تماماً، حالة منفردة، منظر قبيح يرفض أن يُنسى.

منغمراً بسكان موسكو وبالكاد مدركاً لذاته، عمل "شوتوف" في العديد من المهن: فك السيارات وتركيبها في محطة خدمات شبه إجرامية، حيث كانت تُحضر ليلاً سيارات أجنبية يملكها أشخاص مجهولو الهوية معبقة بعطور بشرية خانقة، وبحلول الصباح تكون قد تفككت كلياً ما عدا المقاعد، ثم تُلقى في كومة كبيرة؛ أعطى دروساً خاصة حيث أثقل فيها بالرياضيات المدرسة على عقول الفتيات ذوات الشعر المصبوغ التافهة على الرغم من مقاومتها العنيدة له. لكنه، عمل في معظم الوقت مندوب مبيعات يبيع شرائط الكاسيت ومعاطف فراء حريمي شبيهة بأكوام من القش الأحمر والبنّي، أو أعشاب طبية متعفنة معبأة في علب بلاستيكية داكنة. ذات مرة،

اقترب من الكشك الخاص به كاهن نحيف يعاني السعال وطلب منه أعشابًا لعلاج البرد. وأدرك "شوتوف" من خلاله بعد عدة أيام نوعية الأشخاص الذين يحتاج هؤلاء الأشخاص التافهون إليهم.

بدا الإيمان والحياة المكرسة للتقرب من الرب حالة طبيعية بالنسبة إلى "شوتوف"، مما جعل من الصعب عليه فهم كيف عاش قبل ذلك. سابقًا، كانت هناك الكثير من الأشياء في العالم مخفية وراء حجاب ضبابي وقد أصبحت كلها واضحة فجأة. رأى "شوتوف" أن الناس الذين يعدون أنفسهم غير مرغوب فيهم من أي أحد يصدقون بسهولة التشهير ضد أنفسهم وحياتهم ويعدون أي أحد يحصل على مال أكثر مما لديهم منصفين وأشخاصًا أفضل منهم.

شعر الناس بالذنب من الفقر ومن عدم مقدرتهم على تعليم أطفالهم أو إطعام آبائهم المسنين فأصبحوا في قمة البؤس: لم يغسلوا نوافذهم، ولم ينظفوا ملابسهم، وعانوا الأمراض لسنوات دون الذهاب للأطباء. كما أنهم لم يهتموا بنظافتهم الشخصية. تجاهل الناس باحتقار ما تقبلوه ذات يوم من وصايا الإنجيل، فيما يتعلق بمفارقة "لا تقتل" و"لا تسرق" وأعدوه شيئًا عابرًا أو آثارًا متبقية من أيام الاتحاد السوفيتي.

أوضح لهم الواقع الجديد أن القتل والسرقة هو ما ينبغي عليهم فعله بالضبط، وإن لم يتمكن أحدهم من فعل ذلك فبإمكانه ضرب نفسه على رأسه. أحد زملاء "شوتوف" القدامى من المعمل - أشار "شوتوف" إلى رجل بدين لا يبدو بصحة جيدة ذي شفتين بلون الحبر الأزرق التي تميز مرضى القلب. نظر مبتسمًا إلى كأسه في الطرف الآخر من المائدة وقال لـ "ماكسيم تي ييرماكوف":

- يكسب قوته عن طريق إجراء تصليحات بسيطة على تليفزيونات سوفيتية قديمة اخترق الغبار أجهزتها الداخلية، لكنه شعر بالخزي التام من عدم حيازته على سيارة "مرسيدس". لقد أصبح كون الفرد إنسانًا مكلفًا للغاية: مئات الآلاف، وملايين من الدولارات. لقد تم تقديم أبطال جدد لسكان "هذا البلد": رجال أعمال ناجحين، ورجال محترمين واثقين بأنفسهم ذوي عيون ذكية، مرتدين رابطات عنق رائعة وغالية، حققوا كل شيء ببساطة حسب زعمهم عن طريق الموهبة والمجهود.

كان تفكير الإنسان بأنه يجب أن يكون مثلهم كافيًا بأن يقوده للجنون، لكن في الظلام المغلف للحياة يدرك أنه فوت فرصة وفضل طريقه وتراجع بحثًا عن مفترق الطرق الصحيح، لكن يديه المتخبطتين ارتطمتا بالجدار.

"عليك ألا تكون ضعيفًا"، هكذا نصح الأبطال الجدد السوفيتيون غير المحظوظين وقد صدقهم الشعب الساذج، على الرغم من أن لدى معظمهم القوة الكافية فقط لقبض أيديهم الفارغة لتكوين قبضات قبيحة. أصبح من أسوأ الأخطاء أن تذكر أمانتك لتبرير فشلك: كان مرافقو الجيل الجديد من المطورين الأوائل، باهتي اللون كالبطاطس، على استعداد لقتل آبائهم بسبب ذلك، على الأقل في خيالهم. تم كبت الوصايا العشر كما لم يحدث من قبل، والنتيجة أن جسد الإنسان نفسه بدأ بالتغير

أمام أعين الناس: حدث شيء ما للعمود الفقري عند الرجال، حيث إنه لم يعد عمودياً، ونمت الشوارب لدى النساء.

بعد ذلك بدأ "شوتوف" المتحول بالبحث عن آخرين مثله في كل مكان، لأن الرب يمد الجميع بالقوة، لكن الشخص الضعيف يحتاج إلى الصحبة الدنيوية. قابل بعضهم في الكنائس، وظهر آخرون من حياته السابقة ممثلين بالتجاويد ويرتدون الثياب رثة؛ تمكن من التحدث إلى الآخرين بعد أن جذب نظراتهم التائهة الحائرة في محطة مترو الأنفاق.

أكد "شوتوف" على "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يملأ كأسه بشاي بني قائلاً:  
- يجب أن تفهم يا "ماكسيم" أننا لسنا طائفة، دائماً ما يدعي أصحاب الطوائف باحتكارهم للحقيقة وإعلان نهاية العالم في اليوم بعد التالي. إننا مؤمنون أرثوذكس عاديون، نحن نتقابل ونتحدث ببساطة مع بعضنا عن أمور روحية ودنيوية.  
سأله "ماكسيم تي يرماكوف" وهو لا يزال حائراً:

- لكن طالما أنكم مختبئون في كل الأحوال، لماذا لا تنضمون إلى دير؟ إن الأمر هناك قانوني ومن المرجح أن الشرطة لا تقتحم المكان بأحدثهم القدرة.  
- إن الأمر ليس بهذه البساطة، لن يقبلوا بالجميع في الدير. فمثلاً لا يقبلون أحداً معه أطفال صغار. بالإضافة إلى أن الموجودين هنا علمانيون، وليسوا مباركين من أجل حياة الأديرة.

ألقى "شوتوف" نظرة خاطفة حانية على مساعدته قائلاً:  
- ربما باستثناء "ساشا".

احمرَّ وجهها بشدة مما جعل "ماكسيم تي يرماكوف" يظن أن وجهها الصغير الممتلئ بالنمش يشبه فطر "الغارقيون".

ابتسم "شوتوف" وأمسك ذقنه بيده للحظة ثم أكمل قصته. ظل يرى الناس بالطريقة نفسها كما شعر برغبة ملحة في التحدث إليهم. أدرك أن جبال الذنب المزيفة تكومت فوق أكتاف الناس العاديين، بسبب انعدام نجاحهم، ولعيشهم في مجتمع سوفيتي قائم، ولاضطهادات "ستالين" واحتلال دول البلطيق ما منع أفكارهم من الوصول حتى إلى ذنوبهم الحقيقية. مع زيادة الثقل فوق أكتافهم، توقف الناس عن الاعتناء بأنفسهم، وبدأوا بتقبل كونهم مجرد نفايات، قمامة تافهة. ومع ذلك فإن ما انتوى "شوتوف" على أن يريهم إياه كان بسيطاً لدرجة تمنع من وصفه بالكلمات. كان كالهواء الذي لا يمكنك رؤيته أو الإمساك به. لكن "شوتوف" أصبح عنيداً. استخدم آلة كاتبة قديمة تنتج حروفاً مائلة، ملطخاً وملوثاً جبلاً من الأوراق. بحث عن التركيبات وتمكن من العثور عليها.

غالبًا ما أعده الناس بائعًا متجولاً مزعجًا يرتدي ملابس رثة، حيث كان يبدأ أحاديث مع غرباء متجهمين، باحثًا عن المشكلات، وتعرض للسباب كثيرًا. وذات مرة في

مناقشة ما مع بطلين شابيين حليقي الرأس وذوي رائحة فم كريهة للغاية، فقد أربعة من أسنانه وكسّر أحد أضلاعه.

قاطعه "ماكسيم تي يرماكوف" بسخط قائلاً:

- لكن ما فائدة كل ذلك؟ دع الكهنة يعظون الناس، إنها مسؤوليتهم المباشرة. على الكنيسة أن تفعل ذلك، ليس أنت!

عارضه "شوتوف" بهدوء وهو يدير عينيه محملاً في الفراغ قائلاً:

- ليس من السهل تقبّل الأمر مباشرة يا "ماكسيم"، لكن الكنيسة تخدم الرب لا الناس. إن مهمة الكنيسة الرئيسية هي الحفاظ على جوهر وشكل الإيمان من قرن لآخر. إن الدورة السنوية للخدمة الكنسية هي التمثيل والتجربة الحية للعهد الجديد، حتى يحدث كل شيء في المكان والزمان نفسيهما. بالطبع، تقدم الكنيسة يد المساعدة للفقراء والمرضى، بجانب العديد من التبرعات الخيرية. لكن في هذه الحالة، لا يمثل المعبد أكثر من مجرد مكان يتقابل فيه الناس ويأخذون عدة قرارات في مشكلات دنيوية على أساس خيري.

وأضاف:

- إن الاعترافات المسيحية الغربية متداخلة أكثر في الواقع الاجتماعي من الأرثوذكسية. إنه كالفرق بين العلم التطبيقي والأساسي. إن الأرثوذكسية متوجهة في الأساس تجاه الرب لأبعد حد. لكن الهموم الدنيوية هي ما تحفزني. أتظنني أزعج الناس؟ كلا، إنهم هم من يقتربون مني. كيف يمكنني أن أشرح لك؟ إنني أسير في طريقي أنظر من حولي وأرى أحدهم. أنظر إليه نظرة أخرى، وها نحن تعلقنا ببعضنا. إنه كالحب من النظرة الأولى، ولكنه حب أخوي، حب مسيحي. لا تظن أنني أتعرض للضرب كل يوم. إنني تقريباً لا أخطئ في اختيار الناس.

مع ذلك فقد اقترب "شوتوف" أخطاءً عدة. تعرف على زميل مفرط في النشاط يُدعى "كوزوفليف"، شاب معسول الكلام ذو شعر ناعم مُصفف الذي بدا - بعيداً عن سواد شعره الطبيعي - كأنه سكب زجاجة حبر على رأسه.

تمكن هذا الشخص "كوزوفليف" الذي يعمل ناقدًا سينمائيًا من إغواء "شوتوف" قليل التجربة بأن يحاول التواصل مع الناس بطريقة مختلفة عن مقابلتهم في الشوارع؛ سيذهب إليهم ولأبعد مسافة ممكنة. تلقت النسخ الأولية التي بدأت بالاصفرار والقَدَم هزّة شاملة فككت ما يكفي من الأسطر الجافة من أجل أربع مقالات في الجرائد والتي تم نشرها، على الرغم من ذهول "شوتوف"، كل واحدة على حدة في نسخ تم بيع نحو مائتي ألف منها. تابع ذلك ردود أفعال القراء العاطفية، أصبح "شوتوف" فجأة محبوباً وظهر في التليفزيون.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" في ذهول:

- كم هذا رائع! انظر فقط إلى ما يحدث أمام مكتبنا، هناك متظاهرون من جميع أنحاء البلاد ولا توجد كاميرا تليفزيونية واحدة. أخبرني أحد الصحفيين بأنني لست

خبرًا ذا قيمة، لم يدفع أحد مقابل ذلك بعد. أنا أفهم ذلك على كل حال. إنني لست طفلًا صغيرًا.

ذَكَرَهُ "شوتوف" وهو يرفع سبابته البنية في الهواء قائلاً:

- لا تنسَ يا "ماكسيم"، لقد كان ذلك في التسعينيات. كان كل شيء حادًا ومحتدمًا، فقد كان لأوهام النخبة المثقفة تأثير مباشر حتى في أبطال الأخبار ذوي القفزات الحريرية. في ذلك الوقت تمكنت بعض الأخبار الطازجة الحية من الوصول إلى الجرائد المطبوعة دون دفع أي شيء مقابل ذلك. لكن عليك أن تعرف أن ظهوري في الإعلام انتهى نهاية سيئة بالنسبة إليّ.

كان هناك خمسة ضيوف في استوديو التليفزيون الذي كانت إضاءته تبعث حرارة كحرارة الشاطئ في الصيف جالسين على منصة زجاجية تعكس الأقدام بطريقة كريهة. كان شريك "شوتوف" جالسًا على أريكة مغطاة بالكتان، وهو رجل بدين مهذب لديه وجه يشبه وجه القنفذ وشفائر شعر رطبة وخدّان ضخمان حليقان تمامًا لونهما أزرق.

عندما حان دور "شوتوف" للتحدث، تكلم بشغف وحيوية، لكنه كان مذهولًا بالكاميرات، مما جعل من الصعب عليه سماع أي أحد آخر. في الوقت نفسه، ظل الرجل البدين المهذب - من الواضح أنه كان ممثلًا عن أحد البنوك - ينظر إلى "شوتوف" بشهية متأججة متسارعة. عندما انتهى التصوير وأظلم الاستوديو، جذب جاره من مرفقه كامرأة.

أعلن بجديّة وهو يداعب كُمّ معطف "شوتوف" بإصبعه بحرارة:

- أنا من تحتاج إليه.

سأله "شوتوف" بمفاجأة:

- ماذا تقصد؟

كان دائمًا على استعداد للتحدث مع الناس، لكن فشل موظف البنك هذا في إثارة حتى ظل غامض من الحماس بداخل "شوتوف" الذي دائمًا ما كان سهل الانجذاب إلى أي شخص مهما كان.

ردًا على سؤاله غمز له موظف البنك بعينه التي لم تفقد تألؤها في الظلام بمرح، ثم سحب "شوتوف" المرتبك إلى غرفة معدات بها كابلات مغيرة ملقاة بتداخل على الأرض وطبق حساء تحول لونه إلى الأصفر كعظام الجمجمة وبداخله عقبا سيجاريتين جافتين. أوقف موظف البنك "شوتوف" أمامه وفحصه من شعره وحتى قدميه داخل حذاء جديد من جلد صيني مزيف، والتي رأى من خلاله أصابع قدمي "شوتوف" متشابكة. بدا موظف البنك وكأنه ينظر إلى "شوتوف" باعتباره كفازة ضخمة يزين بها شفته.

قال الرجل الغريب مختتمًا نظراته، راضيًا عن تفتيشه بوضوح:

- حسنًا، جيد جدًا، جيد جدًا. مقنع جدًا بالفعل. إن رجالنا يحبون مثل هذا النوع. كل ما تحتاج إليه الآن هو مدير ماهر وموثوق به.

صاح "شوتوف" وهو يشعر بأن هناك شيئًا ما منذر بالسوء يحوم من حوله:  
- من أجل ماذا؟

قال موظف البنك بابتسامة متعطفة:

- يا لك من أحمق، إن ما تريده ليس الخلاص أو النقاء. إنك تريد شيئًا آخر، وإلا، ما الذي يجعلك تظهر على التلفزيون؟ إنك تكتب في الجرائد أيضًا، وعظًا. يمكنك إنقاذ روحك من دون علاقات عامة، بل إن الأمر هكذا أفضل في الحقيقة، أليس محققًا؟

أجابته "شوتوف" سريعًا وهو يشعر بأن مساحيق التجميل على وجهه تحترق كالدقيق في مقلاة الطهي:

- نعم، إنك مخطئ في الواقع، لقد دُعيت إلى البرنامج فأتيت.

تجهم وجه موظف البنك بشدة، كأنه اكتشف في تلك اللحظة بالذات عيبًا سخيًا في غنيمته الجديدة. كما شعر "شوتوف" بأن الرجل الآخر أراد خدش تلك البقعة السخيفة بإصبعه ليرى إن كان بإمكانه إزالتها.

سأله موظف البنك بازدرء، مترجعًا للوراء في خطوة واحدة كالرقص:

- لماذا تتصرف بهذا التزمُّت؟ كان أي أحد آخر في مكانك ليغني من السعادة وهو ممسك بيدي. إن صناعة منتج شيء ولكن محاولة بيعه ليست بهذه السهولة.

قال موظف البنك مشرقًا فجأة ومحملًا في "شوتوف" باهتمام جديد:

- انتظر لحظة، من المرجح أن لديك ترتيبًا سابقًا مع "بيلوكوركين"، أليس كذلك؟  
أجبنى!

هزَّ "شوتوف"، الذي لا يعرف من هو "بيلوكوركين"، رأسه نافيًا ثم ذهب مسرعًا، قابل في طريقه عاملات في التلفزيون سريعات الغضب، حيث يكتبن شيئًا ما على أوراق مهلهلة وهن يسرن في طريقهن، وعربات متنقلة كثيرة ممثلة بشماعات معاطف ذات إطارات معلقًا عليها ملابس مغلقة.

فقد "شوتوف" إحساسه بالاتجاهات تمامًا وسط كل هذه الأغلفة المزعجة، تخيل في فزع أن مذيعي التلفزيون يتم تفريخهم من الشرائق الخسنة، حيث يرتدي كل واحد منهم نظارة متألئة وممسكًا بحزمة من أوراق الأخبار.

تعطل "شوتوف" بسبب كل هذا وتجاوزته موظف البنك عند البوابات، حيث أحرق "شوتوف" بحرارة الذكر ذي الصحة القوية المنبعثة من ثنايا معطفه المفتوح وهو يسير في طريقه، وضع قطعة ورق في يد "شوتوف"، وقد تمكن مع فعله لذلك من الضغط على أصابع "شوتوف" برقة. ظل ممسكًا بقبضته النحيفة للحظة كما مسكه

بمقبض. فكر "شوتوف" وكأنه مُخَدَّر بأنها نقود. اكتشف أنها بطاقة عمل شخصية مزخرفة بالذهب عليها شعار لبنك كان ملمسه لزجًا.

شقَّ "شوتوف" طريقه أسفل الأمطار الثقيلة، تشابكت مظلمته مع مظلات أخرى، تحول حذاؤه الجديد إلى مشمع منقوع، وظل يفكر طوال الوقت أن عليه الآن ببساطة الذهاب من أجل الاعتراف. تلك الليلة أتى المتحمس "كوزوفليف" مسرعًا، سأله عما حدث في التليفزيون واهتم كثيرًا بموظف البنك وطلب منه رؤية بطاقة عمله التي احتفظ بها. بعد ذلك تطورت الأحداث في اتجاه لم يتوقعه "شوتوف". تأكد من تأمين دعم موظف البنك له واشترى لنفسه معطفًا واسعًا أسود ذا كتفين مبطنتين مشابهًا لمعطفه، جادل "كوزوفليف" مع "شوتوف" بمرح من أجل إنشاء مؤسسة غير ربحية. فجأة، ظهرت النقود من العدم في حساب المؤسسة بالبنك. بدأ "كوزوفليف" بعمل شيء آخر بثقة شديدة. أجر مكتبًا صغيرًا مظلمًا، حيث فاحت من الجدران المغطاة باللاصق رائحة طهي لا تنتهي ووظف فيه سكرتيرة ناعسة وممتلئة كالحمام. بدأ شركاء "شوتوف" الذي لا يعرف عنهم أي شيء بزيارة ذلك المكان الكئيب، حيث يصاحبهم باستمرار رجال مفتولو العضلات يشبهون براميل جلدية سوداء مرتدية بناطيل رياضية قصيرة؛ ذات مرة ظهر شاب ذو وجه مبتسم بشدة ومجدد بصورة غير ناضجة، وطلب أن يناقش مع "المعالج" فكرة برنامج التليفزيوني الشخصي. توصل "شوتوف" إلى "كوزوفليف" و"السكرتيرة" "جاليا"، التي تقضي معظم وقتها تلعب ألعابًا تستدعي المهارة والصبر على الكمبيوتر، ألا يسمحا لرجل الأعمال بالدخول؛ لكن ظل الغرباء يأتون.

لسبب مجهول، تكثفت سحابة عداء رمادية غائمة فوق المنظمة. وفي مرتين، زار المكتب جنود يرتدون ملابس ممتلئة بالجيوب، وقد ألقوا نظرات خاطفة وقائمة من أسفل قبعاتهم المنخفضة تجاه الرموز الورقية الصغيرة المتلألئة في الركن؛ تم إرسال المبتزين إلى هناك في زيارات من أجل إيجاد الحقائق وهم شبيهين كثيرًا بشركاء "شوتوف" في العمل، لكنهم يتحدثون بأصوات متحشجة ومرتفعة عن قصد.

شقَّ جميع أنواع تجار البضائع الغامضة طريقهم لرؤية الموجودين في المكتب الواقع بداخل المبنى الصغير المنفصل الذي كان عفنًا كالفطر ومشقوقًا عند أحد أركانها، وذات يوم ذهلَّ "شوتوف" لرؤية امرأة ممتلئة ذات وجه ملطخ بالدموع تحمل حقائبها الثقيلة بالحركة نفسها المنفصلة المناسبة للنساء اللاتي يحملن دلاء مياه الآبار على جانب الطريق.

قالت، كأنها تعيد بالضبط كلمات موظف البنك الشرير وهي تضع في حقائبها ستراتنا الذهبية والحمراء التي لم يشتريها أحد:

- إنك لا ترغب في أي شيء إلهي، بل إنك ترغب في المال والسيارات الأجنبية والسياسة. ما الذي يحتاج إليه مخادع كبير مثلك من الإيمان؟ من المستحيل كشف حقيقتك، الشيء الوحيد الواضح هو أنك تجمع ثروتك من سذاجة البشر. هيا، فلتصبح أغنى وأغنى.

قالت ذلك وانطلقت مبتعدة ككوكب بقمريها الصناعيين المحشوين بالبضائع، اللذين بدأ في يديها وكأنهما منعما الوزن. لم يتمكن "شوتوف" من العثور على رد مناسب على تعليقاتها المجحفة المحزنة، ولم تظهر هناك مجدداً. شعر "شوتوف" بعدم الراحة والتشوش في المكتب.

شعر بأنه في عُقدة محلولة كلياً، وقد كان كذلك بالفعل. تولى "كوزوفليف" نائبه الرسمي كل الأعمال بنفسه ودائماً ما أبقى معه ختم المؤسسة الرسمي، قطعة الشطرنج الحقيبة التي تصبح ملكاً عندما ينفخ فيها "كوزوفليف" من أعماق روحه، ويعتصر منها أثراً بارزاً على وثيقة حسابات بخشوع هائل.

تلقى "شوتوف" نوعاً من الإعاشة وكان ممتناً لـ "كوزوفليف" عندما أخذه نائبه إلى المقاطعات ليعمل، ليخاطب الناس في أربع مدن في منطقة "الأورال". شاهد "شوتوف" في "الأورال" ضباباً ثلجياً بين قمم أشجار الصنوبر، أسفل السحب، وجدران المنحدرات المليئة بأعمال البناء الرائعة المعقدة التي كانت بلون أسود جميل وسط بياض الثلج، كما لو أنه قد تم خلط حديد خام مع الصخور، ولكن هناك أيضاً مداخل مصانع عملاقة سامية، وثلجاً متكدياً متناثراً عليه إضافات صناعية لاذعة، كما توجد تماثيل حديدية لعمال متآكلة بفعل الصدأ، وأعلام قدرة ثقيلة، مما جعل من الصعب على الرياح تحريكها وهي معلقة فوق مبانٍ إدارية.

وضع "كوزوفليف" "شوتوف" في فندق رخيص بُني في أثناء الحقبة السوفيتية وتركه بمفرده باقي اليوم. كان على "شوتوف" فتح صنبور المياه الساخنة مدة طويلة قبل أن يصبح السرسوب الهزيل البارد دافئاً. ألقى "شوتوف" خطبتين أو ثلاثاً في اليوم، دائماً في قاعات فارغة صغيرة حيث تصدر صفوف الجماهير جلبة قبل أن يبدأ، وكان الفضوليون يرفعون ستائر المسرح الكستنائية الفاخرة كتتورات النساء. ربما لأنهم كانوا يرتدون ملابس ثقيلة وداكنة، بدأ الناس في "الأورال" كمجموعة أقصر مما اعتاد على رؤيته، لكن كأفراد منفصلين كانوا طويلي القامة ذوي أكتاف عريضة وعظام خد مرتفعة ككماشات الحداد التي رآها "شوتوف" في المتحف، وشديدي التدقيق في معرفة جوهر الأشياء.

أدرك "شوتوف" هناك فقط أنه لم يكن يقدم أي نظام أصلي للفلسفة أو وصفة للحياة، لكن ليس هناك أصعب من محاولة إخبار الناس ما يعرفونه سابقاً. استمعوا إلى "شوتوف" بأعين ماكرة تنتقد من صفوف المقاعد وأرسلوا له الكثير من الأسئلة مدونة على قصاصات ورقية، وتساءلوا باهتمام شديد ما إن كان بإمكانهم شراء كتاب "شوتوف" هنا أم في موسكو. في عدة مرات، حين كان يدخل جامعة تكنولوجيا أو مبنى ثقافي سيلقي فيه خطبة، لمح "شوتوف" صورة لامعة لموظف البنك الطيب بجانب ملصق لأحد الأفلام السينمائية: كان وجهه المبتسم الممتلئ والمتورد مُنبأً أمام خلفية زرقاء وبدأ كأنه يقدم نفسه كرجيف خبز فاخر مستدير لكل الناس الطيبين الذين يتسلقون الدرجات الثلجية على ضوء المصباح الأصفر.

وقف "كوزوفليف" مرتدياً قبعة من فراء "المنك" في "الأورال"، متناثر على سطحها ندفات ثلج جميلة، متألئة بكل ألوان قوس قزح على خيوط الفراء الثمين.

أخذ يقول بحماس إن موظف البنك سيلقي خطبة في القاعات نفسها بعد "شوتوف" مباشرة، لكنه سيتحدث عن أمور اقتصادية. اكتشف "شوتوف" بالصدفة بمجرد عودته إلى موسكو أنه سافر ليعمل في حملة لصالح موظف البنك الذي كان يقدم نفسه بكونه مرشحاً مُنتخباً في الهيئة التشريعية لتمثيلية في روسيا الإمبراطورية، "الدوما". كانت تلك هي المرة الأولى، منذ أن تم تعميده، التي ضرب فيها الطاولة بقبضته بقوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قاطع "ماكسيم تي يريماكوف" قصة السكير الزائف قائلاً:

- انتظر، انتظر، طالما أن "كوزوفليف" هذا شخص مريب من البداية، لماذا أبقيت عليه معك إذا؟ بالإضافة إلى أنك تركت له الختم. عليك أن تعرف أنه كان بإمكانه توريطك في مشكلات قانونية كبيرة.

قال "شوتوف" وهو يرسم الصليب على صدره:

- كان الرب رحيماً بي. أما بالنسبة إلى "زينيا كوزوفليف"، فإن هذه هي الصورة التي أصفه بها الآن، كنظرة للماضي. لقد كان شاباً سريع الانفعال وطيب القلب، يحب الكلاب كثيراً، لقد التقط ذات يوم كلباً بساق مكسورة واعتنى به وساعده على تخطي الأمر، ولقد حزن حزناً شديداً لموته. وقع في غواية الكثير من الأشياء، لكنه لم يكن جشعاً، فقد كان يشتري كل أنواع الملابس الأنيقة ويهبها كلها للآخرين.

أصر "ماكسيم تي ييرماكوف" قائلاً:

- حسناً، لكن ماذا عن ذلك الأب المقدس المصاب بالبرد من البداية؟ لقد كان أستاذك، لقد قدم لك النصيحة. بعد كل ما حدث فقد كانت تلك مسؤوليته طالما أنك ذهبت إلى كنيسته. لماذا لم يحذرك من سقطة المؤسسة غير الربحية؟ أين كان ذلك الكاهن على أي حال؟

أوضح "شوتوف" بصوت يكسوه الاحترام:

- الأب "نيكولاوي". أتساءل ما إن كنت قد لاحظت أنني لم أذكر علاقتي بالأب المقدس على الإطلاق. إن الإيمان يعرض لنا كل شيء مهم لدينا في العالم من زاوية مختلفة غير هندسية. أتذكر أنني ذكرت العلم الأساسي؟ سأكون أحمق لو بدأت الآن بشرح كل ذلك لك بمصطلحات بسيطة. لا بد أن يتم الأمر بالتدرج من الأكثر بساطة إلى الأكثر تعقيداً. قد يقاوم عقلك العملي أشياء كثيرة. ستعوقك أدوات المنطق وكل شيء بنيته بمساعدتهم. فلتعرف الآن ببساطة أن الإيمان يغير المرء، ولكن ليس ظروف حياته المؤقتة.

شعر "ماكسيم تي ييرماكوف" بالشك فهو دائماً ما أعد الكنيسة نوعاً من المسرح المجاني للنساء المسنات. لكنه كان مهتماً بسماع ما حدث فيما بعد. كان ما حدث فيما بعد شيئاً يمكن لـ "ماكسيم تي ييرماكوف" توقعه بسهولة، على العكس من "شوتوف" الذي لم يفق من ذهوله بعد. كان الأمر كالحلم بالنسبة إليه، أقيم اجتماع واستبعد بعده عضوية المؤسسة. شعر وكأنه يحلم. إن الناس يعرفون "شوتوف" جيداً، عرفوه في مواقف كثيرة؛ العادية منها والغريبة، ولكن هؤلاء الأعضاء الآخرين، لم يكونوا طبيعيين.

فعلى سبيل المثال، لم يكن بإمكان السكرتيرة "جاليا" أن تكون عضواً مميزاً في المؤسسة، ولكن مع ذلك فقد كانت كذلك كما شاركت في التصويت، وقد تزين صدرها الممتلئ بقلادة ضخمة من أحجار الفيروز المتألئة التي لم يرها "شوتوف" ترتديها من قبل، لكنه رآها أو ربما كانت واحدة مماثلة لها، في نافذة عرض محل مجوهرات ضيق ككابينة مصعد اعتاد على المرور من أمامه يومياً في طريقه من المكتب إلى مترو الأنفاق.

التشوش الآخر الشبيه بالحلم؛ كان حضور "كوزوفليف" إلى الاجتماع حين عرفه "شوتوف" قبل أن يتقربا إلى بعضهما، كان صغيراً جداً، وأجش الصوت، ولم يتعرف على "شوتوف" بعينه السريعتين الرماديتين اللتين بدتا متسارعتين حينما كان يحصي عدد الأيدي المرفوعة بثبات كالأوتاد. بعد طرد "شوتوف" المذهول من المكتب حاملاً كوبه الشخصي والرموز الورقية المتجمعة معاً في ملف، لم يتمكن من التخلص من فكرة أن في اجتماعات الحلم كهذا الاجتماع هناك أمواتاً جالسين وسط الأحياء.

وبعد عدة أشهر أخبره أحدهم بأن السكرتيرة "جاليا" عندما كانت في طريقها إلى المنزل بسيارة أجرة، تعرضت لحادث مروع وماتت في حينها، وفوق ذلك، كان من

المستحيل معرفة ما إذا كان الأمر قد حدث الأمر قبل الاجتماع أم بعده.

مع ذلك، فقد كان للحلم تأثير في الواقع. لمرة أخرى ترك "شوتوف" دون أي دخل مادي، مع بعض الأصدقاء التعساء الشبيهين له الذين ظلوا يتوافدون ليلاً وهم يحملون معهم صفيحة ممثلة بالأسماك أو علبة دقيق الحنطة السوداء. أصبح صوت زوجته في التليفون قاسياً ومتصلباً فجأة. واجه صعوبة في تخيل شعرها الأشقر بعدما سمعها في التليفون، وبدأ له أن كل شيء بها كان مستعاراً.

على صفحات الجرائد، التي نشرت مقالات "شوتوف" سابقاً وتحول لونها سريعاً إلى الأصفر، ظهرت مقالة تتهمه بالمشاركة في صفقة بيع كحوليات بالجملة واختلاس جزء كبير من المال من "مريدين"، باعوا شققهم وممتلكات أخرى قيمة. بعدها داهمت الشرطة منزل "شوتوف" وأجرت بحثاً وقلبت كل ممتلكاته التافهة على الأرض وشقوا الدمية التي يملكها ابنه.

وقع "شوتوف" ومجموعته المتضائلة المضطهدة في فئتين؛ إحداهما من يشكلون الأغلبية الشعبية، الذين تم إقناعهم بأن أي حركة من معرفة أقل إلى معرفة أكبر تجاه اكتشاف الحقيقة هي حركة من جيد إلى سيئ، من النور إلى الظلام. واعتبروا "شوتوف" محتالاً استغل الإنجيل لإخفاء نواياه المادية الحقيقية. لكن هناك البعض منهم أدركوا أن "شوتوف" كان بالضبط ما أراد أن يكون، وقرر هؤلاء الأشخاص أن "شوتوف" شخص خطير، ولستة أشهر تم استدعاؤه من أجل مقابلات مع رجل هادئ ذي شعر سميك بلون اللحم المسلووق؛ وقد كان صورة مثالية للصحة المتأججة في ملابسه المدنية. كان الرجل يرتدي قمصاناً وردية تحت سترة بنية ممثلة بنقط بلون القمح.

استجوب الرجل الهادئ "شوتوف" بتهذيب عن مفهومه عن العفة المسيحية، واستعلم عن نوعية الأشخاص الذين كانوا يترددون على محاضراته، ومن كانوا، وكيف يبدون، وماذا كانت حاجاتهم. على الرغم من بساطة الرجل الظاهرة، فقد اخترقت عيناه الشفاقتان جسد "شوتوف" حتى قلبه الدليل، وفي كل مرة غادر "شوتوف" المكتب بتصريحه المختوم شعر كأنه تعرض للفحص مجدداً، تعرض لجرعة ضخمة من الأشعة، ولهذا السبب شعر بالضعف، كان تنفسه واهناً ورأسه يئن.

كانت الفكرة التي كان الرجل يحاول زرعها بسيطة: على "شوتوف" أن يتعاون ويقبل المساعدة من المنظمات الخاصة، وإن لم يفعل ذلك، فمن الأفضل أن يستغني عن نشاطاته الهاوية المستقلة، لأنها لن تقوده إلى أي شيء جيد.

فكر "شوتوف" مدة طويلة وأدرك ماذا كانت المشكلة: إن الدولة بعد تعافيتها من الثورات بدأت بتطوير صورة إيجابية للجميع، أحمر وأبيض وأزرق بزر كشة ذهبية، وأي مجموعة من المواطنين تقدم صورة إيجابية لأي لون آخر ستصبح معتدية على احتكار الدولة لرأس المال الرمزي ذي الأهمية العليا. بعد أن أدرك أنه علق في الأمر، حاول "شوتوف" لفترة أن يضع خططاً، ربما عليه بيع شقة

موسكو، ربما على العشر أو الاثنتي عشرة عائلة الهرب بعيداً؟ يشتري بعض المنازل في قرية مهجورة في "الأورال"، التي تحول لونها إلى الفضي بفعل الزمن. ويستقر وسط الأحجار الطبيعية الغربية وحفيف أشجار الصنوبر، والحصول على بعض الأبقار، ويجز العشب، ويصلي للرب؟

ومع ذلك، فقد تم حذف تخيل "الأورال" من رأسه عند إدراكه أنه من المستحيل ترك المستوطنين لحالهم، لأن ذلك سيكون أكثر من مجرد نشاط مستقل، سيكون استيلاء على أراضٍ. ستشعر الدولة بالتأكد بالفجوة الصغيرة في مخابأها الشاسع؛ وخزة السلب المؤلمة. كان بإمكان "شوتوف" رؤية رجال الشرطة على دراجاتهم النارية بجانب سيارات جانبية، وآخرين في مراكب ملساء ذات محركات؛ وتطويق الصحفيين المزعجين حول القرية وقوات مجموعة الاعتداء برؤوسهم المغطاة بالأسود وأكتافهم المغطاة بقماش التمويه. بدوا هادئين ولكنهم في الحقيقة كانوا مسلحين ومستعدين للعنف. بدا كأنما وصل إلى طريق مسدود.

وجد "شوتوف" الحل عندما اقترحه عليه رجل سكير، يرتدي معطفاً واقياً من المطر خفيفاً على غير العادة، حيث إنه لم يكن أفضل من ورقة في مواجهة البرد، ولديه فتحات في حدائه لا تزال مغطاة بطين الخريف الذي تحول للون الرمادي وأصبح جامداً كالأسمنت.

كان وجه الرجل الضئيل الذي لم يتبقَ منه شيء عدا بعض التجميدات والعظام الجاحظة يفصح عن مسيرة طويلة وشديدة كمدمن خمور؛ ويهرول من مخرج محطة مترو الأنفاق، جاذباً الزجاجات الفارغة المتروكة بجانب الحائط وعلى السلم بجانب الفتیان الذين يشربون البيرة ثم يضعها في حقيبة قماشية صرّ الزجاج بداخلها وهو يتعثر ويدفع الناس بعيداً عن طريقه. لم ينظر أحد إلى الرجل الضئيل، كان الناس محاطين بسحب من البخار الرطب المنبعث من مترو الأنفاق في شهر يناير المبثل، وهو يسير عبر برك المياه اللاذعة المشبعة بالمواد الكيميائية، وحتى الأشخاص الذين اصطدموا بالرجل الشبيه بالفزاعة ذي رائحة النفس الكريهة حولوا أعينهم بعيداً عنه سريعاً.

كل شيء متعلق بذلك السكير، من الحذاء المتهالك حتى الرقعة الصلحاء المكشوفة الشبيهة ببيضة في عش فوضوي، أثار مشاعر قوية من الشفقة على الحالة الإنسانية، وحتى مشاعر الازدراء؛ لكن مع ذلك، كان رجلاً خفياً، وحيداً بين الجميع.

في تلك الليلة، أخبر "شوتوف" أصدقاءه عن فكرته. لن يوافق معظمهم على أن يكونوا فاسقين منعزلين، كانوا مُحرجين ومرتبكين. مع ذلك، فقد قالت "ساشا"، التي كانت نائبة "شوتوف" الرئيسية والروح المشعة لهذا الجمع المُحبط بأكمله:

- إن هذا من أجل جعلنا متواضعين، علينا القيام بما يقوله "فاسيلي" وألا نظهر تكبراً أمام الخطاة الذين سنجسدهم.

بعد ذلك، بدأوا بتطوير قصة بيت الرذيلة كغطاء. اشتروا من محلات الملابس المستعملة الكثير من الملابس المتلائة المهلهلة وباروكات حقيرة مقابل القليل من "الكوبيكات" وأحضر أحدهم صناديق متهاكة تحتوي على مساحيق تجميل قديمة خاصة بالمسرح، مغطاة جميعها بغبار ملون. في البداية كان المنعزلون الجدد خائفين من الفضيحة والكوارث، لكن صدق العالم المحيط بهم سقوط "شوتوف" وشركائه المخلصين بسهولة شديدة.

كان جيرانهم بالكاد يحيونهم على السلم، حدقت النساء بسخط عند رؤيتهن "العاهرات" ذوات الملابس الضيقة وحاولن إعادة "شوتوف" إلى صوابه حيث يلجأن إلى ذكرى أبويه الراحلين وهن يجعدن أنوفهن تحت نظاراتهن الحديدية بسبب أنفاسه الممتلئة بالكحول. كانت "الفودكا" التي اضطر إلى أن يغسل بها فمه لجعل أنفاسه مقنعة ككرة نارية سميكة متأججة أحرقت لثته وصولاً إلى جذور أسنانه، وقد تحولت سيقان الفتيات المسكينات إلى اللون الأحمر بفعل البرد بسبب ارتدائهن الجوارب الشبكية.

لكن لم تقعد "ساشا" عزيمتها ولم تسمح للأخريات بفقدان عزيمتهن أيضاً، أطلقت على زميلاتها في بيت الدعارة لقب "مستكشفات القطب". بمجرد أن تنكر "شوتوف" من أجل دوره كسكير نموذجي، مرتدياً معطفاً خفيفاً واقياً من الأمطار، ولديه هالات سوداء أسفل عينيه، حتى التقى مصادفة بأحد أعضاء اللجنة المميزين. كان للرجل قبضة مثل قبضة يد طفل ممتلئ بعمر أربع سنوات، كان نسخة مصغرة من "سينيور بوميديور" الذي ظل يحاول اختراق كل بركة في الأرض بحذائه المطاطي، لكن حتى عندما كان الرجل يسير في الخارج حافظ على حذره المهني، وبدا الطفل كأنما ألقى القبض عليه.

لم يكن "شوتوف" قريباً بهذا الشكل في حياته من وقوع كارثة. ظن أن عميل الأمن الوطني سيتمكن من كشف حقيقته أسفل ملابسه الأنيقة. هذه المرة، ارتدى العميل ملابس مدنية عبارة عن معطف كبير مهلهل به شعر جعله يبدو كالحصان. ابتسم له العميل بالكاد عندما رأى الواعظ السابق وقد تدهورت حالته وأصبحت بهذه الوضاعة. كان من الواضح أن الأمر لم يثير أي أسئلة في ذهنه على الإطلاق. كما لم يشك أي أحد في أن مشهد الواعظ السابق الحقيقير يخفي تحته حقيقة أخرى.

قال "ماكسيم تي ييرماكوف" مجعداً جبهته وهو يعبث بإصبعه بالحلقات المنتقخة الباقية على الطاولة بجانب أدوات الطعام الغامضة:

- لكن حتى مع ذلك، أعتقد أن ذلك أكثر من اللازم.

كلما تعمق "شوتوف" في حكي قصة تجاربه ومحنه بأدق التفاصيل، تضاعل الجمع الموجود في الغرفة. ترك الحاضرون الطاولة ورسوموا الصليب على صدورهم في مواجهة الشمعة المحترقة ثم اعتصروا كنف "شوتوف" المائلة وألقوا نظرات خاطفة ذات مغزى على "ماكسيم تي ييرماكوف" من المدخل، لكنه لم يتمكن من فهم

ما الذي كانوا يحاولون التعبير عنه أو إيصاله بالضبط. أصدرت الفتيات جلبة من الأواني الفخارية المبللة في المطبخ في أثناء حديثهن معًا بأصوات جافة.

كان الأشخاص الوحيدون الباقون على الطاولة غير "شوتوف" و"ماكسيم تي يرماكوف" هم الرجل المسن ذو الذقن الأصفر، الذي يبدو من النوع المتقف ولديه أثر حرق، وقد كان يحملق بوداعة عبر نظارته الضبابية وبعينين بلون العطر نفسه، و"ساشا" التي تجلس مستندة بمرفقيها إلى المائدة وذقنها المدبب مثبت على أصابعها المتشابكة.

قال "شوتوف" باقتناع:

- قد يكون الأمر أكثر من اللازم وغريبًا ولكنه نجح. أتعلم يا "ماكسيم"، لقد ذهلت عندما وقع الحدث الذي كنت خائفًا منه في "الأورال" بالضبط في "بينزا"! أتذكر؟ رهبان "بينزا"، لقد ذكّر الأمر في جميع الصحف. لا يهم إن كانوا طائفة، لقد انعزل هؤلاء الناس في مخبأ تحت الأرض لعبادة الرب، وقد أطلقوا عليهم الصحافة والشرطة. أخرجوهم من جحورهم كالحيوانات، على الرغم من أنهم لم يكونوا يريدون إحداث أي ضجة، بل على العكس، أرادوا ترك العالم خلفهم. لكن العالم أتى وحاصرهم، لم يكن ليقبل بذلك الأمر.

احتج "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً، وهو يتذكر بنشوش برامج تليفزيونية عن هؤلاء الرهبان، وفتحة الكهف المخيفة في واجهة منحدر طيني، وشرائح البوليثين المجمدة، وجذور عارية شبيهة برقاقات الثلج المدلاة الذائبة بسبب جريان المياه عليها:

- لكن لنفترض وجود أطفال بينهم، كان من الممكن أن يمرضوا جميعًا.

صاح "شوتوف" بإيماءة من يده:

- بحقك يا "ماكسيم"، هل كان السبب الحقيقي هو الأطفال؟ كم عدد المباني غير الصالحة للسكن في الدولة، دون كهرباء، ودون مياه، وقطع من دهان السقف تسقط على الطاولات، وعلى الأسرة؟ من يهتم بما يحدث للأطفال الذين يعيشون هناك؟ ماذا عن الأشخاص الذين يُطردون من منازلهم؟

وأضاف:

- أعرف أسرة تعيش حياة تعيسة في حظيرة، لديهم فقط لوح خشبي يفصل بينهم وبين الأبقار؛ في الشتاء يُغطى الجزء الداخلي من الخشب بصقيع متجمد في سُمك فراء الخروف، لكنه لسوء الحظ بارد. ماذا يحدث لهم؟ منحتهم الدولة مساعدة مادية بقيمة عشرة آلاف "روبل". لا، لم يكن للأطفال علاقة بالأمر، إن الأمر بأكمله متعلق بالرسالة كما يقولون هذه الأيام. إن هؤلاء الناس لم ينسحبوا ببساطة ليعيشوا تحت الأرض، لقد فعلوا ذلك من أجل الإيمان، وفي الحال حاصرتهم أجساد مضادة، كفيروس خطير. كان ليحدث لنا الشيء نفسه، صدقتي يا "ماكسيم". عندما يحاول الناس أن يعيشوا في مجتمعاتهم بناءً على الإيمان، بنقاء وعفة، لا يفهمهم أحد. أما

بالنسبة إلى السكيرين ومدمني الخمر، فالجميع يفهم ذلك، وهم لا يهتمون بما يفهمونه، وهو ما نريده بالضبط.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" رافعاً كتفيه:

- حسناً، أنت تعرف أفضل مني. هل يمكنني الآن إعطاؤك بعض النقود من أجل مشترياتتي؟ بما أن لا أحد منكم يشرب.

ضحك "شوتوف" مجدداً مظهراً ذلك السن الوحيدة البارزة التي لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من الاعتياد عليها قائلاً:

- كلا، ماذا عن غسل الفم والمسرحية بأكملها؟ إنك تمدنا بكل متطلباتنا. لذا دعنا نترك كل شيء كما هو، وأشكرك على "الفودكا".

تدخلت "ساشا" رافعة يدها كطالبة بالمدرسة قائلة:

- "فاسيلي كيريلوفيتش" هل يمكنني أن أقول شيئاً؟ علينا بالطبع إخبار "ماكسيم" عن أنفسنا. لكن لماذا أحضرته إلى هنا؟ لقد كنت أسير في طريقي ووجدته جالساً على المقعد شاحباً كإصبع طيشور وهو يمعن النظر في مسدس. مسدس حقيقي! ولقد سمعت في المحل سابقاً أن هناك رجلاً تعرض لإطلاق النار في الفناء. مفترضون أن امرأة هي من أطلقت عليه الرصاص، مطربة معروفة.

قاطعها "ماكسيم تي يرماكوف" بحدة وهو يشعر بانقباض مفاجئ وعميق عند تذكره "مارينكا" وكيف أنها الآن من المرجح أن تكون متجمدة في الزنزانة بفستانها الأحمق:

- إنها ليست مطربة.

قالت "ساشا" بحزن:

- لقد تقوهت ببعض الحماقات يا "ماكسيم"، سامحني من فضلك.

زمر "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً:

- لا بأس، سأجاوز الأمر.

كان "ماكسيم تي يرماكوف" ملصقاً فخذه بالحقيبة التي تحتوي المسدس والذي أخذ يميله من جانب إلى الآخر، واستطرد قائلاً:

- لقد كنت سأمر عليكم اليوم حتى قبل حادثة إطلاق النار. في الحقيقة لم يعد لدي ما يمكن فعله.. لقد ظننت أن الأمور هنا هادئة، فأنا أحتاج إلى الاختباء حتى تمر الأزمة. الآن لا أعرف ماذا أقول حقاً.

نصحه "شوتوف" بجدية قائلاً:

- قل ما تفكر فيه، نحن لسنا عميان، بإمكاننا رؤية أنك في موقف سيئ. إن لدينا فكرة عامة عن سير الأمور عن طريق لعبة الكمبيوتر والجنود في الملابس المدنية على السلم. أخبرنا قدر ما تشاء وسنرى كيف يمكننا مساعدتك.

ألقى "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة خاطفة بعدم يقين على زجاجة "الفودكا" المفتوحة، وتساءل ما إن كان عليه شرب بعض هذه القذارة للإبقاء على شجاعته، لكنه تنهد وامتنع عن ذلك. اعتزم على أن يحكي القصة بأكملها في عشر دقائق على الأكثر، لكن تجسد أمامه مسخ أمن الدولة "كرافتسوف" برأسه الشبيه بمعدة حيوان ما وومض الماغنيسيوم في تجويف عينيه المرتعبتين بصحبة "المشوش" الذي لطالما كان في مكان ما في الركن متخفيًا صعب التخلص منه كالعنكبوت. ظهرت رتب المتنبيين الاجتماعيين بوجوههم البيضاء ورموزهم التي لم تصبح أكثر وضوحًا على الإطلاق خلال ستة أشهر. كما ظهر "فوفان" الكبير، قابضًا على الحافظات التي وجدها في قاع النهر كأنها صدفات سوداء خشنة. حاول "ماكسيم تي يرماكوف" إخفاء "لوسي" الصغيرة لكن حتى مع ذلك، ظهرت بهدوء، جالبة معها طفلها المميز، الذي قد يكون الآن حيًا أو ميتًا.

عند هذه النقطة من القصة، امتلأت عينا "ساشا" بالدموع وتوهجت في وجهها كعدسات مكبرة ضخمة ومحدبة؛ أتت الفتيات اللاتي كن يحملن الأواني من المطبخ وتزاحمن في المدخل، الفتاة ذات الرموش الداكنة التي تبدو تمامًا كدمية "ماتريوشكا" غبية والأخرى ذات الأنف الطويل التي يتذكرها وهي مرتدية سترة فضية قصيرة ضيقة، كانت تمسح دموعها بطرف غطاء رأسها كامرأة ريفية بسيطة.

استمع الرجل المثقف للقصة وهو يومض بعينه طوال الوقت، مما جعل عينيه الكبيرتين الباهتتين تبدوان كشاشتي تليفزيون تعرضان تشوشًا.. نخر الرجل ذو الذقن الأصفر بين الحين والآخر وكان ينظر أحيانًا إلى "شوتوف" بتساؤل، كأنه يستعلم عما إن كان عليه تصديق ذلك أم لا، أجابه "شوتوف" بإغماض عينيه في تأكيد. كان الشيء الوحيد الذي تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من عدم التقوه به هو العشرة ملايين دولار. في نسخته من القصة، كانت "لوسي" الصغيرة هي من سترت مدخراته، لأن إفراغ حسابه في البنك قبل "الانتحار" سيبدو مريبًا.

عندما تتكلم ويسمعك الآخرون، يمر الوقت سريعًا. ألقى "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة خاطفة من النافذة فرأى ضوء ما قبل الفجر الواضح الذي يظهر في الخامسة صباحًا في الصيف، عندما يكون كل شيء واضحًا ومميزًا ويبدو كأن حجمه قل للنصف. ذكرته شجرة القيقب التي تعلق فيها من قبل دولابه المُنْتَهك بقفاز أسود مقلوب. بدا الأطفال الذين يلعبون في الركن البعيد بعمق الفناء كقفص ممتلئ بقوارض تم تقكيكها.

كان مستمعوه يتثأبون بيأس؛ ارتعش أنف "شوتوف" وملأت الدموع عينيه، بدا المثقف يخنق بسبب حساء ساخن كان يحاول ابتلاعه. لكن، لا يجب التوقف عن سرد القصة قبل استكمالها: مُنَحَت كل شخصية من القصة بديلًا شفهيًا قويًا، وكان لـ"ماكسيم تي يرماكوف" رؤية ضبابية لهؤلاء البدلاء ودمجهم مع أصولهم في اللحظة الحالية، وأن كل شيء لم يتمكن من فهمه سابقًا سينكشف له.

في النهاية، وصل الحديث إلى تلك الليلة، أي ليلة أمس تحديداً: رأى الملازم "نوفوزيلتسيف" مجدداً حين كان مُلقى على الأسفلت ذي اللون الذهبي بفعل أشعة الشمس، وكان بإمكانه الشعور بنسخة "نوفوزيلتسيف" الكهربائية المضغوطة الملتصقة بصدر "ماكسيم تي يرماكوف" بتقريغ ألم موته كأنها لا تزال موجودة تتلألاً وتوخز قلبه.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" ببطء محدقاً في الطاولة المشوهة:

- صدقاً، أنا لا أعرف لماذا حماني بجسده، أشعر بالألم نحوه، لكن الألم لا يفيدني بشيء. بالنسبة إليّ، إن إطلاق النار على رأسي حتى مع افتراض أن ذلك سينقذ آلاف الأشخاص يبدو غيبياً بما يكفي. عليّ أن أرغب في فعلها بنفسني، لكن ليس لديّ أدنى دافع داخلي لفعل ذلك.

وأضاف:

- أحياناً أفكر في شيء كأنما ينبغي عليّ فعله، واجبي كأنسان وكل ذلك، لكن بعد ذلك في الحال يبدو لي الأمر مقرفاً وعبثياً، كأنني أرتدي ملابس شخص آخر. تكلم "كرافتسوف"، صاحب أعلى منصب في اللجنة الخاصة، عن نوع خاص من الحماس اليوم، حسناً، لقد أخبرتكم جيداً عما قاله لي بالحرف. حقيقةً، لست أفهم ما الذي يتحدث عنه.

قال المثقف فجأة بصوت محايد وهو ينزع نظارته المتشبكة بأذنيه الكبيرتين كمقابض العربات وبدأ بفرك العدسات بطرف قميصه كأنه أراد صنع فجوات فيهما:  
- لكنني أفهم.

قال الرجل المسن البدين بعد لحظة تفكير:

- أنا أيضاً أفهم، إن ذلك الشعور مألوف بالنسبة إليّ.

أجابت "ساشا" على نحو غير متوقع بصوت قاسٍ ومستاء:

- وأنا كذلك.

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" محدقاً بقلق في "ساشا" بعينيها الرطبتين الكبيرتين المتلألئتين: "يا لها من راهبة لعينة!"

لكنه قال بصوت عالٍ:

- إذاً، باختصار، فإنكم تحملونني الخطأ. لكنني أخبركم حقيقة نفسي ولن أخبركم أي شيء آخر. من المؤسف أنني حصلت على الفرصة، إنني لم أطلبها.

صاح "شوتوف" رافعاً يديه في احتجاج قائلاً:

- "ماكسيم"، "ماكسيم"! بحق الرب، لا أحد يفكر حتى في إدانتك. إن التصرف بنبل ليس كالتصرف بحرية. إنك شخص محترم وصادق. أنت تختار الحرية، وهذا حقك. لو تصادف أن تشاركنا شعوراً واحداً من مشاعر السيد "كرافتسوف"، فإن ذلك لا يعني على الإطلاق أننا متعاطفون مع اللجنة الخاصة. إنهم لا يريدون

حرمانك من حياتك فقط، بل من حريتك أيضًا، وإضافة إلى ذلك، ما الفعل الأكثر أهمية لأي شخص؟ الفعل الأخير النهائي. إنهم يضطهدونك ويطاردونك. في التحليل النهائي إنهم يستخلصون منك الفرصة لتحقيق تلك الحالة الروحية الرفيعة التي من دونها تكون التضحية بالنفس مستحيلة.

وتابع:

- ما العيب القاتل في كل اللجان الخاصة؟ إنهم يجبرون المواطنين على القيام بأفعال تبدو سامية لكنها في الحقيقة جوفاء وزائفة، وبهذا يسخرون من القيم التي خُلقوا على أساسها. لكنك تقاوم بشجاعة تستحق الإعجاب، إن القيمة العليا، استنادًا إلى ضعفك الروحي، هي التي تمتلكها الآن. لذا صدقني يا "ماكسيم"، الجميع هنا في صفك.

ابتسم "ماكسيم تي يرماكوف" ابتسامة عريضة حمقاء دون إرادته. لم يمتدحه أحد منذ مدة طويلة، لم يكن يتذكر منذ متى بالضبط. في الماضي اعتادت "إيكا" أحيانًا على ارتعاش ركن فمها الذابل وإجبار نفسها على مديح مرير؛ كما اعتاد "كراب" وهو يحك ذقنه أسفل عقدة رابطة عنقه بأظافره اللؤلؤية أن يتمتم: "لا بأس"؛ كانت "مارينكا" تغدق عليه بالمديح إذا احتاجت للمال. لكن كل ذلك لم يكن حقيقيًا.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة بالدفء، بل بالحرارة في تلك الغرفة الملونة بلون الورق المقوى نفسه، والمضائة بمصباح السقف الأصفر ذي الرقعات الهلالية الداكنة المكونة من الغبار المتراكم. ذكر نفسه بأن هؤلاء المعتكفين المتدينين الذين منحوه ملاذًا لم يعرفوا شيئًا عن العشرة ملايين دولار، لكن حتى بالنسبة إليه بدت النقود فجأة شيئًا دون قيمة، مما جعل ضميره يطهر نفسه من أي دنس. ما بدا مهمًا هو شيء آخر، وتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" أخيرًا من صياغة السؤال:

- حين أقاتل من أجل نفسي، هل أنا حقًا أقاتل من أجل نفسي فقط؟

أجابه "شوتوف" بتفكير:

- من الجيد أنك سألت يا "ماكسيم"، لا أعرف، لا يمكنني الإجابة في الحال. إنك بالفعل تنتمي لنوع جديد من البشر لم يوجد من قبل في روسيا. كان بإمكانك رؤيتك كأجنبي لو لم يصبح من هم مثلك الغالبية العظمى في جيلك. في السابق، في المجتمعات التقليدية، كان القتال من أجل الآخرين يعني القتال من أجل جزء كامل التصق ببعضه بعضًا بشيء أسمى من الجميع، حتى إن كان شيئًا همجيًا. لكن الآن، فإن الأمر متعلق فقط بخلاص الأفراد الأحرار، كل الأفراد، وهو شيء محتمل بالنسبة لله، ولكن ليس للإنسان.

وأضاف:

- أنت يا "ماكسيم" تقاتل من أجل الآخرين مثلما تقاتل من أجل نفسك في مواجهة وحش مدجج بالأسلحة، بما في ذلك أسلحة أخلاقية، وإن نضالك أكثر بأسًا من النضال البطولي للثلاثمائة إسبارطي، وليس بسبب الوحش، بل لأن الهدف متناثر،

ليس هناك عنوان واحد. أمنيتي من أجلك هي أن تعيش فترة طويلة كافية كي تدرك أن في تلك الأمور يكون الرب أفضل من الإنترنت.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" متجهماً:

- هذا ليس محتملاً، أريد أن أكون صريحاً معك، لا أريد أن أبدو أمامك بصورة أفضل مما أنا عليها. إنني بالفعل شخص عادي يشعر بالحزن من الآخرين، وبعضه من الرب، وبعضه من الكوارث، وبعضه من علاقات السبب والتأثير. لكنّ هناك شيئاً واحداً فقط أريده: الاختباء في مكان ما لستة أشهر ثم مغادرة البلاد. ليس لديّ أي حماس أو وطنية بداخلي. لا أرى سبباً يجعل هذه الدولة أفضل بالنسبة إليّ مما هي عليه بالنسبة إلى الدول الأخرى. أعتقد أنها أسوأ كثيراً. طرق وعرة، ورشوة، وقذارة في كل مكان، إن ضباط المرور وحدهم أعجوبة، بعصيانهم السحرية وحصولهم على عشرة آلاف "روبل" في الخفاء في كل مناوبة.

وتابع:

- كلا، سأبحث عن مكان أعمق، ثم بعد ذلك مكان أفضل. أنت ترى كم أنا حقير: لقد أتيت طلباً للمساعدة، لكنني لا أجاريكم، لقد أهنت مشاعركم النبيلة. لقد تعرضتم لذلك أيضاً، لقد أجبروكم على إنشاء بيت دعارة، وقد تكونون في الحقيقة مناضلين.

قال "شوتوف" بنعومة وهو يهز رأسه:

- إن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك يا "ماكسيم"، إن وطننا هو الإيمان الأرثوذكسي. بالنسبة إلى الإيمان، مثلما هو الحال في الإنترنت، لا يهم مكان وجود جسد الشخص طالما أنه مرتبط بالشبكة. تذكر ما اعتادوا على قوله: "من أجل الإيمان والقيصر والوطن". يأتي الإيمان أولاً، إنه الأساس؛ الهوية كما يقولون هذه الأيام. لكن هذا علم أساسي مجدداً، إنك لست مستعداً لذلك، لست في حاجة إليه.

تدخلت "ساشا" بخفة؛ ظهر من النافذة وراءها شعاع باهت من ضوء الفجر يبحث بتخبط عن فجوة ما بين سطحي مبنيين مائلين كخيوط يحاول الدخول في رأس إبرة. قالت:

- أجل، هذا صحيح يا "فاسيلي كيريلوفيتش"، لنتحدث أكثر عما حدث اليوم، وإلا فسنضيع الوقت في مواضيع عامة دون الوصول إلى ما علينا فعله من أجل "ماكسيم".

عند هذه النقطة، رفع الرجل المثقف الذي كان طوال هذا الوقت يعيثر بنظراته عينين مصابنتين بقصر النظر لهما لون معطر قديم وأطلق سعالاً عالياً جذب انتباه جميع الحضور. قال الرجل بطبيعية وهو يعيد نظراته القبيحة على وجهه على الرغم من أنها لم تصبح أكثر نظافة عن ذي قبل، ربما كانت فقط مستديرة بعض الشيء:

- ليس هناك شك فيما يجب فعله، إن الشاب بحاجة إلى مكان يعيش فيه لستة أشهر وأوراق شخصية تحمل اسماً جديداً. عزيزتي "ساشينكا"، أعطيني ورقة وشيئاً

أكتب به.

نهضت "ساشا" في الحال وبحثت في أرجاء المكان، ثم وضعت أمام الرجل المتقف وورقتين خاليتين وقلماً تذكاريًا قديمًا على شكل ريشة إوزة صفراء بلاستيكية. مال برأسه تجاه إحدى كتفيه، كتب المتقف سطرًا واحدًا أنيقًا ثم دفع بالورقة تجاه "ماكسيم تي يرماكوف". قال بغيرسة:

- احفظ ذلك الرقم ثم تخلص من الورقة.

بطريقة ما كان واضحًا في الحال أنه لم يكن من النوع المتقف على الإطلاق، بل ربما كان شرطيًا متقاعدًا؛ قويًا، أسمر، لديه عضلات ذابلة قليلًا لا تزال تحتفظ ببعض القوة ومتوترًا بعض الشيء، ثم استطرد قائلاً:

- بعد عدة أيام ستحضر لك "ساشا" تليفون، نظيفًا وغير مراقب ولم يُستعمل من قبل. ذلك التليفون سيكون من أجل مكالمة واحدة فقط. عندما تخرج على ضفة النهر وبعد أن تبدل ملابسك، استخدمه في الاتصال بالرقم الذي تراه أمامك. ستملى عليك بعض التعليمات. ليس هناك حاجة لكي تعرف أي شيء أكثر في اللحظة الحالية، إن هذا مبدأ أساسي في المؤامرات، أنت تفهم دون شك.

ابتسم المتقف المزيف ابتسامة عابرة وقال:

- لا تنظر إليّ مثل هذه النظرة الخائفة أيها الشاب، إن من دواعي سروري أن أزرع بعض الفوضى وسط رفاق اللجان الخاصة. من أجل كل الأشياء الجيدة التي اقترفوها في أفغانستان.

تمتم "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً:

- إنها ليست نظرة خائفة. أشكرك.

بالطبع كان ذلك الرجل ذو النظارة شخصية غريبة. إنه يتغير في كل مرة تنتظر إليه. ربما كان جاسوسًا سابقًا، ربما كان تابعًا للأمن الوطني أيضًا. إذا سيكون "ماكسيم تي يرماكوف" بين يديه بالكامل. لكن ما الخيار البديل الذي يملكه؟ لا شيء على الإطلاق.

أعلن صاحب بيت الدعارة بابتسامة مُخرجة:

- حسنًا يا أصدقائي، لقد انتهى فسوق اليوم.

كانت وجوه الضيوف شاحبة وبدت أجسادهم منتفخة بسبب قلة النوم حين بدأوا بالخروج في تخبط من المساحة الضيقة حول المائدة تاركين زجاجات الخمر المخزية كما هي بجانب الدجاجتين السمينتين والسّمك الأبيض الذي يبدو كنساء عاريات تم اغتصابهن حتى الموت.

سألت "ساشا" بصوت منخفض حين رأت "ماكسيم تي يرماكوف" في الممر:

- متى ستقفز يا "ماكسيم"؟

أجابها بحيادية متشبهاً بالحقيبة الثقيلة:

- قد أفعل ذلك خلال عدة أسابيع.

أدرك فجأة أن تلك لم تكن مجرد كلمات، بل إن كل شيء سيحدث بالفعل، وقريبًا جدًّا؛ شعر قلبه ببرودة شديدة مفاجئة، كدلو ألقى بداخل بئر.

قالت "ساشا" مرودة الهراء المعتاد لمثل هذه المواقف:

- لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام، من المؤكد أنك ستجح في الأمر.

بعد مرور أسبوعين، في منتصف أغسطس شديد البرودة، في الحادية عشرة والنصف ليلاً، اتجه "ماكسيم تي يرماكوف" حسب الاتفاق إلى جسر مترو أنفاق "ناجاتينو" بسيارته "التويوتا" القديمة التي سيهجرها للأبد الآن.

ظن أن السماء كانت تمطر: بدت الأمطار أسفل مصابيح إنارة الشوارع كإبر خياطة حديدية متناثرة بعشوائية، ولم يكن هناك أي شيء تحت بعض المصابيح الأخرى. خشخش "ماكسيم تي يرماكوف" وتغرق في بذلة الغطس الضيقة، وأغلقها حتى حلقة بإحكام سحابه العريض الناعم. أثقلت "المقلاة" - لوح من الرصاص بدت كأنما يُخبز أسفلها فطيرة ساخنة لاذعة - بقسوة على عصعصه. ارتدى "ماكسيم تي يرماكوف" على صدره سترة قطنية وبنطالاً متهاكاً من "الجينز" ذي سحاب لم يتمكن من إغلاقه بسبب المطاط السميك. بما أنه اضطر إلى ارتداء ملابسه في الظلام الدامس، في المساحة الضيقة من حمام "ناتاشا" المقرقر، مستخلصاً بذلة الغطس من مرحاض ذي ملمس مثلج. كان كل شيء ارتداه "ماكسيم تي يرماكوف" ملتويًا، مثلما كان حاله عندما كان في مرحلة رياض الأطفال، عندما كانت أيادي الغرباء المكترثة تهندم ملابسه الدافئة المهينة.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالخوف كطفل ذي أنف مليء بالمخاط. كان المسدس ملقى بجانبه على الكرسي الجانبي، كان مقبضه المضلع الأسود يتلألأ عند الانحناءات، وكان "ماكسيم تي يرماكوف" يلقي عليه نظرة جانبية خاطفة بين الحين والآخر. في اليوم السابق لركوبه الدراجة النارية إلى المكان البري، وهناك في ذلك الوادي البعيد بين النباتات وجذوع الأشجار المكسوة بالفطر الرمادي، نزع الرصاصات من المسدس بعناية، وأخفاها أسفل جذر نبات، وللتأكد، قام بإطلاق النار على فطر كبير أسود عدة مرات دون إصابته أي إصابات.

لكن حتى مع ذلك، لم يتمكن من التخلص من الشعور بأن بطريقة ما غير مفهومة بقيت رصاصة في المسدس وقد أخفاها المسدس الـ"ماكروف" بداخل خده المضلع كحلوى الكراميل.

تذكر "ماكسيم تي يرماكوف" ما فعله خطوة خطوة، كي يلهي نفسه عن الارتعاش والشعور بالغثيان. بعد زيارته الوادي عاد مسرعًا إلى موسكو، إلى شارع "أندروبوف" حاملاً حقيبة على كتفيه، وبداخلها حقيبة أخرى صغيرة تحتوي على ممتلكاته بعد الوفاة. بجانب البذلة الرياضية الملفوفة لتصبح وسادة مشدودة وعدة رزم نقدية، كانت الحقيبة تحتوي أيضًا على تليفون رخيص، ملفوفًا بعناية بين عدة طبقات من القماش والملابس.

اشترت له "ساشا" نموذج تقاعد قديم حيث خبأته في قاع حقيبة مشترياته. نظرت إلى "ماكسيم تي يرماكوف" بعينيها الملطختين بمساحيق التجميل كما لو أنها واقعة في الحب. كان من الأفضل عدم تذكر تلك اللحظة الآن. خبأ "ماكسيم تي يرماكوف" الحقيبة على مسافة قريبة من المكان المتوقع خروجه منه تحت كومة من أوراق الشجر المتجمعة والتي تكدست على مر السنين فكانت مجموعات صغيرة من القاذورات المتناثرة. مهما حاول جاهداً إخفاء كنزه الثمين، ومهما ألقى فوقه من زجاجات قديمة بلاستيكية وأوراق رطبة عليها آثار مؤخرات بشرية سوداء، فهو لم ينجح في إخفاء الحقيبة تماماً. تلك الليلة، كبت "ماكسيم تي يرماكوف" عدة مرات حاجته إلى الذهاب سريعاً إلى تلك الغابة غير الموثوق بها والتأكد من وجود الحقيبة وحملها بيديه. لكن جلوس الضابطين على السلام وتركيزهما الشديد، الذي جعلهما يبديان كأخوين توأمين، هو ما منع "ماكسيم تي يرماكوف" من التصرف بتسرع.

كان شعور غريب أن يودّع حياته القديمة. أصبحت شقة "ناتاشا" فجأة محببة إليه كما لو أنه نشأ بين المساحات الضيقة لتلك الجدران. لا تندمج مقتنيات المستأجر الشخصية مع شققهم المؤجرة، الأبعاد الثلاثية في مواجهة التسطیح، لذا إن أراد فبإمكانه جمعهم في خلال عشر دقائق، لكنهم الآن اندمجوا مع الشقة، بل أصبحت لهم جذورًا بداخلها.

كان عليه ترك العديد والعديد من الأشياء. الكمبيوتر الخاص به مثلاً، ذلك الكمبيوتر المحمول المؤلف، بلوحة مفاتيحه المتهالكة بفعل أصابع "ماكسيم تي يرماكوف" التي لم تترك سوى صدقات سوداء هي كل ما تبقى من الحروف. على سبيل المثال أيضاً، مجموعة رابطات العنق الحريرية مختلفة الأنواع التي لم يتمكن من ارتداء أيًا منها منذ أن أَلقت "ناتاشا" بملابسه من النافذة، تساءل عن مَنْ ستؤول إليه تلك المجموعة. تردد صوت جريان المياه في الأنابيب في معدة "ماكسيم تي يرماكوف".

بطريقة ما، وأينما نظر، كانت الطريقة التي تخاطبه بها الأشياء من حوله تجعل من فكرة موته الغريبة أكثر قوة. مقارنةً مع مادية شقته الباهتة كان المستقبل القريب فارغاً تماماً، كان مفتوحاً على مصراعيه أمام "ماكسيم تي يرماكوف" كسحابة ضخمة من الضباب الرمادي. لم يكن يصدق بأن ذلك الفراغ يمكن ملؤه بحياة جديدة: من الصعب عليه أن يتخيل السرير والجدران والمنظر المطل من النافذة الذين بانتظاره. لم يكن هناك شيء بإمكانه التمسك به، لقد أصبح خياله خالياً تماماً.

كان على "ماكسيم تي يرماكوف" الحصول على قسط من الراحة في آخر ليلة له في شقته وحاول جاهداً أن يغرق في نوم دافئ عميق ألقى بظلال خضراء أسفل عينيهِ، لكن بعد نحو نصف ساعة استيقظ وهو يشعر بأنه كان مسافراً بالقطار. أخيراً، في أعرق نقطة من ليلة ثقيلة ورطبة من شهر أغسطس وصلت لحظة الخدر العقلي التي فقد فيها "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة إيمانه بإمكانية شراء كل شيء بالمال.

لم يتمكن من الحصول على القدر الكافي من النوم على كل حال. كانت يداه القابضتان على عجلة القيادة باردتين مهما نفخ فيهما، وأحياناً كانتا تفقدان الاتصال برأسه التي كانت تحوم بالأعلى فوق السحاب. كانت "التويوتا" تسير بنتناقل في طريقها، وكانت شاحنة المتنبئين الاجتماعيين الصغيرة تتهادى خلفه؛ في الهواء الرطب تمدد ضوء مصباحيه الأماميين الكئيبين إلى بقع صفراء مشوشة مرتعشة. لكن مع ذلك ها هو ذا، جسر مترو أنفاق "ناجاتينو"، وقد وصل إلى منتصفه. لقد وصلوا. أوقف "ماكسيم تي يرماكوف" سيارته؛ مخترقاً كل قواعد الطريق المحتملة، لم تعد ذات أهمية بعد الآن. سأل نفسه بذهول وهو يترجل من دفء سيارته إلى الرذاذ الذي التصق في الحال بيديه وخديه بمادته الرطبة:

- هل سأقوم بذلك حقاً؟

انطلق إنذار السيارة. أظلمت "التويوتا"، كما توقف المتنبئون الاجتماعيون على مسافة قريبة، متناسين إغلاق المصباحين الأماميين الباكين اللذين يشبهان عينين ملتهبتيين لكلب مريض؛ وراء الزجاج الأمامي المغطى بالرذاذ، تخيل "ماكسيم تي يرماكوف" أنه رأى حركة ظلين متناسقة، كان أحدهما مرتدياً قبعة مدبية. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً:

- لقد نسيت المسدس.

على الرغم من ذلك فقد اتضح أن المسدس "الماكاروف" في يده اليمنى، مائلاً وسخيفاً، ولا يعرف في أي اتجاه عليه أن ينظر.

انحنى "ماكسيم تي يرماكوف" فوق الحاجز المنخفض. كانت المياه سميكة وسوداء كالفار، كان من المستحيل معرفة اتجاه التيار. تالأت الشقق المكتظة على الضفة الأخرى كالمشاعل، وكانت انعكاساتهم على المياه ناقصة ومشوشة بأضواء متقطعة. لم يكن يصدق بأن في مكان ما أسفل مكان وقوفه، تحت طبقة من القار كان "فوفان" مستعداً لإمداد الجسد الضخم الذي سيسقط في المياه بالأكسجين. أمر "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه وهو يلاحظ بركن عينيه خروج المتنبئين الاجتماعيين من شاحنتهما المربعة قائلاً:

- هياً، افعلها، توقف عن إضاعة الوقت.

كأنما باستطاعتها إيقافه، لكن حتى مع ذلك فقد كان اللعينان يقتربان منه سائرين على أطراف أصابعهما. كان ذو القبعة في المقدمة وكان الآخر الممتلئ خلفه يسير بتؤدة حاملاً مظلة مغلقة كما لو كانت حمامة سلام تجاهد من أجل الارتفاع والتحليق بعيداً: حينها فتحها أخيراً فوق قبعة رئيسه الحازم مصدررة فرقة هادئة، وفي الحال انفتحت المظلة المشدودة، كما لو أنها تفهم أهمية المهمة التي أوكلت إليها. حسناً أيها المناضلون، الآن سنتلقون ما تستحقونه، استعدوا لأن تُضللوا بشهادة أعينكم. كانت بذلة غطس "ماكسيم تي يرماكوف" تتن بسبب عرقه، لم تسمح له برفع ساقه المحنية على الحاجز المنخفض. مما جعل "ماكسيم تي يرماكوف" يستلقي ببساطة

على الحاجز على معدته وانقلب مسرعاً، وهو يشعر بحركة عشاءه الثقيل داخل معدته.

اقتربت مياه النهر في الحال، دبت فيها الحياة وبدأت بفتح شفتيها، فاحت رائحتها الأنثوية وتشوشت الأضواء السائلة كالزيت داخل مقلاة. كان "ماكسيم تي يرماكوف" بالكاد متشبثاً بالسور المثلج وإحدى يديه خلف ظهره وتمكن من الشعور بوضوح أنه لا يرتدي حذاءً حقيقياً في قدميه بل حذاء مطاطي تمكن من خلاله الشعور بخشونة الحافة المائلة. فكر مسرعاً قائلاً:

- الآن سأقفز دون إطلاق النار وسيقفز خلفي الوغدان وسينفذاني.

رسم بذراعه اليمنى الذي بدا فجأة أطول من الأيسر قوساً غريباً في الهواء. لمس جبهته خاتم معدني ثابت، ارتعش حاجبه أسفله واهتاج، وللحظة شعر "ماكسيم تي يرماكوف" أن آلة القتل المخيفة بأكملها بانتظار سبابته ليضغط على الزناد. همس "ماكسيم تي يرماكوف" عبر شفتيه المطبقتين:

- مهلاً، مهلاً، مهلاً.

ثم بدت جبهته المجعدة كأنما ركلها حصان.

لثانية من الزمن كان في الفراغ، ارتفعت معدته إلى صدره وكان الهواء الحاد يخترقه. كانت المياه السوداء تتسارع لأعلى تجاهه، وبدأت فجأة تنساب بصورة أسرع، ثم بعد ذلك شعر بالصمم بفعل انفجار أقوى بكثير من الطلقة. انفجر في المياه كعرض طلقات الاستغاثة النارية، متسبباً في سحابة كاملة من الفقاعات الرمادية والصفراء، وفي الأعلى أسرع المتنبئان الاجتماعيان ووقفا في المكان نفسه الذي تدرج من عنده المنتحر السمين فوق الحاجز. كان هناك شيء ما إنساني في ذلك، لأن دائماً ما يسرع الناس ليقفوا في موقع المأساة نفسه، كأنما بإمكانهم منع شيء بآثر رجعي أو على الأقل أن يفهموا ما حدث من الأثر الطازج الباقي في الهواء. مع ذلك، تبادل المتنبئان الاجتماعيان ابتسامة لدى رؤيتهما للبقعة المعتمة التي انتفخت في المياه والتي تشبه البقعة المعتمة على القمر بالأعلى وسط السحب، وكانت الابتسامتان متشككتين.

أصبح "ماكسيم تي يرماكوف" شيئاً معنوياً، كانت ذراعه مرفوعتين والسترة القطنية حول عنقه حين بدأ يغرق في المياه السميقة. من داخل المياه المظلمة ظهر ظل طويل يزحف بهدوء، امتدت يد مضلعة مغطاة بالمطاط وأمسكت بكتف "ماكسيم تي يرماكوف"، ثم وضعت جهاز تنفس بداخل فم الرجل الغارق الأزرق الشاحب. بعد التوقف للحظة، طرقت الظل على ظهر الهدف المستدير برفق فأفاقت هذه الهزة "ماكسيم تي يرماكوف" من سباته، لذا بدأ باستنشاق القليل من الهواء الصناعي.

كان رأسه الذي يشبه فقاعة لا شكل لها يرسل إشارات من الألم مستديرة غير متساوية إلى تكتل المياه المحيطة به. فتح الرأس عينيه الثقيلتين نصف فتحة في المياه: تمايل الظلام من حوله في تموجات غير منتظمة، وكانت إحدى هذه

التموجات المظلمة رجلاً يتحرك مسرعاً مقترباً بوجهه الزجاجي المسطح من "ماكسيم تي يرماكوف". في الظلام، تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من رسم تعبيرات منتقخة غامضة من وراء قناعه، وكان يبدو كسمكة في علبة مفتوحة. لم يتمكن من التعرف على "فوفان" بأنفه الكبير الشاحب وحافة جبينه الصلعاء التي تملأت في المياه الزيتية.

لكن لم يكن هناك شك من أنه كان "فوفان". كان يدير نفسه حول "ماكسيم تي يرماكوف" كشرائط أسود، ثم أمسكه من تحت إبطه وهو يتابع ضخ الهواء عديم الطعم من أنبويه إلى داخل "ماكسيم تي يرماكوف"، وظل يسحبه للأمام عكس تيار النهر القوي والوعر بصورة غريبة. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" عبر ألمه وشعوره بالغثيان بمياه النهر وهي تغسل ملابسه، حيث تتغلغل هنا وهناك في كل أنحاء بذلة الغوص المطاطية، ذكره ذلك بشيء بمنتهى الوضوح، شعور الشتاء في أثناء الطفولة، عندما تنزلق على منحدر صغير بقشرة ثلجية على بنطالك ويتغلغل البرد عبر الصوف والملابس الداخلية.

كانت السماء تمطر، وبدا كأن هناك ثلجاً خفيفاً يتسلل تحت المياه؛ على ضوء الشعاع الرفيع الأصفر الباهت المنبعث من المصباح المثبت في جبهة "فوفان"، انجرف نوع ما من الحديد المشوه ببطء، مغطى بثلج رمادي خشن. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بأنه كان يهذي ويحلم. حافظ جسده المتدلي المرتخي في قبضتي "فوفان" على توازنه بالكاد فوق القاع المظلم، لكن كل محاولة للتجديف إما بذراعه وإما بساقه كانت تقاطعها لكمة حاسمة من أعلى متسببة في تحويل قلب "ماكسيم تي يرماكوف" مؤقتاً إلى كتلة غامضة. سمح "ماكسيم تي يرماكوف" لنفسه بأن يُجر وهو تقريباً مغمض العينين، لكنه أحياناً كان يفتح عينيه كي يرى الظلام المحيط، وحينها، لمح على أحد الجانبين حركة شريط أسود مر من آخر بزعانف، وضوء مصباح شبحي، وأثر رمادي لفقاعات. بالطبع كان ذلك الجسد الثاني (أو الثالث، لأن من الواضح أن هناك جسداً كهربائياً آخر على هيئة آلة البوق، يبدو شبيهاً بكأس بلاستيكية حمقاء) وهمماً، نتيجة لرأسه المشوشة. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالغثيان، كانت معدته تتقبض بتشنج، كما كان هناك حبات جوز صلبة وحادة في أذنيه.

كانت الهوة السحيقة الزيتية السفلية، والندفات البيضاء، والنجوم الجميلة الحادة الصغيرة المتطايرة أمام دائرة المصباح، وغشاء سطح المياه للزج فوق رأسه والقمامة المنجرفة تتمايل وتتراقص. ذكره كل ذلك بشيء ما، ولكن ما هو؟ اليأس الذي شعر به ذات مرة؛ تلك الليلة حين غادرت "مارينكا". نفس شعور ما تحت المياه من البرودة الشديدة وقلب منقبض. بالإضافة إلى الغياب التام للزمن، هنا، في الظلام. كم مر من الوقت منذ أن بدأوا بالسباحة؟ ساعة، أم ساعتان، أم أبدية؟

في النهاية مال القاع لأعلى وبرزت أحجار مدبية مغطاة بقشور كأنها سقطت من القمر. كانت هناك سمكة صغيرة نائمة معلقة كملابس على أوتاد شبيهة بسيقان لزجة، وهربت في الحال، أما "ماكسيم تي يرماكوف" المجرور من تحت إبطه

اندفع خارج المياه الثقيلة الكثيفة مصدرًا شهقة مفاجئة، وأصبح ثقيلًا فسحب ساقيه وبقى جهاز التنفس واستنشق هواءً طبيعيًا رطبًا تفوح منه رائحة نار المخيم.

سحبوه على ظهره بخشونة حتى الضفة المنخفضة الممتلئة بأشجار صغيرة ممزقة ومبللة ولا معة على اليسار واليمين. توهجت نار المخيم كما لو أن هناك قطعة كبيرة من اللحم النيء تُطبخ بالبخار. ظن "ماكسيم تي يرماكوف" أن "فوفان" قد جُن. حينها رأى "فوفان" نفسه، كان يجلس ملتفًا بمعطف أسود قديم مهلهل ويمدد ذراعيه. كان جزؤه السفلي أحمر اللون، وكان جالسًا في اتجاه حرارة الفحم المشتعل؛ بدا كما لو أن هناك فلفلًا أحمر متناثرًا بكثافة أسفل عينيه، وكانت هاتان العينان تتجنبان "ماكسيم تي يرماكوف" بحذر وتبدوان كقطرتين من الزيت الداكن بداخل تجعديتين قرمزيّتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التفت "ماكسيم تي يرماكوف" إلى الرجل الذي جذبته بذهول. كان الرجل الغريب ذي عضلات ذراعيين بحجم مؤخرة رجل ناضج. خلع زعانفه وأسطوانة الأكسجين، ثم انتزع خوذته نصف المفكوكة بالفعل، ثم انشغل بإطلاق شعره القصير الأبيض الذي بدا شبيهًا بريش الدجاج. في الوقت نفسه، خرج ضفدع بشري آخر من النهر، حاملاً زعانفه اللزجة الضخمة في يده المرفوعة وقناعه على جبهته، وعلى بُعد مسافة قريبة كان هناك شخص ثالث يخرج من المياه، كان مجموعهم جميعًا ستة مخلوقات سوداء لامعة ترتدي أقنعة حمراء تبدو كالأضواء الكاشفة.

ساروا بتناقل وهو ملطخين بالطين وصولاً إلى الضفة المنخفضة المستنقعية، متخلصين من أجهزة الغطس الغريبة في طريقهم وهم يصرخون في بعضهم بعضًا بكلمات مبهمّة وبأصوات كنيية عالية. انحنى "ماكسيم تي يرماكوف" إلى الأمام فجأة، بدا عليه الألم وهو يأخذ هيئة الأورديون الصغير، وتدفق عشاؤه المرير من أحشائه على العشب الأشعث.

حين عاد إلى صوابه بعد شعور مقتضب بانعدام الوجود الذي قيّد ذهنه، رأى أمامه زوجًا من الأحذية السوداء بسيطًا كالأحذية المطاطية، متشبثة به أوراق شجر منقطة عفنة. ارتعش بقوة بسبب البرد من داخل بذلته المطاطية التي كانت تفرغ المياه. بدأ "ماكسيم تي يرماكوف" بالتلعثم والتخبط بنقل. جلس "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" القرفصاء أمامه ويدها متدلّيتان بين ركبتيه الصغيرتين المربعيتين وهو يراقبه باهتمام بالغ من أعماق محجري عينيه عديمي الشكل. قال وهو يتمايل بارتياح كأنه يتوانب:

- مرحبًا يا "ماكسيم تيرينتيفيتش". إذًا، لقد قمت بالأمر على كل حال، أهنئك. كان الأمر جميلًا، لكنه دون جدوى.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" متذمرًا بعينين جاحظتين ممثلّتين بالمياه لكبير حمقى البلاد:

- إذًا، كنت تعرف منذ البداية؟

أكد عليه الأحقق الرئيسي بتعالٍ قائلاً:

- بطبيعة الحال. في الواقع لقد كنا نتوقع قيامك بأمر مشابه، حتى أتى إلينا ذلك الرجل مهرولاً.

أوماً "كرافتسوف" باتجاه "فوفان" باقتضاب؛ الذي كان على وشك النهوض. استطرد "كرافتسوف":

- أتى إلينا مهرولاً وأخبرنا بأشياء عديدة، وبأن هدفكم سيقوم بالقفز في المياه كخدعة، وطلب مني أن يكون مدربه. بالمناسبة، لقد أتى إلينا في الليلة نفسها التي اصطحبته فيها إلى منزلك وأعطيته النقود وقدمت له شراباً. لقد عطر مكتبنا المتواضع برائحة "الكونياك" الفرنسية الخاصة بك. ما رأيك في هذا؟

عند هذه الكلمات، كان "فوفان" لا يزال منحنياً وغير قادر على أن يقرر إما أن يقف مستقيماً وإما أن يجلس مجدداً. ابتسم نصف ابتسامة مُحرجة ولمعت عيناه بسرعة كما لو كان يتلقى مديحاً شديداً.

نهض "ماكسيم تي يرماكوف" مستنداً إلى مرفقه المتكئ على فرع شجرة انكسر في الحال وجرحه. أطلق "ماكسيم تي يرماكوف" سبّة قذرة لا يمكن سماعها بين سكان بلدته الصغيرة القديمة، باستثناء سكانها من المدخنين بشراهة ومدمني الخمر.. قال:

- آه، أيها الوغد!

نظر مسخ الدولة الكبير إلى "ماكسيم تي يرماكوف" باهتمام محترم وهو يميل برأسه شبه الشفاف إلى أحد الجوانب وقطرات الأمطار تتساقط عليه وهي تشق طريقها بحذر. اقتربت الضفادع البشرية أكثر، واحداً أو اثنين وراء بعضهم، وهم يسحبون خلفهم المعدات التي لم ينزعوها تماماً فوق العشب الأسود؛ كانت أفواههم المفتوحة قليلاً في وجوههم الشاحبة المبللة تشبه فجوات صنعت بإصبع شخص ما. ارتعشت الابتسامة على وجه "فوفان" كسحلية مسحوقة أسفل صخرة وفي النهاية تجمدت متخذة شكل انحناءة غير طبيعية، وامتلأت عينا "يهودا" فجأة بحجاب مرتعش حقيقي وساخن من الدموع.

قال "فوفان" مناشداً الجميع بحزن وهو يقبض ويرخي قبضتيه البنيتين الغارقتين في أكمام معطف الأيتام الذي يرتديه:

- ما الذي يحاول أن يقوله؟ ما كل هذا الهراء الذي يتقوه به؟ لقد علمته، وحملته، لم يكن بإمكانه فعل أي شيء. إنه مجرد كومة من البراز! كان سيموت اليوم لو لم أعمل بكد من أجله! يا له من ممثل! أين الكاميرا؟ ليس هناك كاميرا. كل هذا هراء تام.

هز "فوفان" الكبير كتفيه لأعلى فرفع معطفه حتى أذنيه اللينيتين المشعرتين.

رَبَّت "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" على ركبتيه ثم نهض ببطء حتى وقف مستقيماً وقال:

- حسناً، دعنا نقول إن بإمكاننا رمي ما حدث وراء ظهرنا يا "ماكسيم تيرينتيفيتش".  
لحسن الحظ فإن الضرر قليل: ضاع مسدس "ماكاروف" في النهر ولا توجد طريقة  
لاسترجاعه. خذ واحداً آخر، وحافظ عليه.

أخرج مسخ أمن الدولة شيئاً من جيب بنطاله الغريب، وكأنه يخرج من حوض ما..  
كان مسدساً أسود قاتماً، أقبح من المسدس السابق. وصل أحد المتتبعين الاجتماعيين  
في اللحظة المناسبة بالضبط وتناول المسدس البغيض ثم وضعه في يد "ماكسيم تي  
يرماكوف" القذرة والواهنة كسمكة زينة. كان ذلك المسدس "المكاروف" أحدث من  
السابق الذي غرق، وشعر "ماكسيم تي يرمماكوف" بأنه أثقل بعض الشيء. كان  
معبأ بالموت، كمحفظة عملات نقدية. كان أحد جانبي المسدس دافئاً، كان ذلك مقنياً،  
نوع من الدفء الكيميائي المستخلص من جسد ذكر غير مكتمل النمو مخبأ تحت  
ثنيات خشنة من القماش، أسفل معطف واقٍ من الأمطار لامع كحديد صلب. ملمس  
ذلك الدفء المحتجز في المعدن جعل "ماكسيم تي يرمماكوف" يقشعر.

قال رئيس الحمقى بسخرية عند رؤيته رد فعل "الهدف":

- لا تتقياً الآن يا "ماكسيم تيرينتيفيتش". إن مسدسي الآن أصبح صديقك المقرب.  
صدقني، إن راحتك في النهاية وأهم لحظات حياتك تعتمد على قابليته للاستخدام.

قال "ماكسيم تي يرمماكوف" بصوت يشبه النعيق وهو يشعر بفقاعة من الغثيان  
تدور ببطء داخل رأسه:

- عليك اللعنة.

في تلك اللحظة، اهتزت الأشجار وخرج من بينها أحد المتتبعين الاجتماعيين ذو  
نظارة بيضاوية مغطاة بالبخار فوق وجهه شبيه بالمنبه. كان ينظف شيئاً ما في كُمه  
البدن. أمسك بشريط حقيبة "ماكسيم تي يرمماكوف" الملفوف والتي كانت مشقوقة  
على نحو مفرع من أحد الجانبين. تبع الرجل ذا الوجه المستدير رجلاً آخران  
يشبهانه. غرزا رمحيهما في الأرض بسرعة ثم بدأ بركل الأرض بقدميهما بشدة من  
أجل تنظيف أحذيتهم من القمامة المبللة والطين والعشب.

أعلن ذو الوجه المستدير وهو يعرض اكتشافه التافه لرئيس الحمقى قائلاً:

- ها هو ذا يا "سيرجي يفجينيفيتش"، لقد مررنا بمتاعب كثيرة من أجل العثور  
عليه.

قال رئيس الحمقى مُنهيئاً الأمر:

- حسناً، لقد انتهينا هنا. اصطحبوا "ماكسيم تيرينتيفيتش" إلى منزله، واعرضوه  
على طبيب ولا تنسوا إيصال سيارته إلى الفناء.

التفت إلى "فوفان" وسأله بصوت مختلف قاسٍ، حيث كان "فوفان" يحوم بقلق ويمد  
رقبته المحتالة خارج ياقته المتسخة:

- ماذا؟

شرح "فوفان" بتذلل وهو يختطف نظرة جانبية تجاه الرجل ذي الوجه المستدير الذي أحكم قبضته على الشريط:

- أرجو المعذرة، ولكن المال هناك، في الحقيبة.

وافقه مسخ أمن الدولة ببرود قائلاً:

- المال هناك بطبيعة الحال، أعط "ماكسيم تيرينتيفيتش" ملكيته الشرعية يا "كوستيا".

سار الرجل مستدير الوجه الذي استجاب لاسم "كوستيا" بهدوء ووضع الحقيبة أمام "ماكسيم تي يرماكوف" الذي لم يمتلك القوة الكافية كي يستحوذ على ملكيته المسترجعة.

تحدث "فوفان" مجدداً وهو خائف للغاية على الرغم من وجود نبرة غضب متصاعدة في كلامه:

- أرجو معذرتك مجدداً، إنه يدين لي بنقود مقابل التدريب. يمكنني إحصاؤها الآن بسرعة بوجودكم، عشرة آلاف كما اتفقنا. لقد وعدني بإعطائي إياها اليوم، وهو لن يقوم بذلك فيما بعد! لقد مضت عشر سنوات حتى يدفع لي ألفين تافهين!

رفع "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" حاجبين غير موجودين على جبهته وثبت عينيه المغناطيسيتين على "فوفان". مرت لحظة سكون. توقف الحفاران من ركل الأرض وتجمدا في مكانيهما. حاول الرجل ذو الوجه المستدير أن يسمح نظارته الصغيرة بأصابعه الباردة، مما جعل عدستها تبدوان ملتويتين وممتلئين بالرغوة، ثم أخذ منديلاً مستعملاً من جيبه وبدأ بفرك العدستين بجدية فأصدرتا صريراً، وجمّع القذارة الدقيقة على الجوانب.

تمتم "فوفان" وهو ينظر حوله ليرى وجوهاً منفصلة، تبدو حرفياً كالحجارة البيضاء:

- ماذا؟ ماذا؟ كل ما أريده هو ما أستحقه، ما اكتسبته..

قال رئيس الحمقى بصوت حنون مخيف:

- استمع لي جيداً يا سيد "كوليزنيكوف"، ما فعلته من أجل السيد "يرماكوف" يسمى خيانة. أنت خنته بنفسك، بإرادتك الخاصة تماماً، لم يجبرك أحد على فعل ذلك. هل كنت تظن أننا سنتعامل معك كواحد منا؟ يا لك من رجل ساذج. لا أحد يحب الخونة، وكذلك نحن.

صرخ الرجل بصوت مخيف في "فوفان" الذي هرب باتجاه الحقيبة بوجه منتحب قائلاً:

- إياك أن تجرؤ!

تجمد "فوفان" في مكانه حيث بدا مثل الفزاعة المنتصبة وسط حقل خضراوات بمعطفه المزري. حاول أن يقول شيئاً، لكن تحرك فكه باضطراب ما جعل وجهه

يبدو كرغيف أسود مستدير يُقطع منه شريحة من أسفله بسكين حاد. كان واضحاً أن منظر الحقيبة التي لا يملك الوصول إليها يسبب له معاناة جسدية.

قال بأنين مخاطباً "ماكسيم تي ييرماكوف":

- حسناً إذاً، لقد كنت مديناً لي بألفي دولار، والآن أنت مدين لي بعشرة آلاف. سنصفي أمورنا ذات يوم. سوف أكس لك الفوائد بكثرة، ستضطر إلى أن تسير في شوارع موسكو بمؤخرة عارية. سأغرقك أنا بما أنك لم تُغرق نفسك، أيها الوغد اللعين.

بعد ذلك اقترب وجه "فوفان" الكبير البشع وتشوش، فاحت رائحة نفاذة من عطره اللاذع المقيت، وفقد "ماكسيم تي ييرماكوف" كل تواصل بينه وبين الواقع وهو ينحرف على ضفة النهر بموجة سوداء.

كان الشعور بالمرض مقرفاً. الأزيز عالي الفولت في كل خلية من خلايا جسده الثقيل، تعب عظامه، دوار عينيه الثقيلتين المؤلم، وملاءة السرير المتعركة. تقياً "ماكسيم تي ييرماكوف" باستمرار؛ كان ببساطة يفرغ كل ما بداخله، وكان هناك في كل مرة بجانب السرير وعاء غريب برتقالي مرسوم عليه زهرة بحجم الكرنب ذات تأثير مخدر. جعل ذلك الوعاء الغريب شقة "ناتاشا" التي تركها "ماكسيم تي ييرماكوف" للأبد في حياة سابقة تبدو كعالم صناعي تم تزييفه بغرض الخداع المعقد.

كان السقف في الغرفة الحقيبة التي يرقد فيها مرتفعاً للغاية، ورسومات ورق الحائط أكثر حيوية؛ ظلت تنمو وتتفرع بين الحين والآخر، كعلاقات السبب والتأثير، أو تمتلئ باللون الأحمر كأنها شعيرات "ماكسيم تي ييرماكوف" الدموية. حدث الشيء نفسه عندما ارتطمت يد "ماكسيم تي ييرماكوف" بمجلد ثقيل فُفُتِح دون قصد منه. لم يرَ منه سوى حروف السيريلية الحمراء على ورق أبيض لامع. انزلق المجلد وسقط محدثاً صوتاً عالياً على السجادة البالية المجاورة للسرير، وقد خطا "ماكسيم تي ييرماكوف" فوقه حين كان يحاول شق طريقه للذهاب لقضاء حاجته.

ساعد فاعلو خير غامضون على هيئة هياكل مشوشة ذات أنفاس ثقيلة "ماكسيم تي ييرماكوف" وأمسكوه من تحت مرفقيه المتباعدين وسحبوه إلى الحمام، حيث لم يتمكن المريض ببساطة من أن يصيب فوهة مرحاض حمام "ناتاشا" القذر ببوله المتدفق المتذبذب.

كان بالشقة - أو أيّاً كان المكان - كذلك بعض الأشخاص الغامضين الذين لم يتعرف عليهم. كانوا يجرّون أقدامهم ويحركون الأغراض من أماكنها ويتمتمون بأصوات غليظة وعسيرة الفهم. رَفَعَت يد رجل مُشعرة بها ساعة معدنية بحذر ملعقة كبيرة تحتوي على خليط سائل مرتعش إلى شفتي "ماكسيم تي ييرماكوف"، وحملت يد أخرى صحناً، ربما تنتمي تلك اليد الأخرى إلى أحد رجال الأمن الوطني، أو ربما لا. شعر بنبض تلك اليد وهي ترفع رأسه؛ كان نبضاً ناعماً وكأنها يد طفل صغير.

في الليل، جلس بالغرفة ضابط على المقعد ذي المسندين؛ بدا وكأنه كومة من المعاطف المَهْملة. أحياناً، كان يتخيل أن تلك الكومة هي في الحقيقة امرأة صغيرة في السن، ذات وجه ممتلئ شبيه بوجه السنجاب. وأنها تجلس متصفحة مجلة ذات ألوان زاهية. كان هناك زائر واحد مميز عن الآخرين، من الواضح أنه الطبيب: كان لديه شارب رمادي يبرز أسفل أنف طويل، وهو ما جعلهما يبدوان كخرطوم فيل يرفع حزمة من التبن بفمه. رفع ذلك الطبيب الافتراضي سترة بيجامه "ماكسيم تي يرماكوف" ونقر بإصبعه على طبقات دهونه الذائبة مستخلصاً أصواتاً مضغوطة عميقة؛ ثم أدار كرة صغيرة باردة للغاية وشائكة على جسد "ماكسيم تي يرماكوف"، حيث كان يحملها في يده، وفي الوقت نفسه يراقب شاشة تعرض صورة أحشاء "ماكسيم تي يرماكوف" الشبيهة بإقليم جغرافي يحدث فيه انفجار بركاني في الليل.

بالإضافة إلى الأشخاص الذي كان يراهم - أو يتخيلهم - كان هناك حيوان ما صغير في الشقة، على الأغلب قط سمين. لديه عادة الاستلقاء عند قدمي "ماكسيم تي يرماكوف" الماكرة، حيث يثقل البطانية، وأحياناً كان يحاول الاستلقاء على الوسادة التي كانت غير مريحة كجوال من البطاطس. كان "ماكسيم تي يرماكوف" يدفع الحيوان بعيداً عنه رغبة منه في عدم مشاركة مساحة سريره السيئ معه، حينها كان يقترب شبح آدمي بهدوء، ويحمل الحيوان بيديه ويعيده إلى السرير مجدداً بنعومة وحميمية بجانب الرجل المريض حتى يتمكن إذا أراد، أن يمرر يديه على الفراء الناعم المحبب. كانت هذه مجاملة غير ضرورية؛ لم يكن "ماكسيم تي يرماكوف" يطبق القطط، وخصوصاً السوداء منها، وكان هذا القط أسود دون شك، أسود كالشيطان، بالإضافة إلى كونه ثقيلاً. لكن "ماكسيم تي يرماكوف" لم يكن يملك القوة ليعبر عن أي احتجاج: أمسك الطبيب المزعوم برسغه الواهن ثم أفرغ في عرقه المنتفخ محتويات وردية من حقنة صغيرة ثم غمره الصمت والظلام والنوم الهادئ.

كان أحد زوار هذه الشقة مألوفاً بل محبباً لدى المريض، ولم يكن يعلم ما إذا كان حقيقياً أم كان نتيجة هلوسة بسبب الحمى. ظهر من مكان ما خلف الجدار رجل نحيف مسن مرتدياً بذلة بنية بالية قليلاً، لديه ذقن بارز كقطعة بسكويت مالح، ونقر بعصاه على ساق الحارس الليلي لينهض عن الكرسي ذي المسندين. حملق المتنبئ الاجتماعي المطرود في الرجل المسن وتمتم في قبضته الممسكة بجهاز اللاسلكي واختفى.

حدّق الرجل المسن في "ماكسيم تي يرماكوف" بانتباه بعينين قاتمتين شبيهتين بالبصل المسلوق، في حين استقرت يدها المتشابكتان الشبيهتان بالشمع الذائب في راحة على عصاه المنتصبه بين ركبتيه.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يرفع نفسه على أحد مرفقيه جاهداً من أجل الحصول على نظرة أفضل على التجاعيد المتشابكة السمكية:

- جدي، أهذا أنت؟

بعد ذلك، أمام نظرات الرجل المريض الذي كان يعرف حتى وسط هلوساته أن جده "فاليرا" قد مات، بدأت التجاعيد على وجه الزائر بالتلاشي وذابت العصا في الهواء تاركة خيطاً شبحياً في الهواء ظل معلقاً لثوانٍ قليلة. كان الرجل متناسق القوام في قرابة الثلاثين من عمره ذي حافة شعر تشبه شفرة طائرة هليكوبتر متدلّية على جبهته وفم نحيف ساخر ممتد ناحية اليسار أكثر من اليمين. تحولت البذلة أيضاً؛ أصبحت الآن بنطالاً مخططاً رخيصاً وسترة مخططة كذلك. بدا كأن هناك حصة كبيرة مربوطة في عُقدة رابطة العنق المنقطة ببشاعة.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" الشبح ذا الشباب المتجدد الذي أصبح أكثر تفصيلاً وواقعية كلما نظر إليه لوقت أطول:

- جدي، لقد أخبروني بأنك شخص شرير للغاية. ماذا عليّ أن أفعل معهم؟ كيف أتصرف في هذا الأمر؟ ساعدني.

قال الشبح فجأة بصوت "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه:

- اللعنة على طريقتك في التفكير، لن أساعدك.

اختفى المقعد ذو المسندين، وكذلك شقة "ناتاشا". كان الجد "فاليرا" البالغ من عمره ثلاثين عاماً يجلس على كرسي واهٍ في غرفة بدت كالمكتب احتل منتصفها مكتب ضخم كالسيارة، ممتلئاً بملفات من الورق المقوى وأكوام من الورق. جلس رجل مترهل يتراخ أمام المكتب وأصابه متشابكة. لمع وسام سوفيتي بفتور على بذلته العسكرية. اختلف وجه الرجل، كوجه الجد "فاليرا"، عن وجوه معاصري "ماكسيم تي يرماكوف"، بدا كأنما يحتوي على كتلة خشبية بداخله. كان مختلفاً عن الوجوه التي يملؤها السيليكون والبلاستيك.

تذلل الرجل ذي الوسام قائلاً:

- أيها الرفيق "يرماكوف"، لا تتعامل مع مثل هذا الأمر بتهمك، قد تكون أحد العمال الأبطال القدامى، لكن قد لا يضع الحزب هذا الأمر في اعتباره. إننا نكرمك بدعوة للانضمام لأن عاملاً بمنزل شهرتك لا يمكن أن يبقى من دون عضوية الحزب. عليك أن تفهم، إن هذا الوضع خاطئ! إنه يشبه بالضبط كما لو أنك سرت في الشارع عارياً!

امتأ الرجل بالحماس فقفز ناهضاً ومد يده في جيب بنطاله القصير الأسود وأخرج علبة سجائر بسيطة تحمل شعار الاتحاد السوفيتي البدائي مطبوعاً على غطائها. بدا كعش للطيور يحتوي على بيضة واحدة. برباطة جأش، أمسك العلبة المفتوحة أمام الجد "فاليرا". دون أي تعجل، أخذ الجد "فاليرا" الموقر السجائر الأربع، ووضع ثلاثاً في جيب سترته وأشعل الرابعة جاعلاً عود الكبريت يحترق بقوة بجانب علبة الكبريت الكبيرة. ثم زفر دخاناً دائرياً مبتسماً في الهواء، ومن دون أي علامة على الاهتمام بدأ بالنظر عبر النافذة الملبدة بالغيوم، والتي رأى عبرها شارعاً ضيقاً شبيهاً بممر بين قطاري بضائع فيه حصان حزين مسن ذو شعر غير براق والذي بدا اصطناعياً، وهو يتلمس العشب بشفتيه الناعمتين.

عاد الرجل ذو الوسام إلى مقعده الرسمي وأخذ رشفة من شاي بني بداخل قده زجاجي سميك فوق قاعدة أكواب متهاكة. راقب "ماكسيم تي يرماكوف" كل ذلك وهو راقد في سريره الذي أصبح لديه الآن مظهر سرير أطفال غامض، وكان مذهولاً من استيعابه الواضح لكل شيء، ومن حقيقة أنه كان أفضل حالاً في هذه الحالة من الهذيان من حاله الطبيعي.

قال الرجل ذو الوسام الذي كان واضحاً أنه المدير المحلي، بيأس:

- إنك عنصر غريب أيها الرفيق "يرماكوف". يبدو لي أنك تحمل بداخلك بذرة مزارع غني، وبدو أنني أخطأت عند اختيارك من أجل سجل العمال السوفيتيين. أعطيتك كل ما احتاجت إليه: معدات الحفر، وعربات النقل. لقد خصصت لك أربعة نجارين، إن "أليكسي ستاخانوف" لديه اثنان فقط. بظروف كهذه كان يمكن لأي قاطع إنتاج المائتي طن المطلوبة منك في فترة عمل واحدة! أجابه الجد "فاليرا" بكسل، وفي عينيه الفاتحتين لمعة كريهة:

- ليس مجرد قاطع، لا تتفوه بهذا الكلام الفارغ. هؤلاء القاطعون الذين تقصدهم، إذا أخبرتهم بأن يققوا في أماكنهم دون حراك فسيقفوا، وإذا أخبرتهم أن يستلقوا فسيستلقوا على الأرض دون حراك. إياك أن توبخني أيها الرفيق "أريستوف". إنك أنت من كان في حاجة إلى سجل العمال وليس أنا. إن العمل في المنجم لا يأتي بالمطلوب منذ ثلاثة أعوام، وعلى هذا أرادت أجهزة الدولة إلقاء في السجن بتهمة التخريب. لقد كنت ماهراً في التلويح بسيفك في الحرب الأهلية، لكن لا أحد سيضع بطولتك تلك في الاعتبار. كانوا سيتخلون عنك قريباً متهمين إياك بالتجسس لحساب جهاز مخابرات عدو. لقد استخدمتني لنتقذ نفسك ومؤخرتك السمينة هذه. لا يمكنك أن تتكر ذلك، أليس كذلك؟

اختنق المدير في مكتبه ببقايا الشاي ومسح فمه المبلل بكم سترته ثم قال بصوت حاد:

- إنك أنت من أصبح سميناً أيها الرفيق "يرماكوف"، إنك تجني أكثر من ألفي "روبل" في الشهر، وهذا قبل حتى زيادة الرواتب. لقد حصلت على إيصال مجاني للمصحة. إنك تذهب إلى الحمام العمومي بالمجان وكذلك للحلاق. كما خصصوا لك شقة! شقة منفصلة! غرفتان لشخص واحد! لماذا تود الذهاب إلى الحمامات العمومية بالمجان وأنت تملك حماماً خاصاً بك؟

فكر "ماكسيم تي يرماكوف" سعيداً قائلاً: "إذاً لقد منحوا جدي شقة بالفعل!".

من الواضح أن الجد كان سعيداً بكل مكافآته. أوماً في موافقة ردًا على قائمة المنافع التي تدرج تحت مزايها "عنصر المزارع الغني".

ذكر "أريستوف" بهدوء حين انقطع نفس الرجل قائلاً:

- إنهم لا يزالون مدينين لي بقسيمة من أجل الأحذية والملابس.

تحوّل لون المدير إلى القرمزي وهو يأخذ قطعة سكر صغيرة فذرة بدت شبيهة برقاقة جرانيت من جيبه ووضعها في فمه وقال:

- فلنذهب وتشتريها من محل تجاري! بكمية النقود التي تحصل عليها!

أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أنه يرغب في التدخين.

أخبر الجد "فاليرا" مديره المُرهب ساخرًا:

- إن المحل التجاري باهظ، إنه حقي، أعطه لي.

حملق الرفيق "أريستوف" في الجد "فاليرا" الشاب بعينين متعبتين كأنه لا يتمكن من فهم لماذا يحتاج قاطع الفحم "يرماكوف" إلى غرفتين وهو يعيش بمفرده. قال بلهجة استرضائية:

- استمع إليّ أيها الرفيق "يرماكوف"، لماذا غرست قدميك هكذا في الأرض كعجل في المجزر؟ بحقك، فلنقرأ هذا الكتاب الصغير. إنك متعلم، لقد تلقيت تعليمًا لمدة أربع سنوات في المدرسة، ولن يختبرك أحد في الكتاب. جميع السكان يدرسون مقرر "ستالين" القصير عن تاريخ حزبنا الرائع. اقرأه أنت أيضًا، فبعد كل شيء، إنه ليس مكتوبًا بالفرنسية.

ألقي الجد "فاليرا" بسيجارته دون تعجل في أصيص زهور يحتوي على زهرة بنفسج تشبه "ميكى ماوس" تحمق فيه، ثم حوّل نظره الملولة إلى الحائط أعلى رأس المدير المُحبط. كانت هناك لوحة في إطار بسيط مكون من شرائح خشبية ملونة لرجل ذي وجه ممتلئ بالبثور وكانت حواجبه وأنفه وشاربه معًا يشبهون واحدًا من تلك الأفعنة المنتشرة في المهرجانات. فكّر "ماكسيم تي يرماكوف" بسعادة شريرة متعرفًا على الوجه ذي البثور وهو يقول: "الرفيق "ستالين"!".

تمكن من التقاط أفكار الجد "فاليرا" بغير وضوح عبر أمواج الطقطة ونقل العروض العسكرية على الراديو، حيث فكر في أنه كان من الأفضل لو تم بيع هذه اللوحات مع هدف مرسوم عليها، كالأرانب في ميدان رماية حديقة الثقافة المحلية.

قال الجد "فاليرا"، موجهًا حديثه إلى اللوحة أكثر من الرفيق "أريستوف":

- أفضل تعلم الفرنسية عن تلقي المقرر القصير.

عند هذه النقطة ضرب الرفيق "أريستوف" نفسه على ركبتيه وانفجر بالضحك. بدا وكأنه يستعد للرقص أو شيء كهذا. لكن، في الوقت نفسه، ظلت عيناه محتفظتين بشعور الإرهاق مع لمعة لعينة منذرة بالسوء. في النهاية قال؛ بعد أن قارب على الاختناق محاولًا الضحك بأعلى صوت ممكن:

- الفرنسية؟ أنت؟ بالسنوات الأربع التي قضيتها في المدرسة؟ أنا درستُها لسبع سنوات في المدرسة الابتدائية! ولا أتذكر منها أي شيء الآن! إنك من الريف، ورأسك مليء بالطين! كيف يمكنك أن تتحدث الفرنسية؟

سأل الجد "فاليرا" الرفيق "أريستوف" في تملق قائلاً:

- لو تمكنت من تعلمها في سنة، فهل ستتوقف عن مضايقتي بالكلام عن المقرر القصير؟

ثم ذكره في الحال قائلاً:

- إن التعليم في المنزل مجاني للعمال!

قال الرفيق "أريستوف" مبتسماً:

- حسناً، في هذه الحالة نعم بالطبع! هناك الرفيقة "روميانتسيفا"، إنها تدرس في معهد العمال. ستكون هي معلمتك. إنها فرنسية. لن تكذب، إنها لا تكذب أبداً من أجل أي أحد. ستخبرنا عن تقدمك كما هو بالضبط. لكنك لا تملك سنة كاملة، بل ستة أشهر فقط. سيكون عليك حضور مؤتمر المنطقة للعمال بوصفك عضواً من أعضاء الحزب!

- اتقنا!

أخرج الجد "فاليرا" ذراعه الجافة كتمثال حديدي من جيب بنطاله المخطط كأنها كنز عظيم ومدّها تجاه الرفيق "أريستوف" الذي قام في لهفة بمدّ يده ذات اللون الأبيض المائل للاصفرار والتي بدت شبيهة بجثة طائر صغير مسلوق وعالق في المصيدة. حَمَنَ "ماكسيم تي يرماكوف" أنه في تتابع أحداث العلاقات والتأثير، قامت هذه المصافحة غير المتكافئة بتسهيل وجوده في العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه الأثناء، اتصل المتنبئ الاجتماعي الموجود في الخدمة في ذلك الوقت بالشخص الذي يحتاج إليه على اللاسلكي فاندفع ثلاثة أو أربعة أشخاص إلى الغرفة. لم يكن بإمكان "ماكسيم تي يرماكوف" تمييز الأشكال بوضوح، تمكن فقط من رؤية الخطوط الخارجية الممتلئة بمادة داكنة، كالمياه التي تُغسل فيها فرشُ الطلاء المائي.

سأل أضخم الرجال وأكثرهم قتامة الجد "فاليرا":

- كيف تمكنت من الدخول هنا أيها المواطن؟ مَنْ أنت؟ جار أم أحد الأقارب؟ لماذا سُمِحَ لك بمقابلة المريض؟

ابتسم الجد "فاليرا" ممدداً تجعيدات متركزة حتى أذنيه وظل جالساً في هدوء على الكرسي ذي المسندين. تبادل الرجال الذين دخلوا لتوهم النظرات. كانوا كبرطمانات المربي، التي عُمِست فيها فرش لم تتظّف من الألوان. تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من رؤية الظلام يهتز في رؤوسهم مخترقاً كيانه المادي.

قدّم الرجل الضخم نفسه برسمة قائلاً:

- المقدم "سيليزنيف"، القطاع الخاص.

لم يكن مجرد فرشاة، بل كان ممسحة بأكملها تتمايل في رأسه. أمسك ببطاقته المربعة المحتوية على ريش مزدوج يتلأأ أمام الجد "فاليرا" وقال:

- أرني أوراقتك من فضلك.

قال الجد "فاليرا" بالفرنسية بتعجرف خافضاً صوته:

- أيها النذل! أيها البائس! يا حثالة المجتمع!

سأله المقدم "سيليزنيف" بدهشة حيث بدا صوته كسحابة رعدية:

- ماذا؟ هل أنت أجنبي؟ هل تتحدث الروسية؟ هل تتحدث الإنجليزية؟

زمجر الجد "فاليرا" فجأة إلى البقعة التي يمتلكها المقدم مكان وجهه قائلاً:

- أيها الفاسق الشرير!

رداً على ذلك ارتج أثاث الغرفة وحامل المحاليل الذي بدا كالمشقة، اهتز، وصلصل ثم بدأ بالتحرك في أرجاء الغرفة بمفرده.

قال أحد المتنبئين الاجتماعيين؛ من المرجح أنه الطبيب ذو الشارب والذي بدا أيضاً ممتلئاً بالألوان المائية:

- سيدي، أيّاً تكن، لا يمكنك الوجود هنا.

ثم انحنى مقترباً من الجد "فاليرا" مضيفاً:

- لا ينبغي إرهاب المريض. بالإضافة إلى ذلك، فإننا في مكان خاص عليه حراسة.

قاطعته المقدم "سيليزنيف" بفضاظة قائلاً:

- خذوا هذا الحقير من قفاه وألقوا به في الخارج. ذلك البائس! انظر إليّ أيها الجد، إذا رأيتك هنا مجدداً فسأضعك في الثلجة، لن يهمني أنك فرنسي. يمكنك أن تشكونا إلى سفارتك لاحقاً!

أمسك المتنبئون الاجتماعيون المقدم "فاليرا" من معطفه البني شبه المهترئ وجروه إلى الممر. قرفص الرجل المسن الخبيث منزلقاً عبر الأرضية بحذائه الكرتوني القديم وعظامه المهترئة؛ فبدا وكأنه مجموعة من خشب مدفأة مكوم بجانب فرن.

كان المتنبئون الاجتماعيون مصممين على نيتهم في إخراج الدخيل الذي اخترق الشقة على نحو غير قانوني. مع ذلك، حتى قبل خفوت الضجيج في الممر وإغلاق الباب بعد إخراج الدخيل، اخترق الجد "فاليرا" الحائط بحركة مملّة؛ كشخص يخلع ملابسه من على رأسه لفترة، ظل ورق الحائط مشقوقاً من البقعة التي دخل منها، لكن بعد قليل، وتحت أنظار "ماكسيم تي يرمكوف" حرفياً، بدأت خطوط النباتات المزينة بالنمو تحت ضغط الدم البشري الذي ملأهم واتسق الحائط مجدداً، تاركة الفرصة لعين منتبهة كي تتمكن من ملاحظة شيء كأثار الرتق في نقطة الدخول.

في هذه الأثناء اتخذ الجد "فاليرا" وضعه المعتاد وظل محملاً باهتمام تجاه حفيده، كأنما كان متوقفاً أسئلة أكثر.

- جدي، إن الرفيقة "روميانتسيفا" هي جدتي، هل تخميني صحيح؟

لم يمر وقت طويل بعد أن قال ذلك حتى ظهرت امرأة ضبابية بجانب جده. في البداية كانت عيناها فقط مرئيتين: طويلتان ورماديتان، بلون السحب المنخفضة

نفسه قبل الأمطار مباشرة. أصبحت صورة المرأة أوضح وتأكد "ماكسيم تي يرماكوف" أن القرد الأبيض الذي كان يتذكره كجدته من الممكن أن يبدو هكذا، على الرغم من أنها لم تكن شابة، ربما كانت حتى أكبر من الجد "فاليرا" بعدة سنوات.

كان وجهها الكبير الخزفي مغطى بتجعيدات جميلة، كما لو أن الخزف قد كُسِرَ ثم لُصِقَ بالصمغ مجددًا بمهارة شديدة، كان شعرها القصير مخبأً تحت قبعة على هيئة فطر واضحًا عليها آثار العث. كانت ملابس المرأة غريبة في العموم. عند النظر إليها عن قرب، تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من تخمين أن التتورة ذات اللون الفاتح الملتقة حول فخذها كانت من بقايا مفرش مائدة رائع قديم والمعطف مصنوع من ستائر قطيفة ومزين بشرائط ذهبية رثة. بالإضافة إلى ذلك، كان واضحًا أن كل هذه الملابس المصنوعة من الديكور الداخلي تم حياكتها عدة مرات مما أدى إلى تقلص حجمها بسبب ذلك؛ كالجلد السحري، إلى أن أصبحت من ضمن محتويات دولاب ملابس أستاذة الجامعة العمالية الضئيل. أكثر شيء يمكن تشبيهه السيدة "روميانتسيفا" به هي الجنية السمراء الصغيرة، الروح الباهتة لشقة "سانت بطرسبرج" المختفية، التي زينت نفسها بنماذج وخرق ومطبوعات وقصاصات من ذكريات أزمان قديمة.

قالت بحدة للجد "فاليرا" الغاضب الذي كان يحملق بشدة في عنق السيدة "رومانتسيفا" الأبيض:  
- لا تشتت ذهنك أيها الرفيق "يرماكوف".

جلس الجد والجدة في غرفة مضيئة تملؤها بنقاط متحركة من أشعة الشمس وتتساب عبر ظلال كثيفة؛ وهناك على طاولة أمامهما الكثير من كتب التدريبات بداخلها تدريبات مُصححة. وكان كتاب التدريس الجليل واقفًا هناك مستندًا إلى وعاء زجاجي يحتوي على باقة زهور برية بدت كسحابة مكونة من البعوض الأبيض الصغير. كانت الشمس توخر بشعاعها المطلي بالنيكل السرير الواسع الفارغ تمامًا الذي كان مكوّمًا فوقه بعناية ثل من الوسائد بداخل أقمشة قطنية ناعمة بدت كعروس سميّة.

كانت السيدة "رومانتسيفا" تملّي أوامرها بالفرنسية وأصابعها الطويلة متشابكة معًا. فجأة، أمسك الجد "فاليرا" بكتفي السيدة "رومانتسيفا" العريضتين وهو يكشف مرفقيه عبر أحد كتب التدريبات وجذبها تجاهه مسقطًا كرسيه وكرسيها. هزّت السيدة "رومانتسيفا" رأسها ذا الشعر القصير وبدأت بضرب عضلات العامل المرموق المنتفخة. فجأة، تجمدت في مكانها تمامًا ونظرت بحدة شديدة إلى تجهم الجد "فاليرا" المُحرَج ثم وضعت يدها خلف رأسه وأمسكت بحفنة من خصلات شعره الخشن بشدة. لم يملك أي فرصة للتملص منها ثم وضعت فمها على فمه.

فكّر "ماكسيم تي يرماكوف" متعجبًا وسعيدًا في الوقت نفسه: "لهذا السبب كانا يعرفان بـ"المرأة الشابة والهمجي".

قال بصوت عالٍ:

- هذا هو السبب إذاً.

على الرغم من أنه في المساحة غير المحددة التي جعلت الموقف درامياً تماماً، كما جعلت من أركان الغرف والأغراض دائرية، كان معنى "بصوت عالٍ" نسبياً بالكامل.

أجابته الجد "فاليرا"، بصوت عالٍ، دون أن يفتح فمه الطويل:

- أجل، كان هذا هو السبب. لقد كانت هي "الهمجي" في الواقع. جدتك "بولينا". كانت تعرف الكثير من كلمات السباب بالفرنسية؛ الفرنسيون أنفسهم كانوا ليستحوا من نطقها. اعتادت وضع خطوط أسفل تلك الكلمات في كتبها. علمتني إياهم، واستخدمت تلك المصطلحات البذيئة في الاختبار أمام رفاقي في الحزب. كانت "بولينا" تجلس بجانبني؛ صارمة تماماً وحادة. ترجمت شيئاً مختلفاً لهم للروسية. بعدها سقطت لوحة الرفيق "ستالين" في أثناء الاختبار. ارتعشت في البداية ثم انزلت عن الحائط وسقطت على الأرض. بعد ذلك فقد الرفاق اهتمامهم بي. مخربون فكريون - هكذا كانوا بسقوط "الزعيم" بهذا الشكل.

بعد ذلك، رأى "ماكسيم تي يرماكوف" كل أنواع الأشياء، إما في الحلم وإما في حالات الهذيان أو في نوبات الاستبصار التي يصاحبها شعور مميز بذاته، وبالصوء الإضافي كما لو كان يرتدي خوذة بها مصباح مثل تلك التي يرتديها عمال المناجم.

رأى مدخل منجم، نفقاً غير اعتيادي ينحني للسيار وبه خط سكة حديد ضيق؛ رأى وجهاً مغطى بالفحم مضاء بمصباح غير ثابت. رأى كذلك عربات منخفضة تبدو كأحواض استحمام حديدية ممتلئة بالكامل بتلك القطع الفضية الجميلة، وفوق العربات لوحة قديمة هشة من الحديد كُتِبَ عليها "احذر من الكابل".

عصفت بذهنه مصطلحات غير مألوقة: "تعال إلى العشب"، "حاجز من الحمم البركانية"، "شق سرير الفحم". كان هناك رجال ممثلثون ومتجهمون يرتدون ثياب عمل بدت وكأنها مصنوعة من القش، ويقطعون جذوع أشجار بالفوس ويدعمون بها سقف المنجم بنشاط. كان الجد "فاليرا" في المقدمة، عاري الصدر، لكن على رأسه قبعة أنيقة، وكان يعمل باستخدام آلة ثقب الصخور مما جعل عضلاته تتنوج كالزئبق، لم يكن يخترق بعشوائية، بل إنه ثقب بدقة شديدة في النقاط الضعيفة التي تمكن من تحديدها بالعين المجردة، وكستار مسرح ينسدل، وكموجة بحر تنكسر على الشاطئ، سقط الطن التالي من الفحم. بطريقة ما تمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من تفهم سعادة جده بمهارته في العمل، بصراعه وجهاً لوجه مع كتلة الفحم القوية، التي تكونت فعلياً من توازن لعدة نقاط ضعف، كومة من الأخشاب مما قبل التاريخ. لم تكن هذه السعادة مرتبطة بلجنة الحزب، أو برئيس المنجم الرفيق "أريستوف" أو بالحركة العمالية، بل لم تتعلق حتى براتبه وشقته الجديدة، لقد كان تسليمة يملأ بها الجد "فاليرا" وقته الشخصي الممتع. من السيئ قول ذلك، لكن لو كان الجد "فاليرا" برجوازيًا، لاشرى لنفسه منجمًا جيدًا ونقب عن الفحم دون أي راتب على الإطلاق.

لكنه ليس برجوازيًا مثل هؤلاء الأشخاص الذين يرسمونهم على ملصقاتهم على شكل فقاعات ذات ساقين نحيلتين وقبعات ويحملون حقائب كبيرة من النقود تبدو كالخنازير.

أفسدت لجنة الحزب ورئيس المنجم "أريستوف" استمتاع الجد "فاليرا" عن طريق إجباره على حضور المؤتمرات والاجتماعات وعروض الهواة. على الرغم من أن الجد "فاليرا" لم يكن عضوًا بالحزب، كتبت الجرائد عنه؛ بما في ذلك صحيفة "برافدا". جعله أحد المرسلين الصغار - الذي كان يرتدي معطفًا أسود متهاكًا - يحمل المتقارب بطريقة لم يحمله أحد بها من قبل.

عندما سار العامل الجليل "فاليري يرماكوف" محدودب الكتفين من الصالة باتجاه اللجنة التنفيذية الدائمة نهض الأشخاص الجالسون في الصف الخلفي ليحصلوا على نظرة جيدة عليه. بطل العمل بشحمه ولحمه، ما إن وقف أمام الطاولة على المنصة بذائه وركبتيه على مرأى من الجميع، شعر وكأنه فنانة بالسيرك تم قطعها بالمنشار من المنتصف، مما جعل ساقيه منفصلتين عن الجزء العلوي من جسدها.

كان جلوسه في الصف الأول في الحفلة مرهفًا ومحرجًا، وهو يشاهد فتيات "اتحاد الشباب الشيوعي اللينيني في الاتحاد السوفيتي"، "الكومسومول"، الرياضيات يكوّن هرمًا، ويرى سيقان الرياضيات الممتلئة البيضاء العارية في الأسفل ترتعش كالسلك الحي من الإجهاد، والفتاة الواقفة في الأعلى، كانت أخفهن تلوح بعلم سوفيتي صغير.

تكدست على العامل الجليل الكثير من رابطات عنق الرواد الشباب، متعلقة به في تجمعات منتصرة مكونة من شباب صغار، حيث بدوا من حوله متوازنين كجناحي طائرة. أرسلت التجمعات العمالية للبطل هدايا، كل أنواع الهدايا المختلفة، بما في ذلك آلة "بانديورا" الموسيقية الأوكرانية مطلية بألوان زاهية. قامت الرفيقة "روميانتسيفا" بنزع أوتار الآلة المنتحبة في شك وخبأتها في أبعد مكان بإمكانها الوصول إليه بعد لفها في أقمشة صوفية حتى لا تصدر أي صوت. كما حرمت الرفيقة من تشغيل الراديو الرائع المثبت في صندوق خشبي داكن لامع منحتة إياه محطة إذاعة مدينة "فورونيج"، حيث إنها لم تحتمل أصوات المسيرات العسكرية والشعر الروسي.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" لجدته المهتم "فاليرا" الذي بدت عيناه الشمعيتان الدافئتان وكأنهما تومضان:

- أنا أيضًا لا أطيق المسيرات العسكرية، في الواقع إنها تجعلني أتقيأ، خصوصًا عندما يكون هناك أحد يسيّر أيضًا.

سأله الجد "فاليرا" متلاعبًا وهو يعود لنفس سن حفيده مجددًا على نحو غير محسوس:

- لكن أتحب هذا النوع من الموسيقى؟

أصغى "ماكسيم تي يرماكوف". كانت هناك مقطوعة شهيرة تُعزَف. كانت مألوفة حتى لأذنه الجاهلة. ووسط تدفق الأصوات، اختفت لحظات وشظايا الإدراك كرقاقات خشبية في بحر هائج، ولم يتمكن من تصديق أن تصدر امرأة ذات رأس مستدير وشعر قصير كل تلك الأصوات يدويًا في أثناء عزفها على بيانو ضخم بحجم سيارة "مرسيدس". غطت أصابع الرفيقة "روميانتسيفا" عرض لوحة المفاتيح بالكامل وقد انعكسوا على سطح الغطاء اللامع بسرعات شبحية كتكسير الأمواج. أعادت عينا العازفة نصف المغلقتين التعبير الناعم والحالم لسحابة عندما تكون الشمس على وشك أن تطل من خلال فجوة مضيئة ودافئة.

ألقي "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة متفحصة. لم يكن البيانو الضخم ملائمًا للغرفة الصغيرة التي كان من الواضح أنها أصغر الغرفتين في الشقة المنفصلة التي خصّصت للعامل الجليل. بدا أن التشريح المعقد للآلة لا يناسب الزاوية الصحيحة من المبنى. على أي حال، كان من غير الممكن غلق باب الغرفة وكانت الرفيقة "روميانتسيفا" تجلس في الطرقة ولم تترك مترًا مربعًا واحدًا من الصمت في منزل العامل.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" معترفًا:

- صدقًا، لم أكن أحب أي نوع من الموسيقى، إن عزف جدتي رائع بالطبع. لكنني أفضل سدّ أذني.

قال الجد "فاليرا" ضاحكًا:

- لقد اعتدت على سدّ أذنيّ بقطع من القطن. أغلق الباب على نفسك وستشعر كما لو كان الرعد يزمجر بعيدًا، ولا بأس بذلك.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" مستفسرًا وهو يشعر تجاه الجد "فاليرا" بالشفقة لمواجهته لذلك التدفق الموسيقي:

- ألم تشعر جدتي بالإهانة لأنك لم تكن، دعنا نقول، أحد المعجبين بموهبتها؟

قال له الجد "فاليرا" برضا تام، كما لو أنه يخبره كم كانت وجبات الإفطار والغداء والعشاء الذي تناولها لذيدة:

- لم تشعر بالإهانة قط، لقد أقسمت لي بذلك. كان بإمكانها صفعي على أذني أيضًا على نحو يجعل أسناني ترتج. بالطبع كانت رائعة في عزف آلتها، لكنها لم تكن تتطور بما يكفي. اصطحبتها ذات مرة إلى حفل يعزف فيه عامل موسيقار.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" في دهشة:

- عامل موسيقار؟ لكن الموسيقار ليس عاملًا، حسب سجلات العمال!

قال له الجد "فاليرا" مفسرًا في الحال:

- لقد كان الجميع عمالًا في ذلك الوقت، سائقو الجرار الزراعي وسائقو القاطرات وقاطفو القطن. كما ظهرت حركة عمالية في القوات الخاصة للقبض على أعداء الشعب. كانت هناك نساء "فينوجرادوف"، النسّاجات، اللاتي استخدمن أكثر من

مائتي نول، كما استخدم ذلك الموسيقار آلتى بيانو في حفلة واحدة. ليس بالشيء المهم.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" وعينيه مفتوحتين قدر اتساعهما في دهشة:

- حقاً؟ أتقصد اثنين، أي في وقت واحد؟

سأله الجد "فاليرا" وهو يدس أكمام قميص جنازته الأرضي خارج أكمام سترته العفنة بحركة برجوازية مغرورة:

- ألا تصدقني؟ لقد كانت جدتك مرتابة للغاية في البداية أيضاً.

كان ينبغي عليه تصديق ذلك. رأى "ماكسيم تي يرماكوف" - يمكننا أن نقول "بعينه" لو كانت الرؤية الجسدية تعمل في تلك المساحة الفارغة المشوهة - منصة خشبية ضخمة، ربما في نادي عمال. والستار الخلفي مغطى بلوحة ضخمة للقائد، وكان هناك أمواج تسبح عبرها من بنايات قريبة يتم سحبها في الخلفية.

في مقدمة المسرح ألتا بيانو ضخمتان وكانت لوحتا مفاتيحهما في مواجهة بعضهما. كانت إحداهما بلون بياض الثلج وبحجم "جاكوزي" كبير، أما الأخرى فكانت بالية وسوداء اللون عليها شموع محدبة مغطاة بالشمع. كان هناك بين الألتين كرسي حفلات أسود يبدو كبيدق الشطرنج. قسّر الجمهور بذور نبات عباد الشمس في أثناء انتظارهم دخول الموسيقار، ثم أتى الموسيقار مسرعاً بأنف صغير أفتس وشعر مشعث وقميص أبيض برز ببلاهة من ذيل معطفه. ألقى نظرة خاطفة على الجمهور، أعطاهم المبدع انحناءة جارفة ثم ألقى بذيل معطفه للخلف وجلس على الكرسي الصغير.

بدأ عزفه على البيانو الأسود، كان يتعامل مع البيانو كمصاص دماء يهاجم فريسته. عذبه وطرق عليه متسبباً في ضجيج هائل في الحفل الضخم. تمايلت وارتفعت لوحة المفاتيح مع حركة أصابعه فائقة السرعة كمسار جرار زراعي في وقت العمل. مع ذلك لم يستمر ذلك مدة طويلة: بحركة من رأسه ودفعة بقدم داخل حذاء مجعد مطلي باللورنيش، التفت الموسيقار على الكرسي ليواجه الآلة البيضاء. قبل خفوت الضجيج المؤلم من داخل الآلة السوداء دق الموسيقار بقوة على عدة مفاتيح مُصدرًا صوتاً خشيباً مسطحاً بدا مزيفاً حتى لأذن "ماكسيم تي يرماكوف".

ظل هكذا يتأرجح في جميع الاتجاهات على الكرسي وهو يدفع الأرض بقدمه كصبي على لوح الترحلق: بعيداً عن المزاح، لقد نجح العامل الموسيقار بصدق في العزف على الألتين طوال مدة الحفل. على الأقل، ظل صوت ما يصدر عن المسرح طوال الوقت. لم يكن بإمكان "ماكسيم تي يرماكوف" تحديد ما إذا كان ذلك الصوت موسيقى أم لا. بالحكم من تعبير الاستسلام على وجه الرفيقة "روميانتسيفا" في أثناء جلوسها كتفاً إلى كتف مع زوجها البطل في الصف الأول؛ كان ما سمعته جريمة. مع ذلك، بدا الموسيقار نفسه سعيداً بذلك. ذلك وداعب وطرق بقوة على الألتين المزمجرتين دون رحمة. كان شغوفاً بعزفه، وعند التبديل بين لوحتي المفاتيح، قام بعدة دورات إضافية على الكرسي الصغير الدوّار مما جعل أذبال معطفه تطير في

الهواء كالأعلام. في النهاية تسبب الدوران الأخير في إصابة الموسيقار بالدوار وسقط على أرضية المسرح مع الكرسي فظهر نعلي حدائه الورديين في الهواء. انفجر الجمهور بتصفيق حاد وصرخ الناس قائلين "برافو!" من داخل المقصورات. قفز الموسيقار ناهضاً وكأن شيئاً لم يكن، ونفض عن نفسه الغبار وفتح ذراعيه ليستقبل باقات الورد التي حملتها إليه فتيات شابات رائدات متوردات. علّق "ماكسيم تي يرماكوف" سعيداً لتوقف البيانو عن العويل وقال:  
- إنه ليس عازف بيانو ولا هو عامل، إنه مجرد مهرج. أتساءل ما الذي حدث له بعد ذلك؟

أجابه الجد "فاليرا" بهدوء قائلاً:

- لقد قَبِلَ العامل التزاماً باستخدام ليس فقط آلتين بل أربع آلات في حفلاته. لكن خلال تدريباته سقط الرفيق من كرسيه مثلما فعل لتوه وكسر فقرة من عنقه.  
قال "ماكسيم تي يرماكوف" بابتسامة خبيثة:

- نعم بالطبع، مية بطولية حقيقية. حسناً يا جدي، أيمكننا تدخين سيجارة؟

أخرج الجد "فاليرا" من جيب سترته البالية بسعادة علبة سجائر مهلهلة من نوع "كازبيك"، نسي الرجال الطيبون الذين ألبسوا جدي في المشرحة إخراجها من جيب سترته. غالباً دَخَنَ آل "يرماكوف"، الكبير والصغير، الآن في الغرفة، على الرغم من أن حراس النظام القاتمين قد يلتقطون رائحة دخان التبغ ويدخلون لطرد "الفرنسي" إلى الخارج، ثم يتجادلون بملل بينهم حول من سمح له بالدخول مجدداً. مع ذلك عاد الجد قبل أن يخرج عطر سيجارته التي تركها على حافة منفضة السجائر.

هناك المزيد من الفجوات في جدران الغرفة في بعض الأماكن التي لا يغطيها ورق الحائط: أصبحت خطوط النباتات نحيفة تماماً وأحياناً بدا كأنما نسيت النمط المعتاد والإيقاع، حيث يملؤون الفراغ بنوع ما من الرسومات الطفولية المترجلة. مع ذلك، لم يتضايق الجد "فاليرا" على الإطلاق. دَخَنَ سيجارته اللعينة التي احترقت في شعلة طليقة حمراء بنفس مهارة وطريقة الرجل المحنك التي يتذكرها "ماكسيم تي يرماكوف" من طفولته؛ كان الدخان الذي ينفثه جده من عالم آخر أشبه بالمسحوق، كما أعطى الأشياء هالة تشبه تلك التي يلقي بها القمر على الأشياء.

ربما كانت تلك هي أفضل أوقات راحة "ماكسيم تي يرماكوف" من أجل التدخين في حياته؛ أحياناً كانت سيجارة الحفيد تتصادم في المنفضة مع سيجارة الجد الفظة، ثم بعد ذلك يبدوان كما لو أنهما يمارسان السحر معاً، يريان المستقبل في الرماد والغبار. في بعض المناسبات كانت الرفيقة المهمة "روميانتسيفا" تنضم إليهما، حيث تجلس بفخذهما القوية داخل تنورتها الضيقة على مسند كرسي الجد "فاليرا": كانت تمسك بمبسم سجائر طويل ومتوازن بأناقة وتنفخ دخاناً غريباً لامعاً، كأنما تمرر وشاحاً حريرياً جميلاً للغاية عبر حلقة ما. لأول مرة في حياته، شعر "ماكسيم

تي يرماكوف" بأنه في حضن عائلته، وكان من المهم جدًا أن تكون دائرة العائلة المريحة هذه مكونة من الموتى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد رأى العديد من الأشياء المختلفة في ذلك الهذيان المميز الواضح. رأى درجات سلم منحنية في معهد ما به زهور صغيرة خشنة تبدو كبقع الفهد بداخل إناء زهور أمامه. وسيارة كانت ذات يوم بيضاء واقفة هناك تبدو كغسالة ملابس قائمة على أربعة إطارات. رأى طريقًا شتويًا ممتلئًا بالحفر يبدو شبيهًا بضمادة عليها آثار دماء قديمة. تكررت تلك المشاهد مرارًا. وصغر حجمها كلما امتد البصر. وعلى جانبي الطريق، امتدت السهوب المغطاة بثلوج جافة زجاجية، وغابات من الحشائش الميتة مغطاة ببذور ثلجية، وأفق رمادي بدا كأن أحدهم قد لعب فيه بإصبعه.

رأى السهوب نفسها ساخنة للغاية وشائكة بحبوب طويلة ذات رؤوس رمادية. رأى كلبًا ضخمًا في الغبار بجانب سور من الخوص، ولديه فراء كالجفت، ولسانه المرتعش متدل. نزل إلى قفص ذي سياج حديدي، من المرجح أنه منجم، شعر باهتزاز السلم أسفل نعل حذائه الخشن، مما جعله يشعر كما لو كانت للأرض أنف وأنها على وشك أن تعطس في أي لحظة. رأى رجلًا ضئيلاً ذا شعر بني يرتدي سترة مبطنه فوق جسده العاري يحطم الغلاف السميك الليفي لعباد الشمس.

كانت تلك ذكريات جدي، دون ترتيب معين ومخلوطة معًا عشوائيًا، ومع ذلك، بفضل ميزة خفية ظلت خالدة، كانت الرفيقة "روميانتسيفا" حاضرة باستمرار فيها كلها. كانت ترتدي قميصًا قطنيًا خفيفًا بتطريز يشبه الندوب، جلست أمام مرآة أصبحت ضبابية بفعل الزمن، وطاف فمها الأحمر بداخلها كورقة شجر خريفية. كانت تقرأ كتابًا، وتقلب الصفحات ببطء كأنما كانت تُبقي على النص لتفحص مدى شفافيته. تغرس أسنانها الكبيرة القوية في قطعة تفاح وتضحك بفمها الممتلئ، تاركة مجرى نحيلاً من العصير واللعب يسيل على ذقنها الملطخ. بدأ الشعر الأبيض يغزو رأسها، بفراغ في شعرها وتجعيدات تشق طريقها على خديها النحيلين، كانت تطعم رضيعًا واهنًا بثدي شبه فارغ يبدو كالقطيرة.

أجل، كان ذلك صحيحًا، عرف "ماكسيم تي يرماكوف" من بعض المحادثات العائلية بأن جدته أنجبت أباه عندما تخطت سن الشباب بعد انتهاء الحرب. لم يكن الجد "فاليرا" في الجيش، حيث أعفي من الخدمة؛ وعمل بعدها في التنجيم عن الفحم؛ كانت هناك لمحات من قطارات بضائع، ومدن كاملة مكونة من قطارات تحمل بضائع مغطاة بالثلوج، ومحطة قطار عتيقة كبيرة للغاية تبدو مخيفة في الظلام، مخاريط رمادية من الضوء تطوف في السماء كركائز عملاقة وأسفلها سُحب الليل. بدت السماء كبساط حائط مزخرف بالقنابل الألمانية وكأنما تم حياكته بغرز متقاطعة. بدأ "ماكسيم تي يرماكوف" يفهم تدريجيًا لماذا كان الجد "فاليرا" العامل شخصًا مؤذيًا. كان منقسمًا لطبقتين مختلفتين. كانت صورة الجد "فاليرا" شبحًا مرسومًا، ممتلئة بكل موارد العلاقات العامة من ذلك الوقت؛ لم تكن متطابقة مع الجد "فاليرا" الحقيقي.

على سبيل المثال، في الوقت الذي غير فيه "ستاخانوف" - الذي لم يناده أحد من قبل باسم "أليكسي" - اسمه وجواز سفره بناءً على غلطة في جريدة "برافادا"، رفض الجد "فاليرا" رفضاً قاطعاً أن يغذي الشبح الطفيلي بأي شيء نابع من واقعه الشخصي. فهو فلاح عادي، مزارع غني روسي بطبيعته، برغبة شغوفة وقوية تجاه التنجيم عن الفحم ومتباطئ ومتهرب من أي شيء آخر. حول حوض استحمامه إلى مستنقع أصفر إلى أن وضعت الرفيقة "روميانتسيفا" حدًا لهذه الفظاعة. كأى مزارع روسي غني، أحب الجد "فاليرا" المكسب، خصوصاً على هيئة نفود. تقهمه "ماكسيم تي يرماكوف"؛ فبعيداً عن ملابس الريفية، كان شديد التألق، يرتدي - في أيام الأحد - حذاءً ذا رقبة صفراء وحمراء كأن لديه ببغاء في كل قدم. لكن دون أي طعام، ضَعَفَ الشبح.

في الوقت الذي أصبحت فيه حياة الجد "فاليرا" أكثر إثارة للاهتمام ومتنوعة، ظهر في الخلفية شبحا امرأتين مختلفتين تماماً: إحداهما فتاة شابة من الحزب الشيوعي الروسي، لديها نيران بدلاً من الدماء حرفياً، جعلت جسدها الممتلئ يتوهج كمصباح وردي، والأخرى كانت طويلة كقلم رصاص ولينة ولم تعد ارتداء ملابس داخلية مطلقاً بسبب مبادئها التقدمية. عند هذه اللحظة بالذات أصبحت الاختلافات الموضوعية للشبح أقل. في السابق طبعت الجرائد الكثير من الصور للعامل "يرماكوف" - في اجتماع من أجل افتتاح مركز ثقافي جديد، وفي غرفة قراءة وهو مستند بمرفقيه إلى كتاب، وفي احتفالات عيد العمال بجانب حزمة من البالونات ممثلة بأشعة شمس قائمة وابتسامة ممتدة حتى أذنيه. تدريجياً ظلت صورة واحدة صالحة للاستخدام، عند سطح منجم الفحم، من المرجح أنها في وقت العمل، حيث يظهر فيها العامل الجليل بعينين بيضاويين كعيون السمك وسط وجه أسود تماماً بفعل الفحم. من منشور لآخر أصبحت ملامح ذلك الوجه المعروف لدى الدولة بأكملها أكثر تعميماً، حيث فقدوا اتصالهم بالأصل، لذلك كل ما تبقى من الجد في الصورة كانت أفضل بذلة عمل كتانية لديه. كان يرتديها بدلاً من بذلة عمله الاعتيادية خصوصاً من أجل المراسل الصحفي حيث كانت مغطاة بالكامل بقذارة المنجم.

لم يكن هذا هو حال الجد "فاليرا" فقط، كانت البلاد بأكملها تعيش ذلك الوهم الضخم؛ الاتحاد السوفيتي يدعم استهلاك الموارد المادية، والأرواح البشرية أيضاً. كان ذلك الوهم نوعاً من الأراضي المتجاورة، حيث تشرق الشمس أكثر سطوعاً، حيث يوجد للشباب طريق مفتوح أمامهم ويحظى المسنون بالاحترام، حيث ينتصب القمح في الحقول مغطى بالأوراق الذهبية، ويوجد عامل مزارع مسن دون أسنان يربط بحرص مصباحاً زجاجياً في مقبس وفجأة يشتعل كطائر مشتعل في يده القاسية.

في الحياة الواقعية، ببورها المتناثرة الشائكة والطرق المتهاكة الممتلئة بالحفر والمدن الصغيرة المحدودة، ظهر الشبح في الأغلب عبر كل ذلك على هيئة علامات محلية من القماش الأحمر ولوحات سماعات الراديو السوداء التي تصيح

من الأعمدة؛ كانت الرايات الحمراء ذات المطارق والمناجل في الواقع تابعة لولاية أخرى - ولاية لم توجد من قبل، لكنها كانت مع ذلك أجنبية. مع ذلك، فإن سكان ذلك الواقع البسيط الفقير دعموا وجود الشبح بإرادة هائلة، بل حتى بحماس، وهم يشعرون بأنهم مواطنوه المستقبليون. مقابل تلك الخلفية، كان الجد "فاليرا" الذي تم تعيينه في أحد الأدوار الرئيسية للحفاظ على الوهم مخرباً حقيقياً. لقد خذل الجميع، حيث رفض تماماً أن يكون الشخص الذي عينوه ليكون، لقد أرسل الجميع إلى الجحيم.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" باستمتاع وهو سعيد بقريبه المتوفى، الذي جعل نفسه كأنه في منزله في الغرفة وملاًها بشدة بدخان تبغ القادم من الحياة الأخرى:

- أتعرف يا جدي، لم أكن لأوافق أيضاً، فليذهبوا إلى الجحيم.

قال الجد "فاليرا" فجأة بحرج وهو يعتصر مقبض عصاه بيد عظمية لونها كالشمع:

- أنصت يا "ماكسيمكا"، هل تسامحني؟ لم يكن ينبغي عليّ ضربك بورق نبات القراص تلك المرة. أنت تفهم، إن الرجل ليس مهتماً بالأطفال، إنهم يعوقون طريقه. لكنني بالغت في تلك المرة..

قال "ماكسيم تي يرماكوف" ضاحكاً:

- هل كان ذلك حين حطمت ساعتك؟ انسَ أمر ذلك يا جدي. سأضرب أي طفل بشكل أسوأ من ذلك إن حاول إتلاف أشياءي. سامحني أنت، لا أزال أشعر بالذنب تجاه ما فعلته بساعتك.

حينها غمز الجد "فاليرا" بعينه ثم أخرج من جيبه الرث الساعة العتيقة نفسها من داخل أعماق ملابسه المهلهلة؛ جحظت بقتامة كعين رجل مسن خلف عدسة نظارة سميكة. صدأت عقارب الساعة وتركت طبقة بنية عليها، لكن على الجانب الآخر تلالأت الآلية المكشوفة، ومضت ودقت كما فعلت بالضبط عندما أقحم "ماكسيم تي يرماكوف" بداخلها ملاقيطه الصغيرة. لا يعرف أحد أي ذكريات ستكون الأفضل فيما بعد. عندما كان الجد المتوفى لا يزال على قيد الحياة، تبادل هو وحفيده مشاعر مرتبكة، حيث أدركا ببساطة أنه ليس هناك طريقة تمكنهما من معانقة بعضهما بعضاً.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" وأفكاره تعود إلى الواقع الذي كان بانتظاره وقد أصبح أكثر كثافة مكتسباً هيكلًا وشكلًا خارجيًا متجاوزًا غشاء الهديان:

- ماذا أفعل الآن إذا يا جدي؟ لقد قفرت في المياه محاولاً الهروب منهم وانظر إليّ، لقد أوقعوا بي. كما أنني ما زلت لم أتمكن من الحصول على أي مال منهم بسبب خدعهم الماهرة، والبقاء تحت مراقبتهم أمر شاق، إنه خانق ومقرز. حين أفكر في احتمالية أن يستمر ذلك للأبد، أرغب فعلاً في إطلاق الرصاص على نفسي.

قال الجد "فاليرا" بحدة وهو يهز ساعته التي تعمل بغموض تحت أنف حفيده، وتسبب ذلك القرب الجسدي النسبي في أن تصبح الساعة ضبابية وتنتفخ لتكون في

حجم المصباح:

- فلتحاول أن تكسب الوقت، المزيد من الوقت. بإمكانك أن تتزوج أيضًا. الزوجة تتمسك بزوجها، لن تتركه يعبر إلى العالم الآخر. إن الزواج مساعدة كبيرة في وجه الموت. وإذا ضايقتك هؤلاء الرجال فلتحطم وجوههم!

سأله "ماكسيم تي يрмаكوف" متشككًا في كلام الجد "فاليرا" الذي برزت ضلوعه الصفراء من أسمائه وجعلته يبدو كجندي من القرن الخامس عشر:

- هل حاولت فعل ذلك؟

صاح الجد "فاليرا" قابضًا يده كعقدة لرجة:

- لقد حاولت ذلك بالفعل!

في الحال غطت رسومات جرافيتية قبضته المتضائلة، ثم طارت في الهواء بقوة شديدة وارتطمت بوجنة رجل عسكري ضخم. وعلى الرغم من أن رأس الرجل العسكري بدا قويًا على كتفيه، فقد كانت اللكمة قوية لدرجة الإطاحة بقبعة زيه الأزرق في الهواء. بد رأس الرجل الأبيض والحليق تمامًا كراس رجل الثلج، مما جعل "ماكسيم تي يрмаكوف" يفكر في نوع القرابة بين هذا الرجل العتيق وحمقى أمن الدولة الذين كانوا يضغطون عليه في الوقت الحالي.

بعين متورمة التقط الرجل العسكري من جرابه مسدس "موزر" بدا وكأنه إوزة حديدية وقال:

- أتقاوم الأمن الوطني؟ أيها الوغد اللعين!

صاح الجد "فاليرا" وهو يمزق قميصه الداخلي المتعرق على صدره بطريقة مسرحية:

- أطلق النار! هيّا، اقتل العامل الجليل! لنر ما سيقوله الرفيق "سنالين" عن هذا! وما ستقوله السلطة السوفيتية!

عند ذكر الرفيق "سنالين" هدأت ملامح الرجل العسكري الباهتة التي بدت وكأنها من ثلج وليست من عظام.. أنزل يده التي تحمل المسدس. نظر "ماكسيم تي يрмаكوف" من حوله. لقد سرقت شقة العامل الجليل. كان هيكل السرير الحديدي العاري ممتلئًا بريش الدجاج من داخل الوسائد المشقوقة. بدا الدولاب ذو الأدراج، الذي كانت أدراجه مفتوحة وتندلى منها سيقان البناطيل وأكمام القمصان كمشهد من فيلم رعب؛ حيث ينهض فيه الموتى من قبورهم.

كان معه أحد رجال الشرطة السرية، وكانت له أذنان مدببتان، ومرفقان مدببان كذلك. أمسك الرجل بزوج جديد من الجوارب النسائية الشفافة واللذين تطايرا في الهواء فبديا وكأنهما يؤديان رقصة خجولة. انهمك اثنان آخران في تدمير المكتبة الفرنسية تمامًا بمحتوياتها من الكتب المزخرفة التي يتذكرها "ماكسيم تي يрмаكوف" جيدًا. كان يمزقا الكتاب ثم يهزانه أملين دون شك في خروج كل تلك الرموز المعادية للثورة. كانت الرفيقة "روميانتسيفا" ترتدي شالًا ناعمًا يغطي

كتفيها العظمتين، وعيناها تعكسان الضوء فتبدو كقطة غاضبها من مكانها في ركن الغرفة. كان شهود التفتيش الوديعون؛ وهما رجل وزوجته المسنان، لديهما تجعيدات طويلة متماثلة جعلتهما يبدوان مثل خريطة. جلسا على كرسيين متقاربين وأيديهما في مواضع متماثلة على ركبتيهما ولا يجرؤان على رفع رأسيهما ليراقبا التفتيش العدواني.

في هذه الأثناء، وخارج النافذة المفتوحة كانت ليلة صيفية رائعة؛ فالقمر المكتمل يتلألأ في السماء اللامعة وغبار ه يتناثر في الهواء كتلج جميل صافٍ ثم يستقر على منحدرات الأسطح وأشجار الحور المستديرة وهي ترفرف بأوراقها الناضجة ذات اللونين الفضي والأسود.

أوقفت اللكمة والصرخة الصورة كأنما ضغط شخص يحمل جهاز التحكم عن بُعد على زر "الإيقاف المؤقت"، وحدها أوراق الشجر خارج النافذة هي ما أكملت حركتها. تجمّد مسدس الـ"موزر" في يد الرجل العسكري المنخفضة. وهو ما جعل الجميع يظن أنه حتى لو بسط الرجل أصابعه الممسكة بالمسدس، فسيظل المسدس معلقاً في الهواء.

قال ضابط الشرطة السرية الذي كان يمسك بالجورب:

- لدينا مذكرة تفتيش أيها الرفي.. سيد "يرماكوف".

من نظراته القاسية، كان واضحاً أن ذلك الرجل هو رئيس تلك المجموعة.

صرخ الجد "فاليرا" مستكماً اعتدائه على رجال الشرطة السرية. كان واضحاً أنه مستمتع بما يفعل:

- اقبضوا عليّ! رجل حاصل على أوسمة، مفوض سوفيتي! إن البلد بأكمله يعرفني! من يعرفكم؟ أيها الرعاع! يا قطاع الطرق! أيها الأوغاد!

قال تلك الجملة الأخيرة بالفرنسية، فبدت الغرفة وكأنها تزداد إضاءة؛ ارتعشت الثريا البرونزية المستديرة والمزينة برايات دول الاتحاد السوفيتي بعنف وتناثرت منها بلورات جميلة مسطحة مثل قطرات المياه المتساقطة بواسطة غربال. ألقى "ماكسيم تي يرمماكوف" نظرة مقربة فرأى أن الفوضى في الغرفة ذات طبيعة مزدوجة. بدا جزء من الدمار بغلظته وابتذاله كما لو كان قد حدث باستخدام مجرفة ما في أثناء التفتيش. وفي أرض الغرفة تلالأت القطع المحطمة والمتناثرة لفازة زرقاء فبدت وكأنها نجوم منثورة على الأرض. وكذلك الفواكه التي دهستها أقدام المفتشين. وتحت أنظار رجال الشرطة السرية والشاهدين بدأت علبة كبريت مسحوقة على الأرض الخشبية تشتعل النيران من رؤوسها الرمادية الصغيرة. وببراعتها المعتادة، ألقت الرفيقة "روميانتسيفا" المياه على الشعل المتراقصة من كوب معدني وامتلات الغرفة بالبخار. حينها امتلات الغرفة بظلام غير معتم مرتعش ذي عدة طبقات، وتوهج القمر مخترقاً النافذة كضوء مصباح شديد.

صاح الجد "فاليرا" بتحدٍ والضباب يحاوطه:

- حسنًا، إذًا؟ أستم خائفين من أن يتم القبض عليكم للمبالغة في الأمر؟

نظر الجد "فاليرا" إلى الشاهدين العجوزين اللذين لم يعودا بريئين كما بدا له في بادئ الأمر. قال:

- وماذا عنكما؟

تبادل رجال الشرطة السرية النظرات وانعكست الأضواء عن أعينهم. وتبين من نظرة الفلق الحذر على وجوههم، إن النتيجة التي حذرهم منها العامل الجليل كانت محتملة تمامًا.

قال أحد الرجلين اللذين كانا يدمران المكتبة بصوت منخفض:

- ينبغي علينا الاتصال بالرفيق "أوزولينش".

عندما سمع الشاهد المسن ذلك الاقتراح، اعتدل بكتفيه وبرز ذقنه الأكاديمي الصغير الذي يبدو كذيل الخروف. من الواضح أن ذلك المخبر الصغير الهادئ يعرف جيدًا من الرفيق "أوزولينش".

تجهم رئيس رجال الشرطة السرية، وسوى ثنابات سترته أسفل الحزام بإبهامه، ثم اتجه إلى الطرقة حيث التليفون الذي يبدو كحقيبة سرية معلقة على الحائط. ما إن كاد يحمل السماعة الثقيلة المزودة بميكروفون ضخم، حتى انطلق في المكان صوت حاد وعالٍ تسبب في توتر الجميع.

عرّف رجل الشرطة السرية عن نفسه في السماعة بجفاف قائلاً:

- "يوزولتسيف".

حينها جذب نفسه ليقف منتبهاً وتغيرت ملامح وجهه تمامًا؛ فهو أحد صقور "ستالين" المحلقة في أعالي السماء.. قال:

- أجل يا سيدي! أجل.. لا! حسنًا يا سيدي!

وضع الرجل السماعة برفق شديد كما لو كانت تحتوي على الرفيق "أوزولينش"، أو ربما نائبه، الذي تكوّر بداخلها ونام في الحال.

بدا رجل الشرطة السرية محطماً وهو يخلع قبعته، ثم مسح جبهته بكم قميصه، كما بدا رأسه المغطى ببقع سميكة من الشعر مثيراً للريبة في نظر "ماكسيم تي يрмаكوف". كان هناك العديد من الوجوه المعلقة في مدخل الغرفة كالبالونات، لم يكن وجه الجد "فاليرا" من بينهم. كان هادئاً ووقحاً وبدا وجه الرفيقة "روميانتسيفا" جامداً تمامًا، وكانت شعلات العالم الآخر ترتعش بداخل عينيها المفتوحتين قدر اتساعهما.

قال رئيس رجال الشرطة السرية في عدم ثقة:

- هممم.. حسنًا إذًا.. هناك نوع ما من سوء التفاهم.

من الواضح أنه لم يكن يعرف كيف يتملص من الموقف الآن؛ فجهازه الأمني نادراً ما يخطئ، لكنهم هذه المرة أخطأوا. شرح رئيس الشرطة السرية قائلاً للرجل المسن، الذي كان يدفع بإصبعه المهترزة إطار نظارته التي بدا وكأن مياهاً قد وقعت عليها:

- حادث.

بدأت عينا الرفيقة "روميانتسيفا" وكأن نيران العالم كلها تشتعل فيهما. فتحت شفيتها الجافتين المتخترتين بصورة غير ملائمة، لكن لم يصدر منها أي صوت. صرخ رجل الشرطة السرية باتجاه الغرفة:

- سامحنا من فضلك أيها الرفيق "يرماكوف"، لقد كان الأمر مجرد حادث.

جاءه رد من داخل الغرفة على هيئة سباب بالفرنسية وتبعه صوت تكسر شيء ما.

دون أن ينتظر وقتاً أكثر، لَوَّح الضابط إلى رفاقه فخرج الرجال العسكريون من الشقة المدمرة. تحولت العلامة أسفل عين الرجل الذي تلقى لكمة في الوجه إلى لون داكن، وأصبحت الآن تبدو مثل ملعقة ممثلة بمربي التوت؛ لسبب ما مسح حذاه باحترام شديد في بلوزة امرأة ما تصادف وجودها تحت قدميه كأنه لم يكن يغادر الشقة بل يدخلها. سار الشاهدان خلفهم بخطوات متناقلة وهما يسندان بعضهما من المرفقين، أصبح كلاهما خائفين بشدة. أغلق الباب خلفهم بعنف.

سأل الجد "فاليرا" وهو يخرج رأسه من الغرفة المضاءة بضوء طوارئ ملتوي مرتعش:

- حسناً، هل رحلوا؟

عندما تأكد من رحيلهم عاد لجلوسه مجدداً بكسل في كرسية ذي المسندين. التفتت الرفيقة "روميانتسيفا" بحدة وبدت كأنها تدفع بكل قوتها حائط الطرقة الأبيض، ارتعشت كتفاها الصغيرتان تحت الشال الصغير الذي أصبح لونه رمادياً كالغبار.

صرخ الجد "فاليرا" بنصف استدارة:

- توقفي، لا تنهكي نفسك هكذا! انتهى الأمر، لقد رحلوا! لم يقبضوا علي! انتهى كل شيء!

ثم تتم وهو يأخذ علبة سجائره الـ"كازبيك" اللا نهائية من داخل أسماه البالية ليجدها رطبة تماماً.

سأل "ماكسيم تي يرمماكوف" وهو ينحني للأمام:

- لكن ماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟

صاح الرجل المتوفى بمرارة واستنشق دخان سيجارته الساخن الحي:

- ماذا.. لقد رحلنا، تم إخلاؤنا، ودُمر منزلنا بالقنابل! قواتنا أم قوات الألمان، كيف لي أن أعرف من فعلها؟ عدنا ووجدنا حفرة كبيرة مكان المنزل، ومياهاً خضراء في الحفرة ودراجة تالفة بارزة من المياه. لم نجد سوى المكتبة الفرنسية، سحبناها حتى

“كازاخستان” في طريق الذهاب وطريق العودة. لم نتمكن من أخذ البيانو معنا، بغض النظر عن السباب الذي تلفظت به جدتك بسبب ذلك. هذا هو كل ما حدث!  
قال “ماكسيم تي يرماكوف” متنهداً:

- أجل، من المؤسف ما حدث للشقة، مؤسف بالفعل. انظر إلى حالي، ليس بإمكانني الحصول على شقة، ليس بإمكانني العثور على مكان أستقر فيه. ماذا عن هؤلاء الرجال حاملي مسدسات الـ”موزر”؟ هل عادوا من أجلك لاحقاً؟  
قال الجد “فاليرا” نافخاً بأناقة ثلاث حلقات شفاقة من الدخان طافت في الهواء كقناديل البحر:

- كلا! أترى الآن فائدة لكم رجل من الشرطة السرية في عينيه!  
قال “ماكسيم تي يرماكوف” ضاحكاً:

- انتظر، لم يكن هذا هو سبب تركك لشأنك، لقد تلقوا أوامر على التليفون، أليس كذلك؟ لقد كانوا خائفين من رئيسهم لا من قبضتك!

قال الجد “فاليرا” رافعاً بجديّة سبابته النحيلّة ذات ظفر الموتى:  
- الوقت!

قال مستطرداً بنظرة متأملّة تختلف عن نظرتة المعتادة الفارغة التي ليس لها بداية ولا نهاية:

- لو لم أقوم رجال الأمن الوطني، لاقتادوني إلى السجن. حينها ما كانوا ليطلقوا سراحي أبداً، لأنهم كانوا سيكسرون عظامي ويجعلونني في حالة لا تسمح لي بالعودة لمنزلي.

أضاف الجد “فاليرا” بتفلسف، وهو يفتح بقايا سترته مستعرضاً ضلوعه الصفراء التي ذكرته بجندي قديم وقلبه الجاف معلق على حمالتين مشعرتين متقاطعتين خلفها تبدو كشرنقة فراشة ضخمة ومن الواضح أنها تخفي حياة سرية وحيوية ومشرقة:

- الوقت يا “ماكسيمكا” شيء في غاية الأهمية! راقبه. عليك أن تشعر باتجاه تدفقه، ولصالح من يعمل، وإذا وجدت أنه يعمل لصالحك، فلتستعد من الأمر قدر استطاعتك! إياك أن تخجل! فلتفعل أي شيء إن كان الوقت في صالحك. عليك بالطبع أن تتزوج. إن الزوجة هي أفضل حماية من الموت. على الرغم من أنك لن تكون خالداً حتى في وجود زوجة.

فكر “ماكسيم تي يرماكوف” وهو يستنشق دخان التبغ الجميل بمذاقه القادم من العالم الآخر:

- ومن التي يمكنني أن أتزوجها؟ “مارينكا”؟ إنها في السجن، وحاشا الرب أن أتزوجها على كل حال. “ساشا”؟ إنها فتاة طيبة، ومن المؤكد أنها لا يجب عليها أن تنتمي إلى دير لعين. أسوأ ما في الأمر أنها ستتحكم فيّ وستشكونني إلى جاري “شوتوف” لأتفه الأسباب. ماذا عن “لوسي” الصغيرة؟

إن مجرد التفكير البسيط في ثديي "لوسي" الصغيرة الضعيفين الضئيلين أشعرت "ماكسيم تي يرماكوف" برعشة في بطناله، ثم ذكر نفسه مفكرًا: "ماذا عن الطفل، الطفل المريض".

في الحال، ظهرت على السطح فكرة منطقية تذكره بأنه من المرجح أن الطفل سيموت قبل أن يتخذ قراره.

في هذه الأثناء سمع أصواتًا رطبة غليظة من خلف ظهر الجد "فاليرا". كانت الرفيقة "روميانتسيفا" تنتحب بانكسار، وتمسح وجهها بيديها وكانت ذراعاها مبتلتين حتى المرفقين بالدموع. بدت أنها لا تزال تدفع الحائط الأبيض الذي كان مغطى ببصماتها ذات اللون الأزرق المائل للرمادي: بدا يأسها قادرًا على تحريك الطرقة، أو شقة العامل بأكملها، أو حتى الجبل الأسود، لكنه كان غير قادر على مساعدتها على الإطلاق.

قال الجد "فاليرا" بيأس رافعًا هيكله العظمي الضعيف عن الكرسي ذي المسندين:  
- هاك، أترى؟ هؤلاء هن النساء.

عاد الجد "فاليرا" إلى زمنه وشقته، وهو يصبح أكثر صلابة مع كل خطوة - تحول العكاز الذي يستند إليه إلى ظل مصباح تقليدي في الطريق. بحركة لم يتوقعها منه "ماكسيم تي يرماكوف" مطلقًا وليس بإمكانه حتى تكرارها مجددًا، لمس العامل الجليل شعر الرفيقة "روميانتسيفا" المتشابك الشائك. ابتعدت المرأة بعنف عن الحائط المبقع واحتضنت زوجها. عند رؤيتهما هكذا بأذرعهما حول بعضهما بعضًا، شابين ومع ذلك يبدوان كجذع شجرة غليظ وغريب، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" فجأة بأنه كان ورقة على هذه الشجرة، ذات لون أخضر فاتح وشفافة بفعل أشعة الشمس.

فكر مقررًا وهو ينظر بعاطفة إلى جده وجدته المنصهرين معًا: "سأ تزوج "لوسي". لماذا عليّ أن أعيش في إنكار؟ إنني أريدها، وهذا كل ما يهم. أنا لست المخطئ. إن عينيها شبيهتان بعض الشيء بعيني الرفيقة "روميانتسيفا" من دون النظارة السوداء. انظروا كيف يتشبها ببعضهما، من المرجح أن جدي لا يدرك أنني أراقبهما".

بعد قليل من تفكير "ماكسيم تي يرماكوف" في ذلك، التقت الجد "فاليرا" بحدة وهز ذقنه غير الحليق فوق رأس الجدة وصرخ بصوت شبيه بصراخ متزامن لسرب كامل من الغربان الهائجة قائلًا:

- "ماكسيمكا"، هناك مسدس في سريرك!

لم يكن للزمن وجود بداخل نوبات الهذيان. أو ربما كان يتحرك في دوائر ككل الساعات في العالم، وبعد ذلك لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من التأكد من أنه عاش خلال أي حلقة معينة مرة أو مرتين أو حتى ثلاث مرات. ظهر الجد "فاليرا" أحيانًا كرجل في الثلاثين برأس مليء بالشعر المجعد وسيجارة متدلّية من شفته السفلية، وأحيانًا كرجل عجوز ذي ذقن حاد ممتلئ بالتهاب في مفاصله المجعدة التي

تكاثرت في أنحاء جسده كفطر على شجرة؛ أحياناً كان يظهر كمرآة باهتة في مقابر البلدة القديمة، التي أصبحت ذات لمعة فضية بفعل الحرارة.

هذا الشيء لم يكن مخيفاً على الإطلاق، في الحقيقة كان مؤثراً، كان يمشي بتعرج كطفل تعلم لتوه أولى خطواته، وقد حاول قدر استطاعته ألا يغطي الكرسي ذي المسندين أو الأرضية بأجزاء من نفسه. كان ذلك هو ما رآه "ماكسيم تي يرماكوف" في أثناء معاشرته لتلك النسخة الثالثة التي أفنعت أن بإمكان أي جمجمة بشرية استيعاب الكون.

لكن ذات صباح جميل، استيقظ "ماكسيم تي يرماكوف" متطهراً من مرضه وبذهن صافٍ، على الرغم من أنه كان ضعيفاً كحلوى "الجيلي". لم يكن لديه فكرة عن الوقت الذي قضاه هناك هكذا: بدا منبه "ناتاشا" الحديدي الذي كان يظهر أن التوقيت كان العاشرة والرابع. كانت أشعة الشمس القاتمة الآتية عبر النافذة القذرة خريفية تماماً. حاول "ماكسيم تي يرماكوف" أن يجلس على السرير، وفي الوقت نفسه هبطت عدة حمامات على حافة النافذة الخارجية، وحكّت مخالباها على السطح الحديدي: كانت الحمامات نفسها تقريباً غير مرئية، لكن ظلالها العميقة الزرقاء على الزجاج كانت واضحة تماماً، كاشفة عن أجنحة أول حمامة ثم أجنحة الأخريات.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بوجود شيء غريب بين ثنايا البطانية. فنتش بإرهاق فوجد شيئاً ما مألوفاً وقد تناسب مع يده بأريحية. حملق المسدس "الماكاروف" في وجهه مباشرة بماسورته السوداء الصغيرة السخيفة وهو لا يزال دافئاً من النوم. أتاه صوت الجد "فاليرا" من الفراغ قائلاً:

- "ماكسيم"، هناك مسدس في سريرك.

نظر "ماكسيم تي يرماكوف" حوله فرأى بقعة مرتقة في الحائط عليها خطوط متموجة لم تتلاءم معاً مجدداً بصورة سليمة.

هذا إذا ما ظلوا يضعونه في سرير المريض بعناية شديدة. نظر "ماكسيم تي يرماكوف" حوله وهو يشم الهواء، فخمّن أنه لا يزال هناك الكثير من المتنبئين الاجتماعيين في الشقة. كان هواء الغرفة بارداً وغير متجانس، نصفه من هواء الشارع، الذي دخل شقته بسبب الغرباء الذين ظلوا يدخلون ويخرجون باستمرار؛ وكأنهم في جنازة. بالإضافة لذلك، شم رائحة دخان وطعام محترق واضحة آتية من المطبخ تصحبها أصوات ذكورية توحى بأنهم من الطبقة العليا ويناقشون شيئاً ما بحماس. وعد "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه وهو يسحب ثوبه القديم الرث المغطى بخيوط مهلهلة وزخرفة من على الكرسي:

- سأطردهم جميعاً من هنا.

ذهلَ عندما وجد أن ثوب النوم لم يناسبه فقط بل غطاه تماماً. كان حائط الطرقة التي وجد "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه فيها ممتلئاً بملابس غرباء والأرض مغطاة بأحذية رخيصة تفوح منها رائحة البلاستيك. ألقى "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة

خاطفة على المرأة غير النظيفة بحكم العادة فأرته وجهاً هزياً بدا كقفاز فارغ. حك  
"ماكسيم تي يرماكوف" شعر ذقنه النابت وهو يلتف باتجاه المطبخ. رأى المنتبئين  
الاجتماعيين، خمسة أو ستة منهم جالسين إلى طاولة "ناتاشا" المهياة بفوضى.

كانوا الأشخاص أنفسهم الممثلين بالتعكر الهائج الذين ألقوا بالجد "فاليرا" خارج  
الشقة؛ بدوا الآن طبيعيين، أو ربما طبيعتهم هي أن يكونوا أقوياء بإفراط؛ بدا كل  
سنتيمتر مكعب من أجسادهم الممتلئة أثقل من المعتاد. كان أحدهم هو الطبيب، أو  
الشخص الذي ظنه "ماكسيم تي يرماكوف" طبيباً في أثناء هذيانه. أصبح ذلك  
الرجل الأشقر الرمادي الآن متجلياً بتفاصيل محسوسة: كان وجهه العريض أبيض  
ورطباً لكن التجاعيد حمراء كأنها خيوط لحاف منقوعة في الدم. كاد "ماكسيم تي  
يرماكوف" أن يقرر بأن ذلك استكمالاً لرؤى الهذيان. مع ذلك، نهض الطبيب  
المزعوم عن كرسيه الصغير دون تغيير في أي شيء وقال أمراً:

- إنك مريض، من قال إن بإمكانك النهوض؟

عندما قال ذلك، التفت الرجال الآخرون الجالسون تجاه "ماكسيم تي يرماكوف".  
كانوا مطابقين تماماً لمعايير قسمهم الجاد، أقوياء، ومكتنزين، وذوي عضلات فك  
مصقولة، ويرتدون سترات رخيصة عادية باهتة ذات لون واحد؛ كنوع من  
الترخيص الاستثنائي، كان لأحدهم شعر مُصفف ومُمشط للخلف بنعومة، مما جعل  
رأسه يبدو كأنما تم تلوينه باستخدام فرشاة طلاء.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" بتحدٍ وهو يسند نفسه إلى إطار الباب بضعف:

- وأتساءل من الذي سمح لكم بالجلوس في مطبخي والإسراف في الأكل والشرب؟  
بعد أن قال "ماكسيم تي يرماكوف" ذلك فقد المنتبئون الاجتماعيون اهتمامهم به كلياً  
وعادوا لما كانوا يفعلونه سابقاً، وهو تقطيع بيض "أومليت" لعدة قطع في المقلاة؛  
المقلاة نفسها التي كانت جديدة تماماً أصبحت سوداء ومحتركة كما لو أن نيزكاً  
ضربها في أثناء مرض "ماكسيم تي يرماكوف".

قال الطبيب الأشقر الرمادي بحيادية:

- اذهب واستلق، سأتي لفحصك قريباً.

ثم بدأ يجمع صفار بيض داكن من المقلاة باستخدام قطعة خبز فرنسي. صاح  
"ماكسيم تي يرماكوف" بسخط:

- اللعنة على ذلك! لقد قلت لكم بروسية واضحة، اخرجوا من هنا. لا تزال هذه الشقة  
منطقتي الخاصة. سأتصل بطبيب بنفسي لو احتجت إلى ذلك.

قال الرجل الأشقر بتعبير لنيم:

- يا له من اعتراف بالامتنان من ناحيتك! إننا نهتم به كطفل صغير، وكل ذلك  
بالمناسبة من ضمن نطاق عملنا. كان بإمكاننا الآن العمل على حل مشكلات أكثر  
أهمية منك لو لم تقرر يا "ماكسيم تي يرماكوف" أن تقفز من فوق الجسر وتتسبب  
في إصابة نفسك بالتهاب رئوي مضاعف في أثناء القيام بالعملية.

ضحك "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً:

- إياك ومحاولة خداعي. إنني أكبر مشكلاتكم.

وشعر فجأة بتعب غريب جعله يرغب في الجلوس في مكانه على الأرض القذرة الممتلئة ببقع الطعام السوداء المغطاة بالغبار.

قفز المتنبئ الاجتماعي الأقرب، ذو الرأس البني، عن كرسيه وأمسك "ماكسيم تي يرماكوف" من تحت ذراعيه. كانت قبضتاه مؤلمتين وقد اخترقتا اللحم الضئيل حتى العظام. عبر الصوف الساخن بسترته فاح خليط من رائحة عطر رخيص، و"جل" استحمام، وبعض أغراض الحمام الرجالية؛ كانت البثور على جبهته مدهونة بشيء ما، وقد ذكر "ماكسيم تي يرماكوف" ذلك بالذباب الميت. خَمَّن فجأة أن المتنبئ الاجتماعي كان واقعاً في الحب ويجاهد من أجل التعامل مع الأمر بأفضل طريقة ممكنة.

قال الضابط ذو الرأس البني بصوت لطيف وصادق، وهو ما أكد تخمين "ماكسيم تي يرماكوف" بطريق غير مباشر:

- أنا آسف، ولكن ليس بإمكاننا الرحيل. ليس لدينا الحق في ترك موقعنا. مَنْ الذي سيعطيك الحُقنَ ويطعمك؟ إن كنا قد تسببنا في فوضى بالمكان فلا تقلق، سأنظف الأطباق في الحال. إن هذا سهل.

ألقي "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة جانبية على حوض المطبخ الممتلئ حتى حافته بمياه قذرة: تماثل كومة الأطباق فيه سفينة غارقة في المحيط.

قال بأزيز هادئ:

- حسناً، اتركوا صندوق القمامة فقط، على الأقل عودوا إلى السلم من فضلكم، سأنادي على جيراني، سيساعدونني وينظفون المكان.

قال الطبيب الأشقر بخفة:

- لو سمحت لي بالسؤال، أي جيران تقصد؟ أتقصد السيد "شوتوف" ونساءه؟ لقد رحلوا، دعني أخبرك بذلك في الحال. رحلوا لمكان بعيد وسيبقون هكذا طويلاً. لا أنصحك بتوقع أي خدمات منهم.

- ماذا تقصد بأنهم رحلوا؟ إلى أين؟

للمحافظة على ثباته، أمسك "ماكسيم تي يرماكوف" في إطار الباب والمتنبئ الاجتماعي الذي كان ممسكاً به، حيث أمسك بشيء سميك ومكثف اكتشف بعدها أنه معصم مُشعر ملتف عليه ساعة يد حديدية. تعرّف "ماكسيم تي يرماكوف" إلى تلك الساعة: لقد كانت الساعة التي تعطيه الدواء المحلى بالملعقة والحساء الجميل الممزوج باللبن الدافئ.

قال صاحب الساعة في أذن "ماكسيم تي يرماكوف" مباشرة:

- لا تنزعج لأجلهم، لقد اكتفى الجميع بالكثير من الشهوة القديمة. لقد كان من المرحج المرور أمام تلك الشقة، من المرجح أنك كنت تعرف ما الذي كانوا يفعلونه. لقد كانت الفتيات تتحركن في كل أنحاء المبنى شبه عاريات. تحملهم السكان لأطول فترة ممكنة إلى أن كتبوا شكوى جماعية إلى قوات الجيش. أنت القوات بعدها وأخذتهم جميعاً مرة واحدة. ماذا كنت تتوقع؟  
وتابع:

- إن هذا المدعو "شوتوف" لديه مخالفات على مذكرة إطلاق سراحه بعدد القمل نفسه في فراء الكلب. لديّ حبيبة تعمل ممرضة. إنها تأتي هنا لتساعدني في أثناء مناوبتي. لقد اعتدت على مقابلتها في محطة مترو الأنفاق كي لا يضايقها الأوغاد، وقد كانت تشعر بالخجل لأنني أحضرها إلى هنا كما لو كانت واحدة من هؤلاء العاهرات ذوات الرُكب الحمراء.

قاطعها "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً بابتسامة حقودة:

- ألم تعد تشعر بالخجل الآن؟

أجابه المتنبئ الاجتماعي بثقة صادقة قائلاً:

- نعم، ليس بعد الآن.

فكّر "ماكسيم تي يرماكوف": "إن أوّل شيء عليّ فعله هو أن أرى الموقف بوضوح في ذهني. أرى الموقف بوضوح. في مكان ما بالقرب مني هناك هاوية سوداء متسعة يختفي الناس فيها كتقارب محترقة: "مارينكا"، و"ساشا"، و"شوتوف"، والأخرين. في مكان ما قريب للغاية. يمكنني أن أسقط فيه بالخطأ وسوف تنفقت حافة الواقع تحت حذائي القديم.

قال أضخم الرجال الجالسين على طاولة المطبخ:

- بالمناسبة، من هذا الفرنسي الكريه الذي يأتي لزيارتك؟

تعرفّ "ماكسيم تي يرماكوف" إلى ذلك الرجل قوي البنية ذي الأنف الصغير الأحمر والفك الشبيه بالدلو على أنه المقدم "سيليزنيف" من القوات الخاصة.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" باقتضاب متوقعاً أن يعتذر رجل القوات الخاصة عن قول كلمة "كريه":

- إنه جدي.

لكن لم يتبع ذلك أي اعتذار.

سأله المقدم "سيليزنيف" بدهشة:

- إذا لديك أقارب خارج البلاد، أليس كذلك؟ لا يوجد أي معلومات كهذه عنك في قاعدة البيانات.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بسخرية:

- بلى، خارج البلاد، على الجانب الآخر من حدود مهمة للغاية.  
تخيل بعدها فجأة الخط الفاصل بين الحياة والموت مشوشاً وباهتاً، كالخط الصلب  
الفاصل على الطريق السريع عند القيادة بسرعة مائتي كيلو متر في الساعة عندما  
تختفي العلامات من الطريق.  
طرح المقدم "سيليزنيف" سؤالاً عابراً وهو يمسح أصابعه الممثلة بعدة مناديل  
ورقية وردية:

- هل يملك قريبك مفاتيح هذه الشقة؟ هل أعطيتها له؟

أجابته "ماكسيم تي يريماكوف" بغضب:

- هل عليّ أن أجيّب عن ذلك؟ من المؤكد أنني لم أعطكم أي مفاتيح!

قال المقدم متجهماً:

- لا أظن ذلك، لكنني مهتم أكثر بمعرفة لماذا لا يظهر ذلك الزائر في أي من  
تسجيلات كاميرات المراقبة. هل يقوم بحيلة ما؟ أم هل هي رشاقة استثنائية؟ أم أن  
قريبك الفرنسي العجوز "نينجا"؟

فكر "ماكسيم تي يريماكوف" بحقد: "فلتعرف ذلك بنفسك".

لكنه قال بصوت عالٍ:

- حسناً، لن أجيّب عن أي أسئلة. أنا متعب، خذوني إلى السرير.

رفع بعدها مرفقيه ليسهل الأمر على المتتبعين الاجتماعيين لمساعدته. سأل متتبئ  
اجتماعي لديه الصفات الرئيسية نفسها كالآخرين وهو ينهض عن كرسيه الصغير:

- هل أساعده؟

أجابته الرجل ذو الرأس البني وهو يضع ذراعيه حول خصر "ماكسيم تي  
يرماكوف" بعناية:

- لا تزعج نفسك، فلتكمل طعامك!

ثم تمتم المتتبئ الاجتماعي بلطف وسط سعادته قائلاً:

- سأخذه إلى هناك وأجعله يرقد وأعطيه دواءه، ثم سأغسل الأطباق، لماذا لا أفعل  
ذلك؟ إن الأمر ليس بهذه الصعوبة، أليس كذلك؟

سأله "ماكسيم تي يريماكوف" بصوت مخنوق:

- ما اسمك؟

أجابته المتتبئ الاجتماعي بحماس:

- "فيكتور"، أو يمكنك مناداتي باسم "فيتيا"، وصديقتي تُدعى "كاتيا". هذا صحيح..  
احترس ستفقد حذاءك. ثم نرقد هكذا بهدوء، ها نحن ذا.. الآن دعني أخلع عنك حذاء  
المنزل. سنعدّل من وضع الوسادة.. مستريح؟ وأين مسدسنا؟ آه، ها هو ذا، لقد سقط  
على الأرض. سوف نضعه بجانبك.

لقد أثبت "فيتيا" هذا أنه مجتهد. لقد ذهب إلى المتجر لشراء بعض المستلزمات وعاد حاملاً حقائب بلاستيكية ممتلئة عن آخرها، دائماً ما يقطر اللبن منها. غسل جبال الأطباق المتروكة من نوبات العمل الأخرى، كانت مياه الصنبور ساخنة للغاية. وبعد أن اشتكى إليه "ماكسيم تي يرماكوف" مما حدث للمقلاة، غسلها تماماً حتى وصل إلى المعدن الأصلي وأصبحت لامعة تماماً. اجتهد بعد ذلك في طهي حبوب مسلوقة وحساء لديه بالكاد طعم صناعي غير محسوس، وعلى الرغم من احتجاج "ماكسيم تي يرماكوف"، فقد استمر بإطعامها للمريض بملعقة، لذا في النهاية أصبح "الهدف الرئيسي" معتاداً على تناول الطعام من اليد التي تحمل الساعة الحديدية وتدق وتكشط كورشة حداد مصغرة.

شعر المجتهد "فيتيا" بضرورة التفسير في كل مرة يصيب فيها خدَّ المريض بالملعقة قائلاً:

- إنني أعسر.

في غياب حاجب الهديان اتضح أن الحبيبة "كاتيا" هي فتاة ذات خدَّين مكتنزتين متوردين كالفجل، وشعر جميل فاتح للغاية تجمعته في ذيل حصان، ورموش كثيفة بدت كفرشاة أسنان ممتلئة بمعجون الأسنان. صرخت "كاتيا" في وجه حبيبها المجتهد "فيتيا" بعويل كرية وهي تعبت بالطعام الذي طهاه، لكن جعل ذلك "فيتيا" أكثر سعادة. فكَّر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يشاهد المتنبئ الاجتماعي يضع كعكات بنية جميلة ذات حواف مزينة على طبق حبيبته "كاتيا" وقد تجهم وجهها:

- يا لك من أحمق حقيقي.

بعد طلبات كثيرة متكررة والقليل من الابتزاز الخفيف، ساعد الاثنان "ماكسيم تي يرماكوف" على الذهاب إلى شقة "شوتوف". كان الباب المميز الذي أصبح الآن بالكاد مثبتاً في مكانه بمفصلاته ولسان القفل الفردي الملتوي، مُلصقاً بالصمغ في إطار الباب بعدة قطع من الورق عليها أختام رمادية زرقاء متماثلة باهتة.

كان ذلك الباب السوفيتي رديء الصنع هو الوحيد من نوعه المطل على السلم المُصْفَح وقد أصبح الآن ملطخاً بشيء ما: من الممكن أن تكون البقع السوداء زيتاً، أو كاتشاب، أو دماً. وهناك مسحة داكنة منفصلة بدت كلسان خارج الفم. ضغط "ماكسيم تي يرماكوف" على الجرس الذي اكتشف أنه مزيف. تنفس المجتهد "فيتيا" برطوبة على مؤخرة عنقه مما تسبب في ظهور تموجات تسري داخل رأس "الهدف الرئيسي"، وفي هذه الأثناء كانت الفتاة "كاتيا" تقف مستندة بقدم مكتنزة في حذاء مدبب إلى إحدى درجات السلم وهي تتحدث في التليفون الجميل الشبيه بحجر "الراين" الكريم اللامع.

- نعم، إنها سترة أنيقة بالفعل، النموذج الأقصر.. إنها بنصف السعر فقط. خمسة عشر. خمسة عشر ماذا؟ ألف "روبل" بالطبع. وصلت من "إيطاليا" منذ شهر واحد. الساعة؟ بالطبع أصلية. نسخة أصلية من "شانيل". اسمعي يا فتاة، هل قرأت

كل الكلمات في إعلاني أم لا؟ هل بإمكانك القراءة؟ إن لم يكن بإمكانك فليس هناك داعٍ من الاتصال!

تخيل "ماكسيم تي يرماكوف" أنه لو كان في فيلم أمريكي الآن لضرب الباب بركلة مستديرة فيسقط الباب إلى الداخل متسبباً في تطاير الغبار، ثم يجد "شوتوف" في الداخل مثلاً على قيد الحياة يعضض فمه بالفودكا بصوت عالٍ وهو يهزُّ ذقنه. أو أنه سيجد رسالة مُعلقة في مكان واضح من الرجل ذي المظهر الذكي المزيف الذي وعد بمساعدته وأرسل إليه التليفون.

لكن "ماكسيم تي يرماكوف" لم يتمكن حتى من رفع ساقه ليركل الباب، وركبته تترتعشان، لذا بدلاً من ذلك ارتمى على الباب بجسده المتعب بأكمله كقطعة لحم تسقط فوق لوح التقطيع. ترنح ثم ارتمى مجدداً على الباب. عند الضربة الثانية تداعت قطع الأوراق الجافة ذات الأختام فظهر شق متعرج بين الباب وإطاره وتسربت من خلاله رائحة قبيحة بشعة لمواد كيميائية معالجة مختلطة برائحة معطر جو.

صاح "فيتيا" في خوف ممسكاً كتف "ماكسيم تي يرماكوف" المكدومة:

- ماذا تفعل؟ لا يمكنك الدخول! عليك ألا تجهد نفسك! ماذا سأقول لرئيسي؟

أكملت فتاته "كاتيا" التحدث في التليفون، بينما اختنق "ماكسيم تي يرماكوف" من رائحة الغبار المعطر المتدفق عبر الشق المظلم:

- كما أن الحذاء ذا الكعب العالي ضيق بالنسبة إليّ. إنه ماركة "بربري"، هل سمعتِ عن تلك الشركة؟ إنها شركة غالية للغاية. لا، لن أسمح لهم بقبول أقل من ثلاثين ألفاً.

بدأ "ماكسيم تي يرماكوف" تدريجياً بالتحرك حول الغرفة باستقلالية. كان لمداخل الجد "فاليرا" من الحائط ملمس محدب غريب، كما لو كان هناك فجوات حقيقية تحت ورق الحائط تم ملؤها بقطن صوفي. وجد "ماكسيم تي يرماكوف" في أول درج فتحه في الدولاب الحقيبة الصغيرة التي خبأها في الغابة قبل القفز في نهر "موسكو". كانت رزمته الدولارات المربوطتان برباط مطاطي موجودتين في قاع الحقيبة أسفل الملابس. خبأهما "ماكسيم تي يرماكوف" بسرعة ثم أخرج حزمة بلاستيكية من البذلة الرياضية المهلهلة، بدت كما لو أنها التصقت ببعضها بشيء حلوا المذاق. مزق "ماكسيم تي يرماكوف" القماش وأخرج تليفون الرجل المتقاعد القديم والذي كانت بطاريته منتهية تماماً؛ على الرغم من تعليمات الرجل ذي المظهر الذكي المزيف فقد كان ملفوفاً في ورقة مكتوب عليها رقم تليفون. مهما حاول إدخال الشاحن في التليفون أو مهما هز القابس الضعيف في مدخله كسبٍ مهتر بحثاً عن تيار كهربائي، ظل التليفون ميتاً كجعران مصري عتيق. بعدها لجأ "ماكسيم تي يرماكوف" لتليفونه واتصل بالرقم المتأمر واستمع لاهناً للفراغ الإلكتروني البارد الممتلئ بثلج جاف متحرك. أعلن الفراغ بصوت ثلجي اصطناعي:

- هذا الرقم غير موجود بالخدمة.

مهما حاول بعدها "ماكسيم تي ييرماكوف" كان دائماً يصل إلى النتيجة نفسها.

ذات يوم فتح الكمبيوتر الخاص به وتفحص رسائله الإلكترونية. خلال كل الوقت الذي كان مريضاً فيه تلقى رسالة واحدة، كانت من المكتب تخبره أنهم منحوه إجازة دون مرتب. انتهاك صارخ لقانون العمل في الاتحاد الروسي - حسناً، إنه لا يهتم بذلك. لم يكن "ماكسيم تي ييرماكوف" مهتماً على الإطلاق بمعرفة من أين وجد المتنبئون الاجتماعيون المال لشراء مستلزمات المنزل ومن الذي يدفع في الوقت الحالي لـ "ناتاشا" الثلاثين ألف "روبل" القانونية. لم يتمكن من مقاومة الأمر، ظل يبحث في صندوق رسائله الواردة حتى وجد الرسالة التي أرسلتها إليه "لوسي" الصغيرة المحتوية على رابط لعبة "رأس فارغ". حسناً، هذه مفاجأة! صفحة بيضاء. لقد مسحوا حضارة افتراضية كاملة ومعها إنجازات ابن "لوسي" الصغير، الذي قد يكون حياً أو ميتاً، لم يكن "ماكسيم تي ييرماكوف" يعرف بالضبط. اتجه إلى محرك البحث كي يبحث في المدونات حيث وجد بعض المفاجآت بانتظاره.

أعلن "هيومانيسست" صاحب صورة قط كرتوني يهز مؤخرته:

- كان "ماكسيم تي ييرماكوف" حياً والآن أصبح ميتاً. لقد غرق في نهر "موسكو". لهذا السبب أغلقوا اللعبة، حداداً عليه.  
عَلَّت "ميلينا" الشقراء الجميلة قائلة:

- يا لها من خسارة، هل جميعهم حمقى أم ماذا؟ إن الأمر شبيه بحرق جميع أفلام أحد الممثلين أو لوحات أحد الرسامين عند موته. أتمنى موتهم في متحف "بوشكين". لقد مات "بوشكين" منذ فترة طويلة.

"ريفين"، صاحبة صورة لطائر عملاق قديم ذي ذيل شبيه بمقشة حارس فناء:

- هل ذهبتِ إلى متحف "بوشكين" من قبل يا فتاة؟

"ميلينا":

- ذهبت مرتين.

"بالادين"، شخص وسيم غير حليق، لديه عينان زرقاوان ثاقبتان وذقن غير محترم يشبه خصيتي رجل مُشعرتين:

- لم يكن عليهم إنهاء المشروع بأكمله بسبب النجم. يا له من مشروع أيها الناس! لعبة كمبيوتر بالإضافة إلى تفاعل حقيقي، إنها قدمت مفهوماً جديداً عن تفاعل الممثل مع المشاهد. محلية بالكامل، مثيرة، إنها نوع جديد كلياً. ليس هناك أي شيء مثلها في أي مكان بالعالم. ما بعد "بعد الحداثة"! تضع كل الألعاب التافهة الأخرى في الظل! كالعادة نحن الروسيون سنخترعها وسنلقي بها على الأرض. يسجل الأجنبي براءة اختراعها بأسمائهم ويستغلونها.

"هيل\_ديمون"، صديق قديم:

- بالضبط! كل شيء يقع من أفواهنا. لقد اخترعنا الراديو ومحرك البخار، تقريباً لقد اخترعنا كل شيء، ثم ينتهي بنا الحال كهمجيين متخلفين. كان عليهم فقط تغيير الممثل، هذا كل ما في الأمر. مات "ريتشارد هاريس" لكن ذلك لم يتسبب في توقف مشروع فيلم "هاري بوتر". إنهم يستكملون التصوير. إنهم لا يتراجعون أبداً طالما أن هناك أموالاً في الأمر، الملاعين.

"هيومانيسست":

- سوف أحذفك من قائمة أصدقائي لسبابك.

"هيل\_ديمون":

- فلتغرب عن وجهي.

"هيومانيسست":

- أغرب أنت عن وجهي.

"بالادين":

- لكن كيف مات "يرماكوف"؟ هل غرق ببساطة؟ هل يملك أي أحد أي معلومات؟

"ميلينا":

- من يدري؟ إن الممثلين يموتون كالأبواب. لقد عثروا على "فاديم كوركين" ميتاً في شقته بسبب قلبه، لقد ظل هناك أسبوعاً. دمر "يفجينى ماتيف" سيارته وانتحر. كانا لا يزالان شابين. قضت عليهما المسلسلات. كان "يرماكوف" الأصغر والأكثر موهبة في رأيي المتواضع.

"ريفين":

- لقد أسرف في الشرب ثم ذهب للسباحة. هذا هو كل ما حدث.

"هيومانيسست":

- هناك إشاعة تقول إنه تسمم بفعل النهر. تسرب كيميائي عسكري في ذلك اليوم بالتحديد. ابتلع بعض المياه بالخطأ ولم يتمكن حتى من الصراخ. لقد أخرجه الحراس لكنهم وجدوا لديه فجوة حمراء بدلاً من الحلق وكان خداه متآكلين، ممثلين بالفجوات. يا لها من طريقة للموت.

"ميلينا":

- من المؤسف أنه غرق ولم يطلق الرصاص على نفسه. كان الجميع يأمل في ذلك.

"بالادين":

- أجل، أحبطت كل آمال اللاعبين والمشاهدين. إن المحترفين لا يحبطون مستهلكي المنتجات بهذه الطريقة. إذا فهذا ليس جزءاً من السيناريو، لقد غرق "يرماكوف" بالفعل في النهر، وفقد المنتجون الكبار عقولهم وأوقفوا البرنامج. فليرقد ذلك الشرير الأنيق في سلام!

تسببت تلك الأخبار على الإنترنت في غرق "ماكسيم تي يرماكوف" في عرق بارد. إذًا فهو ميت. لقد غرق. إن ذلك في أحلامهم. تساءل "ماكسيم تي يرماكوف" عما يوجد في الفناء الآن. تسلل باتجاه النافذة على أطراف أصابعه، وأزاح ببطء الستار النايلون الشبكي الذي فاحت منه رائحة الغبار ونظر إلى العالم الخارجي لأول مرة منذ أسابيع عديدة. البقعة التي اعتاد فيها الأوغاد التظاهر ضد وجود "ماكسيم تي يرماكوف" وهم يحملون اللافتات بدت فارغة وغريبة.

كانت الكلاب الضالة ترقد على العشب الرث كملابس من الفراء تركها الأوغاد خلفهم. إذًا لقد غيّر المتنبئون الاجتماعيون تخطيطهم. لا شك في أن لديهم خدعة ضخمة حقيرة أخرى، لكن السؤال هو: ما هي؟ لم يكن لديه أي أحد يطلب نصيحته. كان "ماكسيم تي يرماكوف" وحيدًا تمامًا، بينما في حياته السابقة شعر كأن هناك أشخاصًا ملتصقون به طوال الوقت. تمنى لو أتى أحد ليزور الرجل المريض حاملاً حقيبة من اليوسفي. ربما لم يكن المتنبئون الاجتماعيون يسمحون لأي أحد بالدخول. الآن بما أنه استرد جزءًا من قوته، كان "ماكسيم تي يرماكوف" مستعدًا لمحاربة الأوغاد الموجودين في الخدمة من أجل كل من ضغطوا على جرس باب شقة "ناتاشا" الذي عانى مدة طويلة.

بعد أيام قليلة ظهر زائر. محب قديم للحقيقة من قناة "إن إن تي" والذي أصبح الآن أوروبياً حراً، "فانيا كوليكونوف" وقد اكتسب وزناً كثيراً. كما اكتسب أنه الاستثنائي شبكة عنكبوت من الأوردة البنفسجية وكان خداه الكبيران يهتران كزجاجتي مياه ساخنيتين ممثلتين. كانت ملابس "فانيا" من القطن الرخيص وليست مغسولة جيداً، لكن بطريقة ما شعر "ماكسيم تي يرماكوف" أن لديه الآن حساباً بنكيًا ممثلًا في مكان ما.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالسعادة وأنه على وشك أن يفتح ذراعيه ليعانق صديقه القديم، لكنه شعر بهالة تحيط به لا بدّ وأن "كوليكونوف" قد اكتسبها في أوروبا.

اقترح "ماكسيم تي يرماكوف" بلطف وهو يتراجع خطوة إلى الخلف قائلاً:

- ما رأيك في تناول شراب؟

سأله "كوليكونوف" بحذر وهو يسير في الغرفة:

- من لديك بالداخل؟

كان سؤاله نتيجة للأصوات المنخفضة التي جاءت من المطبخ، إضافة إلى سحابة الدخان المتسربة عبر الباب: كان "فيتيا" المجتهد يقلّي كفتة لحم حيث كان يلقي بهم في المقلاة كما لو كانوا قنابل.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" بحماس مُجلساً ضيفه العزيز على الأريكة:

- إن لهذا الأمر قصة طويلة! إن من بالداخل أحد رجال الأمن الوطني. وهو بالضبط نوع القصص التي تحتاج إليها!

على الرغم من ذلك، فلم يبذُ "كوليكوف" مهتمًا وحتى سخريته المعتادة لم تظهر. ارتشف من "الكونياك" تاركًا علامات ضبابية على حافة الكأس، وعند اللحظات الدرامية خلال القصة كان يرفع حاجبيه المُشعرين الشهيرين المماتلين لحجم كومة القش. لم يفكر في خلع حذائه الرياضي المتسخ عند دخوله الشقة وبينما كان يورجج ساقه نثر بعض التراب من حذائه بجانب الأريكة.

قاطعه بكسل؛ ما إن قرر بأن الاحتياطي الذي يملكه من الأدب انتهى:

- حسنًا يا "ماكس"، لقد فهمت الأمر. كي أكون صادقًا، أي شخص أقابله في موسكو هذه أجدهم يأتون بحكاية مؤلمة عن أنفسهم. إنني حتى أشعر بالخجل من أجلمهم. إن موسكو الأم أرهقتني تمامًا.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" وقد شعر بالإهانة:

- أتعني أن تقول إن الجميع لديهم قصة مثل قصتي؟ هل جميعهم واقعون تحت ضغط من لجان خاصة تحاول إجبارهم على الانتحار؟

اعترف، السمين حديثًا، "كوليكوف" على مضض والأريكة تنن أسفله كالتلج المكس:

- حسنًا، لا، بالطبع لا، إن قصتك هي الأكثر تعقيدًا. لكن كل شخص بمفرده تمامًا، نقطة ألم كل شخص هي الأكثر إيلاّمًا بالنسبة إليه، وفي روسيا الجميع لديه قصة لحكيها، لذا فإن الجميع في المركب نفسه. كي أكون صادقًا معك، فإنك أغضبت العالم المتحضر بكل معاناتك. ليس هناك أي أحد مهتم بسماع أي شيء عنك بعد الآن.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" في ذهول:

- "عك"؟ ومَن أنت إذا؟

شعر في الحال بأن المساحة الشخصية لـ "كوليكوف" تتجمد وتنتفخ قليلاً وبدأت أحجام العروق والمسام الفضاضة على أنفه الاستثنائي تتزايد كأنما يُنظر إليها من خلال عدسة مكبرة. ضحك "كوليكوف" بصوت عالٍ ولمس أعلى رأسه حيث بقعة صلعاء صغيرة في شعره الخشن تبدو كجذر خضراوات ناضج، وقال:

- "ماكس" يا صديقي. إنني لست الشخص الذي اعتدت عليه، لم أكن كذلك منذ زمن طويل. لو كنت أتيت لي من عشرة أعوام لكنت أخذت قصتك وعملت على نشرها قدر استطاعتي. لكن ذلك الصحفي الوغد القديم انتهى أمره الآن. من المستحيل عمل أي شيء لهذا البلد مهما حاولت، هل تفهمني؟ إن الدول المتحضرة تنظر إلى روسيا الآن كبقعة فارغة على الخريطة، لا يعرفون شيئًا عنها ولا يريدون أن يعرفوا أي شيء. معهم حق. مَن في ظنك بإمكانه بيع قصتك له؟ وعلى أي حال، فإنني في مجال مختلف الآن. أنا لست أحد هؤلاء الخاسرين معدومي الموهبة الذين لا يمكنهم التخلي عن الثدي الروسي ويطوفون في أنحاء موسكو بحثًا عن منح لمشروعاتهم متعددة الثقافات. إن مشروع غربي تمامًا، ليس هناك "كوبيك" روسي واحد فيه. إن عملي هو البطاريق الآن.

سأله "ماكسيم تي ييرماكوف" مستفسراً بمرارة:

- أتصور أفلاماً عنهم الآن؟

أجابته "كوليكوف" بحماس:

- إن مشروعنا يدور حول إنقاذ الأنواع المعرضة للخطر بسبب التلوث البيئي. هل سمعت من قبل عن بطاريق "هامبولدت"؟ إنها تعيش في أمريكا الجنوبية، هناك عشرة آلاف زوج باقية فقط. بناء على توقعات الطقس، فإن إمبراطور بطاريق القارة القطبية الجنوبية سيندرج في قائمة "الكتاب الأحمر" للكائنات المعرضة للخطر قريباً جداً. أظهرت الأبحاث أن ريش البطاريق أصبح الآن ملتصقاً ببعضه بفعل التلوث.

وأضاف:

- الآن، المتطوعون من جميع أنحاء العالم يحيكون بذلات خاصة للبطاريق مصنوعة من مواد بيئية نظيفة، النماذج وقائمة المواد موجودة على موقعنا. إن عملي هو استلام هذه الملابس والتصريح بها وإرسال شحنات منها إلى القارة القطبية الجنوبية وجزر "بونيهويل".

سأل "ماكسيم تي ييرماكوف" بدهشة:

- وكيف يلبسون هذه البذلات للبطاريق؟ وهل يحبون استكمال حياتهم في ملابسكم؟ في إحدى حفلات المكتب وضعنا كوباً ورقياً لامعاً على رأس قط، ولصقناه في أذنيه حتى لا يخلعه في الحال. ظل ذلك القط يتقلب ويصدم الكوب في الأرض حتى قطعه تماماً مع فرائه. لقد نزع الشعر عن أذنيه. ربما ستتلوى البطاريق بالطريقة نفسها في ملابسكم، أو حتى أسوأ من ذلك، قد تموت من الرعب، ألم تستعلم عن ذلك؟

قال "كوليكوف" وهو يهز كتفيه:

- لا يهمني ذلك، هناك متخصصون لهذا الأمر. إن هذا المشروع مُلهمٌ للغاية بالنسبة إليّ، لأنه يجمع بين آلاف الأشخاص في عمل تطوعي. يصلنا بريد من الولايات المتحدة، ومن كل دول أوروبا ومن اليابان وحتى من سنغافورة. إن لدينا أعلى المعايير بالمناسبة، حيث إننا نرفض ملابس بها أي انحراف عن النماذج المتفق عليها. إنها مهنة مهمة للغاية والآن أنا عالق هنا.

عند هذه النقطة اتكأ "كوليكوف" على أحد جانبيه وأخرج بعض المطبوعات المتجعدة من جيب بنطاله الخشن الواسع وقال:

- لديّ هنا سجل الدين المشترك بيننا. لقد جمعته ووجدت أنك تدين لي بثمانية عشر ألف "روبل". لكن يمكنك التأكد في حال نسيت شيئاً ما بينما أتفحص رسائلي الإلكترونية سريعاً إن لم تمنع.

ودون انتظار رد، ارتمتي "كوليكوف" على كرسي الكمبيوتر الذي تحرك من أسفله ثم دخل على الإنترنت، مما جعل الشاشة تومض كنافذة قطار سريع.

احتار "ماكسيم تي ييرماكوف" وهو يقف في الأوراق التي تجعدت وأخذت شكل مؤخرة "كوليكوف" الضخمة. ثمانية مشروبات "موهيتو" و"كونياك"، من شرب كل ذلك ومتى؟ خمسمائة دولار مقابل مرآة مكسورة في نادي "بي". أجل، كان هناك شيء كهذا، هناك مرآة تحطمت، تذكر "ماكسيم تي ييرماكوف" الشظايا الفضية المنتشرة في أشعة الضوء الشبيهة بدائرة كهربائية قصيرة ضخمة، لكن في أثناء ذلك الوقت كان جالساً في البار يشرب الكحول برأس مشتعل. فتاتان في الثالثة إلا عشرة في الوقت نفسه، محتمل. حسناً، لكن ما هذا؟ مطعم "دانجين" - لم يذهب إلى هناك في حياته مطلقاً. لكن على أي حال، لم يتمكن "ماكسيم تي ييرماكوف" من تذكر الكثير عن العمود الآخر أيضاً، الذي يسجل مصروفاته، ومن ثمَّ ديونه لـ "كوليكوف". إن الحياة كالحلم.

في هذه الأثناء، كان "جوليكوف" يحرك الفأرة على المكتب كطفل يحمل سيارة لعبة ويتمتع لنفسه بالألمانية. بإمكان "ماكسيم تي ييرماكوف" إعطائه المال الآن ثم ستقطع كل الاتصالات بينه وبين الرجل الذي كان يعتمد عليه بسرية طوال الوقت. سأله بصوت كئيب بعد أن أدرك أن سجل الدين المشترك هذا غير قابل للتعديل:

- أتود الحصول عليهم بالدولار؟

- يا إلهي! سيكون ذلك أفضل!

تتهد وأعطى ظهره لـ "كوليكوف" ثم مد يده إلى مخابئه. رُزِمَ الأموال التي لم يلمسها المتنبئون الاجتماعيون جفت من عند الأطراف قليلاً بفعل الرطوبة الجافة كأوراق الخريف. لم يعد بإمكانه أخذهم إلى مكتب تبديل عملة في موسكو بعد ما حدث. لكن قَبْلَ الأوروبي "كوليكوف" ستمائة ورقة دولارات دون أي اعتراض ووضعهم في جيب الصدر المنتفخ. كان لديه الكثير من الجيوب كصندوق البريد المعلق على حائط مدخل مبنى ممثلي بالشقق.

ظل يردد برضا وهو يضرب بيديه على ركبتيه المستديرتين برفق ثم نهض:

- رائع.

أصبح لديه حينها وجه مسافر في حاجة لأن يتصل بمكان ما من أجل أمتعته ثم اتجأه للمطار.

- هل سنتناولان الغداء؟

جفل "ماكسيم تي ييرماكوف". كان المجتهد "فاتيا" واقفاً مرتدياً مريلاً مطبخ ذات تصميم مبهج ومرح وهو مبتسم خارج المطبخ الممتلئ بالدخان. تبعثر قليلاً شعره البني المنقوع بالـ "جل" بفعل حرارة المطبخ كما لو كان شوكلاتة. ابتسم "كوليكوف" نصف ابتسامة حذرة وتراجع نصف خطوة حتى يكون في الجانب الأيمن. سأل بصوت مرتفع على نحو مصطنع فجأة قائلاً:

- ذلك الرجل، هل هو فعلاً من رجال الأمن الفيدرالي؟

صاح "ماكسيم تي ييرماكوف" بإيماءة باتجاه المتنبئ الاجتماعي متورد الخدين:

- بالطبع! "فيتيا"، ما رتبك في اللجنة الخاصة؟

أجابه "فيتيا" بذكاء قائلاً:

- ملازم أول! أردت فقط إخباركما أن الغداء جاهز. كفتة لحم مع البطاطس وخيار مملح. على الرغم من أنه احترق قليلاً اليوم، انظرا..

أظهر أمامهما بخجل طبقاً عليه شيء دهني وأسود يبدو كشرائح أسفلت ساخنة. قال "كوليكوف" بصوت مختنق وهو يصبح شاحباً:

- أشكرك، لست جائعاً. أعتقد أنني سأرحل.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يسدُّ الطريق أمام "كوليكوف":

- لا، انتظر!

رأى حينها مساحته الشخصية الأوروبية تتصلب مجدداً، وبدا مرة أخرى كأنه يرى "كوليكوف" عبر عدسة مكبرة متحولاً إلى مادة سائلة رطبة واستطرد قائلاً:

- أتقول لي إنك لست مهتمّاً؟ لكنك خائف من رجال اللجنة الخاصة. لقد أصبحت ركبناك مطاطيتين ويداك ترتعشان. ألسنت محقّان؟

أجابه "كوليكوف" بصوته المصطنع وهو يرمي وزنه من ساق إلى أخرى في محاولة منه للخروج إلى الطرقة:

- إنني فقط لا أريد أي مشكلات.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مثبتاً ساقه في حذائه المنزلي الثقيل:

- لكن لديّ الكثير من المشكلات! إنني جزء من المشكلات. لكنني لست خائفاً من أي رجل من رجال الأمن الفيدرالي. انظر كم هم مدربون جيداً! إنهم أليفون! هل رأيت شيئاً كهذا من قبل؟ إنهم يشترون مستلزماتي! ويعالجونني ويطهون طعامي ويحضرون لي غدائي. حسناً أيها الملازم الأول، هلا أحضرت لي كفتة اللحم المحترقة إلى السرير؟

قال المجتهد "فيتيا" بإحباط:

- يا لك من مسخ!

نظر في أرجاء المطبخ بعينين مرتبكتين ممثلتين بالدموع ثم سحب ناحيته صندوق القمامة بقدمه، وألقى بداخله الكفتة الساخنة المتحجرة. عندما نظر مجدداً إلى "ماكسيم تي يرماكوف" لم تعد عيناه مرتبكتين أو ممثلتين بالدموع. كان شخصاً مختلفاً تماماً ممثلاً بالغضب وكانت عيناه ضيقتين بشراسة؛ أصبحت الآن البثور الملطخة بالمرهم تبدو أكثر كقشرة خشنة من الأكاسيد على حديد خام ساخن.

نادى صوت الفتاة "كاتيا" عبر دخان المطبخ، من الواضح أنها كانت جالسة هناك طوال ذلك الوقت:

- "فيتيا"! "فيتيك"! ماذا يحدث عندك؟

صرخ "فيتيا" الغريب من وراء كتفه بصوت رجل يُقدم على الانتحار:

- اصمتي!

أصبح المطبخ هادئاً تماماً، هادئاً مما جعل صوت صفير المقلاة التي تبرد يمكن سماعه أسفل تيار من المياه. كانت رأس "كاتيا" منخفضة. فجأة أمسكت اليد ذات الساعة الحديدية التي لطالما أطعمت "ماكسيم تي يرماكوف" بياقة ثياب نومه من الحلق، وشعر "ماكسيم تي يرماكوف" بنفسه يختنق. بدأ يلهث وفقد حذاه. تفحصه "فيتيا" الغريب وهو يحركه يميناً ويساراً كبنول الساعة بعينين ثاقبتين بدت كأنما تراه لأول مرة. أنتجت روائح "جل" عطر "فيتيا" الكريهة التي اختلطت مع رائحة غضبه الجسدي الساخن الذكوري رائحة نَفَس مشروب منزلي مخمر.

قال المنتبئ الاجتماعي وهو يتنفس بحدة:

- أي نوع من الرجال أنت أيها المسخ؟ ما الذي يجعلك تشفق على نفسك بهذا الشكل؟ ما الشيء الذي تحافظ على نفسك من أجله؟ لقد مات "سانشا نوفوسيلتسيف" بسببك. لقد تلقى رصاصة بدلاً منك. حسناً، ستظل أنت على قيد الحياة، لكن ماذا بعد؟ هل ستشتري شقة جديدة؟ سيارة جديدة؟ إن الشقق والسيارات موجودة من دونك. إنك لم تخلقها، لم تصنعها. ما الذي تطمح إليه على كل حال؟ أي شخص عظيم تظن نفسك؟ إننا نعالجك ونقدم لك غذاءك مثلما لت. إننا نعتد عليك أملاً في أن يصحو ضميرك، مصدقين أن عليه أن يصحو. يجب على شيء إنساني بداخلك أن يصحو. أظن أن أمثالنا من الجنود مجرد بياق؟ دون أي مشاعر إنسانية، لن تتجح أي أوامر من القادة. إن كل شيء مبني على المشاعر الإنسانية. لكن ألا تملك أي شيء بداخلك؟ هيأ، أخبرني، لا شيء على الإطلاق؟

حينها هزَّ "فيتيا" الغريب "ماكسيم تي يرماكوف" بشدة جعلت عموده الفقري بالكامل يبدو كسلسلة بئر عندما يسقط منها الدلو. سمع صوتاً عالياً على يساره. لقد كان "كوليكوف" المندھش، الذي لم يتمكن من الهروب إلى الحرية بجانب ذلك الصراع الذي لم يكن طرفاً فيه. كان يخربش من حوله بداخل مساحته الشخصية كفأر عالق في وعاء زجاجي بحجم لتر.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بصوت أجش مبتسماً في وجه رجل اللجنة الخاصة بلعاب متجمع في طرفي شفثيه:

- ستقوم بطهي المزيد من الكفتة.

سمع صوت الجد "فاليرا" المتقطع يقول في أذنه مباشرة:

- هيأ، وجه له لكمة في وجهه!

حينها التقط رائحة مفاجئة قريبة لرتوبة أرضية وعطر الجذور الجميل. أجابه "ماكسيم تي يرماكوف" في أفكاره قائلاً: "أنت لن تستسلم للرقود في هدوء، أليس كذلك يا جدي؟".

في الثانية التالية، تمدد خدُّه عبر العظام مُغلِّقاً عينه اليسرى وكانت أسنانه تسبح في شيء مالح يتزايد بسرعة.

مسح "فيتيا" الغريب قبضته بالمريلة المبهجة، التي لم تكن مكتملة قليلاً وأقل ابتهاجاً عند أحد الأطراف المشوشة كقمر خافت، لأن عين "ماكسيم تي يرماكوف" اليسرى غير قادرة على أن تُفَتَّح، بل على العكس، تطغى عليها كدمة ساخنة كثيفة وكان الألم الأولي من تلقيه اللكمة بدأ يتبدد، لكن البناء الكامل لرأسه، هندسته المائلة بالكامل، رفضت البقاء في مكانها، ثم قال "فيتيا" بكرامة:

- لم يكن ذلك بناءً على أمر من اللجنة الخاصة، بل كان قراراً شخصياً مني.

قال صوت "كوليكوف" من مكان يبدو بعيداً للغاية كأنما عاد إلى منزله في أوروبا:

- حسناً، أعتقد أنني سأذهب الآن.

قال المتنبي الاجتماعي معلقاً:

- لقد رحل.

ثم شعر بأنه مُجبر على أن يضيف قبل أن يبدأ بالتموج بأناقة في الهواء ويختفي قائلاً:

- حسناً، لا تفقد وعيك، لا تتظاهر بأن اللكمة كانت قوية. إنني أعسر.

إذاً لقد حان الوقت للذهاب للعمل. إنه كالذهاب إلى كوكب آخر. تعلق به بنطاله كسترة فضفاضة ولولا وجود حمالتي البنطال لسقط على الأرض. كان من الممكن أن يلقى برميل على سترة "ماكسيم تي يرماكوف" معه. شعور غريب بنحافته، هيكل عظمي ضعيف بداخله، بارز من عدة أماكن مشكلاً نتوءاً حاداً زلقاً. لم تخفت الكدمة التي تسبب فيها المجتهد "فيتيا" وفي تجعيدات المتألئة متعددة الألوان. بدت عينه المكدومة كجناح فراشة. كان منظرًا جميلاً دون شك.

نهاية سبتمبر، الأشجار شفاقة، تسحب الرياح أوراق الأشجار المتساقطة من أسفلها، حيث تكشف الأسفلت بمخالب جافة. ضوء شفاف شبحي، وفراغ تام محيط، كأن شيئاً ما أُجِدَّ بعيداً لكن لا يمكنك معرفة ما هو. ازدحام مروري لا نهائي، تلالؤ الفضة المسحوقة.

يظهر في المرآة الخلفية اكصدام سيارة "شيجولي 7" المنبجج والمتهاك، وداخل السيارة جلس ضابطان يحمل كلاهما طعاماً ما في قبضتيهما ويلتهمانه. لم يكن هناك متظاهر واحد أمام المكتب، لم يتبقَ أي شيء من معسكر المتظاهرين المؤقت سوى أكوام من الصناديق ممثلة ببقع سامة من الخضراوات الفاسدة وآثار مربعة الشكل من قماش اللباد على العشب حيث كانت الخيام. سار "ماكسيم تي يرماكوف" باتجاه المكتب، أصبح خفيفاً، وهو مرتدياً ملابس تتطاير مع الهواء ملتقطاً النظرات الخاطفة المنخفضة الجانبية المسلطة عليه، وابتسامته الموجهة للأماكن عمياء كبقعة من ضوء الشمس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مكتب "ماكسيم تي يرماكوف" مغطىً بالغبار مما جعله يبدو كما لو أنه مغلف بغلاف قماشي قدر. وضع أحد العابثين على المكتب زهرتي "أوركيد" مجدتين

كمعطف من فراء الخراف. حدثت تغييرات بالمكتب، فقد حصلت "إيكا" على ترقية فجأة، والآن أصبح في مكانها رجل لطالما عمل لصالح منافسيهم، شخص نحيل مخادع يسبب الغثيان ولديه عدد كبير من التجهيزات على جبهته الكبيرة وفم طويل لزج، يصبح أطول بضعفين عندما يحاول الابتسام. في أول اجتماع مع مديره الجديد لم يكن مسموحًا لـ "ماكسيم تي يرماكوف" بالنطق بكلمة واحدة.

تم تسليم شؤون عمله في مجال الشوكولاتة منذ مدة طويلة إلى فريق من الغرباء جاؤوا مع المدير. لمح "ماكسيم تي يرماكوف" "لوسي" الصغيرة في مكتب السكرتارية الأمامي، أو بالأحرى لمح مؤخرة رأسها ذي الشعر الناعم المصفف ويديها الخاليتين من الدم حيث تبدوان مغطاتين بورق سجاير. تقاجأ هو نفسه بما أثاره ذلك اللقاء الخاطف في نفسه. لسبب ما لم يتمكن من أن يسأل موظفي المكتب الذين يعرفهم عن أحوال ابن "لوسي" وما إن كان هناك جنازة.

استُبدل الموظفون الجدد بالموظفين القداماء. كانوا متعالين ومختالين، يسيرون في الأنحاء بذقونهم الطويلة بدرجات مختلفة، لا شك أن ذلك هو نوع من التعويض عن صلح مديرهم الجديد صاحب الأذنين الكبيرتين. من الواضح أن المدير الجديد لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل بذلك الزميل الغريب الذي عاد من إجازته.

بعد فترة توقف كريهة وفارغة جعلت تجويف معدته يشعر بالدرجة نفسها من الفراغ، تسلم "ماكسيم تي يرماكوف" مشروعًا صغيرًا تافهًا للترويج لخط إنتاج كريم روسي الصنع؛ حيث قرر شريك غربي جشع استثمار أمواله فيه. والكريم مكون من مواد خضراء وبنية فاتحة منها رائحة أدوية نفاذة؛ عند اعتصاره من الأنابيب، كان يخرج فقاعات داكنة شبيهة بالبازلاء الطرية. وبالكاد تكفي ميزانية الترويج، التي كانت حصص توزيعها لا تزال محل خلاف، لتصل إلى مستوى شبه جيد لما تفعله الشركات الأخرى ولم يتم تصور "كوبك" واحد لأي أغراض ترويجية أخرى. باختصار، يعد هذا المشروع بالفشل الحتمي لأي أحد يتسلمه، وقد فهم "ماكسيم تي يرماكوف" ذلك بوضوح شديد.

قال له أحد أعضاء الفريق الجديد ساخرًا وهو يودعه:

- حسنًا إذًا، نتمنى لك النجاح ولا شك في أنك ستحققه.

كان شابًا ممثلًا مسترخيًا ذا خدين صغيرين وأنف قصير أحمر كالتفاح، وكل شيء آخر في وجهه مغطى بطبقة سميكة من شعر بلون التراب الأسود.

نصحه "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً:

- حاول أن تغسل هذا الذقن يا رجل.

من التعبير الذي ارتسم على الأجزاء التي خلت من الشعر أدرك أنه اكتسب عدوًا جديدًا.

ظل المنتبئون الاجتماعيون يراقبونه. رحلوا من الشقة لكنهم احتلوا أماكنهم القديمة على السلم، وقد صاحبه في أنحاء المدينة بشاحناتهم الصغيرة القذرة المغطاة

بالطين والكتابات الكاذبة مثل "نقل الأثاث". دون دعم الناس حاملي اللافتات والمسدسات للعبة، بدارجال اللجنة الخاصة تائهن ووحيدين.

ذات مساء، رنَّ المجتهد "فيتيا" على جرس الباب وأعطى "ماكسيم تي يرماكوف" وثيقة بالية عليها توقيع شبيه برسم قلب لمريض تعرض لأزمة قلبية وختم سخي للاتحاد الفيدرالي. كانت الوثيقة تخبره أن هناك دراجة نارية "ياماها" تعود لمملكة "ماكسيم تي يرماكوف" أخذت من أجل الحفاظ عليها ووضعت في جراج خاص في عنوان ما يمكن للمالك الذهاب لاستردادها عند تقديمه الكثير من المستندات بما في ذلك شهادة من عيادة "نفسية عصبية" .. أو "ورثة هذا الشخص".

كانت تلك العبارة مطبوعة بخط عريض على الرغم من عدم وضوح ما إن كان على الورثة أيضًا تقديم دليل كتابي بأنهم ليسوا مرضى نفسيين.

لم يعد الجد "فاليرا" يظهر من خلال الجدران، ظهر فقط في الأحلام مرات معدودة؛ جالسًا على مقبرته مغطى بالعشب البري، ويأكل بيضة مسلوقة، حيث يغمسها في ملح مبلل منسكب على الأرض مباشرة. قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يجلس مقرصًا إلى جانبه:

- إننا نعيش في زمن يصبح فيه كل شيء دون معنى: الحب والثروة، والكرامة والوطنية.

أجابه العجوز المتوفى متهدأً وهو يمسخ فتات صفار البيض من على سترته الرثة:

- آه يا "ماكسيمكا"، ربما لم أجلدك بما يكفي، كان عليّ جلدك بقوة أكبر ومرات عديدة.

في هذه الأثناء، لم يكن العالم ثابتًا كما هو. بدا وكأنه يتجه سريعًا إلى الجحيم. بعض المنتجات الفردوسية الواقعة على جزر يقصدها المئات من الروسيين في عطلاتهم، تدمرت بفعل إعصار "تسونامي" ذي قوة غير مسبوقة؛ صور أحد الهواة ما حدث، وأعطى انطباعًا بأنه كارثة القرن. في البداية تغير لون المحيط وانتفخ كالكدمة؛ ثم ارتفع الأفق بقمة متألئة وبعد ثانية واحدة بالضبط أنت موجة بيضاء ضخمة كتلج الربيع الرمادي تدفعه جرافة مجتاحة الشاطئ المزدهم بالناس والنخل المرفرف المنتصب والبيوت الصغيرة.

حددت إحصائيات غير مؤكدة عدد القتلى بأربعة آلاف شخص. بجانب أن هناك حربًا أخرى مشتعلة في بلاد "القوقاز": ترنحت الدبابات عبر سحب من الغبار واللهب، وأطلقت الصواريخ آثارًا من البخار الأبيض عبر السماء الزرقاء وعبرت طائرات هليكوبتر محملة باللاجئين مثلما يعبر الخيط ثقب الإبرة. في شبه جزيرة "كامتشاتكا"، عادت البراكين إلى الحياة مشتعلة كالعمالقة الصناعية في خطط ول خمس سنوات، ودُفنت العديد من القرى في رماد كثيف ملتهب خلال ليلة واحدة. تغيرت طبيعة حوادث السيارات في كل مكان: أصبح تصادم أي مركبتين الآن يجذب انتباه كل شيء يسير في الطريق على أربع عجلات أو على اثنتين مثلما يجذب المصباح البعوض.

في دقائق قليلة، تكدست عشرة حوادث أخرى في موقع الحادث الأول وتناثرت  
أكوام من المعدن الملتوي والمنكسر مختلطة بدم بشري شبيه بالـ"كاتشاب"، حيث  
فقدت بالتدريج قوتها المغناطيسية، وبالتدريج حررت هؤلاء الذين كانوا يزحفون  
في الحارات الفارغة على جانبي الطريق. في النهاية، في أحد الأيام الجميلة انخفض  
سعر البترول. لم يبدو أن هناك أي شيء تغير فجأة، لكن غزا وجوه الناس شحوب  
غريب شمعي وتلاشت ألوان أخرى أيضاً، وانتاب الكثيرين شعور بأنهم لم يكونوا  
يشاهدون الواقع بل فيلمًا بالأبيض والأسود. ذبلت وتهالكت فجأة البضائع في  
واجهات المحلات: لم يعودوا ممتلئين بالجشع الإنساني، لم يعودوا مفعمين بأحلام  
كيف يمكن لهذه البضائع أن تُستهلك وتُلبس - واتضح أنها ليست سوى ثياب رثة  
ملطخة بالأصباغ، لا شيء سوى الخشب والحديد والكربون.

من المفزع القول إن الأموال أيضاً ذبلت، ليس فقط "الروبل" بل الدولار واليورو  
أيضاً. كان هناك إشاعات تدور في المكتب عن تسريح وشيك لبعض العمال وتقليل  
الأجور. كان الجميع يلقي بنظرات جانبية على بعضهم بعضاً محاولين تخمين من  
سيكون أول المفصولين. أصبحت النساء سرريعات الغضب ومستاءات وبدت  
أفواههن الملونة كلدغات البعوض التي تم حكها حتى نزفت. حتى فريق الموظفين  
الجدد لم يعودوا متحدين. ظهرت المعارضة ضد المدير، يقودها أكثر الرجال  
الملتحمين شراسة، والذي يبدو وجهه كعش طيور مهترئ ويلتصق به بيض كبير  
مُنقَط. نظر كثيرون إلى "ماكسيم تي يرماكوف" بأمل، مفترضين أنه من الواضح  
أن هذا الاختصاصي الزائد سيكون أول من يُفصل. إنهم يحلمون.

ودون أي مقدمات، وبالقرب من نهاية يوم العمل، اتصل "سيرجي يفجينيفيتش  
كرافتسوف" بنفسه. واستفسر بمرح قائلاً:

- كيف حال صحتك الثمينة؟

دخل "ماكسيم تي يرماكوف" في صلب الموضوع وسأله:

- ماذا تريد؟

كان واضحاً أن "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" متوترًا وربما أيضاً ثملاً وقال:

- هل تشاهد التلفزيون أو تتابع الإنترنت؟ هل تلاحظ المواضيع الأكثر تداولاً؟ ألا  
يضايقك ضميرك على الإطلاق؟

أجاب "ماكسيم تي يرماكوف" بصدق شديد قائلاً:

- على الإطلاق. إن هذه هي محادثتنا القديمة نفسها مجدداً. أطلق النار على نفسك إذا  
أردت لكنني لن أفعل ذلك. بإمكان قسمك بأكمله التخيم على سلم منزلي، أو يمكنك  
أن تخنقي من حياتي إذا أردت. إنني لا أخطط للبحث عن معنى الحياة ولست في  
حاجة لإثبات أي شيء لأي أحد. أحب البقاء على قيد الحياة على أن أكون ميتاً، وهذا  
كل ما في الأمر. بالنسبة إليّ، شخصياً، يكفي هذا. يمكنك أخذ ذلك المسدس، إنه  
ملكك. لا أرغب في الاحتفاظ بما ليس لي.

قال مسخ أمن الدولة بضيق في خط التليفون:

- أوه، إنني أتفهم موقفك، أتفهمه تمامًا. لو لم يُمنَح للفرد الثروة والنفوذ فتقريبًا سيكون مستحيلًا عليه تصديق أن هناك الكثير يعتمد عليه. لا يمكنك الشعور بذلك. لا يمكنك لمسها في الهواء. يا لبراءة ذلك الرجل الضئيل الهائلة! إنه لا يدين لأي أحد بأي شيء، إن الجميع مدينون له. يعالجون أمراضه، يعلمونه في المدرسة، ولا يمكن لأحد أن يلومه على أي شيء. إنه شيء بغيض! أبغض شيء ممكن في زمننا!

عند هذه النقطة لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من تصديق ما يسمعه؛ سمع دموع حقيقية لاذعة في صوت رئيس الحمقى. من المحتمل أن يتم إسقاط تلك الدموع في ثقب المفاتيح الموجودة في أقفال أقوى الخزانات من أجل اقتحامهم.

سمع "ماكسيم تي يرماكوف" صوت زجاجة مسكينة تُعْتَصِر في قبضة يد المتنبئ الاجتماعي الذي تابع قائلاً بهدوء منتحب:

- الآن، دعنا نأخذ رجلًا روسيًا كمثال. إنه يعيش في "ريازان" أو "قازان" أو في أي مكان آخر. ظل طوال حياته يغرس الشتلات بجد لعشر أو اثنتي عشرة ساعة يوميًا. لكنه لم يعد يرغب في فعل ذلك الآن. إنه يأكل ويشرب، وينتقد السلطات بشدة، ويحسد المسؤولين الذين يحصلون على رشاوى. ليس هناك فرصة لأي ترميمات في شقته الصغيرة الحقيبة التي تعود لعصر "خروتشوف"، إنه ليس مهتمًا حتى بتعليق بنطاله في الدولاب. تغسل زوجته الأطباق، لكنها أكثر اهتمامًا بالسماع عن أبطال مسلسلاتها بدلًا من الأشخاص الواقعيين.

وتابع:

- ربما توقف تعليمها عند المرحلة المتوسطة، لكن منذ ذلك الحين أصبحت تتحدر أكثر، لم تعد حتى قادرة على التعرف على نفسها. لكن ها هما ذا، لا يمكن لومهما على أي شيء، لم يخلق أحد الظروف المناسبة من أجلهما! لقد م خداعهما من خلال الخصخصة، عندما تم بيع مخيم العطلات التابع لمصنعهما لرجال الأعمال. لكن من أجل ترتيب حياتيهما، ليرتبا الفوضى التي يعيشان فيها، هل يحتاجان إلى ظروف خاصة من أجل تحقيق ذلك؟ إنهما لا يعملان، ولا يقرآن كتبًا على الإطلاق، كل ما يفعلانه هو مشاهدة التفاهة التي يعرضها التليفزيون - وترى أنهما بريئان؟ ألا يوجد متطلبات مُتوقعة منهما؟ أجبني يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"!

لم يجبه "ماكسيم تي يرماكوف"، ومجددًا قرقرت الزجاجة بطريقة مثيرة للشفقة في الطرف الآخر من الخط وأصدرت محتوياتها صوتًا ناعمًا في أثناء انسكابها في كوب. خمّن "ماكسيم تي يرماكوف":

- مياه فوّارة! يا لك من ممثل رائع يا "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف"!

على الرغم من ذلك، اضطر "ماكسيم تي يرماكوف" أن يعترف بأن الصورة التي رسمها المتنبئ الاجتماعي كانت دقيقة.

صاح المتنبي الاجتماعي بنبرة "دوستوفسكية" ثم أفرغ الكوب الخفي في حلقة،  
وتابع بصوت متوتر:

- إن شعبي يخذلني. إن الشعب هو الملام. لكن يا للأسف، من المستحيل إثبات ذلك  
لهم. حاولنا ذلك في بداية حركة الإصلاح لكن لم نتمكن من الوصول إلى النتائج  
المطلوبة وتحولنا إلى مفهوم أن الخطأ عند السلطات. هل الوضع أفضل في الغرب؟  
لقد تم عمل غسيل دماغ لرجل الشارع العادي هناك أكثر مما حدث هنا في أيام  
الاتحاد السوفيتي القديم. لا يريد الاستماع لأي شيء عدا تأكيدات آرائه وعباراته  
المبتذلة المريحة.

وأضاف:

- الحرية، الحرية! ليس هناك حرية من دون حرية تفكير. من دون القدرة على أن  
تفكر برأسك أنت! ليس هناك حرية في أي مكان دون ذلك! في الواقع إن الحرية  
شيء غير مريح، لقد حان الوقت كي يفهم المواطن العادي ذلك.

تساءل "ماكسيم تي يرماكوف" بسخرية في التليفون، بشعور مماثل كأنه يتحدث  
مباشرة إلى أذن "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" التي تبدو كزهرة شمعية من  
إكليل فوق مقبرة:

- مهلاً، مهلاً! ما الحق الذي يمتلكه قسمك ليجعله يعظ بشأن الحرية؟

أجابه المتنبي الاجتماعي مدافعاً بعجرفة:

- أنت أيضاً يا "ماكسيم تيرينيتيفيتش" تفكر بالعبارات المبتذلة، التطهير الكبير في  
الاتحاد السوفيتي عام 1937 وكل ما تبقى منها. إن الحرية هي المادة التي نعمل  
بها. من منظور أبحاثنا، إن الحرية جزء من الكيمياء الحيوية لكل الكائنات الحية  
التي تدرج تحت مسمى علاقات السبب والتأثير. إن نمط نمو تلك العلاقات يقدم  
صورة غريبة تماماً على العين البشرية. إن التسلسلات الهرمية التي نعيها ليست  
البنى المتجددة بأي حال لهؤلاء الزواحف متعددة الأبعاد، إنهم بالكاد قضبان النوافذ  
المعتمة التي نراهم من خلالها. بإمكان علاقات السبب والتأثير أن تقيد على حاكم  
غني أو حتى حارس فناء كاللبلاب.

وتابع:

- لقد تمكنوا سلفاً من حبك أغصان متشابكة كثيفة حولك، لأن ليس بإمكانهم التقدم  
للأمام، لذا يقومون بالالتفاف حول العائق مرة تلو الأخرى. بطبيعة الحال ليس  
بإمكانك الشعور بوجودهم عليك. تظن أن الرجال الأشرار أصحاب بطاقات  
التعريف الفاخرة يخبرونك بالأكاذيب طوال الوقت ولسبب غريب قاموا بإعطائك  
مسدساً..

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مقاطعاً المتنبي الاجتماعي الثرثار، ربما كان ثملاً  
بالفعل:

- إياك أن تفكر في أن هذا هو سبب إخباري الدائم لكم بأن تغربوا عن وجهي! هل تظن أن كل ما عليك فعله هو إقناعي ثم ماذا؟ هل سأبدأ بالتعاون معكم؟ أعرف أنكم لستم كاذبين. أعرف ذلك. تتنابني الفكرة بالفعل. لكن عليك أن تفهم ماذا أعني بذلك. إن تلك الفكرة تأتي وتتساب بإرادتها.

أصبح أحمق أمن الدولة فجأة لطيفاً وقال له مشجعاً:

- جيد، هيّا، أخبرني عن ذلك.

تفحص "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه. تقاجأ بأنه تهادى في كلامه. بدا كأنما هناك شخص ما أصاب رأسه إصابة مباشرة بقذيفة مدفع؛ فقد انتفخ كالبالون وظل يتمدد. بداخله، في الواقع، تناثرت طائرة تسقط في البحر إلى عدة أجزاء كقطعة شوكولاتة في ورق "فويل" فضي، وانهار مبنى ضخ من الطوب الأحمر متجهماً باشمزاز لا يوصف؛ زحفت حمم بركانية سميكة كثيفة باتجاه قرية صغيرة وضيعة، واشتعلت ملابس الأطفال المعلقة على الحبال متحولة إلى قصاصات محترقة. بطريقة أو بأخرى، عرف "ماكسيم تي يرماكوف" عن يقين بأنه لو لم يكن موجوداً فلم يكن ليحدث أي شيء من هذا. كتم المتنبي الاجتماعي المتحدث على التليفون أنفاسه وأصبح كالشراب المركز في انتظار أن ينسكب في عقله. أجل، لقد كان الجد "فاليرا" محقاً، إنه بحاجة إلى الزواج في أسرع وقت.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه: "ما الذي أنتظره؟".

وضع التليفون ببساطة في جيب معطفه بعد ضغطه على زر إنهاء المكالمة. كانت ممرات المكتب المغلفة بالصمت بفعل غطاء الأرضيات الاصطناعي فارغة وخائفة، نجح الموظفون الأساسيون في الهروب للحرية، وظل بعض الأفراد المتباطئين كما هم بانتظار المصاعد وسط أشعة شمس جافة مغبرة جعلت الأجساد البشرية تبدو كزجاجات عكرة.

نزل "ماكسيم تي يرماكوف" طابقيين للأسفل مسرعاً. ظن أنه لو لم يكن الطفل قد مات بعد، لأسرعت "لوسي" إلى المستشفى، لكن لو كان أمر الفتى قد انتهى، فمن المرجح أنها ليست متعجلة في الذهاب إلى المنزل.

كانت "لوسي" الصغيرة في مكتب السكرتارية الأمامي الخاص بها: جسد هزيل ذو كتف عليا من الآخر وألواح الكتفين بارزة من ظهرها كشظايا من جرة مكسورة. كانت تسقي نباتاً شبه ذابل لونه مثل الكربن المسلوq. ظلت تسقيه طويلاً بالمجرى الهزيل الصادر من الكوب دون أن تلاحظ مطلقاً حقيقة أن الماء تخطى حافة الإناء وأصبح يتدفق على إطار النافذة. كان لدى كل النباتات الأخرى في المكتب لون الكربن المسلوq نفسه أيضاً. سأل "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه، وقد كانت رأسه من الداخل خفيفة مثل السحاب: "لماذا أشعر الآن بهذا التوتر؟ لو وافقت، فهذا جيد، وإن رفضت فلا بأس".

التفتت "لوسي" الصغيرة، وهي لا تزال تسكب التيار المتمايل ولكن الآن على تنورتها وقالت:

- "ماكسي"؟

كانت تبدو جيدة بصورة مذهلة. كانت مساحيق التجميل على وجهها دقيقة وكثيفة. كان خدّاهما ملونين بالأحمر فبديا كأنوان رأس السنة الصغيرة. خطر على ذهن "ماكسيم تي يرماكوف" أن تلك هي الطريقة التي يهيئون بها الجثث في المشرحة. كانت "لوسي" ترتدي ملابس جديدة أيضًا؛ بلوزة حريرية مزينة بزهور الكستناء الشبيهة بالقروح المفتوحة ولا تزال بها التجعيدات التي اشترتها بها من المحل. لم يكن يمكن لأي رجل عادي أن يتنازل ويلقي بنظرة خاطفة على هذه الفزاعة الحزينة. لكن "ماكسيم تي يرماكوف" حمله كشخص مهووس بالجنس في الفتحة التي تقع بين الزرين الصغيرين، حيث تظهر شامة صغيرة تنتفس، وهو يلتهمها بعينيه.

قال لها كاذبًا:

- مرحبًا يا "لوسي"، لقد كنت مارًا بالقرب من هنا ورأيت أنك لا تزالين في مكتبك. على الرغم من أن كلاهما يعرف أنه من المستحيل أن يمر "ماكسيم تي يرماكوف" من أمام مكتبها في طريقه للخروج ولكنه استطرد قائلاً:  
- لم نتحدث منذ أن عدتُ للعمل. كيف حالكِ يا "لوسي"؟

لم تجبه "لوسي" الصغيرة. التفتت ببطء باتجاه النافذة ومن خلفها مصابيح الطريق التي بدأت تنير الشارع بالتدرج وكانت السماء الصافية للغسق الخريفي الرائق ممثلة بالثلوج. لسبب ما جلس "ماكسيم تي يرماكوف" إلى مكتب "لوسي"؛ حيث كل شيء مغطى بدوائر لزجة سوداء من كوب "لوسي" الذي كان يقف في مكانه كجزء من أنبوب مياه بداخله آثار شاي.

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" بصوت مختنق، على الرغم من أن كل شيء كان واضحًا من دون سؤال:

- كيف حال "أرتيوم"؟

صمت آخر. أطلق "ماكسيم تي يرماكوف" تنهيدة عميقة وأظهر أسنانه. كان هناك شيء ما لا يُحتمل ومستحيل في طريقة انحناءة "لوسي" الصغيرة وهي تمرر إصبعها على إطار النافذة. كانت تنتثر مع الماء المتدفق من إناء الزهور الذي تتجمع فيه المياه، بعض القطع الدقيقة من الطين المتألثة كالـ"بوليثين". خارج النافذة، تتلمس السيارات السريعة طريقها بمجساتها الكهربائية في أثناء خروجها من الجراج، أصبح الغسق أمام المكتب أكثر كثافة، وفي الغسق أصبحت الأشياء البيضاء مرئية وتبدو وكأنها مغطاة برغوة صابون. في مكان ما، في الطوابق العليا، ثبت أحدهم متقالبًا على أحد الجدران وبدأ بالعمل، وتسبب تصاعد الصوت في ارتعاش "ماكسيم تي يرماكوف".

قال بصرير وهو يكوّر يده مكونًا قبضة:

- إنكِ تظنين أن ما حدث لـ"أرتيوم" بسببي، هذا مؤكد، لا يمكنك منع نفسك من التفكير في ذلك. لو كنت أطلقت الرصاص على نفسي إذًا.. لكن ذلك ليس من الضروري. ربما كنت أنا وهو مرتبطان، أتفهميني؟ دعيني أخبرك بصراحة، إنني لم أطلق الرصاص على نفسي ولا أنوي فعل ذلك. لكنني لا أعرف ماذا أفعل من أجلك الآن يا "لوسي" .. خذي ما تشائين!

حينها ملأ "ماكسيم تي يرماكوف" صدره بالهواء حتى ذقنه ثم قال:  
- سأ تزوجكِ إن أردت!

بدأت "لوسي" الصغيرة بالتحدث، حينها قال "ماكسيم تي يرماكوف" لنفسه، وهو يأمر نفسه بالنظر إليها: "حسنًا، الآن ستلتقت وسأنظر في عينيها".

كانت عينا "لوسي" الصغيرة بالضبط كعيني الرفيقة "روميانتسيفا"؛ ذات لون مادي ناعم وقاتم، لون السحب قبل نزول الأمطار بلحظات.

قالت "لوسي" الصغيرة ببساطة وهي مبتسمة ووجهها الصغير بأكمله يرتعش كانعكاس في الماء:  
- أجل، أريد ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتجها معًا ببطء إلى شقة "لوسي". بدا أن "ماكسيم تي يرماكوف" يقود سيارته الـ"تويوتا" في مكان معكوس، في أرض غريبة تمامًا، حيث كل شيء يقترب منهما يسير مبتعدًا في الوقت نفسه؛ كانت السيارات من حولهما تتهادى ببطء كأنما يجرُّها أطفال بخيوط وكانوا يطلقون أبواقها على "ماكسيم تي يرماكوف" عندما كان يتحول من صف مرتعش إلى واحد آخر مثله. وحده التدخل الإلهي ينقذهما من التعرض لحادث. في الطريق أضاعا جميع المتنبيين الاجتماعيين المتنبعين في سيارتين أو ثلاث سيارات سوفيتية تبدو كأثاث قديم متداعي: لم يعتد رجال اللجنة الخاصة على أسلوب قيادة "ماكسيم تي يرماكوف" فعلقوا في الزحام.

لكن من يمكنه الاعتياد على ذلك؟ أحمق تمامًا من كان بإمكانه تقليد حركات الـ"تويوتا"، حيث تتقاذف وسط السيارات كعسكري شطرنج يندفع إلى الأمام كي يصبح الملك. في الكرسي الأمامي لم تتمكن "لوسي" الصغيرة من ربط حزام الأمان، فقد ظل يقفز خارج مدخله مرتدًا لأعلى بصفير مرن مشوهًا بلوزتها المهلهلة التي جعلت فم "ماكسيم تي يرماكوف" يجف ويشعر بلسانه كأنما خُلِقَ من الرمال.

من المفاجئ أن طريقيهما قادهما إلى شارع "مالايا ديميتروفكا". سارا بالسيارة عبر ممر منحني مُضاء بخفوت بمصباح كهربائي بداخل قفص طيور حديدي، ثم وجدا نفسيهما في فناء قديم به أشجار ذات جذوع مغطاة بلحاء شبيه بجلد الفيل، وتصل فروعها حتى طوابق المباني العليا.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالذهول عندما رأى صالة الدخول بصداها الهائل الأجوف، وقاعدة تمثال غريبة فارغة في ركن وُضِعَ فوقها دلو ممتلئ بمياه قدرة وأعقاب سجاجير. كان طول باب الشقة المزوج الذي فتحته "لوسي" الصغيرة بيدين مرتعشتين ضعف طول الرجل العادي. استقبلته رائحة أدوية نفاذة ما إن أصبح بداخل الممر الضخم المظلم الممتلئ بلوحات مُعلّقة على جانبيه. في اللحظة التالية، أَلقت "لوسي" بمفاتيحها وحقيبتها على الأرض واحتضنته حتى يتمكن من الشعور بقلبها المتوتر الصغير ينبض عبر بلوزتها والغطاء الشريطي السخيف لحمالة صدرها - نبضتين معاً، ثم نبضتين أخريين، وهو ما لم يعطه الفرصة لقول أي شيء.

حينها، وهم يرقصان رقصة تانجو غريبة ويخلعان ملابس بعضهما، يسحبان أكماماً طويلة متشبثة حتى انتهى بهما الحال في غرفة مظلمة حيث ارتطما بأريكة سرير لم يتم طيها وعليها ملاءة مجمدة. ظللاً غير قادرين على التقبيل على نحو ملائم، ظل فمهما الجائعان يرتطمان بخدّ أو بأذن، احتك جلداهما الساخن بقماش الأريكة، وتدلّى سروال "لوسي" الصغيرة الداخلي على كاحلها كسوار قماشى مضحك. كانت تشبه وهي عارية يعسوباً من دون جناحين.

كانت بالداخل قوية وممتلئة بالعضلات بصورة مفاجئة؛ بدت كوعاء ممتلئ بتلك المادة البدائية الرطبة النابضة التي انبثقت منها الحياة. كان لديها علامات تطعيم على كتفها شبيهة بحبيبات الشوفان. ما تلقاه منها "ماكسيم تي يرماكوف"، ما اختبره معها، تخطى بكثير المعايير الرسمية أو حصص خدمات أو استحقاقاً معيارياً للنعم الدنيوية. كان لديها رواسب جيولوجية كاملة من الشامات متناثرة على جلداهم الباهت الذي يغطي جسدها النحيل للغاية. كان شعرها الأشعث حاراً تماماً بدرجة تحرق أي أصابع قد تندس وسط تلك الخصلات.

كانت ليلة طويلة للغاية، كحال ليالي المحبين الأولى دائماً. أحياناً كان كلاهما يغرق في قيلولة قصيرة، ثم تتصاعد الجزيئات المكونة لجسديهما المدمرين في الهواء كعدد لا يُحصى من البعوض الأبيض. ومن مكانهم، داخل سيارتهم الـ"موسكوفيتش" الواقفة بجوار صناديق قمامة خضراء بدت شبيهة بهم، رأوا أضواءً تنبعث من شقة "لوسي" الصغيرة. ذكرتهم تلك الأضواء بتجارب الكيمياء في المدرسة.

مرت لحظة عندما استيقظ "ماكسيم تي يرماكوف" بجانب "لوسي" النائمة، التي كوَّمت الملاءة الرطبة على ثدييها الصغيرين، ورأى جسدها يبدو كما لو تناثرت عليه طبقة سميكة من مسحوق التجميل، ولا تزال بعض حبيبات المسحوق تحوم في الهواء. كما تذكر أيضاً كوباً بداخله بقايا الشاي وشريحة منقحة من الليمون الأحمر منتصبين عند نهاية السرير فوق ورقة مشوهة؛ هناك على الكراسي وعلى الأرضية الكثير من الألعاب المحشوة المتناثرة. كانت ضخمة للغاية مما جعلها جزءاً من الأثاث الرقيق المتبعثر في الغرفة. رأى وسط الظلام غير المعتم على باب ظن أنه دولا ب نصف مغلق، مرآة ذات عمود رأسي منفرد من الزئبق؛ وأني

فخارية ضبابية في خزانة تبدو كبط ودجاج نائم. اتجه المحبان إلى الدش للاستحمام مرتين، أو ربما أربع مرات. في الغرفة الضيقة الطويلة، حوض استحمام مصقول بالميना المصنوع من مواد معدنية، والتي من المرجح أنها المعادل لسيارة مصفحة صغيرة. يضخم صوت المياه لتشبه صوت تدفق سيل من الجبل. انكشيت ملابس الأطفال المجففة منذ مدة طويلة والمعلقة على شماعة التجفيف بجانب النافذة العارية صغيرة. ربما كانوا ليناسبوا طفلاً في الثانية من عمره. كان كل شيء في الشقة كبيراً على نوع مبالغ فيه، ما عدا تلك الملابس المكوّمة التي ذكرته بالقطط الصغيرة. عندما أضاءت "لوسي" الثريا؛ حيث كانت تحاول إيجاد علبة كريم في منتصف الليل، شعر "ماكسيم تي يرماكوف" وكأنه يرى فوقه قبة سماوية بسبب تلالؤ ألوان بلوراتها المتحركة في السقف شاهق الارتفاع.

بالطبع تأخر الاثنان على عملهما في اليوم التالي. كانت "لوسي" خائفة من مديرها الجديد بنفس قدر الخوف الذي تشعر به أي امرأة عادية من الفأر، فهرعت إلى مترو الأنفاق. أما "ماكسيم تي يرماكوف"، وهو في حالة من النعيم الجسدي التام، فقد أخذ وقته في التسكع بين الزحام، وفي طريقه اشترى باقة زهور باهظة الثمن، خمساً وثلاثين زهرة، جميعها ببياض فساتين الحفلات نفسه، والتي انتزعها من مزهرية بلاستيكية حزينة. كان أول ما فعله بكل وقاحة ودون أن يعير أي أحد اهتمامه، هو أخذ الزهور للمكتب الصغير الأمامي. في طريقه، ابتعد عنه زملاؤه المرتعدون، الذين أصبحوا غير معتادين على أي نوع من الزهور. كانت "لوسي" تضرب على الكمبيوتر أحدث قذارة من قذارات العمل من أجل مديرها، وكانت كعادتها وليست كما كانت في الليلة السابقة: كانت أصابعها تتقاذف على لوحة المفاتيح، وبتلألاً خاتمها وشعرها مُصفف يتطاير كالدخان المضيء فوق رأسها المائل. عندما رأت "ماكسيم تي يرماكوف" رافعاً رأسه فوق الزهور أطلقت صفيراً.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مُلقياً بالزهور الثقيلة إلى ذراعي "لوسي" الصغيرة الممدودتين:

- امسكي!

كان فخوراً كما لو أنه أحضر لها ماموث ليقيم معهما في كهفهما. صاحت "لوسي" الصغيرة بسعادة مذعورة وهي تحمر خجلاً فبدت باهتة لكن على قيد الحياة:

- يا إلهي! أين سأضعها؟

كانت تلف ذراعيها حول غابة كاملة من السيقان المبللة بالكاد شبيهة بالشجر في حيويتها، وطبقات متشابكة من أوراق النباتات الخضراء وأشواك ممثلة بقطرات المياه. كان من الصعب تخيل وجود إناء في هذا المكتب ويكون قادراً على استيعاب باقة كذلك. حاول "ماكسيم تي يرماكوف" أن يخبرها بذلك، لكنه لم يفعل.

قالت "لوسي" فجأة بصوت هادئ جاد:

- "ماكسي"، أنت لست مضطراً إلى الزواج بي.

أجابها "ماكسيم تي يرماكوف" بثقة قائلاً:

- بلى، أنا أريد ذلك، لن أتعجل الأمور وأتحدث عن الحب، لا أعرف بشأن ذلك بعد.  
لكن كل العلامات تؤكد أنك لي، وأنا أيضًا لك. لقد أشار إليك جدي بالتحديد، ومن  
المستحيل أن يُقدم لي الهيكل العظمي العتيق نصيحة سيئة.

خرج المدير الجديد من مكتبه، عند هذه اللحظة بالذات، ماسحاً على بقايا شعره باتجاه مؤخر رأسه بكلتا يديه. عند رؤيته للزوج حاملين باقة الزهور انفتح فمه وتحركت تجاعيد جبهته المطوية. التفت "ماكسيم تي يريماكوف" إليه ببطء قائلاً:

- ماذا؟ إنها ستتزوجني. هل لديك مشكلة في ذلك؟

أجاب المدير بصوت عدائي وهو ينظر إلى "لوسي" بعيني الزواحف الصفراوين اللتين لا ترمشان قائلاً:

- حسناً، إن هذه شؤونك الخاصة. من فضلك حافظ على أمورك الشخصية خارج ساعات العمل. خصوصاً مع سكرتيرتي.

بعد ذلك حدثت معجزة صغيرة. لو حدث ذلك في اليوم السابق لزحفت "لوسي" أسفل المكتب هرباً من مثل هذه النظرة القاتلة، لكن اليوم أطلقت ضحكة بسيطة أخفتها خلف باقة الزهور.

ذلك المساء، ذهب الاثنان إلى شقة "ناتاشا" التي أصبحت مؤخراً غريبة ليحزم أغراضه. وقف المتنبئون الاجتماعيون على السلم ويمررون الوقت بلعبة كنيبة ميكانيكية صغيرة تتحرك ببطء شديد. ألقوا بنظرة جانبية على "لوسي" الصغيرة وهي تمر أمامهم. بعد هجوم "ناتاشا" المدمر، لم يعد هناك تقريباً أي شيء يحزمه: كان أضخم الأغراض هو حقيبة من "أيكيا" مهلهلة ومناهرة من الجانبين أصبحت تحتوي الآن على ملابس قديمة رثة أحضرها معه من البلدة القديمة الصغيرة، لكن لسبب ما كانت تلك هي الأشياء التي لم يرغب "ماكسيم تي يريماكوف" في تركها خلفه. اجتاحه شعور غريب وكأنه قد مات منذ ثمانية أعوام عندما رأى تلك "التيشيرتات" شبه الطفولية ذات التصميمات التي بهتت وأصبحت مجرد رقائق جافة من الطلاء، وقدم البناطيل "الجييز"، التي أصبحت الآن تبدو كضمادات طبية قدرة انتزعت من على أطراف مكسورة.

لكن حتى مع ذلك، مرت عملية حزم الأغراض ببهجة، حيث قام "ماكسيم تي يريماكوف" و"لوسي" الصغيرة بحشو الأغراض بنفسيهما، متخلصين من محتويات مقلاة الصلصة في الثلاجة المبللة وملقين بالأطباق في الحوض. لم تعد "ناتاشا" موجودة. شعر "ماكسيم تي يريماكوف" بفرحة عارمة. كان وداعه السابق لتلك الجدران مؤلماً حين هجرَ أمانها قبل انطلاقه في رحلته إلى المجهول، لكنه الآن يشعر أنه يهجر غرفة فندق كريمة علق فيها رُغماً عنه في أثناء رحلة عمل. كان بإمكانه الشعور بأجهزة المراقبة التي وضعها المتنبئون الاجتماعيون في جميع أنحاء الشقة؛ صدرت عنها حرارة جعلته يشعر وكأنها ستشتعل كأعواد الكبريت في أي لحظة.

وهما على طريق "يوسوف"، أدرك "ماكسيم تي يريماكوف" أنه نسي رابطات عنقه الثمينة على السرير مُكومة كالكرة، لكنه قرر أنه لا يهتم بها. بعد ذلك عندما وصلا أخيراً إلى الممر نفسه الذي دخلا منه في اليوم السابق، تبعثرت الحقائق بأكملها على الأرض في الحال ولم يتذكراها حتى الصباح.

هكذا بدأ "ماكسيم تي يرماكوف" حياة جديدة في مكان جديد بقدره جديدة. كانت شقة "لوسي" الفخمة القديمة هي بالضبط النوع الذي حلم به حينما كان يقتطع أجزاء كبيرة من ميزانيات الإعلان ويتشاجر مع وكلاء العقارات. أربع غرف بسقف شاهق الارتفاع حاملين على أسطحها البعيدة بقايا بقع بيضاء تشبه ندف تلج صغيرة؛ ورق حائط أزرق وذهبي بال؛ نوافذ عريضة غائمة بدت أنها تسمح بدخول الضوء الخارجي من خلال طبقة من صورها المتراكمة، ذاكرتها الخاصة مخفية بداخل ألواحها الزجاجية السميقة المخدوشة.

جنباً إلى جنب، وقفت قطع الأثاث الضخمة العتيقة الممتلئة بمحاولات تجميلها، والتي بدت كالحجارة الإسفنجية بفضل مجهودات ديدان الخشب الدؤوبة. ومعها وقفت كذلك إبداعات مشوهة من السبعينيات؛ بما في ذلك الأريكة السرير القابلة للطّي ذات القماش الصناعي القوي، والتي قضى عليها "ماكسيم تي يرماكوف" و"لوسي" الصغيرة لياليهما الساهرة لتردهما في الاقتراب من السرير ذي الإضاءة الضعيفة أسفل المركب الصغير المائل، الذي لطالما كان واقفاً مستعداً في غرفة الأسرة الأصلية لعشرين عاماً أو أكثر.

كانت جدران الشقة؛ بما في ذلك جدران الممر، ممتلئة بصفوف من اللوحات المعلقة والتي لم تترك أي مساحة فارغة. كان بعضها بحجم ثلاثة أمتار طولاً وأربعة عرضاً كما في المتاحف، ومغطاة بشبكة رقيقة للغاية من الشقوق. تعرض اللوحات مساحات شاسعة من "أومبريا"، إقليم إيطالي على حدود "لاتسيو" و"توسكانا" و"لومارشيه".

بدت كأنما رُسمت بـ"الآيس كريم" و"الكاستارد"، ولوحات لأجساد نساء ذوات سيقان طويلة وردية. هناك كذلك بعض اللوحات الأخرى الصغيرة، بداخل إطارات مطلية بالذهب كالتوايبت، والشخصيات الأسطورية نصف العارية في حجم إصبع صغيرة.

لا بدّ أن المعرض الخاص بأكمله من القرن التاسع عشر، لم يكن هناك عمل فني واحد حديث بإمكانه خرق الروعة القائمة عن طريق استخدام ثمرة تقاح مربعة الشكل أو وجه ذي عين واحدة. تواجه الحداثة في العموم صعوبة في ترسيخ أساساتها بين تلك الجدران المهيبة.

في غرف أخرى، أحصى "ماكسيم تي يرماكوف" خمسة أجهزة تليفزيون لا تعمل، ذات شاشات بدت كأنها محشوة بتلج موحل ذائب؛ لم يكن هناك جهاز تليفزيون واحد يعمل. كانت شقة أحلامه مُهملة تماماً: الأرضية الخشبية تنن تحت الأقدام؛ الصنابير الملفوفة بقصاصات شبه بالية تُسرب كما لو لم تكن من ضمن تركيبات أنابيب المياه بل كأنها جذوع مبتورة لأشخاص عاجزين وهميين. إن التجديد على حسب المعايير الأوروبية مطلوب، وقد هيا "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه بسعادة للتبرع بماله. ومع ذلك، قرر بأنه ليس من الممكن البدء بتجديد الديكور في الحال، لأن الشقة كانت مسكونة بروح شبح صغير.

بجانِب اللوحات، كان هناك الكثير من الصور المؤطرة في الشقة، نصفهم كانوا لأطفال. عرف أنها صور لأجيال سابقة بسبب طريقتهم في اللبس وجودة طباعة الصور. تشبه أقدامهم أنواعًا غامضة من بقايا القهوة. لكن حتى مع ذلك، كانت وجوه الأجداد الذين تتراوح أعمارهم حينها بين خمس وسبع سنوات تقريبًا متطابقة: رقيقة وذات آذان كبيرة، يبدو جميعهم كأنهم مصابون بالبرد، والشفة العليا أكبر من السفلى؛ ربما كان هذا هو السبب، أو ربما كان السبب بالفعل هو أن كل هؤلاء الأطفال رحلوا إلى الجانب الآخر. قضى "ماكسيم تي يرماكوف" وقتًا طويلًا قبل أن يدرك من منهم "أرتيوم".

لم يتمكن من سؤال "لوسي"، التي لم تتحدث مطلقًا عن ابنها، علي الرغم من أنها كانت تقضي ساعات طويلة في صمت تام ترتب أبعاد غرفة في الطريقة. ذات ليلة، بعدما ربطت "لوسي" الصغيرة شعرها الطويل وذهبت مسرعة إلى مصفف الشعر، تسلل "ماكسيم تي يرماكوف" إلى الضريح المقدس. كان هناك طفل صغير كئيب يحملق فيه من داخل إطار أسود على طاولة صغيرة. عند الحكم من خلال الانطباع الذي تركته الصور الأخرى فإنه سيكون في نحو الستين من عمره الآن. لديه مقدمة شعر مدببة على هيئة جناح عصفور صغير وعينان أكثر إشراقًا من الهالات السوداء أسفلهما ما جعلهما تبدوان كالزجاج أو الثلج. كان بإمكانه أن يصبح مديرًا أو رائد فضاء حين يكبر.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مخاطبًا الشبح الصغير:

- مرحبًا.

حطت قدمه في الحال على شيء يشبه الصندوق وبه الكثير من الزوايا، وقد جرى كأنه مثبت على لوح تزلج فكاد "ماكسيم تي يرماكوف" يفقد توازنه. انطلقت الشاحنة اللعبة الصغيرة المصنوعة من الصفيح من تحت قدمه وسقطت على جنبها وعجلاتها المصنوعة من الأزرار تدور.

نظر "ماكسيم تي يرماكوف" من حوله. سرير أطفال خشبي، مغطى تمامًا بشيء رمادي، كحقيبة على طاولة؛ كانت هناك على الطاولة شاشة كمبيوتر ممثلة بالغبار ولوحة مفاتيح - إذا كان هذا هو المكان الذي اعتاد الطفل "أرتيوم" على اصطيد "ماكسيم تي يرماكوف" الافتراضي. هل كان ليشرع بالإثارة عند رؤيته للسرير رفيع المستوى بنفسه؟

لم تعد هناك طريقة أخرى لمعرفة ذلك الآن. على الجدران بعض اللوحات لمناظر بحرية تحتوي على أشعة وردية بالإضافة إلى رسومات طفل: سفن صغيرة مزينة بأكاليل من الرايات، وأشخاص صغار مثلثو الشكل كشجر الصنوبر ورسم امرأة ترتدي ملابس عليها زهرة تحمل ألوان قوس قزح وتعليقًا مكتوبًا: "أمي".

وهناك فوق سرير "أرتيوم" شيء من المؤكد أنه قيم للغاية من بين معروضات المجموعة الخاصة: لوحة لجبال صفراء زجاجية من الماء تصنع دوامات، وأسفلها

سفينة متهاكة تبدو وكأن خيوط العنكبوت تغطيها تمامًا، وفي مقدمتها كشاف صغير يسلط الضوء على قارب يصارع الأمواج.

من المؤكد أن تلك الصورة المائلة، التي بدت كأنها توشك على سكب محتوياتها على السرير، تسببت في الكوابيس للطفل. لم يكن ليسمح "ماكسيم تي يرماكوف" تحت أي ظرف بتعليق شيء كهذا في غرفة ابنه، حتى ولو كانت لوحة أصلية للرسام الأوكراني الروسي "أيفازوفسكي".

لم تفهم النساء أن ثقافتهن الحمقاء هذه جعلت من الأطفال مرضى نفسيين لا معجزات صغيرة. الآن أنته فكرة مثيرة: عندما يولد ابن "ماكسيم تي يرماكوف"، هل سيكون تكرارًا لمجموعة صور العائلة، أم سيصبح مختلفًا، متقردًا؟ إن أذني والد "ماكسيم تي يرماكوف" كبيرتان أيضًا، على الرغم من أنهما تبدوان الآن كجوربين يُزعلان من القدمين. فكر "ماكسيم تي يرماكوف" محدثًا ابنه المستقبلي: "هيًا، فلتولد الآن. سأشتري لك كمبيوتر رائعًا وكرة قدم، ولوح تزلج، ثم بعد ذلك دراجة نارية. بوجودك تحت ذراعي من المستحيل أن يتمكن مسوخ الدولة من الإيقاع بي".

عند هذه النقطة، بدا كأنه يشعر برد غامض من خارج التقلبات متعددة الأبعاد للفضاء الذهني، كأنما سقطت قطرة ثقيلة على عقله، متسببة في إرسال تموجات متحدة المركز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أسبوع تقدمًا بطلبهما إلى مكتب القيد. استقبل مركز البلدية العروسين بخواء بارد رسمي مدوي، حيث دوى صوت طرقات كعبي حذاء "لوسي" على الرخام السكري الصناعي الردهة بأكملها. في ممرات مركز البلدية، ارتدت العاملات بالمكان الفساتين. كن كبيرات الحجم وصدورهن تشبه مناضد البضائع بالمحلات التي تعرض مجوهرات تُصنع حسب الطلب. وكان الرجل الذي أخذ وثائق العروس والعريس رجلًا عاديًا ضئيل الحجم ويرتدي قميصًا أبيض غير مكوي تحت سترة سوداء كورق الكربون. أثار رأسه الأصلع تمامًا - والذي يشبه نبات اللفت في حجمه ولونه - شكًا قويًا في عقل "ماكسيم تي يرماكوف" في أنه أحد المنتبئين الاجتماعيين. لكن الرجل قَبِلَ مغلّفًا صغيرًا يحتوي على دولارات من "ماكسيم تي يرماكوف" بحيوية إنسان آلي صُمِمَ ليفعل ذلك بالضبط، وهو ما قدّم موعد تسجيل زواجهما من بداية شهر ديسمبر إلى أكتوبر.

في أثناء الثمانية عشر يومًا المتبقية حتى موعد الزفاف حدثت بعض الأشياء؛ احتشاد غريب للظروف التي يستحيل تصديقها. تسببت محاولة تدخين لعاملة شابة تحت التدريب أمام نافذة مفتوحة في شرارة دفعها الهواء للتشبث بستار النافذة الشبكي المغبر، ثم تحولها إلى شرارة واهنة زرقاء ما لبثت أن أصبحت شرنقة مشتعلة أدت إلى نشوب حريق بشارع "مياسنيتسكايا". كان أكبر من أي حريق شهدته موسكو المعاصرة.

انبعثت أنهار كاملة من النيران السائلة خارج النوافذ المحطمة للأعلى باتجاه سماء الليل الوردية، وفي واجهات المحلات اشتعلت صفوف من الدمى وذابت، أما السيارات الواقفة بالقرب من الحريق، والتي كانت مكدسة في الشوارع حرفياً، فقد صدرت عنها أصوات تشبه النبيح والنعيق، وانفجرت شاحنات البنزين في أماكن مختلفة وسُحقت أجساد بشرية صغيرة في ذلك الجحيم.

أخذ شكل المباني المشتعلة صورة أشعة محترقة، أصبحوا مجرد هياكل هشة بينما وقف الناس يشاهدون. كانت قوات المطافئ التي حاصرت الكارثة عاجزة عن فعل أي شيء. بدت نافورات الماء والرغوة الموجهة إلى اللهب السميك المحترق كمنار سائلة أيضاً. تم تغطية الحريق المروع في كل نشرات الأخبار.

شاهد "ماكسيم تي يرمكوف" ما تمكن المراسلون من تصويره على تليفزيونه "البلازما" الجديد، كان بإمكانه الالتفات تجاه النافذة ورؤية توهج في السماء قريباً منه يشبه رُقعة مضيئة كتلك التي تتجرف تحت جفني عينيك إذا ضغطت عليهما بشدة.

اثنا عشر قتيلاً وثلاثمائة شخص مفقود. ثمانون قتيلاً. أربع وعشرون. ستة وثمانون.

ظلت "لوسي" تردد بصوت حزين وهي تسير مسرعة ذهاباً وإياباً عبر الغرفة وهي مرتدية ثوباً فضفاضاً:

- "ماكسي"، عليك ألا تشعر بالمسؤولية، لا تحزن على ما يحدث.

ثم احتضنت "ماكسيم تي يرمكوف" والكرسي الذي يجلس عليه من الخلف بقوة مفاجئة حيث أصبحت ذراعها النحيفتان فجأة ككابلات حديدية ملتوية وقالت:  
- لا تتركني..

أجابها "ماكسيم تي يرمكوف"، وقد تشوش وجهه بابتسامة مغرورة قائلاً:

- لا تنزعجي هكذا يا "لوس"، أتظنيني أحمق؟

شعر بالأمان التام بين الذراعين الممتلئتين بالشعر الأشقر الصغير المنتصب لتلك المرأة المتشبثة به. كان ذلك جلياً.

في أثناء تحضيرهما للزفاف، بدأت علامات بالظهور تشير إلى أن "ماكسيم تي يرمكوف" كان على الطريق الصحيح. في الواقع لقد كانت دائماً العلامة نفسها، الجد "فاليرا" الذكي، يُظهر نفسه من بعيد؛ كان هو دون شك. لم يأت الجد "فاليرا" إلى شقة شارع "دميتروفكا".

ظنَّ "ماكسيم تي يرمكوف" أن اللوحات منعه من اختراق الجدران، حيث إن طبقات الطلاء التي لا تتضمن فقط أصبغاً مادية، بل أيضاً مزيج سام من الموهبة الإنسانية، مما شكّل حاجزاً لا يُفهر أمام رجل ميت. ذات مرة، رآه في محطة بنزين وفقاً بجانب كشك طعام سريع وبيرة يفتح ببطة ورقة "آيس كريم" ذائب مُلصق بعضاً يشبه زهرة. تمكن من التهامه بعينه فقط ولم يتمكن من تناوله في الواقع.

كما حام الجد "فاليرا" فوق مركز تجميل العرائس و"لوسي" داخله تشهق وتصرخ في أثناء تجربتها لأطنان من فساتين الزفاف المبهجة المتييسة. كان مقاساتها كلها أكبر من مقاسها. لوّح الجد "فاليرا" تجاه "ماكسيم تي يرماكوف" من فوق رؤوس البائعات بيد ذابلة بدت كأنها ملفوفة في قفاز ضيق جاف ثم اختفى بهدوء خلف أحد تماثيل عرض الملابس.

كان الزفاف صغيراً وسرياً. وكشاهدين، دُعي وكيل العقارات "جوشا شيردالك" وصديفته المرحّة ذات العينين الخضراوين المائلتين وتصيفة الشعر الشبيهة بقبعة فراء الثعلب. لم يجداً أحداً آخر. استأجر "ماكسيم تي يرماكوف" سيارة ليموزين، انسيابية وبيضاء، بها الكثير من النوافذ، وقد بدت كطائرة صغيرة من دون جناحين. تتبعتهم شاحنة صغيرة وضيعة وصاخبة، مُحملة بشيء لا يعرفه إلا الرب. ظلت ترحف خلفهم وصولاً إلى مكتب القيد. كان يقودها متبئ اجتماعي ذو يدين سمينتين. في كومة من الحرير والشرايط وطرحة مضحكة ممثلة بالترتر، بدت "لوسي" جميلة للغاية ومرتبكة وخجولة. مقارنة بها بدت باقي العرائس كرجال الثلج في نظر "ماكسيم تي يرماكوف". تأنق المتنبتون الاجتماعيون فبدو وكأنهم عرسان يقفون منتظرين في الرواق، وأن أقاربهم هم من يحيطون بهم. في النهاية، عُزفت موسيقى الزفاف عبر الأبواب الواسعة المطلية مُعلنة أن دور "ماكسيم تي يرماكوف" و"لوسي" الصغيرة قد حان. ارتدت الموظفة التي ستسجل زواجهما بذلة بيضاء ضيقة.. بدت كمثل على ما ستصبح عليه العرائس بعد ثلاثين عاماً أو أكثر. ارتعش خاتما الزواج اللذان اشتراهما من "تيفاني" على الطبق الصغير الذي قُدّم عليه. كان بنصر "لوسي" الذي أحاطه "ماكسيم تي يرماكوف" وعانقه بحزمة من الذهب، شفافاً كأنيوب اختبار ممتلى بالدم.

تسكع المتنبتون الاجتماعيون في أرجاء المكان دون أن يجذبوا إليهم الانتباه وكأنهم مجرد مزهريات على الأرض. خطرت لـ"ماكسيم تي يرماكوف" فكرة بأن سر نجاحهم في عدم جذب الانتباه هو افتقارهم لأي صفة بشرية بهم؛ كالأثاث أو الأدوات الصحية. كان الحدث الأكثر بروزاً هو حضور الجد "فاليرا" الزفاف. ظهر بهدوء، متقطراً عبر شريط أشعة الشمس الباهت المنبعث من النافذة كالرطوبة عبر القماش، ثم احتل مكاناً خلف الشاهدين. ارتدى هذه المرة أفضل بذلة مخططة كان يملكها وهو على قيد الحياة وحاملاً أمامه باقة كثيرة الأعشاب من زهور "الجريس" البرية - كان تمكنه من العثور عليه في أول الشتاء لغزاً. بعد ذلك، وهما في المطعم، تم اكتشاف زهور الجد، واهنة ورطبة، حيث تذبل بسرعة بفعل رياح الواقع القاسية بين الباقات الأخرى التي وضعتها "لوسي" بجانب النافذة، لكنها لم تتذكر من الذي أعطها إياها.

لم يعرف أحد بالمكتب عن الاحتفال المتواضع لمدة طويلة. كانت "لوسي" مُخرجة من الإعلان عنه وتفهم "ماكسيم تي يرماكوف" الأمر، لأنه عرف أن زملاءهما اشترخوا إكليلاً من أجل جنازة "أرتيوم". لم تذهب "لوسي" إلى المكتب حتى في السيارة بصحبة زوجها، كانت تسرع إلى مترو الأنفاق في الصباح، ولإنهاء

ذلك بدأ "ماكسيم تي يرماكوف" بمصاحبته تحت الأرض، ثم بعد ذلك أصبح يقودها من يدها حتى يوصلها إلى مكتب السكرتارية الأمامي، الذي أصبح شكله أجمل كثيرًا الآن، فقد تفتحت الزهور المنزلية كلها فجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يستقل "ماكسيم تي يرماكوف" مترو أنفاق موسكو منذ عدة أشهر، وهو لم يحب وجوده هناك على الإطلاق. أصبح كل شيء رتيبًا بغيره. أطنان الهواء الثقيل الرطب الذي مر عبر آلاف الرئات بدا أنه يحتوي على أجزاء مظلمة من الروح البشرية، وازدادت قوة الشعور باليد الروحية التي ترسم مترو الأنفاق بإحكام.

في المترو، كما هو الحال في الأعلى، شكَّلت الازدحامات المرورية حشودًا غير قابلة للاختراق تراكمت في الممرات المترابطة، إلا أنها هنا مكونة مباشرة من كتل حيوية بشرية. حملتهم المصاعد المكتظة لأعلى وأسفل كبطاطس في مخزن الخضراوات، لكن حتى تتمكن من الدخول في فم ذلك المسار الضيق عليك أن تقف مُحرِّكًا قدميك لمدة خمس عشرة دقيقة.

أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أن تلك الحشود البشرية كانت أكثر خطورة من الازدحام المروري في الأعلى، وحاول حماية "لوسي" الصغيرة بجسده حيث شعر كيف كان تنفسها مُرهِّقًا وكيف يصبح قفصها الصدري مشدودًا كلما تنفست.

تجسد الجد "فاليرا" في المترو عدة مرات. عادة، يقف على الرصيف في أثناء مغادرة العربة التي تركبها "لوسي" و"ماكسيم تي يرماكوف"، حيث ترفرف ثياب المقبرة الرثة في الدوامة المزعجة، التي تتسبب فيها حركة القطار. ومهما مرت المحطة سريعًا، دائمًا ما يحظى "ماكسيم تي يرماكوف" بوقت كافٍ ليرى قناع الجلد الرمادي الذي يغطي جمجمة الرجل الميت حاملاً تعبيرًا من الإنذار والحزن.

ذات يوم، قفز الجد "فاليرا" أيضًا في العربة كجرادة نحيلة وبدأ باختراق طريقه بين الركاب المكسبين وهو يثني نفسه ككرسي قماشي. كان واضحًا أنه يحاول جذب انتباه "ماكسيم تي يرماكوف"، حيث أشار بعصاه إلى حقائب يد النساء السوداء ذات الأحزمة الكبيرة المخدوشة - لكن بما أن كل امرأة في العربة تحمل حقيبة كهذه، لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من فهم ما كان يحاول جده إيصاله إليه.

مع ذلك، كان الجد "فاليرا" يشير بوضوح إلى أن مترو الأنفاق مكان سيئ لأي شخص يوجد فيه - وبهذا، كان يؤكد ما شعر به "ماكسيم تي يرماكوف" من قبل. كما شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بأن أنفاق ومحطات مترو الأنفاق كانت جزءًا من النظام الكلي لسرايب الموتى بموسكو، جزءًا من النظام المتجذر لذلك الفراغ الهائل المغطى بالسحب التي دائمًا ما تحوم في سماء موسكو المكتظة المذعورة، وأن تلك الجذور كانت تموت تدريجيًا. من هنا، نشأ الهواء البالي العفن والضوء المعتم، والشعور المُعلق بالخطر الذي لم يترك "ماكسيم تي يرماكوف" حتى اللحظة التي قاد فيها "لوسي" الصغيرة المُعذبة عبر الأبواب الزجاجية التي تتأرجح مُحدثة تأثيرًا مسطحًا جارفًا. بمجهود كبير تمكن بالكاد من إقناعها بعدم استخدام

مترو الأنفاق مجدداً. الأمر مختلف تماماً في الـ"تويوتا". بالطبع غادرا مبكرين ساعة، ناعسين ومستعدين بالكثير من الكافيين، لكن الجو دافئ في السيارة، همهم الراديو بهدوء وكانت جداول أمطار الخريف المُضاءة على النوافذ بكهرباء الشارع رمزاً للسعادة، كزينة شجرة رأس السنة.

في عطلات نهاية الأسبوع، بدلاً من الثقافة التافهة، أصبح الآن يستمتعان بالتجول في المحلات. في البداية خاف "ماكسيم تي يرماكوف" من دخولها، متوقفاً صراخ البائعة وأن يلقي به حراس الأمن مفتولو العضلات إلى الشارع و"لوسي" تتشاهد كل ذلك. لكن لم يحدث أي شيء من هذا ودفع "ماكسيم تي يرماكوف" العربية الصاخبة الممتلئة بمشترياته أمامه بشعور فخور بأنه سيد الحياة، متخيلاً كيف أنه بعد قليل سيدفع عربة تحتوي على طفل جاحظ العينين سليم التغذية بالطريقة نفسها.

اكتشف أن "لوسي"، التي تمتلك شقة تُقدّر بمليون دولار، لم تتذوق المانجو أو الأفوكادو أو حتى السمك المدخن في حياتها من قبل. من خلال "لوسي" ودهشتها من كل هذه الفخامة في المحلات الكبيرة العادية، تجدد حب "ماكسيم تي يرماكوف" للطعام. في الأمسيات أقاما جلسات طعام نهمة في المنزل، انغماس مفرط في الطعام، حيث يقلبان شرائح لحم خنزير ضخمة حتى يصبح لون الدهون أصفر، والإتيان على اللحم البارد والسمك الجاف، والتهام الكثير من الحلويات، وطعام مالح وحلو دون ترتيب معين، ثم يلعبان أصابعهما المتباعدة، كل إصبع من العشر أصابع لها نكهة مختلفة.

كانت طاولة المطبخ لديهما كلوحة ألوان رسام مُلهم مُلطخة بالكامل بطين مُلون. على الرغم من الرقم المروع للسعرات الحرارية التي استهلكاها، لم يزد أحدهما في الوزن على الإطلاق. ظل "ماكسيم تي يرماكوف" كما هو عندما عاد من مرضه، شبه متحلل، كان جلده متعلقاً عليه كخطوط من "الستيارين". كان يشعر بدفع داخلي مستمر؛ دفع قد تشعر به شمعة عندما يجعلها لهبها دافئة وهي تكتسب الشفافية الفعلية للحم البشري الشاب؛ كان من المرجح أن كل الطعام الثقيل يُحرق في هذه النار دون أي أثر.

أبعاد "ماكسيم تي يرماكوف" المتغيرة أجبرته على أن يغيّر ملابسه بأكملها. لم يعد مهتماً بالماركات المعروفة كما أنه تفاجأ بنفسه شاعراً بعدم الاكتراث بالانغماس في الترف - كل تلك الأقمشة الناعمة، والشعارات الذهبية والأشكال الخاصة. على الجانب الآخر، قامت "لوسي" الصغيرة بدراسة منتجات الرجال بحماس واستخرجت له سترة أو بذلة من مكان ما بالمحل والتي كانت رائعة للغاية. ذهباً لشراء السترة، وذهباً لشراء البذلة؛ داخل الدولاب الأثري الشبيه بعربة ضخمة، كان الجزء الذي خصصته "لوسي" الصغيرة من أجل ملابس الرجال ممثلناً بالكامل، كان عليهما أن يفسحا مكاناً على الحائط الممتلئ بالملابس لتعليق الأغراض الجديدة. هناك على الباب الغريب الذي يعود إلى عصر "الباروك" مرآة ببيضاوية تتلألأ بهدوء، متشابكاً معها غصن شجرة عنب منحوت وهو بقدّمه يبدو كحجر "ميكا" المصنوع من مادة السيليكات المعدنية ذي البنية المكونة من عدة

طبقات، ذي اللون الأخضر. انعكست صورة "ماكسيم تي يرماكوف" فيها فبدا كبطل فيلم أبيض وأسود. كان هناك شيء ما رومانسيًا في نحافته، الرُقعات المثلثة أسفل عينيه ونظرته العميقة العابسة. أخيرًا صدّق "ماكسيم تي يرماكوف" أنه هو فعلاً بطل قصة حياته الرئيسي.

على الرغم من دوامة التسوق، فقد كان لدى العائلة ما يكفي من المال. وفجأة، أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" الآن أن ميزانيات الإعلان، التي لطالما أتت بكسرة طعام لطيفة سميحة مغوية، لم تعد تملك سوى قيمة نظرية بالنسبة إليه. ظل يعمل بطريقة مبتذلة على خط إنتاج مستحضرات التجميل الحغيرة - أي شيء يجعل الوقت يمر حتى انتهاء يوم العمل.

تأتي صانعتا مستحضرات التجميل، وهما سيدتان شقراوان ترتديان معاطف صفراء طويلة، من إقليم "ألتاي" وتحضران معهما كومة من العينات وتتركناها على مكتبه مما يعني أنه الآن بإمكانه فحص جودة المنتجات بنفسه - كما لو كانت الجودة مرتبطة بأي حال بالإعلان عن المنتج. جمع "ماكسيم تي يرماكوف" العينات في حقيبة بلاستيكية وأعطاهما لـ "لوسي" مع تعليمات مكتوبة على اثنتي عشرة صفحة. لم تحتو تلك التعليمات على أي فكرة إعلانية واحدة، وعلى الرغم من ذلك، فسرتهم "لوسي" بأمانة على الرغم من الأجزاء غير المقروءة والتي بدت كأثر نعل حذاء. كانت مملة تمامًا، كمواصفات تقنية لمخرطة من نوع ما أو لمهنة متعلقة بالمعادن.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بقلق حقيقي حيال إمكانية إصابة "لوسي" بأذى من مستحضرات التجميل، خصوصًا عندما شاهد وجهها ملفوفًا بقناع سميك جعله يبدو كقدر فخاري جاف. لكن عكس كل توقعاته، كان لتلك المستحضرات تأثير سحري، أصبحت "لوسي" باهرة الجمال واختفت تمامًا التجعيدات الرقيقة أسفل عينيه، والتي سببت لها الاكتئاب. عندما رأى إمكانيات المنتج، تقاجأ "ماكسيم تي يرماكوف" بالحماس الذي أثاره بداخله. بعد أسبوعين، جهّز عرضًا حضره مجموعة كبيرة من الملتحين الذين جلسوا حول طاولة الاجتماعات كنسخ مختلفة من "كارل ماركس" المتشكك، وقد كان المدير الجديد على رأس الاجتماع يحك الشعر الخشن المتناثر على رقبتة ويرمش بعينه بسرعة. كان شعار "نقدم فقط كل ما هو جيد من أجلك، دون بذخ"، يعني أن تكاليف التصميم قد تكون منخفضة للغاية، كما أن مفهوم "التلاعب بالفقر" جذب آلاف النساء العاديات اللاتي لم يلقين ولو نظرة تجاه القسم الفاخر. أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أنه فاز من خلال الازدراء العميق في عيون الأفراد الملتحين، ومن حركة أصابعهم المُشعرة على أوراقهم الممتلئة بالرسومات التافهة. تلوى بحرية كالقط، ثم نزل على أقدامه الأربعة في البقعة نفسها التي كان عليه أن يسقط عليها ويفرغ ما في جوفه حسب خطة زملائه.

كان المتنبئون الاجتماعيون يتصرفون باعتدال، كانوا متخفين. لسبب ما لم يتمكنوا من اختراق سلم شقة "لوسي" الجاف الواسع وظلوا يقظين بالخارج في الفناء، حيث كانوا جالسين في سيارات "الموسكوفيتش" و"الشيغولي" الضيقة. اثنان في كل

مرة، كالعادة، يحدقان عبر زجاج سيارة أمامي جففته الماسحات ويبدو ان كصورتي جواز سفر لنفس الشخص.

أحياناً، لا يلاحظهم "ماكسيم تي يرماكوف" لأيام. بالطبع كان المتنبئون الاجتماعيون حاضرين في كل مكان، كما كانوا في السابق، حيث يتبعون الـ"نويوتا" عبر طريقها بأكمله، ويدخلون المحلات خلف حديثي الزواج ويلمسون البضائع التي لمسها قبلهما، في الواقع كانوا يعرضون الملابس الجديدة البريئة تماماً لبحث شامل، مع تفقد كل جيب وتفحص متطرف لكل رُقعة مُلصقة بقطعة الملابس. لكن حتى مع ذلك، بعد ذلك الظهور المزعج، فقد اختفوا عن الأنظار بطريقة غريبة. بالطبع لو نظر "ماكسيم تي يرماكوف" نظرة مقربة فسيظهرون أمامه في الحال، لكن دون أن يبذل مجهوداً كبيراً، رأى واحداً فقط في أسبوع بأكمله، حيث اشترى لنفسه السروال القصير الأحمر النحاسي الذي جربه هو نفسه لكن دون أن يشتريه.

باختصار، بدأ المتنبئون الاجتماعيون المنتشرون في كل مكان كأن بإمكانهم الاختفاء في الفراغ متحولين إلى عنصر ملوث غامض ومضر في هواء موسكو، وبدأ "ماكسيم تي يرماكوف" بالتفكير بأن موقفه الآن غير مختلف عن موقف أي مواطن عادي يعيش في هذه الدولة الشاسعة الملوثة بأشخاص خفيين ومصانع. إن كان هذا هو الأمر، فبإمكانه تحمل المتنبئين الاجتماعيين شبه المختفين لخمسين عاماً أخرى لو اضطر إلى ذلك، وبالطريقة نفسها التي يتحملهم الجميع بها ويستكملون حياتهم.

سمح "ماكسيم تي يرماكوف" لنفسه بحذر أن يفترض بأن الأزمة المجنونة التي امتصته لقرابة عام كامل قد تنتهي نهاية سعيدة كما يحدث في الروايات. ومع ذلك، فقد كان هناك حدث واحد مطلوب ليجعل باقية السعادة مكتملة، ولكنه لا يزال ناقصاً. تمنى "ماكسيم تي يرماكوف" وأمن وحاول بجد في كل ليلة: اشترى بنفسه صندوقي اختبارات حمل مما جعل كل من كانوا في الصيدلية غاضبين. في كل ليلة يعطي "لوسي" قطعة الورق المعتادة وبعد أن تُغلق على نفسها الحمام يبدأ هو يشعر بالتوتر بعبث حيث يتلاعب بالأطباق التي تتراقص بين يديه وينظر في ساعته.

كانت "لوسي" تخرج من الحمام هادئة كالمسكة وتتسلل إلى مكان ما دون أن تقول أي شيء، لكن كان الأمر واضحاً دون الحاجة إلى أي كلمات. كان كل شيء على ما يرام، فقط في بداية اليوم كان هناك حالة طارئة بسيطة، انهيار صغير في العلاقة، وارتبك شيء ما؛ غير آمن بينهما، إلى أن تأتي مجدداً اللحظة التي تخلع فيها "لوسي" الصغيرة قميص نومها في مكان ما بين الدش والسرير.

يدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أنه مضى وقت قصير، لم تحل رأس السنة الجديدة بعد وظل "أرتيوم" الراحل، الطفل الشبح ذو العينين الصغيرتين الشبيهتين بالثلج جالساً في غرفته المُرْتبة بعناية، لا يسمح بميلاد أخيه أو أخته.

في هذه الأثناء، اقتربت أعياد رأس السنة الجديدة. أضيء طين الشوارع بالنيران الملونة، وعند نقاط معينة في أنحاء موسكو انتصبت أشجار "تتوب" عملاقة بدت كأبراج "الكرملين" متتكرة في قمصان رياضية. ابتهجت "لوسي" الصغيرة وأقامت حملة تنظيف واسعة. كان يساعدها، وهو يصارع مع المكنسة الكهربائية العتيقة التي لم تكن تنظف على الإطلاق أو كانت تعلق بسرعة شديدة في السجاد القديم الباهت. أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" أن تلك الشقة التي أتى إليها ليقضي فيها بقية حياته، ممتلئة بالطفولة. كان مسكن عائلته في المدينة الصغيرة القديمة ينتمي إلى نوع آخر، النضوج، أو ربما حتى الشيخوخة، ولهذا السبب كانت تفوح منه رائحة الملل. من الواضح أن تربية طفل واحد - "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه - لم يكن كافياً ليصبح منزلاً عائلياً بالكامل.

لكن هنا، داخل هذه الجدران المهيبة ذات طبقات الدهان المتعددة، نشأ فيها على الأقل أربعة أجيال من الأطفال ذوي الأذان الكبيرة، وأغلبهم ذكور، ومرضوا وأسقطوا بقعاً في كتب التدريبات المدرسية. كانت طفولتهم في كل مكان: خلال عملية التنظيف كان يقابل عربة حبر من البورسلين تحتوي على حبر جاف، أو صندوق شبه بالٍ يحتوي على بعض لعب الألواح، أو مجموعة من الأعشاب عليها كتابات غير متقنة تحولت إلى اللون الرمادي بفعل الزمن وأوراق شجر وبتلات جافة بدت كأجنحة يعسوب جافة.

كانت زينة شجرة رأس السنة المأخوذة من داخل صناديق كرتونية عليها خطوط فضية متجددة أيضاً من أعمار مختلفة؛ قد تصل إلى مئة عام أو أكثر. هناك الكثير من الطيور الصغيرة المتألئة كالمرأة التي تقشّر طلاؤها، وهي مُلتصقة بمشابك حديدية، والكثير من السناجب المصنوعة من الورق المقوى وظيفان بشرائط مربوطة بها من عام لا يعرفه إلا الرب. أمّا أقدم زينة فكانت مصنوعة من صوف قطني ملون مخدوش؛ على شكل مهرجين. وتمائيل بها الكثير من النتوءات، مُلصق عليها بالغراء وجوه صغيرة من "البورسلين" حيث تشبه أظافر مُلونة. قاومت شجرة "التتوب" الناعمة الطازجة، وأبرزت أغصانها الشائكة المرتعشة؛ لكنها مع ذلك كانت مزينة رغم إرادتها ومزاجها. أسفلها، في "الميك" المتألي للتلج الصناعي وضعت "لوسي" الصغيرة دميته المحشوة المفضلة.

سأل "ماكسيم تي يرماكوف" بفضول، وهو يحمل الدمية الضخمة ذات الساقين في حجم أحذية الأطفال المصنوعة من اللباد:

- ماذا بداخله؟

ضحكت "لوسي" الصغيرة بتلاعب وهي تختطف منه الدمية وتخفيها خلف ظهرها قائلة:

- ماذا تعني؟ هيروين بالطبع!

بقلب يخفق وروح معنوية مرتفعة، أخرجت العديد من أدوات المائدة الأثرية غير المتطابقة، التي تحتوي على كل أنواع البذخ، من أجل وليمة العيد. ومن أجل

التماهي مع فستانها البسيط وضعت زوجًا من الأقراط الذهبية القديمة التي استحال لونها داكناً كشوك الخريف، وبها حبات ماس كبيرة حادة متألئة. شرب الاثنان بنهم من زجاجة "شمبانيا" خطيرة كمدفع محشو في أثناء انتظارهما لدقات الساعة على التليفزيون. عندما ألقى الرئيس الجاد الباهت ذو العينين الثقيلتين الشبيهتين بالزجاج المصبوب بخطابه أمام خلفية تُظهر الميدان الأحمر، بدأ صوت الدقات المتوتر والمتباطئ. فتح "ماكسيم تي يرماكوف" زجاجة "شمبانيا" حيث انطلقت سدادتها مصيبة الحائط، اندفع سيل شهواني مُغرَقاً المفرش وفستان "لوسي" ببقع فائرة من الرغوة، وفي النهاية طرقا كأسيهما المملوئتين باهتمام وقبلا بعضهما بعضاً.

قالت "لوسي" الصغيرة وهي تبعد نفسها عن قبلته كما لو كانت تطفو عبر فجوة في الثلج على نهر:

- "ماكسي"، إن لدينا كل شيء الآن!

قال "ماكسيم تي يرماكوف" دون أن يفهم في البداية:

- بالطبع، عام جديد سعيد.

قالت "لوسي" الصغيرة موبخة إيَّاه وهي تنظر إلى معدتها المسطحة كالمقلاة والغارقة بالـ"شمبانيا":

- "ماكسي" ..

عند تلك النقطة، قالت ألعاب رأس السنة الجديدة النارية كل شيء نيابة عن "ماكسيم تي يرماكوف"، منطلقاً ومتفجرة ومصفرة، نائثة مساحات من النقاط الملونة عبر السماء مع صرخات الناس الواهنة البعيدة، والذين انتشروا في الشوارع. لم يشاهد الزوجان الشابان التليفزيون أكثر من ذلك.

في ليلة رأس السنة انتقلا لأول مرة من الأريكة السرير إلى سرير العائلة الكبير، مُجردين طبقات السرير المنصهرة برائحة تحللها الخفية والملاءة الممتلئة بخيوط العنكبوت الرمادية التي ظلت عليها لمدة لا يعلمها إلا الرب. كان السرير ينبض بالشهوة ومحدثاً كذب حي، وكاد الاثنان أن يسقطا من فوقه عدة مرات وهما يحاولان الاستقرار فوقه.

نثرت القبة المائلة الزلقة حبيبات ليفية ناعمة على جسديهما الساخنين؛ وخارج النافذة تساقطت ثلوج سميكة كريمية اللون فوق موسكو الساخنة كما لو كانت تتبعث من علبة لبن. وفي تلك الليلة، في عزلة الشقة القديمة والسرير القديم، ساد شعور بأن حياة جديدة جيدة كانت تبدأ، على الرغم من صعوبة تخيلها.

مر شهر يناير وكان المستقبل يتكشف أمامهما كما لم يحدث أي شيء. مهما حاول "ماكسيم تي يرماكوف" بإسراع العملية في عقله، إلا أن معدة "لوسي" بالكاد تمددت، تغيرت هيئتها بصورة طفيفة للغاية، كأنما فُتحت صدقة مستديرة بعض الشيء تحت الجلد. ساد الهرج والمرج في العمل، كان "ماكسيم تي يرماكوف" مشغولاً للغاية. بعد نجاحه مع مستحضرات التجميل المصنوعة في سيبيريا، كدسوا العديد من المشروعات فوق كتفيه وأعادوا له الشوكولاتة الخاصة به بأكملها، والآن

أصبح يقضي أيامه كلها مندفعًا بين شركات الإنتاج، التي نقلت مكاتبها في تلك الأثناء، كحال كل الأعمال في موسكو، والتي ظهرت في مباني العاصمة واخفقوا منها ككرات صغيرة تحت كؤوس لعبة الإخفاء. خلال يوم العمل، يذهب "ماكسيم تي يرماكوف" تقريبًا إلى عدة أماكن في الوقت نفسه، وبهذا اضطر المتنبئون الاجتماعيون شبه المختفين إلى إضافة تفاصيل أخرى إلى "الهدف الرئيسي". ظلوا يتجولون وسط ضباب شتاء موسكو كجذوع أشجار نصف مغمورة بمياه الشتاء المريرة.

شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالسعادة حتى وهو مرهق. أصبح الآن في عطلات نهاية الأسبوع يتمدد أمام التليفزيون تاركًا "لوسي" تتجول بمفردها في المحلات كي تواجه الاختيارات الهائلة من لعب الأطفال، والدمى المائلة التي تشرب، والبيوت الصغيرة والبط الصغير والقطط الصغيرة - لتواجه الواقع البديل متعدد الألوان البلاستيكي سهل الغسل، الذي يصنعه الكبار بهذه الطريقة لأن لا أحد منهم يتذكر كيف كانوا في صغرهم. عندما خرجت "لوسي" للتمشي، كانت تتصل بـ"ماكسيم تي يرماكوف" كل خمس عشرة دقيقة وفي بعض الأوقات كانت تنقوه بكل أنواع الهراء الرقيق في عطلة نهاية أسبوع واحدة.

وفي الوقت نفسه، كان العالم المحيط بهما يمزق نفسه. مهما كان ما قد حدث طوال فترة وجود موسكو، إلا أنها لم تتعرض قط لزلزال واحد - لكن على الرغم من ذلك، ذات ليلة استيقظ الزوجان الشابان بسبب صوت خشخشة أدوات مائدة المتصاعد، حيث شعرا كما لو كانا نائمين على مقبض ملعقة ضخمة تحرك ببطء الحساء الأحمر الذي يغلي في قدور الأرض. ارتعشت أكوام الأطباق في "البوفيه" من الأعلى إلى الأسفل ومجددًا من أسفل للأعلى، ترنحت الثريا كقمم أشجار في مواجهة رياح قوية، واهتزت الصور على الجدران، كما ارتجت الساعات ودقت. لكن قبل أن يتمكن الزوجان من أخذ نقودهما وأوراقهما وقد ارتديا ملابسهما بسرعة، انتهى الزلزال، وتوقف كل شيء تمامًا ملتويًا قليلًا وغير متوازن، كما لو كان العالم قد رفع قدمه من أجل الخطوة التالية وتجمد في تلك الوضعية.

هكذا كانت الأمور بالفعل، واقفة في توازن، وربما كانت متوازنة أكثر من اللازم، متحركة نصف خطوة باتجاه المستقبل. ترك الزلزال "ماكسيم تي يرماكوف" بشعور ينتابه في بعض الأوقات في بداية نزلات البرد. وكأن هناك تيارات ضعيفة من الكهرباء تمر عبر جسده من الأرض للسماء. لكن أسوأ ما في الأمر هو أن "ماكسيم تي يرماكوف" بدأ يشعر بالناس. من خلال وجود "لوسي" فهم فجأة أن هناك أشخاصًا آخرين على قيد الحياة. أخافه موت الآخرين حتى الرعب، كما لو كان شخص آخر يصفق بيديه عاليًا أو يصرخ في الغرفة التي يجلس فيها وكان من المستحيل عليه أن يلقي بذلك الوغد خارجها. كان الموت صقفة، كان الموت صرخة عالية في أذنه مباشرة، وأحيانًا كان هناك انهمار شديد للأمطار، تدفق للنيران الآلية التي منعه حتى من القراءة أو مشاهدة فيلم بهدوء.

كانت عطلة نهاية الأسبوع، وعرض التليفزيون لمسلسل خيال علمي، مسلسل أحرق بما يكفي لجعله ينفصل تمامًا عن الواقع.

قالت له "لوسي" الصغيرة وقد ارتدت معطفًا ورديًا طويلًا جعلها تبدو حاملاً أكثر من المعتاد، وهي تجلس أمامه كي تحجب عنه الشاشة وسفينة الفضاء التي تزحف عبرها والتي بدت كمخرطة مضاءة بكشافات صغيرة:

- "ماكسي"، لقد أصبحت كسولاً للغاية مؤخرًا، تعال معي للتمشي.

تثاءب "ماكسيم تي يرماكوف" وهو ينظر من النافذة إلى الخارج. كان هناك الكثير من الواقع الأصلي بالخارج أكثر مما يوجد بداخل هذه الغرفة الحارة، وأكثر مما في التليفزيون بالطبع: هناك تلج جميل منفر يتناثر كبرادة الحديد والسيارات الواقفة في الفناء مغطاة بها؛ وسط الثلوج، وطائر صغير منشبت بفروع شجرة متجمد كيد طفل متكورة في شكل قبضة وهي بداخل قفاز.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" لـ "لوسي" الصغيرة وهو يراها تخرج:

- هذا هو ما يحتاج إليه المرء، الخروج في مثل هذا الطقس!

لم يودعها حتى بقبلة.

اتصلت به خمس أو ست مرات بعد ذلك، ذهبت إلى محل "هانترز رو" تختار قميصًا جديدًا من أجل "ماكسيم تي يرماكوف" من بين عدد يبدو لا نهائي من الاختيارات المحتملة: قمصان مخططة وذات مربعات وأخرى بها نوع ما من الأضلاع المخيطة بها التي لا يمكن أن يتخيلها "ماكسيم تي يرماكوف".

سألته مجددًا بصوت حيوي عملي:

- أنت لا ترتدي اللون الأخضر، أليس كذلك؟ ربما سأحضر لك الأبيض، لكنّ الأخضر ذو جودة رائعة، إنه يعجبني كثيرًا! لماذا لا أشتري لك الاثنين؟

أجابها "ماكسيم تي يرماكوف" بنفاد صبر - كانت الكائنات الفضائية ذات التشريح الشبيه بالإسكتلنديين حاملي المزامير تهاجم محطة فضاء أرضية في تلك اللحظة:

- "لوس"، فلنقرري أنتِ وتشتري أي شيء، ثم عودي للمنزل، إنه موعد الغداء.

تابع مذبحه الفضاء لبعض الوقت وابتهج بمعرفته أن الطلقات المنطلقة من تلك الأسلحة الرائعة، التي تشبه أيضًا آلات النفخ، لم تكن حقيقية، وعند سقوط أحد الأرضيين على الأرض وسط المشهد المغطى بالدخان أو عندما يخمد كائن فضائي في كومة وهو يلهث في مزماره المخاطي، لم يمت أحد، ظل الجميع على قيد الحياة، وفي الواقع كان جميعهم ممثلين. من المحتمل أن معظمهم يصورون الآن مسلسلًا آخر أكثر حماقة من ذلك. لكن حتى مع ذلك، شعر بقشعريرة من العالم الآخر تعلق قلبه أشعرته بطعم النعناع البارد. أمسك "ماكسيم تي يرماكوف" بتليفونه في نفاد صبر ليتصل بـ "لوسي" التي تأخرت للغاية، وعند تلك اللحظة شهق العالم شهقة هادئة. كرأس "ماكسيم تي يرماكوف" الافتراضي، أطلق العالم رائحة

كريهة بتسمم مخمر مع فرقة، استغرق عدة ثوانٍ طويلة للغاية كي يدرك أن ذلك الصوت وصل إليه من محطة مترو الأنفاق بميدان "بوشكين".

فيما بعد، عندما حققت مجموعة من مكتب المدعي العام بموسكو في حادث الانفجار، أسفر تجمع قطع اللغز عن صورة غير مكتملة ذات حواف غير متطابقة، لكنها في الأساس متماسكة. رأى العديد من الشهود امرأة ضخمة في منتصف العمر في محطة مترو أنفاق "تياترالنايا" مرتدية معطفًا وريديًا طويلًا قذرًا فوق فستان أسود به الكثير من الجيوب ذي حافة متألثة تعثرت في كتلة ليفية وقطعة من القماش تغطي عينيها.

وقفت المرأة في المحطة طويلًا، من الواضح أنها كانت بانتظار شيء ما وليس القطار. كانت تحمل حقيبة سوداء عريضة بها مشبك من الذهب المزيف بحجم علبة صفيح، وتظهر حواف بارزة لشيء ما كصندوق طويل يمكن رؤيته من خلال جوانب الحقيبة. في الحقيقة، بدت المرأة نفسها أشبه بالصندوق، كفرن بُني من الحجارة الكبيرة ليناسب المعطف الطويل.

لم يلتفت أي أحد لها، لكن كان عليهم ذلك. كان على سكان العاصمة النظر إلى عيني هذه الزائرة المنتشية والمروعة كما لو اشتعلت فيهما حرارة منصهرة بفعل نار داخلية. لكن ركاب مترو الأنفاق مروا من أمامها حيث تكدسوا في القطارات المغادرة، وبهذا ظلوا أحياءً.

أخيرًا، حصلت الزائرة على مكافأة انتظارها. عندما كانت تنزل بسرعة على سلاسل محطة "هانترز رو"، متمسكة الدرابزين بيدها ودرجات السلم بنعلي حذاءها، جاءت امرأة شابة عادية من موسكو ليس لديها أي صفات مميزة عدا إثراقة السعادة على وجهها الضيق الصغير - العمى الذي تسببه السعادة هو ما جعلها تسير بطريقة غريبة، كالخطوط المتعرجة التي يسير بها المتزلجون فوق سطح الماء الناعم. كانت فتاة موسكو مرتدية معطفًا طويلًا كالذي ارتدته الزائرة، باستثناء أنه كان نظيفًا وأزراره مغلقة بعناية. مالت إلى الأمام، لكن بدلًا من تحية فتاة موسكو تركتها تمر وسارت خلفها، ظلت تلوح في الأفق من ورائها وتدفع معدتها الصلبة خلفها، لذا فقد بدا للحظة كما لو أن المرأة كانت تقود فتاة موسكو عبر الرصيف كمحرك عرائس يقود عروسًا كبيرة بحجمه نفسه على مسرح.

حاول رجل عجوز مرتديًا ملابس رثة أن يشق طريقه بين المعطفين الورديين الطويلين. ربما كان أحد المتسولين الذين يعملون في القطارات، لكن زائرة العاصمة دفعت الجد الخفيف جانبًا بشدة فطار بعيدًا فارتطم ظهره بقوة بعمود والذي تحطمت منه أجزاء تساقطت بداخل ملابسه الرثة وتمكن فقط من الإمساك رأسه النحيلة بيديه ككرة سلة.

بصفيره العالي وضوء مصابيح دخل القطار المشؤوم المحطة في طريقه إلى محطة "تفيرسكايا". حشرت زائرة العاصمة وهي تلهث فتاة موسكو الحاملة في إحدى العربات، وفي الحال قدم لها راكب يحمل كتابًا مهلهلًا مقعدًا، كان طالبًا باهتًا

تبقى له دقيقتان فقط على قيد الحياة. ارتمت المرأة على المقعد وبدأت في الحال بالعبث في حقيبتها الضخمة مصطدمة بالجالسين جوارها بمرفقيها. في هذه الأثناء، بدأ المتسول العجوز الذي تمكن بطريقة ما من ركوب العربة بتقديم عرض خاطف حيث تلوى وتذبذب، ومن أجل تأثير أكبر أطلق شيئاً كالدخان الأبيض مباشرة من مجمته بطريقة فطر "البافول" نفسها وهو يطلق الدخان عندما ينفجر.

ظن الركاب جميعاً أن هذه حيلة أصلية فبدأوا بإلقاء ورقات هزيلة بقيمة عشرة "روبلات" في ملابس الرجل الرثة، ووسط إعجابهم لم يتمكنوا من ملاحظة أن النقود سقطت عبر الفنان إلى الأرض. تقريباً كان كل الركاب متجهين لحقهم.

فيما بعد، قال خبراء المتفجرات إنه لو كانت "الحجارة" التي تعادل ثمانية كيلو جرامات من متفجرات الـ"تي إن تي" قد انفجرت داخل النفق، لكان كل ما سيبقى من القطار المشؤوم هو هياكل العربات المتفحمة وشظايا ممزقة من اللحم المشوي بفعل الانفجار. حتى لو نجا أي من الركاب، لم يكن ليتمكن المنقذون من الوصول إليهم - لقد تسبب الزلزال الحديث في شق واحد في السطح، لكنه كان ضخمًا للغاية، حيث يمر عبر القبو، متأججًا ومنتفخًا بترربة مضطربة، وكان النفق لينهار بفعل الانفجار كقطعة بسكويت.

مع ذلك تمكن المختل العجوز من جذب اهتمام المفجرة الانتحارية أخيراً. حملت فيه بعينها الواسعتين الغائمتين كالحساء البارد، وتجمدت يديها في قلب حقيبتها دون أن تكمل حركتهما. بهذه الطريقة أضاعت ثلاثين ثانية مهمة وحصل القطار على وقت ليدخل محطة "تفيرسكايا"، حيث حشد كبير من الناس بانتظاره، تمر بهم النوافذ بسرعة خاطفة حيث يبدون حينها كدمى في واجهات محلات.

بدأت فتاة موسكو ذات المعطف الوردي الطويل بشق طريقها عبر الحشود تجاه الباب حاملة حقائبها التي علقت خلال طريقها. عند هذه اللحظة استفاقت المفجرة الانتحارية من ذهولها. التفت جميع الركاب إلى صوت صراخها الصاخب اللا إنساني الشبيه بمنشار دائري فوق الحديد.

صرخت المرأة وهي تغلق عينيها بشدة مظهرة الشذرات الذهبية الصغيرة في ضروسها المتهاكة بداخل فمها، وفي الوقت نفسه كانت يداها داخل الحقيبة تتحركان كما لو أن شخصاً ما قد عضهما بالداخل، وكان ذلك هو آخر ما رآه كل هؤلاء الأشخاص في حياتهم. كان الانفجار شبيهاً بوميض صورة شامل، مسجلاً إياهم للأبد قبل موتهم. فتح الكتاب المتهالك جناحيه كطائر صغير حكيم، والتصق بوجه الطالب كي يحجب عنه رؤية أحد قضبان العربة الحديدية وهو يطير تجاهه بسرعة الضوء، وبعد مرور ثانية واحدة لم يعد يشعر الطالب بأي شيء على الإطلاق.

بناء على شهادة الأشخاص الذين كانوا في محطة "تفيرسكايا" في ذلك الوقت، عندما وقع الانفجار، ارتفعت العربة المشؤومة في الهواء ثم نزلت بقوة على الأرض كالحصان. تناثر زجاج مكسور من نوافذ القطار كمياء تتبعث من خراطيم

ذات ضغط عالٍ؛ اشتعل حريق في الحال بداخل العربة المحطمة ولوّنت النيران نافورات الزجاج كما لو كانوا يغلون.

اختلطت أصداء الانفجار بصرخات بشرية صاحبة ككوران أوبرالي. خفت الضوء الكهربائي المرتعش وأظلم تمامًا؛ ملأ المحطة دخان لاذع أصفر رمادي ولمعت لوحات المؤشرات في الدخان كمرايا قاتمة. تجمد الناس في مكانهم للحظة أو اثنتين، ثم هرع الحشد باتجاه المخرج، حيث تزاحموا في بقعة سوداء متوترة عند المصاعد التي توقفت تمامًا عن الحركة؛ كان هناك صوت خطوات ثقيل على درجات السلم الحديدية، وصوت أنفاس ثقيلة متجمعة وأطفال يصرخون. مَنْ تنفسوا من خلال قبعاتهم وأوشحتهم هم مَنْ تحملوا الموقف أفضل من غيرهم، لكن بعض الناس تعرضوا لنوع من الهلوس.

ادعى بعض شهود العيان رؤية جسد بشري على سقف السرداب، يجري على أطرافه الأربعة برشاقة الصرصور، كان المخلوق مرتديًا بقايا بذلة رجل رثة مشتعلة مهلهلة بنية اللون، وافترض البعض أنه كان يصرخ ببعض الكلمات الفرنسية التي جعلت رخام الجدران يتقشر كجلد ثعبان.

على أي حال، هرب الناس لينقذوا أنفسهم غير مصدقين أن الأمر انتهى. ظل بعض الأشخاص القليلين في المحطة، فأصبح الأكثر وضوحًا هو بقع القيء المرعبة المروعة المتناثرة على الأرض: زجاج مكسور، وقطع من الحديد، وشيء ما أبيض تمامًا تشعب بسرعة شديدة بالدم، ويد رجل ممثلة بها خاتم زواج، وحقيبة يد مقطوعة، وتليفون، وأكوام داكنة من الأجساد البشرية، وقد كان أحدها يرتدي معطفًا وردنيًا طويلًا. كان خدّها مشقوقًا وترتعش كخيشوم سمكة ولا تزال تحاول الزحف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاول "ماكسيم تي يرماكوف" الاتصال بـ"لوسي" عدة مرات ودائمًا ما يجد الرد نفسه: "هذا الرقم غير متاح مؤقتًا". حاول مشاهدة المسلسل التليفزيوني لبعض الوقت، لكن أصبحت الشاشة لا معنى لها على الإطلاق. نظر "ماكسيم تي يرماكوف" من النافذة: في مواجهة خلفية سحب شتوية رقيقة مشوشة، ودخان داكن متموج شبيه بصوف خروف أسود ينجرف من ناحية ميدان "بوشكين". أصبح خداعه لنفسه دون جدوى والفراغ من حوله مؤذيًا ومهددًا وغير صالح للعيش فيه. تتمم قائلًا:

- حسنًا، اللعنة، سألقي نظرة.

جذب "ماكسيم تي يرماكوف" أول معطف صادفه في الدولاب، التف به وسواه على جسده ثم انطلق خارجًا.

في الفناء، ارتفعت أدخنة لاذعة صناعية تسربت عبر رائحة الثلج الخالية من النكهة وكانت السماء كمنفضة السجائر. هرع "ماكسيم تي يرماكوف" تجاه مترو الأنفاق وهو قابض على التليفون في جيبه، في الاتجاه نفسه الذي يسير فيه مئات الأشخاص

بعيون ممثلة بقلق حاد نافذ الصبر. ذاب الثلج اللطيف بألم على وجهه اللاهث، كلدغات البعوض، كان هناك شيء ما حاد ولزج يبرز في مؤخرة عنقه - متجهماً وكاشفاً عن أسنانه. عثر "ماكسيم تي يرماكوف" على المصق اللامع فجذبه وقطعه مع قصاصة من البطانة اللامعة. أدرك أنه ارتدى ملابس جميلة لكنها ليست دافئة بما يكفي حتى بمعطفه الأزرق كالبالون الذي اشترته "لوسي" من أجله من محل "تي إي يو إم". لم يساعده أحد قبل ذلك قط على اختيار ملابسه بالطريقة التي اعتاد عليها "ماكسيم تي يرماكوف" مؤخرًا، وقد شعر فجأة بالوحدة الرهيبة، والألم الشديد لاضطراره إلى المرور بكل ذلك. تتمم وهو يخطو بحذائه الشتوي الرياضي الجديد بقوة في البرك السوداء الكيميائية الممثلة بالثلج قائلاً:

- لا تقلق، إنها لم تختفِ، ستظهر.

أسرع المتنبئون الاجتماعيون ورائه وهم يطيحون بزملاتهم المواطنين جانباً بأكتافهم العريضة.

كما توقع، وجد شارع "تفيرسكايا" مغلقاً. كانت كل مخارج محطة مترو الأنفاق تصدر أدخنة باهتة شفاقة، وكان أقرب مخرج يدخل كموقد معطل. دون أي قواعد سلوكية، شق "ماكسيم تي يرماكوف" طريقه مسرعاً باتجاه الشريط الحاجز وكان على وشك تخطي الشريط المرتعش بتمزيقه أو خفضه حين منعه يد رجل شرطة ضخم مرتدياً درعاً رمادياً.

قال الضابط الضخم ذو الوجه الممتلئ بأثار الحبوب بصوت غليظ:

- لا يمكنك المرور يا سيدي، مسموح بذلك فقط لفرق الإنقاذ. لو كنت صحفياً فعليك الذهاب من هناك.

أشارت الذراع الضخمة تجاه حشد أصغر منفصل يحتوي على الأسلاك والكاميرات والميكروفونات جعلته يبدو كحبار غاضب مستعد لالتهام المسؤول المتحدث أمامه والذي خلع قبعته فجأة عن رأسه الممتلئ بالشعر الرمادي بحركة غريبة.

زمجر "ماكسيم تي يرماكوف" وهو خائف من خصلات ذلك المسؤول الرمادية العارية أكثر من أي شيء آخر قائلاً:

- أنا لست صحفياً لعيناً! كانت زوجتي بداخل المترو! في طريقها إلى هذه المحطة! إنها لا تجيب عن التليفون منذ ساعة!

أخفض الضابط ذراعه قليلاً وتنهَّد ثم قال في إحراج:

- أتفهم ذلك، بإمكانك أن ترى ما يجري، لقد ماتت أمي في حادث طائرة. لكن ليس هناك فرق، لا يمكنني السماح لك بالنزول، قد ينهار هذا الجزء. متأسف يا صديقي، عليك أن تكون صبوراً.

قال ضابط آخر ضئيل يرتدي قبعة أضخم من اللازم على رأسه:

- كما غرقت أختي وزوجها في عبارة، لقد تأذى الجميع بطريقة أو بأخرى.

قال الضابط الضخم مزمجرًا:

- أجل، كما لو أن هناك حرباً ما مستعرة. الجميع تأذى، هذا مؤكد.

قال لـ"ماكسيم تي يрмаكوف":

- لكن لا تخف نفسك قبل أن تتأكد، اذهب إلى هناك بجانب سيارات الإسعاف. هناك ستجدهم يقدمون الإسعافات الأولية للإصابات البسيطة. لا تنس فقط أن في هذا الوقت غياب الأخبار قد يعني شيئاً جيداً بالنسبة إليك. لو لم تعثر على زوجتك فهذا جيد. ستظهر فيما بعد.

بدا صوت الضابط الضخم غير صادق، كما لم يتوافق كلامه مع ما يحدث. كان رجال المطافئ ذوو ثياب العمل الموحدة ذات الشريط الأسود حاملين الحقائق الشبيهة بكبائن التليفون على ظهورهم يجرون خراطيم لا نهائية تحتك بالأرض في أثناء جرّهم لها باتجاه ذلك الفرن الجوفي. كانت النقلات المحملة بالمصابين محمولة في الاتجاه المعاكس على درجات السلم المغطاة بالطين التي كانت تقريباً غير مرئية وسط الدخان.

رأى رجلاً وبذلته ممزقة، ورأسه ملتف بالضمادات فبدا كالكرنب، وامرأة مسنة تُسحب للخارج، ومعدتها الفارغة دامية كالورد. حاولت عاهرة مغطاة بماسات مزيفة أن ترفع نفسها على النقالة، فأومضت المرأة الصغيرة المستديرة المفتوحة في يدها كشعلة وسط ظلام دامس، على الرغم من أن الوقت نهار في كل مكان. كان وجهها مغطى بعدة جروح سطحية، كقصاصات الشعر بعد قصه عند مصفف الشعر. واحد تلو الآخر حملوا ثلاثة، خمسة، ثمانيه أكياس لامعة تشبه ديداناً بحجم الإنسان.

مال "ماكسيم تي يрмаكوف" إلى الأمام ليلقي نظرة، حينها فتح أحد الأكياس مرفرفاً في الهواء. كان بداخل الكيس شيء شبيه بمومياء مصرية مُحنطة بمادة لدنة سوداء، وكانت العلامات التي تركتها الأصابع الضخمة لمن حنطها واضحة. تردد صدى صوت نحيب متقطع لامرأة في أنحاء الميدان، كصوت موسيقيين يضبطون آلاتهم في مقاعد الأوركسترا، وأحنى "بوشكين" البرونزي رأسه تجاه قاعدته حيث باقة القرنفل القرمزية الدائمة، التي تبدو باهتة أسفل الثلج المنتثر.

خلال الرعب نافذ الصبر من غياب "لوسي" الصغيرة، شعر "ماكسيم تي يрмаكوف" بشعور غامض آخر: الخوف من أن يتم التعرف إليه. الآن بعد أن أصبح مرتبكاً وضعيفاً، بهذا المعطف اللامع الذي يشبه الزجاج في الرياح، من الممكن أن يوقعه بعض الضحايا الغاضبين دون وعي منه. ومع ذلك فإن من الواضح أن شكله قد تغير كثيراً، مما سمح له بأن يدخل وسط الناس من دون أن يلاحظه أحد فيصبح واحداً من الحشد. يمكن القول إنه ذهب بنفسه إلى العدو. بعد مرور وقت قصير من تفكيره في ذلك غمرته موجة كثيفة من عطر أحدهم وصفعه ذلك الشخص على كتفه.

- انظروا من الذي عاد! لقد مر وقت طويل!

أول ما رأى كان أنفًا صغيرًا عليه بقعة، ورأسًا ممتلئًا بشعر أشعث. كان "ديما روزديستفينسكي" بنفسه. كان واضحًا أن صحفي الجريدة الصفراء ثمل، لكنه عالج حالته بالفودكا، كانت عظمة خده الأيسر منتقخة وصفراء كالليمون.

سأله "ماكسيم تي يرماكوف" في ضيق:

- لماذا تغرق نفسك بالعطر هكذا؟

أجابته "روزديستفينسكي" بفلسفة:

- إن الحياة مقرفة. لكن لماذا أتيت إلى هنا؟ لتبتهج كعادتك بإنجاز الشرير الراقى؟ هكذا كانوا يطلقون عليك حتى أزلت من الإنترنت. هل ما يقولونه صحيح، بأنك تزوجت؟

أجابته "ماكسيم تي يرماكوف" بحقد قائلاً:

- أجل.

أوماً "ماكسيم تي يرماكوف" برأسه تجاه فك الكارثة المفتوح الذي تحمّل منه أكياس سوداء صامتة وقال:

- إن زوجتي بالداخل.

قال "روزديستفينسكي" مبتهجاً:

- حقاً؟ إن هذا عظيم! الشرير الراقى فقد زوجته في الكارثة! هذه هي قصتي، لقد وجدتها!

قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو على وشك البكاء ويجذب ياقة "روزديستفينسكي" ويرفعه لأعلى:

- لماذا تقول "فقد"؟ ما هذا الهراء أيها المسخ؟ كرر ذلك مرة أخرى وسأكسر رأسك على الطريق أيها الحقير.

قال الصحفي وهو يحرق نفسه بحدة تاركاً "ماكسيم تي يرماكوف" بلسعة على يديه:

- يمكنك أن تقتلني لاحقاً، فيما بعد. تذكر، لقد أخبرتك: ادفع سعراً كبيراً بما يكفي وستظهر في الأخبار.

ثم قال في تفاخر:

- إنني أعمل في قناة أخبار "موسكو" الآن.

بعد ذلك أدار رأسه قائلاً:

- "أفانسي"!

رداً على نداء صحفي الفضائح، ظهر من بين الحشد رجل نحيل وطويل وملتح، كان ذقنه بلون الخشب نفسه، وبه خصلة منفصلة كأنها تتحرك بمفردها مع شفته السفلية، كان يحمل كاميرا كعنزة سوداء صغيرة تجثم على كتفه.

سأل وهو يخطف نظرات تجاه "ماكسيم تي ييرماكوف" أسفل حاجبيه المنخفضين ثم جهّز الكاميرا بمهارة بضغطة واحدة:

- هل سنصوره؟

قال لـ "ماكسيم تي ييرماكوف" موجّها العدسة تجاهه:

- من فضلك قف ناحية اليسار قليلاً.

أمره "روزديستفينسكي" بنشاط وهو يحمل ميكروفوناً مغطى بإسفنجة عليها شعار القناة لامعاً في يده:

- حسناً، لا تنظر إلى الكاميرا، أنظر إليّ وتحدث إليّ.

قال ملتفتاً إلى "أفانسي" وهو يخرج ورقة بيضاء مطوية أربع طيات في جيبه:

- فلنبدأ.

كشف "أفانسي" عن أسنانه بابتسامة ثم لصق وجهه في عدسة الكاميرا. فضّ "روزديستفينسكي" الورقة المطوية أمام الكاميرا - كانت قذرة كمنديل صحفي الفضائح لو كان لديه واحد. شعر "ماكسيم تي ييرماكوف" فجأة كورقة بيضاء فارغة. دون كلمة واحدة، تمايل ثم سار مبتعداً، وبعد عدة خطوات توقف لدى سماعه صيحات صحفي الفضائح الحزينة التي تتخللها بذاءات فظة. هناك شيء ما يدور ويصخب بداخل رأس "ماكسيم تي ييرماكوف" كما لو كان يخفق عقله الضبابي ليحوّله إلى كوكتيل ثقيل. رفع رأسه فرأى مصدر الصوت: فقد حلقت طائرة هليكوبتر صغيرة أنيقة ذات اللونين الأحمر والأبيض على مقربة فوق شارع "تفيرسكايا"، حيث تتمايل كحذاء في قدم امرأة. وتتحرك سيارات إسعاف مماثلة لها باللونين الأحمر والأبيض مندفعة أسفل الطائرة إلى أعلى الطريق المنحدر بأضواء وامضة باتجاه شارع "لينينجراد".

كان هذا هو ما عليه فعله.

عاد "ماكسيم تي ييرماكوف" مسرعاً إلى فناء منزله. بسبب المياه التي ملأت البرك شعر بأن حذائه الرياضي لزج وثقيل في البرد، كأنما يحمل ثلاثة كيلو جرامات من السمك في كل قدم. كانت "التويوتا" نائمة تحلم، وعلى ظهرها قشرة ثلجية. ظل يقطع وعوداً لله وللشيطان بأنه سيغير كهرباء السيارة ثم حاول تشغيل المحرك للمرة الثالثة، ملاحظاً بركن عينيه المتنبئ الاجتماعي الذي أتى بمناورات بسيارته الـ "موسكوفيتش" المزمجرة تاركاً علامات سوداء في الثلج حتى توقف بجانب صندوق القمامة. بعد الدوران حول الفناء، حيث حرث العديد من العشب الذي كان رطباً كالإسفنج وهزّ إطار "التويوتا" وهيكلها بعنف عندما مر فوق فجوة في الطريق كالفجوة التي توجد في الفم عند اقتلاع سن، تحرك "ماكسيم تي ييرماكوف" بهدوء إلى شارع "تفيرسكايا" من خلال طريق "ناستاسينسكي".

لم يقُد سيارته خلال الشتاء في موسكو بهذه السرعة من قبل قط. لم توجد إشارات مرور أو علامات طريق، بسبب الكارثة التي وقعت. كانت تقاطعات الطرق ممثلة

بفرق من الضباط الذين كانوا يملون بسرعة كأعمدة رمادية. قفز تمثال "مايكوفسكي" البرونزي كالجراد، ظهرت محطة "بيلوروسكايا" ثم اختفت كديكور مشهد على مسرح أوبرا دائري. اتضح أن موسكو تصبح مدينة صغيرة عند القيادة على سرعة 120 كيلو مترًا في الساعة: ظهر الآن شارع "لينينجراد" وبدأ بالاقتراب بسرعة شديدة، حيث تومض مصابيح كشمس يوقد ثقب كبريت. كان "ماكسيم تي يرمكوف" مهتمًا بشيء واحد، أن يظل بالقرب خلف سيارة الإسعاف المسرعة بانحراف إطاراتها المنغمسة في الطين الثلجي في أثناء اندفاعها في الطريق. رأى رقم "03" كبيرًا مكتوبًا بالطلاء الأحمر أمامه، ظن أن بإمكانه رؤيته وعيناه مغلقتان. في النوافذ الخلفية المغطاة بالستائر ظهرت أحيانًا ظلال مترنحة لا ألوان لها تقريبًا، من المرجح أنها كانت لمسعفين يحاولون مساعدة الجرحى في تلك السيارة المهتزة الزلقة.

تمسك "ماكسيم تي يرمكوف" بفكرة أن "لوسي" الصغيرة كانت بداخل تلك السيارة، وأن من المرجح أنها هي من خلقت شيئًا ككابل خفي بينه وبين سيارة الإسعاف، وأن ذلك الكابل سحب الـ"تويوتا" عندما لم يكن محركها قويًا بما يكفي.

انعطفت سيارة الإسعاف بعد ذلك مندفعة عبر ثلاثة أو أربعة شوارع جانبية وهي مائلة على نحو غريب لأعلى باتجاه السماء ثم عادت مندفعة إلى الطريق الرئيسي. حينها لم يعد "ماكسيم تي يرمكوف" يدرك أين هو وإلى أين تأخذه تلك المطاردة السريعة. ببساطة اتبع آثار إطارات سيارة الإسعاف. لم يعد يبدو أنه في موسكو؛ مرت بجانبه جذوع أشجار صنوبر شبيهة بعصيان من اللحوم الباردة على حافة الطريق. ظهرت أمامه المباني الطويلة المسطحة؛ لا بد أنها كانت مستشفى. انعطفت سيارة الإسعاف واتجهت ناحيتها عبر طريق زلق، نزل المسعفون بسرعة وبدأوا بإنزال امرأة مسنة طويلة ميتة والتي بدا دمها كالقطران على الضمادات المحلولة. بعد إنزال الإطارات من النقالة إلى الأرض، سحبوا المرأة المسنة وهم يجرون متسببين في إحداث صخب رهيب وهم متجهين ناحية أبواب زجاجية معلق عليها لافتة تقول "دخول". أوقف "ماكسيم تي يرمكوف" السيارة باعوجاج واندفع خلفهم.

خلال الوقت الذي تبقى لـ"ماكسيم تي يرمكوف"، لو سأله أحدهم كيف يبدو الجحيم، لأجاب قائلًا إن الجحيم مغطى ببلاط أبيض، وبه أحواض نبات "الدريقة" عريض الأوراق في الركن. كان أول الأقارب الذين وصلوا إلى العيادة التي أحضروا إليها أسوأ حالات انفجار اليوم. لم يتعرف عليه أحد هناك أيضًا - أو بالأحرى هم لم يعترفوا بوجوده في الأصل. ألقى "ماكسيم تي يرمكوف" بنفسه حرفيًا على المسعفين ذوي أفتحة الشاش الثقيلة، لكن أعينهم، التي بدت كلها كأعين نساء في الوجوه المغطاة، رفضت التوجه إليه مباشرة لرؤيته. استمر وصول ضحايا جدد طوال الوقت، الكثير منهم مغطى بالحروق كالضفادع الحمراء؛ كان هناك أحد يئن بصوت حاد خلف حاجز مطوي؛ كان على الأرض كومة من

الملابس المحترقة المقطوعة، وفي بعض الأماكن احتفظت الملابس الرثة المُجمعة بأشكال الأجساد، كأجزاء من لحاء الشجر.

شعر باليأس الشديد مما جعله على وشك الإغماء، خرج "ماكسيم تي يرماكوف" للتدخين ثلاث أو أربع مرات. بدا الوقت كنهاية الليل: كان الثلج دخاناً يتصاعد من قمم أشجار الصنوبر الشعثاء، والقمر ظاهراً بين السحب جامداً كالحجارة، خشناً كحجر الرحي. أتى صوت امرأة من الخلف جعل "ماكسيم تي يرماكوف" يرتعش.

كانت هناك سيجارة بين أصابع الطبيبة الطويلة وهي تعصرها ثم طلبت منه ولاعة. أضاعت الولاة خدين على هيئة الكمثرى وقناع طبي منخفض على ذقن مشقوق؛ كان رأس الطبيبة الصغيرة كعقب السيجارة على جسدها العريض البدين القصير، والذي أشار بالنسبة إليه في مفارقة بأنها تعمل لصالح اللجنة الخاصة. شرح لها "ماكسيم تي يرماكوف" الظروف التي دفعته للمجيء إلى هنا مختنقاً بفعل شكوكه السامة وتبغّه الحاد.

قالت الطبيبة بنكرار كأنها تحقق معه:

- "لودميلا فيكتوروفنا يرماكوفا"؟ هناك أحد بهذا الاسم.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يجذب الطبيبة من مرفقها البدين مما جعلها تتعثر:

- حقاً؟

قالت له الطبيبة بلا مبالاة وهي لا تزال تمتص سيجارتها بجشع بعد جذبها:

- لم يحضروها إلى هنا.

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" ببرود:

- ما الذي تعنيه بـ"لم يحضروها إلى هنا"؟ أين هي الآن؟ ما العنوان؟

أعطته الطبيبة ابتسامة متييسة مُرغمة، ونظرت في اتجاه منخفض غامض. قالت دون أي تعبير على الإطلاق وعدلت المعطف المُلقى على كتفيها المنحدرتين:

- ماتت "لودميلا يرماكوفا" في طريقها إلى المستشفى. الإصابات غير متناغمة مع الحياة، ما الذي كنت تتوقعه؟

في تلك اللحظة لم يشعر "ماكسيم تي يرماكوف" بأي شيء على الإطلاق، لكن القمر الشبيه بحجر الرحي بدا فجأة كأنما بدأ بالسقوط والتفتت. كان على وشك تحطيم أشجار الصنوبر هائلة الطول كالعشب ثم يسقط في الثلج، متسبباً في غبار بارد ضبابي. كان الظلام يتقدم مغلفاً مصادر الضوء، تضاعلت مصابيح الشارع البيضاء المترامية على الطريق المنحدر بخرابة حتى أصبحت كبطاطس مسلوقة طرية.

سألها "ماكسيم تي يرماكوف" بصوت مختنق:

- أين؟

استنشقت الطيبية سيجارتها حتى نهايتها بطريقة ذكورية ثم داست على عقبها ثم قالت:

- مَنْ أنت بالنسبة إليها؟ أخواها؟ زوجها؟ يمكنني تخمين أنك الزوج. حسنًا، تعالٍ معي. فلتضع في اعتبارك فقط أن الآن ليس هناك أي أحد مهمتًا بك. ليس لدينا وقت من أجل الأقارب. لقد أتى أكثر من عشرين ضحية الآن، وهم يُحضرون أكثر وأكثر طوال الوقت. لو انهرت وفقدت وعيك فستظل مُلقى على الأرض هناك، أتفهم؟

أومأ لها "ماكسيم تي يرماكوف" برأسه عدة مرات بقوة وظل يومئ برأسه بعد أن سحبته الطيبية المتوترة إلى منطقة الدخول وتركته تحت مسؤولية إما ممرضة وإما موظفة، وهي امرأة ذات حاجبين حادين مُشعرين واقفة على ساقين غليظتين متداخلتين وسط فوضى الكارثة.

أشارت إليه ليتبعها، ثم قادته الممرضة عديمة الشعور في ممر طويل ملون بطلاء أزرق حكومي. لم يحتو الممر إلا على كرسي متحرك متمایل ومنحني والذي تعثر فيه "ماكسيم تي يرماكوف". على الكرسي غطاء شيء ما من لوحات التوزيع الكهربائية شبه مفتوحة، والتشابك السميكة للأسلاك أسفلها جعلت ما بداخلها يبدو كما لو أنها محشوة بالفش: اندهش "ماكسيم تي يرماكوف" من التقاطه لمثل تلك التفاصيل التافهة في أثناء سيره.

انتهى الممر عند باب حديدي باهت: تنهدت الممرضة وهي تخرج مفتاحًا غليظًا بحجم عظمة دجاجة من جيبها. أصدر القفل أربع دقات وانبعث البرد عبر الباب في أثناء فتحه وهو يئن - لم تكن برودة الشتاء، بل برودة الموتى، رائحة هواء عفن من ثلاثة لم تُغسل منذ مدة طويلة.

ظهرت خلف الباب درجات سلم أسمنتية ونزل عليهم "ماكسيم تي يرماكوف" كأنما يسقط في هوة، بادئًا بيسراه ثم يمانه. رأى صفاً طويلاً من الطاولات المغطاة بالحديد، عليها الأكياس السوداء التي شاهدها مؤخرًا. كانت بعض الطاولات مُكدّسًا عليها كيسين، وكانت هناك حميمية غريبة تمزق القلب في الطريقة التي تجمعوا فيها. كعادة هذه الأماكن، سمع صوت تساقط المياه الأجوف من مكان ما، وكل قطرة طرقت بقوة كرصاصة سائلة.

أشارت الممرضة إلى "ماكسيم تي يرماكوف" كي يبقى في مكانه. سارت إلى الأمام قليلاً وبدأت تحصي عدد الأكياس كما لو كانوا حقائب سفر، ولم تكن سبابتها الشبيهة بالجزر تحتوي على أي سحر قادر على إحياء الموتى. أرادت الممرضة أن تفتح الكيس الصحيح من المرة الأولى، لكنها أخطأت الكيس مرتين، على أي حال؛ انحنت وفتحت السحاب، في البداية كشفت عن وجه رجل خالٍ من الدم لديه لحية سميقة سوداء، ثم شيء لا شكل له لديه أسنان أمامية عظمية بارزة، والذي كان امرأة أو رجلاً أشقر وهو لا يزال على قيد الحياة. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بأن كل ما يحدث مجرد خطأ. لكن حينها وجدت الممرضة ما كانت تبحث عنه، فتحت

السحاب، ثم عدت وضعية الكيس كما يعدل الناس من وضعية غطاء رأس طفل ثم تراجعت للخلف وهي ترم على شفيتها الجافتين باستهجان.

ربما ينبغي على "ماكسيم تي يرمكوف" الشعور بشيء مختلف في تلك اللحظة. شيء آخر، ليس ذلك العجز الغريب عند رؤية "لوسي" في ذلك الغطاء الأسود البلاستيكي بخدّها المشقوق وهي ترقد ببساطة على وجهها كخرقة مبللة. لو كانت على قيد الحياة، لكانا قد نسقا لإجراء عملية تجميلية لها مقابل أي مقدار من المال. تمكن مباشرة من رؤية أن غرباء قد أغلقوا عينيها: كان الجفنان متجمعين، كما بدا أن هناك مياها زلقة بداخل المحجرين. لا بد أن طفلهما الذي لم يولد بعد تفاجأ للغاية عند إلغاء تذكرة وصوله. من كان هو بداخل الرحم العاجز المتخثر: جميري صغير شفاف، أم مجرد سمكة صغيرة؟ "ماكسيم تي يرمكوف"، والد طفل وردي، الآن وللأبد. تظل "لوسي" راقدة في الكيس، شعرها أشعث ورأسها ملتف للخلف بطريقة غير طبيعية كأنها لم ترغب في مناقشة ما حدث. شعرها أشعث بالطريقة نفسها التي اعتاد أن يكون عليها في الصباح عندما تستيقظ من أجل الذهاب للعمل: سوى "ماكسيم تي يرمكوف" خصلة وارتعش حين شعر بالعظمة الأمامية الباردة أسفل أصابعه - وهناك بالداخل، يوجد نشاط من نوع ما باقي كرجفة كهربائية صغيرة قبل الظلام الأخير. بعد ذلك أحاطته الأكياس السوداء المحتوية على كل الجثث من جميع الجوانب وهي منتفخة، كما لو كانت الأكياس المترهلة منتفخة كالبالونات حيث تستقيم جوانبها العريضة ببطء.

سمع "ماكسيم تي يرمكوف" صوت الممرضة الخائف يقول:

- أنت، يا سيد! إياك أن تقعد وعيك هنا!

لم يفقد وعيه بل إنه حتى خرج بمفرده من القبو، احتفظ بذكرى كنيبة لصعوده السلم زاحفاً على أطرافه الأربعة. هاجمت أنفه رائحة ملح النشادر عدة مرات، مما جعل رأسه يومض كالماجنيسيوم وتتجمد كل الأشياء من حوله كما في الصور الفوتوغرافية: ساقا ذكر تتحركان بعيداً فوق عربة، بأصابع صفراء كالفطر، أما عن الباقي كله فهو مغطى بملاءة؛ تبحث يد أحدهم في قفاز مطاطي متلألئة كدهون دجاجة عن أداة جراحية لامعة؛ مجموعة من المفاتيح ملقاة على الأرض، من الواضح أنها لم تكن مفاتيح خاصة بالمستشفى، لكنها مفاتيح شقة، سلسلة مفاتيح على شكل بلورة صغيرة، ذات قلب مسطح مشقوقاً من الداخل.

طرد "ماكسيم تي يرمكوف" من عدة أقسام، وسحب بفضاظة من معطفه، وألقي به في منطقة الدخول مراراً وتكراراً. حاولت الطيبية التي قابلته التواصل معه بواسطة كلمات صامتة تمكنت من تجسيدها من الهواء الثقيل بفمها القوي الصغير، لكنه أبعداً جانباً وجلس في مكانه على الأرض بجانب حوض نبات "الدريقة". فكر وهو ممثلي بالألم تحت أوراق نبات "الدريقة" المتسخة كالأحذية: "انظر، كيف يمر الوقت سريعاً. ها أنت ذا، تشعر بالخوف من شيء ما، متسائلاً كيف سيبدو الأمر، كيف ستجول لو حدث ذلك - ولقد حدث بالفعل".

وصل "ماكسيم تي يرماكوف" إلى المنزل تقريبًا بالتخمين، حيث كان يمشي مترنحًا بين ضمادات الثلج الجافة المهلهلة المتناثرة عبر الطريق. أحيانًا كان يعلق في انفجارات حامية من الضوء والأبواق الصادرة من السيارات المندفعة. في المنزل جمّع كل الكحوليات التي تمكن من العثور عليها: زجاجتا "شمانيا"، وزجاجة نبيذ أحمر مفتوحة بها نبيذ سميك كالشمع، وربع لتر من "الفودكا"، وشيء آخر يتقاذف بداخل زجاجة خضراء، من الممكن حتى أن يكون خلًا، ثم شرب كل ذلك بجرعات نهمة. كانت كل رشفة كعقدة بها عملة مربوطة فيها. كان رأس "ماكسيم تي يرماكوف" ينبض دون انقطاع كمدفع هائل: تحية عسكرية تمجيدًا لذكرى "لوسي" الصغيرة. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ لقد تزوجا لتوهما.

بعد ذلك، مر وقت غير محدد. ترك "ماكسيم تي يرماكوف" المكتب، ورئيسه، ومشروعاته. اتصلوا به من المكتب: كانوا يعرفون كل ما حدث. لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" من تمييز الأصوات من بعضها بعضًا وأنهى الاتصال قبل معرفة ما أرادوا قوله. من الواضح أنهم تحملوا مسؤولية تنظيم الجنازة. إذا حسنًا، فلينظموها. في هذه الأثناء، كان "ماكسيم تي يرماكوف" يجلس في ركن أو آخر من الشقة التي أصبحت هادئة تمامًا. أحيانًا يجد نفسه منحنيًا على مقعد الأحذية في الطرقة، أو تحت معطف فراء الثعلب القطبي الخاص بـ"لوسي" كأرنب تحت شجرة صنوبر. ذات مرة أمضى فترة غير نهائية على الحمام حيث خلع بنطاله والتصقت مؤخرته بالمقعد. يذهب عادة للخارج لأغراض مجهولة، وهو لا يزال مرتديًا ذلك المعطف الأزرق الرقيق، ملطخًا عليه من الأمام شيء كالصمغ الأسود؛ مجددًا لم يعد لديه أحد يساعده على اختيار الملابس الملائمة، حتى عندما تهبط درجات الحرارة في الخارج لعشرين درجة تحت الصفر. كان الجو باردًا للغاية، تلاًل الصقيع المتجمد ولمع في كل مكان كورق الصنفرة الكريه، كانت بقع الثلج على الرصيف كفضلات الطيور.

جلس "ماكسيم تي يرماكوف" على حافة جدار محطة "تفيرسكايا" مشاهدًا قمع رؤوس الركاب في أثناء نزولهم إلى الجحيم. وسط الزحام كان الناس يتخذون خطوة واحدة في كل مرة معًا، وكان ذلك نوعًا ما مدمرًا، كما لو كانت طبقات الأرض تتحرك أو مبنى يخمد طابقًا تلو الآخر. في الصقيع، تحولت قدما "ماكسيم تي يرماكوف" إلى حجارة، لكنه لم يشعر بشيء وكان سيظل جالسًا هناك مدة طويلة لولا وجود المتنبئين الاجتماعيين المملين. كانوا يحومون أمامه ويقومون برقصة إيقاعية بأحذيتهم المتبيسة الموحدة. غارقًا في الملل الكئيب، عاد "ماكسيم تي يرماكوف" متناقلاً إلى الشقة.

من الغريب أنه اعتاد مؤخرًا فقط على أن يقول إنه متجه إلى منزله؛ في حين أنه يعود إلى "شقة لوسي". أما الآن، من دون الحماية التي وفرها له وجود "لوسي"، فقد شعر بأنه سارق يتجول في أنحاء مسرح الجريمة. نعم، لقد شعر كالمجرم بالضبط.

اتضح أن "لوسي" قتلت بسبب ذلك الشيء شبه المادي المتأرجح الذي تشبث بأعجوبة بكتفيه لثلاثين عامًا مثل ضوء فوسفوري يخرج من المستنقعات.

على الجانب الآخر، كانت رؤوس كل الناس شبه مادية، أي موازين بإمكانها تحديد وزن الأفكار؟ حسنًا إذا، لو أنه استسلم أمام المتنبئين الاجتماعيين وانحدر، فكيف كان بإمكانه الزواج بـ"لوسي"؟ هاك أيها السادة، لغز به ذئب، وعنزة ونبته كرنب. كان أثر رأس "لوسي" لا يزال موجودًا على الوسادة المتجعدة. لم يلمسها "ماكسيم تي يرماكوف". تذكر على نحو غامض من كتاب أو فيلم يقول إن الوسادة تحتفظ برائحة الشخص لمدة أطول من أي شيء، وإذا شمَّها أحدهم فسيبدو كما لو كان الشخص الآخر موجودًا. لكنه لم يشمَّها، بل نظر ببساطة إلى ذلك الفراغ الصغير الثمين الذي كان يخفي تدريجيًا كأثر في الثلج؛ حيث كان يتغطى بالثلج الناعم المتساقط بمرور الوقت، وقد جعل ذلك المكونات التي تتكون منها رواسب الأيام البشرية مرئية فعليًا.

كان الشيء الأغرب الآن هو النوم. لم يتمكن "ماكسيم تي يرماكوف" بعد ذلك من التمدد على سرير العائلة المنحوت أو على الأريكة المرتخية التي بدأ عليها هو و"لوسي" حياة جديدة. كانت المساحة المخصصة للنوم في غرفة "أرتيوم" غير متاحة أيضًا. هيا "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه بطريقة غير مبالية للنوم على الأريكة الممتلئة بالغبار الموجودة في غرفة الصالون بوسائدها التي سقطت على الأرض. رفض النوم المجيء، حيث تباطأ بوقاحة. ملأت دقائق الساعات الصاخبة الشقة بأكملها. عندما أتى النسيان أخيرًا، وجد "ماكسيم تي يرماكوف" نفسه في مكان مختلف كليًا عن المكان الذي كان فيه قبل نومه. كانت مقاطعة غير مألوفة تمامًا، مكان متهدم غريب تمامًا حيث رأى فيه العديد من البالونات السوداء البراقة السمينة؛ كانت تندافع وتحتك ببعضها بعضًا في باقات ضخمة متمايلة أسفل أسقف بها شرائط بيضاء قذرة متدلّية منها. أدرك "ماكسيم تي يرماكوف" في حلمه أن كل بالون يمثل شخصًا ما. كان هناك أيضًا شجرة رأس سنة ممتلئة بزينة سوداء، تبدو كما لو أنها ملطخة تمامًا بالفار. لكن حتى مع ذلك لم يعرف "ماكسيم تي يرماكوف" في حلمه أي شيء عن موت "لوسي" ثم تذكره في لحظة استيقاظه، كأنما كان يعوّض عن الوقت الضائع بسرعة مفاجئة. سأل نفسه قائلاً: "أتساءل، كم من الأيام والشهور ينبغي أن تمر قبل أن يتوافق الواقع مع الحلم؟ عندما أكون نائمًا أشعر كأنني في الماضي، قبل موت "لوسي". لم تصل الأخبار إلى هناك بعد، لكنها تصلني ما إن أفتح عيني، تسقط عليّ وتسحقني، لا تدعني أتنفس، لا تسمح لي حتى بالبكاء".

من الغريب أن يتذكر "ماكسيم تي يرماكوف" محاولته حتى وقت قريب اتخاذ قرار ما بين الزواج بـ"لوسي" أو امرأة أخرى. في الواقع، إن "لوسي" زوجته بالفعل منذ كانت لا تزال تنبؤ في حفازاتها. كان الأمر بأكمله حتميًا. لكن الآن، اللعنة، لم تعد موجودة في العالم.

ذات مرة، عندما استيقظ "ماكسيم تي يرماكوف" لتوه مما أصبح يظنه نومًا وحاول أن يغتسل بماء بارد ينسل من بين أصابعه، رنَّ أحدهم جرس الباب. أمل مجنون. لم لا، كل الأشياء تحدث. جفف نفسه بإهمال بمنشفة متجعدة ثم خرج مسرعًا إلى الصالة. لكنها لم تكن "لوسي" هي من تطرق على الباب، ولم يكن أحد من المستشفى، بل كانت "ليدا" الضخمة، مساعدة "كراب" المخلصة. بدت شبيهة بنجمة هوليوودية زائفة، بنظارتها الداكنة المغطاة بالبخار بفعل الصقيع. قالت بدلًا من إلقاء التحية:

- "ماكسي"، انظر إلى وجهك. هل تنظر في المرأة؟ أم أنك أدمنت الكحوليات بشدة؟ قال "ماكسيم تي يرماكوف" بصوت حزين:  
- لا، لم أفعل. ماذا تريدان؟

أخبرته "ليدا" الضخمة وهي تخلع قفازها الأبيض المتسخ إصبعًا تلو الأخرى:  
- إن الجنازة غدًا، أخبرتك بذلك في التليفون عشر مرات. هل جهزت الأغراض من أجل المشرحة؟ لا، أرى أنك لم تفعل. ربما عليك أن تسمح لي بالدخول.

تنحى "ماكسيم تي يرماكوف" جانبًا في تجهم مرير بينما تقدمت "ليدا" الضخمة إلى الشقة وهي تنزل فراء "المنك" عن كتفها في الطريق. أخذ "ماكسيم تي يرماكوف" معطف الفراء المنقل بالعطر كرها وألقاه على خطاف بالشماعة الطويلة. تلمست الضيفة غير المرغوب فيها فحذبتها الملتفتين ببنتال قماشى ضيق وهي تتجول في الغرف بخطوات متمهلة، حيث تقف أمام أكبر اللوحات وتلمس كل الحلي اللامعة. سار "ماكسيم تي يرماكوف" خلفها بتثاقل وهو يراقب حركات جسدها الثقيل الشبيهة بالأمواج بنظرة ملولة، وهو ما ذكره بحورية بحر ممثلة.

في النهاية، قالت "ليدا" الضخمة بصوت متأمل وبنبرة غل أنثوي واضحة:  
- أجل، شقة جميلة صغيرة، رائع. هل لديك أي مشروبات؟ أجابها "ماكسيم تي يرماكوف" بسرعة قائلًا:  
- لا، فلتنتهي ما جئت للقيام به.

فتح جانب "لوسي" من دولااب الملابس الضخم أمام زائرتها فرفرف بالداخل شيء أبيض، فستان صيف قطني خفيف، ثم تراجع "ماكسيم تي يرماكوف" للخلف مقاطعًا ذراعيه النحيلتين على نحو غير مألوف على صدره. تشممت "ليدا" الضخمة باستياء ورفعت نظارتها الداكنة على جبهتها وبدأت بالعبث في الشماعات غير المتماسكة يمينًا ويسارًا. بين الحين والآخر كانت تخرج قطعة ملابس وتراها في الضوء وتفتحصها بتدقيق حتى إنها تلمس القماش كما لو كانت تنتوي شراءها. عكست النظارة الملتصقة بجبهتها ضوء الثريا. حاول "ماكسيم تي يرماكوف" ألا ينظر، لكنه ظل يرى فساتين "لوسي" الصغيرة؛ ظلت ملابسها الجديدة، التي لا تزال عليها ملصقات المحلات، في حالة جيدة كما لو كانت في المحل؛ لكن الملابس

الأخرى التي ارتدتها من قبل أصبحت فجأة باهتة كما لو أنها كانت مُعلقة هناك دون أي حياة لمائة عام أو أكثر.

قالت "ليدا" الضخمة وهي تمسك بالبذلة المتلبدة المصنوعة من صوف الخراف الرمادي، والتي ذكّرت "ماكسيم تي يرماكوف" بأن "لوسي" لم تكن سعيدة بها وهي تعدل من الأكمام:

- ها هي، أعتقد أنها مناسبة.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" محتجًا:

- لا، ليس هذه، مستحيل!

في تلك اللحظة بالضبط سمع رنين التليفون الممل من مكان ما في أعماق الشقة.

كان التليفون على طاولة المطبخ بين الأكواب المتسخة التي كانت بداخلها بقايا القهوة القديمة كألوان مائية داكنة جافة. ظن "ماكسيم تي يرماكوف" في البداية أنها مكالمة أخرى من المكتب بشأن الجنازة. لكنه كان "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" الذي نسيه "ماكسيم تي يرماكوف" تمامًا.

قال رئيس الحمقى بصوت جنائزي:

- إنني أعرف بأمر فقيدتك، "ماكسيم تيرينتيفيتش"، أرجو منك تقبل خالص عزائي.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يفشل في العثور على سيجارة على الطاولة ما جعله يصطاد عقب سيجارة ملتويًا من المنفضة الممتلئة:

- فلنعد أنني تقبلته. الآن أغرب عن وجهي، إنني مشغول الآن.

أكمل مسخ أمن الدولة بسرعة قائلًا:

- انتظر لحظة يا "ماكسيم تيرينتيفيتش" قبل أن تخبرني بالمكان الذي علي بالذهاب إليه! لدي أخبار مهمة لك؛ أهم حتى من الأحداث الأخيرة. اسمعني فقط.

كان "ماكسيم تي يرماكوف" على وشك تكرار ما قاله بتوجيهات أكثر دقة، كالعنوان الذي على رئيس الحمقى التوجه إليه في الحال، لكنّ هناك شيئًا ما في صوت المسخ جعله يتأهب. نبرة جديدة نادمة واسترضائية. كان من الأفضل أن يضغط عليه ضغطًا ثقيلًا، كان "ماكسيم تي يرماكوف" معتادًا على ذلك.

أشعل "ماكسيم تي يرماكوف" عقب السيجارة فاشتعلت الورقة نصف الفارغة وحرقت لسانه. اللعنة! لا فائدة من الضيق الآن، إن أسوأ ما قد يحدث في حياته قد حدث بالفعل. الآن، بإمكان كل الحمقى أن يغنوا ويرقصوا على السقف ولن يهتم، فقال:

- حسنًا إذا، هات ما لديك.

قال رئيس الحمقى في التليفون بندم:

- "ماكسيم تيرينتيفيتش"، لقد ارتكب قسمنا خطأ استثنائياً. صدقني، مثل تلك الأشياء نادرة الحدوث تماماً. عطل في جهاز غاية في الحساسية. لا يمكنني أن أصف لك بالكلمات مدى أسفي الشديد عن كل ما حدث.

ارتعش "ماكسيم تي يرماكوف" كمختل وقال:

- ماذا تعني؟

ثم دفع برّاد الشاي الصغير عن الطاولة فانفجر على الأرض كقنبلة صينية مستديرة. اندفع الخليط القوي خارجاً منه ككتلة شبه عفنة كالترربة من إناء زهور. لماذا تقدم كل شيء في السن بسرعة في غياب "لوسي"؟ بدأ ستار النافذة كأنما سينمزق لعدة أجزاء، وبدأت الأطباق تبدو كقشر بيض فارغ.

- "ماكسي"، ماذا يحدث؟

ظهرت "ليدا" الضخمة من باب المطبخ حيث أنتت مسرعة بسبب الضجيج. حينها فقط لاحظ "ماكسيم تي يرماكوف" أنها أصبحت أكبر سناً بطريقة ما، كان لديها خيوط عنكبوت إسفنجية من التجاعيد تحت عينيها وشيء ما بدا كصوف قطني بارز من الفجوات المصممة في بنطالها الضيق المحيط بفخذيها المترهلتين. صرخ "ماكسيم تي يرماكوف" في المتنبئة الاجتماعية غير المدعوة قائلاً:

- اغربي عن وجهي، دعيني أتحدث!

تراجعت المرأة في تناقل إلى الطرقة قابضة على حفنة من ملابس "لوسي"، قال في التليفون لمسح أمن الدولة في الذي كان يتنهد بصبر:

- لم أقصدك أنت.

أجابه رئيس الحمقى بهدوء قائلاً:

- أعرف ذلك. حسناً إذا يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"، ما أحاول أن أقوله لك هو هذا، لقد حدث خطأ مروع ومؤسف. اليوم فقط تأكدنا أخيراً أنك لست "الهدف الرئيسي". أجل، لديك بعض الانحرافات النفسية والجسدية عن المعتاد، لكنها ليست مرتبطة على الإطلاق بعلاقات السبب والتأثير التي يتعامل معها قسمنا. باختصار، إنك شخص عادي تماماً، فرد غير مميز على الإطلاق.

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" قائلاً:

- يا للجحيم اللعين!

ثم قفز عن كرسيه المرتعش وانبعث منه خيط طويل من البذاءات التي أتت "ليدا" الضخمة عند سماعها ووقفت في الطرقة شبه المظلمة مجدداً تعلق وجهها نظرة ذهول كسمكة منزعة في مياه عكرة.

بعد التقوه بجميع الشتائم الفظة التي تمكن من العثور عليها، وجد "ماكسيم تي يرماكوف" كوباً على الطاولة يحتوي على سائل متعكر بداخله. ظنه في البداية طبقة من الشاي والسكر فارتشفها كلها على جرعة واحدة.

قال عندما استعاد أنفاسه مجددًا:

- والآن ماذا سيحدث؟ بإمكانكم مضايقة رجل لعام كامل ثم تقولون نحن آسفون وينتهي الأمر عند ذلك؟ ماذا لو كنت قد قتلت نفسي بالفعل؟ من المسؤول أمامي عن ذلك الخطأ المزعوم؟

قال "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" متحولاً لنبرة صوته الجافة المعتادة:

- إنني على استعداد لأن أقدم لك كل اعتذار بإمكانك تخيله. بطبيعة الحال لن يكون ذلك في أي صورة مالية، إن كنت تشير إلى ذلك مجددًا. "ماكسيم تيرينتيفيتش"، إنك رجل ساخر، ألسنت كذلك؟ دعنا إذاً نتحدث بسخرية. لننظر إلى النتائج الحقيقية لما أسميته مضايقة. إن موقفك اليوم أفضل دون شك مما كنت عليه منذ عام مضى. لقد كتبت زوجتك الراحلة وصية تترك لك فيها كل شيء، لقد تحققنا من ذلك من خلال مصادرنا. لقد أصبحت الآن مالك الشقة التي لم يكن بإمكانك شراؤها قط مهما سرفت. تحتوي الشقة على مجموعة لوحات تقدر بنحو مليون وثلاثمائة ألف دولار. لقد كان جد "لودميلا فيكتوروفنا"، الأكاديمي الراحل "تشيبيوتاريوف" جامعًا شغوفًا. لقد جمّع أيضًا عملات، وبالأرقام فإن مجموعة عملاته ذات قيمة تقدّر بخمسمائة ألف دولار أخرى.

ابحث في أرجاء الشقة لترى إن كان بإمكانك العثور على هذه الملكية، من المرجح أن تكون الدفاتر التي تحتوي عليها في غرفة الصالون، أسفل "البوفيه" العتيق المنحوت، تحت المفارش. بالمناسبة، إن "البوفيه" نفسه يقدر بمبلغ كبير لو تم ترميمه كالعديد من قطع الأثاث والأغراض الأخرى. أنت الآن يا "ماكسيم تيرينتيفيتش" أرمل ثري. بجانب أنك في العمل أصبحت اختصاصيًا مهمًا، إنهم متمسكون بالحفاظ عليك لدرجة أنهم قريبًا سيسمحون لك بالسرقة مجددًا. ليس سيئًا على الإطلاق، ألسنت محققًا؟

قال "ماكسيم تي يرماكوف" مزمرًا:

- أجل، أشكرك.

حينها شعر فجأة في روحه بذلك الدفء الخفي الذي شعر به حينما كان يقدر على استخلاص جزء كبير من الميزانية لنفسه. لكنه كان مجرد رد فعل منعكس: تلوثت نفحة الفرح الخادعة بقشعريرة باردة. سأله بضحكة ساخرة لنصاب قبض عليه متلبسًا:

- إذاً فإن الأمر بأكمله على مسؤوليتك، وأنت ترى أن كل شيء على ما يرام؟

أجابه رئيس الحمقى بثقة قائلاً:

- أجل، بالضبط. دعني أذكرك يا "ماكسيم تي يرماكوف" أن علاقات السبب والتأثير هي تخصصي. كمتخصص يمكنني أن أقول إن بالإمكان تتبع كل تلك العلاقات باستخدام تفكيرنا السليم. إنها تبدو لنا فقط كشيء شبيه بأسهم بين دوائر صغيرة تدل على حالات إحصائية للعالم الحقيقي. في الواقع ليس هناك حالات

إحصائية، يوجد فقط حركة، التداخل متعدد الأبعاد لبراعم السببية الحية. باختصار، لولا خطأ قسمنا، لكنت الآن ما زلت عالقاً في شقة مؤجرة، تحلم بادخار ما يكفي لشراء غرفتين في طريق "جاردن" الدائري. حسبما أذكر، فقد طلبت عشرة ملايين دولار. لقد تلقيت أقل من ذلك، تقريباً نصف ما طلبت، لكن في أعماقك لم تكن معتمداً على ذلك كثيراً بالفعل. إذاً فإن الحياة تتحسن يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"! إنك تستحق التهنئة!

صاح "ماكسيم تي يرماكوف" مقاطعاً تفلسف مسخ الدولة وهو يشعر بأن الدموع التي حاول طويلاً أن يذرفها دون جدوى أصبحت فجأة عدوانية:

- ماذا؟ فلنذهب إلى الجحيم بتهانئك أيها الوغد! ألدك أي فكرة عما تقوله أيها الحقير؟

أجاب رئيس الحمقى برقة قائلاً:

- أفهم ذلك، لكن هل تفهم أنت ما سمعته لتوك يا "ماكسيم تيرينتيفيتش"؟

طغى الصمت على "ماكسيم تي يرماكوف" وهو يحملق بثبات في صورة بدت شبيهة بحوض ممتلئ بملابس منقوعة. تصاعدت الدموع كحرائق محتدمة. هناك شيء واحد فقط مهم الآن هو ألا ينتحب على التليفون. كان عليه أن يتخلص من الجميع ويبقى بمفرده.

قال رئيس الحمقى مسرعاً كأنما شعر بإصبع "الهدف الرئيسي" السابق على زر إنهاء المكالمة:

- أعطني نصف دقيقة فقط من وقتك يا "ماكسيم تيرينتيفيتش". لدينا شأن واحد أخير متبقٍ معك. ليس في الغد بالطبع، إن الجنازة مسؤولة مقدسة. لكن بعد غدٍ أرجو منك تسليم سلاحك الخاص. من فضلك تأكد من أنه في المكان المخصص. أتذكر الحادث الذي اتضح فيه أن مسدسك ليس في المكان الذي ظننته؟ أتق بأن ذلك الموقف لن يتكرر. عليك أن تفهم أن قواعدنا صارمة عما يتعلق بمكان الأسلحة.

ودون أن يهتم بالرد، أنهى "ماكسيم تي يرماكوف" المكالمة. لو لم يطلق العنان لدموعه الآن فقد يصاب وجهه بحروق كيماوية كأنما ينفجر حرفياً بفعل التفريغ المتآكل لغدده الدمعية. لسوء حظه لم ترحل "ليدا" الضخمة. ها هي مع الفساتين، حيث تحملها بيديها الاثنتين كالرايات، وقد تلطخت الفساتين ببقع مرتعشة ساخنة ملونة.

رَفَعَت "ليدا" الضخمة سماعة أعلى قليلاً ورفرف شيء أبيض على شيء بني وهو تقول:

- انظر يا "ماكسي"، ربما يصلح هذا، فستان به نقوش لزهور، إنه فستان صيفي بالطبع لكن لن يكون هناك فرق بالنسبة إليها في المقبرة، أليس كذلك؟ ماذا تظن؟ "ماكس"، ماذا بك؟ إنك تبكي! "ماكسي" أيها المسكين.

قال "ماكسيم تي يرماكوف" بمجهود شاق وهو يشعر بالرطوبة المتدفقة تجري على أنفه رغمًا عنه:

- اغربي عن وجهي.

قالت "ليدا" الضخمة ببطء وفتور:

- لا تكن سخيًّا. "ماكسي" ما الذي يمكنني فعله لمواساتك؟

تحركت "ليدا" الضخمة ببطء شديد وعلقت الشماعات ذات الفساتين الملطخة في مكان ما بالباب، وتحركت تجاه "ماكسيم تي يرماكوف" وهي تفك أزرارًا صغيرة بأصابعها الكبيرة البيضاء.

تأرجحت الابتسامة الباهتة على وجهها وتمايلت كمركب أحمر. فجأة، أصبح أنف "ماكسيم تي يرماكوف" في مواجهة حمالة صدرها الحمراء الحريرية ومحتوياتها الممتلئة الرطبة البيضاء.

قال لها "ماكسيم تي يرماكوف" ملتفتًا بعيدًا عنها:

- لا، لا أستطيع.

تنهدت "ليدا" الصغيرة بإحباط قائلة:

- أتقهم ذلك. يا لها من أجهزة غير موثوق بها التي تمتلكونها أيها الرجال. لا تنزعج يا "ماكسي". سوف تصبح بخير، لو لم تكن كذلك اليوم فسيحدث ذلك في وقت آخر. حسنًا، سأخذ ذلك الفستان ذا الزهور، والحذاء الأبيض، لقد وجدته في المدخل. سنقوم بكل شيء بأسلوب ملائم. سأعتني بك غدًا. لا تقلق، لن أتركك بمفردك!

بعد أن قالت ذلك، وضعت "ليدا" الضخمة الفستان المشنوم في حقيبة بلاستيكية وبعد انتظار طويل اتجهت نحو الباب وهي تنظر في كل مرآة في طريقها ليست مغطاة بستار. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" بالعذاب في أثناء انتظارها وهي ترتدي حذاءها ثم تلقي بالفراء على كتفيها بتأنق وتتفخ قبلة جميلة ناحيته كفطيرة وردية. ما إن انغلق الباب من خلفها، التصق "ماكسيم تي يرماكوف" بالحائط مرتعشًا.

كان الحائط مبتلًا كما لو كانت أنابيب مياه الجيران في الطابق العلوي تسرب. لم ير "ماكسيم تي يرماكوف" أي شيء عدا مشكال مشوش يحتوي على ألوان قوس قزح وهو ينلمس طريقه إلى الأريكة التي امتلأت بالمياه أيضًا وبدأت تفوح منها رائحة الكلاب. غرق "ماكسيم تي يرماكوف" في النوم فجأة من إنهاكه الشديد بسبب البكاء.

عندما استيقظ، كان في وقت متأخر من الليل. كانت موسكو تتمتع بغموض خارج النوافذ كبحر مضطرب. كانت ساقه الخدرة كزجاجة مياه فوارة فتحت لتوها، وكان وجهه المتجدد معلقًا ككيس فضفاض مليء بالشوك. حدث شيء ما قبل فقدان "ماكسيم تي يرماكوف" للوعي. لقد اتصل به "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" وأخبره بشيء جيد، شيء مهم.

ماذا كان؟

عن الوصية والميراث الكبير؟ لا، كان ذلك هراء. ما قيمة الميراث وكل تلك الأشياء القيمة، في حين أن كل شيء فسد دون "لوسي"، ليس في اليوم بل في الساعة؟ انظر إلى تلك الصورة المواجهة للأريكة، بالأمس كانت صورة نبيل إسباني كسيح لديه ساقا امرأة وباروكة صغيرة، لكن الآن تشقق الطلاء فبدأ النبيل الإسباني قبيحًا.

نهض "ماكسيم تي يرماكوف" بجهد وسار وهو يعرج على ساقه غير الثابتة عبر صف من اللوحات المتوارثة. كان هذا صحيحًا بالطبع: ليست صورًا، بل أطباق فرن محترقة، حتى الإطارات المطلية بالذهب تقشرت إلى أن أصبحت سوداء. هناك "البوفيه" المنحوت الذي يحتوي على بقايا الأطباق خلف ألواح الزجاج الجانبية الملطخة. أمسك "ماكسيم تي يرماكوف" المقبض ليلقي نظرة على مجموعة العملات الفاخرة، لكن المقبض انتزع من الخشب البالي كسن رجل عجوز. لماذا يزعج نفسه، لا شك أن في هذه اللحظة بالذات كانت العملات في الدفاتر اللزجة تتغطى بقشور سوداء. من المحتمل أن تنفجر الشقة بفعل مساعي بعض الإرهابيين اللعين المرتبكين، في أثناء بحث المتنبئين الاجتماعيين عن "الهدف الرئيسي" الحقيقي. لذا فلا بأس، لم يضايقه ذلك.

ماذا قال رئيس الحمقى أيضًا؟ أن "ماكسيم تي يرماكوف" لم يكن "الهدف الرئيسي" على الإطلاق بل مجرد فرد عادي.

- إذا، أخيرًا سيغربون عن وجهي، ويتوقفون عن تتبع خطواتي في كل مكان وزرع كاميرات المراقبة في أنحاء المكان. ضربة حظ بالنسبة إليّ؟ لا أظن ذلك.

لم يستحق المتنبئون الاجتماعيون أي امتنان من "ماكسيم تي يرماكوف"، وبعيدًا عن أن المتنبئين الاجتماعيين سيظلون في الجوار، فهم سيبتعدون قليلًا لا أكثر، لكن بخبرة "ماكسيم تي يرماكوف" سيتمكن من الشعور بهم. سيرى السيارات الصدئة ذات المحركات المعززة في الشوارع، وسيلاحظ الوجوه الجامدة ذات عظام الفكين المرتفعة من بين الحشود. فكر قائلًا: "لن تذهب إلى أي مكان، هذا المكان ملوث".

ماذا كانت إذًا، تلك العبارة المنقذة، الطريقة المؤكدة لإلغاء جنازة الغد المستحيلة السخيفة ببساطة؟

المسدس.

كان عليه العثور عليه في الحال.

اندفع "ماكسيم تي يرماكوف" إلى غرفة الصالون وأسنانه تصطك. أين وضعته "لوسي"؟ لم يتمكن من أن يسألها حتى وجده وفعل ما كان عليه فعله. دائرة مغلقة، كان ذلك مضحكًا. للحظة ظن "ماكسيم تي يرماكوف" أنه هو و"لوسي" تركا المسدس في شقة "ناتاشا" التي مُحيت تمامًا من ذاكرته بكل شيء احتوت عليه. لا، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، وإلا لكان قد أرسله إليه المتنبئون الاجتماعيين بأنفسهم.

كان ذلك يعني أن المسدس في مكان ما بالمنزل، كان عليه أن يجلس ويفكر. فجأة وبوضوح شديد، رأى "ماكسيم تي يرماكوف" "لوسي" مرتدية "التيشيرت"

المنزلي الفضفاض وهي تفرغ الحقائق الزرقاء وتنقل أكوامًا من الملابس الباهتة في أحد أدراج الدولاب، بينما تتلأل السلسلة الذهبية الصغيرة حول عنقها معلقة على فقرة ناعمة كالحصاة. يا إلهي، كم هذا مؤلم، بعد الشعور بألم كهذا لم يعد أي شيء مخيف.

ها هو الدولاب. نفس نوع الوحش المنحوت كـ"البوفيه". تحولت المشغولات النحاسية إلى اللون الأخضر خلال عدة ساعات. حاول "ماكسيم تي يرماكوف" أن يعرف ما أن كان عليه أن يكسر الأدراج العميقة بألة حادة كانت هي الأخرى نصف متآكلة أم لا، لكن مع أول هزة تجريبية سقطت اللوحة الأمامية لقطعة الأثاث العتيقة وتفتتت إلى عدة أجزاء بالية عند قدمي "ماكسيم تي يرماكوف". كتم "ماكسيم تي يرماكوف" أنفاسه ومدَّ يده في الفتحة. شعر كأنه يحفر في الرماد والفحم في فرن بارد. فليدعُ الرب ألا يكون ذلك "الماكاروف" قد تحول إلى مجرد قطعة حديد صدئة لا تصلح لأي شيء.

ها هو ذا! انتزع "ماكسيم تي يرماكوف" ما كان يبحث عنه من بين البقايا الصدئة. جديد تمامًا، صلب وقوي، تقوح منه رائحة الزيت والحديد الطازج. لم يصبه أي شيء. هل يسلم السلاح؟ بالطبع، وها هي فجوة تأتي معه. ضحك "ماكسيم تي يرماكوف" بانتصار. الآن بما أن كل شيء قد تقرر وأصبح حتميًا، فإن ذلك "الماكاروف" كان الشيء الوحيد في العالم الذي يمتلكه كليًا.

ليس من المرجح أن تكون "لوسي" قد ابتعدت كثيرًا بعد. كانت صدفتها - بذلة الغوص المهلهلة القديمة المصممة للحياة في هذا العالم - ملقاة متجمدة في المشرحة، وكانت هي في مكان ما هنا. لو لم تكن في الشقة فمن المؤكد أنها في مكان ما في موسكو. يُفترض أن الموتى يبقون لعشرة أيام في الأماكن التي كانوا يعيشون فيها، وخمسة فقط قد مروا على الأكثر. شعر "ماكسيم تي يرماكوف" للحظة قصيرة أن بإمكانه استخدام التليفون للاتصال بـ"لوسي". لا يهم، الآن سيفعل كل شيء بصورة سليمة ثم يلحق بها، وحينها سيعيشان معًا. لقد كان شيء جيد أنه لم يكن "الهدف الرئيسي" الحقيقي بعد كل شيء، وإلا لسارت الأمور في الطريق الذي أرادته مسوخ الدولة وحاولت تحقيقه. ربما لم يكن "ماكسيم تي يرماكوف" ليتمكن من تقديم نفسه لهم هدية على طبق من ذهب. لكنه الآن حرًا. أليست هذه مفاجأة للمتنبئين الاجتماعيين! لكن لا بأس بذلك، بعض الألعاب النارية في مؤخراتهم ستكون جيدة لهم.

كان على "ماكسيم تي يرماكوف" معرفة كيف يعمل المسدس. دخل غرفة النوم وأخذ الوسادة من على السرير بحرص حتى لا يتلف الأثر الثمين على الوسادة المجاورة، كان الفراغ بالكاد واضحًا، وبداخله ظل خافت. علق المسدس والتوى بثننج ميكانيكي مما جعله يزن ضعف وزنه. "يا للجحيم، ما المشكلة؟ أها، لا يزال صمام الأمان مغلقًا. الآن أصبح مفتوحًا. أوه، عليّ اللعنة!"

ارتعشت يده تمامًا حتى كتفه، نفثت الوسادة نافورة صغيرة من الزغب ثم سقطت على جانبها. ممتاز، بإمكانه قتل فيل. شعر رأسه بالثمالة بعد الرصاصة ربما

كشعور رؤوس الآخرين بعد تناولهم للكحول. لم يكن ذلك سيئاً، بل كان ممتعاً في الواقع. لو كان ذلك هو الشعور نفسه بعد الرصاصة الحقيقية فلن يمانع "ماكسيم تي يرماكوف" على الإطلاق.

والآن بعض التحضيرات.

كان عليه تبديل ملابسه والحلاقة. فَرَكَ "ماكسيم تي يرماكوف" ذقنه الصديء بكف يده وهو ينظر إلى المرأة الممتلئة بالبقع في الحمام. أجل، لقد كانت "ليدا" الضخمة محقة: من غير الممكن أن يصبح أي وجه أقبح من ذلك. كان يشبه قنفذاً ميتاً. فجأة شعر "ماكسيم تي يرماكوف" برعشة غير دنيوية من أعماق المرأة المتذبذبة حيث تتلاطم وترتفع بتموجات كثيفة. ربما كان عليه اتباع التقاليد ويغطي كل المرايا بقماش؟ لكن من أجل ماذا حقاً؟ ماذا لو ظهرت منها "لوسي" كي تعطيه إشارة ما؟ لكن ما تطلبه "ماكسيم تي يرماكوف" - لثانية واحدة - كي يكون شبهاً لطيفاً لم يكن سوى منشفة رقيقة جفت لتصبح حبلاً ملتويًا معلقاً على خطاف.

حسناً إذاً، حان وقت العمل. ماذا لو سمع أحد الجيران الرصاصة واتصل بالشرطة؛ لو ظهروا فلن يتركوه يجهز لرحلته في سلام. اهتز موس الحلاقة القابل للتغيير والذي لم يبدله منذ مدة طويلة وارتعش كجرافة قديمة، وفي النهاية جرح بشرته في أكثر الأماكن حساسية.

بدت الرغبة الملطخة باللون الوردي ككريمة مخفوقة بالشراب. ربّت "ماكسيم تي يرماكوف" بتعجل على ذقنه الحليق؛ نرف الجرح أسفل الذقن بغزارة، حيث تنائر حشو "ماكسيم تي يرماكوف" كما لو كان فطيرة حلوة تم قضمها. سالت دماء قرمزية هزيلة على تقاحة آدم التي كانت ترتفع وتخفض حتى وصلت إلى ياقة "التيشيرت" المبلل. عند رؤيته لدمه، غرق "ماكسيم تي يرماكوف" في نوبة هلع حيوانية.

كان هذا يحدث حقاً. بعد عدة دقائق لن يكون موجوداً. ترنح "ماكسيم تي يرماكوف" ورأى السقف فوق رأسه مغطى بالكدمات من تسرب عتيق، وأنبوب مياه سميك يتراقص حوله البعوض، أو ربما يتخيل كل ذلك؟

بطريقة ما تمكن من الوصول إلى الأريكة، دخن خمس أو ست سجائر لا طعم لها واحدة تلو الأخرى وهدأ قليلاً. لم يكن هناك حل آخر، ليس بإمكانه البقاء هنا بعد كل شيء. لن يكون الأمر أكثر رعباً من القفز من فوق جسر في الليل. هناك على الجانب الآخر كان الجد، "فاليرا" على الأرجح متحمساً وهو يجهز لاستقباله. لذا كان عليه الإسراع. ومن مكانه، وقعت عينا "ماكسيم تي يرماكوف" بالصدفة على تليفونه. تذكر الآن أنه في رأس السنة الجديدة عندما كانت السماء بأكملها عبارة عن انفجار متألئ من الأضواء الملونة، وكانت "لوسي" الحامل تلتهم جانب كيك شوكولاتة بشرارة، أصبح عاطفياً وسط سعادته وأراد فجأة أن يتصل بوالديه في المدينة الصغيرة القديمة. لم يتمكن من الاتصال حينها ولن يتمكن من الاتصال الآن. لذا فلم يتمكن من أن يسامح أباه وأمه على حياتهما المتلعثمة التعيسة.

- "مارينكا"، أينما تكونين الآن، سامحيني ولا تظني بي ظناً سيئاً. "ساشا"، أيتها الراهبة العزيزة ذات النمش الذهبي، صلي من أجلي، ربما يمكنك إصلاح الأمر.

بعد فترة قصيرة، ارتدى "ماكسيم تي يرماكوف" قميصاً أبيض نظيفاً هزياً كورقة وجلس على أكبر كرسي ذي مسندين في الشقة ذي جلد مزخرف ومطلي بالذهب، كرسي لم يجلس عليه من قبل، ولو لمرة واحدة.

كان المسدس الثقيل والذي تفوح منه رائحة البارود جاهزاً أيضاً. يا له من أمر غريب ذلك الذي سيفعله. حقاً - تصوب مسدساً على نفسك. كان ذلك مربكاً، باليسرى أم اليمنى، سيعطيك إحساساً كأنك تركب بالعكس في سيارة عتيقة. نظر "ماكسيم تي يرماكوف" بفضول إلى الفجوة المستديرة السوداء الصغيرة.

- مرحباً، أي جزء ستصيبين؟ لا أفضل الرأس، لقد كان المتنبئون الاجتماعيون مصرين للغاية على ذلك.

حاول ضغط الفوهة على ضلوعه المتوترة القلقة، التي يقع خلفها قلبه المتواثب - ثقيلًا، حيًا، أخرق. لا، ربما ليس هكذا، ماذا لو لم تُصبه مباشرة؟ سيجرون له عملية ويعيدونه للحياة ويأخذون المسدس وما الذي سيفعله حينها، يشنق نفسه برباط حذائه؟ حسنًا، كان بحاجة إلى التفكير للحظة، ليلتقط أنفاسه. أشعل "ماكسيم تي يرماكوف" سيجارة أخرى وبدأ له السجارة المعتادة محشوة بالخشب. فكر مخاطبًا "الماكاروف": "حسنًا يا صديقي، ربما عليك تدخين سيجارة أيضًا، سيبدو ذلك جيدًا. حسنًا، لنجرب في الفم كما في الأفلام. اللعنة، إن الحديد قاسٍ للغاية - مزلعًا ومستديرًا والطعم أيضًا كالدّم المرّ سلفًا".

حاول إدخال المسدس أعمق في فمه بعض الشيء وكاد يتقيأ. لا، هذه الطريقة ليست جيدة.

استقر "ماكسيم تي يرماكوف" على الكرسي بصورة أكثر راحة، واضعًا مرفقيه على ركبتيه وجبهته الممتلئة بالتجاعيد أمام الفوهة، كما لو أنه أراد أن يثبت أنه أكثر عنادًا من المسدس.

عدّ الرقم لثلاثة.

كان هناك اصطدام واهتزاز وقفز "ماكسيم تي يرماكوف" للخلف مبتعدًا عن نفسه، ككرة بلياردو مرتدة عن الجانب بعد ضربة من العصا. حاول مجتهدًا في ثمالة أن يتحكم في نفسه. سار بعدم توازن حتى منتصف الغرفة ورأى الجسد الذي تركه خلفه يسقط ببطء عن الكرسي ذي المسندين على السجاد. أصبح الرأس ذو الطلقة المخترقة له أثقل بوضوح - حيث خصلة من الشعر ملتصقة بمخرج الرصاصة كرقاقة خشبية - وممتلئة بمادة رخوة داكنة، وفي الخلف ظهرت بوضوح وسط الشعر بقعة صلعاء لم يعرف عنها "ماكسيم تي يرماكوف" أي شيء في حياته.

في هذه الأثناء، أصبح كل شيء من حوله قابلاً للنفاز من خلاله، تكوّن كل شيء من حبيبات ورقع من طاقة حارقة؛ وكتجربة، مر "ماكسيم تي يرماكوف" من خلال "البوفيه" وعاد مجددًا. وشعر كأنه استحم بماء ساخن. سأل الفراغ سؤالًا وتلقى

الإجابة بأن "لوسي" مشغولة الآن، لكنها ستكون متاحة قريبًا. لكن أين الجد "فاليرا"؟ عندما جاءت سيرة القط! ها هو ذا الرجل العجوز يتحرك بجانب الصور السوداء ويتسلق الحائط كفجوة في سور.

- حسنًا يا "ماكسيمكا"، كان ذلك فعلاً مجنونًا بحق. لقد خدعك هؤلاء المتنبئون الاجتماعيون ولا شك في ذلك. حسنًا، لا يمكن إصلاح ذلك الآن. تعال معي إليها الأحمق.

لم يكونا في شارع "لوبيانكا"، بل في جزء مختلف تمامًا من موسكو. شارع غير مميز على الإطلاق وغير لافت للأنظار. يوجد مكتب في مبنى رقم 17 ذي السطح المستوى وتعبير الملل على نوافذه. من المرجح أن أثار المكتب يعود تاريخه إلى السبعينيات: أصبح قماش الكراسي غائمًا وزينياً، والتوى سطح المكتب كلوح غسل وهناك عدة بقع على أماكن مختلفة. باستثناء الكرسي الجلدي المعقد، الذي بدا ككرسي طبيب أسنان، بدا وكأنه من عصر آخر تمامًا، وبه الكثير من الدعامات القابلة للتعديل التي تحمل أدوات ذات أغراض غامضة ومسند ذراع عريض شبيه بإطارات السيارة، يحمل تصميمًا مريحًا للوحة مفاتيح حسية واضحة. جلس على الكرسي الكائن المعروف لـ "ماكسيم تي يرماكوف" باسم "سيرجي يفجينيفيتش كرافتسوف" ورئيس الحمقى أيضًا، ملتفًا بثوب أسود. كان يقف وراء ظهره، كما في مكتب أي مدير، العلم الروسي ملتفًا بثيابا مبلجة، على الرغم من أن الألوان الثلاثة لهذا العلم كانت ساطعة بغيرابة ومضيئة لدرجة أنها تركت خطوطًا متعرجة مؤلمة زئبقية أسفل الجفنين. أعلى العلم، حيث صورة الرئيس كما هو الحال في مكتب أي مدير، هنا أيضًا يوجد إطار نموذجي بالشكل والحجم الأساسي. لكن لم يكن هناك أي شيء خلف الزجاج بداخل الإطار: مجرد قطعة ورق مقوى رمادية ذات طبقة رقيقة مخملية من الغبار ورقعة خشنة ذات لون بني مائل إلى الأسود.

ارتفع رأس رئيس الحمقى من غفوته العميقة بسبب صوت رنين حاد. إنه صوت باب المدخل، والذي بدا كشريحة واهية من لوح خشبي منكمش في الحائط كاشفًا على الأقل عن خمسة سنتيمترات من الحديد المضلع المحشو. دخل الشخص الذي أطلق عليه "ماكسيم تي يرماكوف" اسم "المشوش" وهو يسوي الخصلات الجافة على رأسه عديم الشكل. منذ لقائه الأول والأخير مع "الهدف" في مكتب "كراب"، تغير "المشوش" كثيرًا: كان رأسه مغطى بتورم غريب، كبقايا الورقة التي تم لصقها بالصمغ ثم نزعها مجددًا. أصبحت الخصلات الموجودة على قمة رأسه شفافة تمامًا ونبت له شارب بدا كهيكل سمكة صغيرة فوق شفته العليا.

انحنى رئيس الحمقى للأمام، وتحرك الكرسي تحته من مكانه بمرونة فيلم رسوم متحركة حيث بدا كأنه سيعيد تجميع نفسه مجددًا باستخدام مكوناته السوداء كالفحم، ثم قال:

- أه، "فيكتور نيكولايفيتش"، تسعدني رؤيتك، مرحبًا بك. حسنًا، كيف أحوال عملنا في "نوفوسيبيرسك"؟

أجابته "المشوش" وهو يمد يداً تجاه رئيسه بدت وكأن بها أصابع أكثر من المعتاد قائلاً:

- تسير بسلاسة تقريباً.

رداً عليه، أخرج الرئيس يده المكون نصفها من الثلج، من بين ثنايا الثوب. كانت المصافحة بين هذين الاثنين شبيهة باقتران حشرتين من كوكبين مختلفين.

قال "المشوش" وهو يجلس على كرسي سوفيتي أرجله مثبتة بعناد فوق الأرض:  
- سمعت أن كل شيء نجح هنا أيضاً في النهاية.

قال "الجنين" وهو يمسح عينيه الغائرتين والحرماوين كالبثور:

- نعم، في النهاية. حدثت التصفية في الليلة السابقة. لم نواجه كل هذه المتاعب مع أحد "الأهداف" من قبل كما حدث مع هذا الشخص "يرماكوف".

علق "المشوش" بحذر قائلاً:

- لقد خاطرت يا "سيرجي يفجينيفيتش"، هل كان من المستحسن إخبار "الهدف" بخطئنا المزعوم؟

أجابته الرئيس بثقة:

- بالطبع، كان من الضروري إزالة الحاجز الذي غلّف عقل "الهدف" ضد تدخلنا المباشر. كان عليه الشعور بالحرية لاتخاذ القرار الضروري بنفسه. يمكنك إلقاء نظرة على التسجيلات لاحقاً، بالمناسبة، الملفات موجودة على الكمبيوتر الخاص بك.

ظل المتنبئون الاجتماعيون صامتين للحظة. في الخارج كان الثلج يتساقط بكثافة. ارتفعت أضواء نهائية في أماكن متعددة، والمباني في الجوار تشبه الظلال الرمادية على حائط أبيض ضخم. كان يوم الشتاء شبيهاً بالضبط باليوم الذي ذهب فيه الرجلان الجالسان في المكتب لمقابلة "ماكسيم تي يرماكوف". كما لو أن سنة كاملة لم تقع ولم يوجد ذلك الشخص. كان العالم دون "ماكسيم تي يرماكوف" مدفوناً على نحو غير مناسب في كفن هادئ. خفتت أصوات موسكو الكثيفة حتى أصبحت بالكاد همسة مسموعة، وبطريقة ما، كان واضحاً أن لا شيء سيحدث اليوم.

قال "المشوش" منهياً الصمت كما لو كان يسعل في قبضته:

- إنني فقط لا أعلم الكثير عن الانفجار الأخير في موسكو، بناءً على تنبؤاتنا، لم يكن ينبغي أن يكون هناك أي هجمات إرهابية على مترو أنفاق موسكو لأربعة أشهر أخرى. كما أن زوجة "الهدف" لم تكن متضمنة في ذلك.

قال "كرافتسوف" مؤكداً باستياء:

- أجل، لقد نظمنا ذلك الحادث. يمكنك أن تقول إننا عجلنا بالولادة المبكرة. لكن هل كان هناك أي خيارات أخرى لدينا؟ يمكنك إخباري؟ لو كنا أجّلنا الأمر لأسبوعين

آخرين، كانت نصف "بترسبرج" ستتدمر. أعرف أننا خالفنا القواعد. انحراف بنسبة واحد ونصف الواحد بالمائة من الضحايا من سهم التوجيه الثامن والثلاثين. قال "المشوش" وهو يأخذ منديلاً جافاً من جيبه وينظف به أنفه بصوت يشبه صفحة تُقَطَع بحدّة من كتاب:

- واحد ونصف الواحد بالمائة ليس بالكثير. اعذرني يا "سيرجي يفجينيفيتش"، لقد أصبت بالبرد في "نوفوسيبيرسك".  
قال الرئيس بوعظ:

- ينبغي عليّ أنا وأنت على وجه الخصوص الاهتمام بصحتنا، بسبب عوامل المخاطرة التي نواجهها. بالمناسبة، أعرف مثلك أن واحداً ونصف الواحد بالمائة سيتسبب في عدم توازن بعد نحو عشرة أعوام. لكنه الحد الأدنى من المخالفات، التي لولاها لما تمكنا من حل المشكلة. أتظنني لا أشعر بالذنب من أجل الفتاة الحمقاء؟ تسرعت بالزواج بذلك الشخص المسمى "يرماكوف"، حين أن أي شخص لديه أدنى درجات الذكاء يبتعد عنه تماماً. كانت تقوح منه رائحة الخطر! وكانت الرائحة كريهة ونفاذة كمستودع قمامة. كي أكون صريحاً، لقد ضقت ذرعاً به خلال سنة.  
اعترف "المشوش" بتفكير، وهو يداعب شاربه الغريب بأصابعه:

- لكن أتعرف، سوف أفتقده. بسبب اهتمامي الشخصي قمت بإدخال معلوماته في برامج التباين الجديدة. أتعرف ماذا وجدت؟ باختلافات معينة في قيم القاعدة الرابعة والقاعدة الثامنة، كان من الممكن أن يصبح بطلاً في نظر الاتحاد السوفيتي.  
قال الرئيس متجهماً:

- كل ما يهمني أنه كان مجرد فرد عادي لعين. على كل حال، كلانا يعرف أنه في وقت الحرب فإن الأشخاص الطيبين هم من يُقتلون في الحال، والأوغاد هم من يقومون بالأعمال البطولية والفوز بالميداليات. على أي حال، لقد قمنا بعملنا. ربما نكون غششنا قليلاً، لكنها كانت الطريقة الوحيدة. يمكنني أخذ إجازة أخيراً، لم أحصل على واحدة منذ أربعة أعوام.

- إلى أين ستذهب يا "سيرجي يفجينيفيتش"؟ إلى بحر دافئ؟ إلى مصر أم تايلاند؟  
قال الرئيس متنهداً بحزن:

- لا، بل إلى عائلتي في "سيفيرودفينسك"، إن أمي مريضة للغاية، قد لا نرى بعضنا بعضاً مجدداً.

نهض "المشوش" عن كرسيه ثم وضع منديله في جيب بنطال عميق يصل تقريباً إلى ركبتيه وقال:

- حسناً يا "سيرجي يفجينيفيتش"، رحلة آمنة وأتمنى أن تتحسن حالة والدتك. سأجز بعض العمل، لقد تكدس عليّ.  
نصحه رئيس الحمقى مودعاً:

- اذهب الآن، ولا تنسَ أن تتصل بالوحدة الطبية لاحقاً. لو طرأ أي شيء يمكنك الاتصال بي ليلاً أو نهاراً. قم بتنزيل الأكواد الجديدة في القسم التقني. تحرك الرجل، الذي لم يعد أحد يشير إليه باسم "المشوش" إلى الباب بكتفيه المحنيتين، ومن هناك ألقى نظرة خاطفة على المكتب ذي الإضاءة الخافتة. كان رئيس الحمقى غافياً مجدداً، وكان خده يرتعش. في هذه الأثناء، أعلاه، في الفراغ المؤطر بالصورة، كان هناك شيء يحاول التكثف، والرقعة البنية المائلة للأسود الآن تداخلت مع خطوط خارجية لشعر أشعث وعظام خدين مبتسمة بحيوية أمام جمهور الناخبين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

**(تمت بحمد الله وتوفيقه)**

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



# متميزون للكتب النصية



**لينك الانضمام الى الجروب - Group Link**

**لينك القتاة - Link**